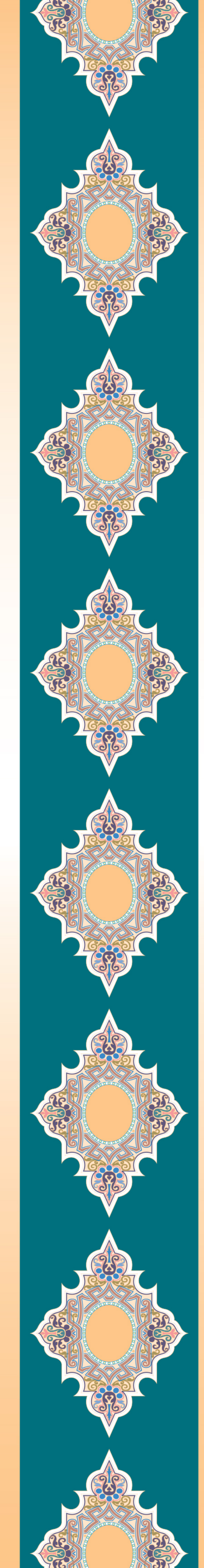




وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية



أساليب الخطاب في القرآن الكريم

دراسة تتناول

تنوع أساليب الخطاب وأساليب الإنشاء الطلبي
في القرآن الكريم

الأمر والنهي والاستفهام والسؤال والدعاء والتمني
والترجي والعرض والتحضيض والنداء

تأليف
الدكتور/ عبد القادر محمد المعتصم دهمان

المجلد الأول

الإصدار
مائة وأحد عشر
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

أصل هذا الكتاب أطروحة جامعيّة قُدّمت لنيل شهادة الدكتوراه في علوم القرآن من جامعة الجنان. (شعبان ١٤٣٢هـ - يوليو ٢٠١١ م)

أساليب الخطاب في القرآن الكريم



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

أسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م



AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

دولة الكويت - في مطلع كل شهر عربي



الطبعة الأولى

الإصدار مائة وأحد عشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

العنوان

ص.ب ٢٣٦٦٧

الصفاة ١٣٠٩٧ - الكويت

هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ - ١٨٤٤٠٤٤

فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

البريد الإلكتروني

info@alwaei.com

الموقع الإلكتروني

www.alwaei.gov.kw

الإشراف العام:

رئيس التحرير

فيصل يوسف أحمد العلي





وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية

أَسَالِيبُ الخِطَابِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

دِرَاسَة تَتَنَاوَلُ

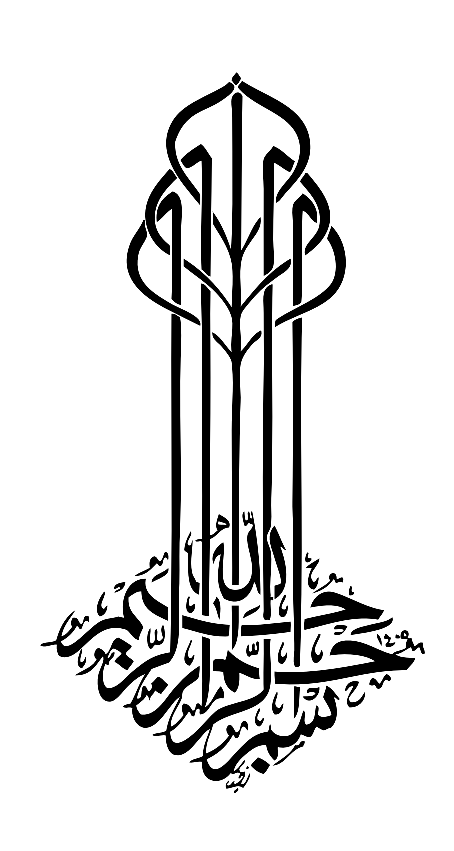
تَنَوُّعَ أَسَالِيبِ الخِطَابِ وَأَسَالِيبِ الإِنْشَاءِ الطَّلَبِيِّ
فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

الأَمْر وَالنَّهْي وَالاسْتِفْهَام وَالسُّؤَال وَالدُّعَاء وَالتَّمَنِّي
وَالتَّرَجِّي وَالعَرْض وَالتَّحْضِيض وَالنِّدَاء

تَأْلِيفُ
الدكتور/ عبد القادر محمد المعتصم دهمان

المُجَلَّدُ الأَوَّلُ

الإصدار
مائة وأحد عشر
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م



تصدير

بقلم رئيس تحرير مجلة الوعي الإسلامي

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب تبصرة لأولي الألباب، وأودعه من فنون العلوم والحكم العَجب العُجاب، وجعله أجلّ الكتب قدراً، وأغزرها علماً، وأعذبها نظماً، وأبلغها في الخطاب.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ربّ الأرباب، الذي عنت لقيّوميّته الوجوه وخضعت لعظمته الرّقاب، وأشهد أنّ سيّدنا محمداً عبده ورسوله المبعوث من أكرم الشّعوب وأشرف الشّعاب إلى خير أمّة بأفضل كتاب، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم المآب.

ثم أما بعد:

فإنّ العلم بحر زخّار لا يدرك له من قرار، وطود شامخ لا يسلك إلى قمته ولا يصار، من أراد السّبيل إلى استقصائه لم يبلغ إلى ذلك وصولاً، ومن رام الوصول إلى إحصائه لم يجد إلى ذلك سبيلاً.

وإنّ كتاب الله ﷻ هو مفجّر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء، وأبان فيه كل

هدي وغيّ فترى كلّ ذي فنّ منه يستمد وعليه يعتمد، فالفقيه يستنبط منه الأحكام ويستخرج الحلال والحرام، والنّحويّ يبني منه قواعد إعرابه ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه، والبيانيّ يهتدي به إلى حسن النّظام ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام، وفيه من القصص والأخبار ما يذكّر أولي الأبصار، ومن المواعظ والأمثال ما يزدجر به أولو الفكر والاعتبار، إلى غير ذلك من علوم لا يقدر قدرها إلا من علم حصرها، هذا مع فصاحة لفظ وبلاغة أسلوب تبهر العقول، وتسلب القلوب، وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلا علام الغيوب.

لذلك كله كان القرآن الكريم موضع العناية الكبرى من الرسول ﷺ وصحابته، ومن سلف الأمة وخلفها جميعاً إلى يومنا هذا.

وقد اتّخذت هذه العناية أشكالاً مختلفة، ومن هذه الأشكال ما قام به الباحث الدكتور/ **عبد القادر دهمان** -حفظه الله- حيث اهتم الباحث بجمع أساليب القرآن الكريم؛ في كتاب نفيس أسماه: «أساليب الخطاب في القرآن الكريم».

هذا، وقد دأبت مجلة الوعي الإسلامي- كعادتها - على انتقاء المواضيع والأبحاث العلميّة القيّمة لتكون من ضمن إصداراتها الثقافية والعلمية الرائدة، فكان هذا البحث هو إصدارها الذي يحمل رقم (١١١) ليُضاف إلى سلسلة إصداراتها العلمية.

و«**مجلة الوعي الإسلاميّ**» إذ تقدّم هذا الإصدار، فإنها تتوجه بخالص الشكر والتقدير للمؤلف على جهوده الواضحة في خدمة هذا الكتاب، ولجميع من ساهم وأعان على إصدار، سائلة الله ﷻ أن يجعل فيها النفع والفائدة للجميع.

والحمد لله رب العالمين

رئيس التحرير

فيصل يوسف أحمد العلي



مُقَدِّمَة

الحمدُ لله الخالق البارئ المصوِّر له الأسماء الحسنى، عالم الغيب والشهادة الرَّحمن الرَّحيم، ليس كمثله شيء وهو السَّميع البصير، غافر الذَّنب وقابل التَّوب شديدِ العقاب ذي الطَّول لا إله إلا هو إليه المصير.

الحمدُ لله ذي العظمةِ والجلال، المتَّصف بصفات الكمال، والـمُنزَّه عن الشُّركاء والنُّظراء والأمثال، والمولي على خلقه النِّعم السَّابغة الجلال، وقد أمرهم بما فيه خيرٌ لهم وصلاحُ حال، نستعينه سبحانه ونستغفره من قبيحِ الأقوال، وسيئِ الأفعال.

وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، العارف بجلال ربِّه عز وجل، والمغفور له ما تقدَّم من ذنبه، الدَّاعي إلى أصحِّ الأقوال، وأسدِّ الأفعال، يحلُّ الطَّيبات ويحرِّمُ الخبائث، وعلى آله وصحبه، خير صحب وآل، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم.

أما بعد:

فأقول: إنَّ أهميَّة الإحاطة بأساليب الخطاب في القرآن الكريم عمومًا تكمن في أنَّه يخاطبُ النَّفسَ البشريَّة من كلِّ مداخلها، يخاطبُ الإنسانَ ويكرِّمُهُ، ففيه التَّنوع في توجيه الخطاب بما يتلاءمُ مع حالِ المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- أو مكانته، أو للدِّلالة على مكانة المخاطِب-بكسر الطاء المهملة-، كما أنَّ فيه الأمرَ والنَّهيَ والاستفهامَ

والعرضَ والتَّرجي والتَّمني والنَّفيَ والدُّعاءَ والنِّداء...إلخ. وفيه: التَّوجيهُ والتَّعليمُ والتَّشخيصُ والقِصَّةُ والعبرةُ، والآيةُ الكونيَّةُ والحُجَّةُ والدَّليلُ والإقناعُ والإعجازُ.. يدخلُ قلبَ المؤمن حتَّى يتمكَّنَ منه، ويزيدَه إيمانًا وطَاعَةً.

كما يتبيَّنُ أنَّ الأسلوبَ القرآني المباشرَ يتميَّزُ بأنَّه عميقُ التَّأثير، يلامسُ الأحاسيسَ الإنسانيَّة، ويثيرُ الأفكارَ العقليَّة، فيؤسِّسُ فيها القَنَاعَة..

كما أنَّه يتلاءمُ مع الواقع، حيثُ يتنوَّعُ الخطاب من حيثُ النُّـزولُ، ويتدرَّج في تَشْرِيعِ الأحكامَ للمكلَّفين بما يتلاءمُ مع حالهم واستجابتهم، فإنَّ وجوه المخاطَبات فيها: التَّوافقُ التَّامُّ مع المقام ومقتضى الحال كما في الخطابِ المكيِّ والخطاب المدنيِّ، وكما في خطاب أهل الكتاب...إلى غير ذلك..

ولا يحتاجُ المرءُ لكثيرِ تدبُّرٍ ليلحظَ ذلك التَّنوع. وقد تبيَّنَ من دراسةِ هذه النُّصوصِ أنَّ هذا التَّنوعَ لا يجري عبثًا، بل إنَّه يأتي دائمًا بحيثُ يعبِّرُ بأقصى درجاتِ الدِّقةِ، وبحساسيَّةٍ بالغَةٍ عن تغيُّر المعنى المراد تبعًا للمواقفِ والموضوعات والمخاطَبين، وبما يليقُ بجلالِ ربوبيَّة الله عز وجل، وبما يناسبُ قَدْرَ المخاطِب-بكسر الطاء المهملة- عز وجل أو المخاطَبين المكلَّفين، كما أنَّ التَّنوعَ يتلاءمُ مع مقتضياتِ المعاني والألفاظ، ومع طبيعةِ المخاطَبين، ومكانة المخاطِب. وفي التَّعرفِ على أساليبِ الخطاب القرآني تذوُّقٌ لروعةِ أسلوبه، وتأدُّبٌ به، فهو التَّأدُّب بأسمى آدابِ الخطاب..، وفيه: الإحساسُ والشُّعورُ بمدى

قربِ المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- ﷻ من المخاطَبين، وما أشدَّ حاجة المخاطَب إلى ذلك..كما أنَّ فيه من المقاصد ما حرصت على بيانه عَقِب كلِّ صيغة أو مبحث..

وقد تناولتُ كذلك وجوهَ المخاطَبات الأخرى التي تتنوَّع باختلاف المخاطِب أو الخطابِ نَفْسِه.

وحرصتُ منذُ البدايةِ على الإحاطةِ بموضوعاتِ الرِّسالةِ، وإحكامِ المنهج، وبيانِ سلسلةِ حلقاته، من المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- ﷻ إلى المخاطَبين، وذلك من خلالِ التَّعرفِ على أساليبِ الخطاب وتنوُّعِهِ، ومقاصدِ التَّنوع والحِكَم.

ثمَّ التزمتُ ترتيبَ الموضوعاتِ، والانتقالَ من الأعمِّ منها إلى الأخصِّ، فالأخص.

كما أنَّني التزمتُ ترتيبَ الآياتِ القرآنيَّة، وسردَ النماذجِ والأمثلةِ على حسب التَّرتيب المصحفي، وكذلك التزمتُ ترتيب مادَّةِ الألفاظِ على حَسَبِ التَّرتيبِ المصحفي.

أمَّا ما خَرَجَ من صِيَغِ الخطابِ عن معناها الأصليِّ فقد التزمت ترتيبَ ذلك أبجديًّا.

ونداءاتُ الرُّسل - مثلا - من مبحث (النداء) التزمت في ذلك الترتيب الزَّمني.. والموضوعات من الأعم إلى الأخص.

أمَّا التَّرتيبُ بين موضوعاتِ الفصل، فقد التزمتُ ما أمكن إظهارَ المناسبة بين السَّابق واللاحقِ من الموضوعات، وعلى سبيلِ المثالِ فقد بيَّنتُ في

مقدِّمة الفصل الأوَّل المنهجيةَ في تقسيم (وجوه المخاطَبات).

وقد اعتمدتُ على استقصاءِ (أساليبِ الخطاب) في القرآنِ كلِّه وحصرِها وترتيبِها ما أمكن، وبذلتُ في سبيل ذلك جهدا لم يكن الغرضُ منه زيادةَ حجمِ المصنَّف، وإنَّما إحكامَ المنهج، ولم أكن بدعا في ذلك، بل هو سبيل قد سلكه كثيرٌ من المتقدِّمين، وبعض المحقِّقين من المتأخِّرين..

كما أنَّني في كثيرٍ من الأحيانِ أقرِّرُ قاعدةً أو مصطلحًا ثمَّ أبحثُ له عن توثيق، ومع ذلك فلا تخلو تلك الأقوالُ من التَّرتيبِ أو المناقشة أو التَّرجيح إن كنتُ أرى في ذلك ترجيحًا.

فليس الأمر مجرَّدَ جمعٍ وحشدٍ لأقوال، وإنما هو منهجٌ ومناقشةٌ وتوثيقٌ وتقرير.

وقد أغفلتْ الدِّراساتُ السَّابقة الكثيرَ من صيغِ الخطاب، والَّتي فيها الخطابُ المباشر بإحدى صيغه، أو الَّتي فيها مواجهةٌ بين المخاطِب والمخاطَب كمبحث: (الإنشاء الطَّلبي في القرآن)، وهو من صيغِ الخطاب القرآني المباشر، وكذلك تنوُّعُ أساليبِ الخطاب لم تأتِ بتمامها مبيَّنةً ومرتَّبةً في أيِّ مصنَّفٍ فيما ذكروه من وجوه المخاطَبات، وإنما ذكر بعضُها متفرِّقًا، وفي مباحثَ مختلفة، كما أنَّه جاءَ مُجْمَلا ومقتضبًا، وعلى منهجٍ واحد، مع ما فيها من معنى المواجهة، والتَّنوعِ والحِكَم ما يجعل ذلك حريًّا بأن يكونَ ضمنَ ما يتعلَّق بأساليبِ الخطاب القرآني.

وكذلك فإنَّ صيغَ الإنشاءِ الطَّلبي، والَّتي هي أَظْهَرُ صيغِ الخطابِ

المباشر، لم يكن لها من حظٍّ أن تذكرَ في كتب علوم القرآن مندرجةً تحت (تنوُّع أساليبِ وجوه المخاطَبات) عند المتقدِّمين، وكذلك من تبعهم من المتأخِّرينَ، وأن تجمع تحتَ مظلَّةٍ تجمعُ صيغ الخطاب القرآني المباشر، أو أساليبَ الخطاب القرآني، وإنَّما أتى بها الباحثونَ في علوم القرآن متفرِّقةً. .وهو أيضًا من أسباب اختيار العنوان (أساليبُ الخطابِ في القرآن بين المخاطِب والمكلَّف) كمَظَلَّةٍ وعنوانٍ لكلِّ ما ذكر.

وسيجد الباحثُ طرحًا جديدًا وفريدًا وعميقًا في موضوعات الرِّسالة، كالأمر والنَّهي والدُّعاء -من حيث كونه من الإنشاء الطَّلبي- وكذلك التَّمني والتَّرجي. .إلخ.

وقد كانت عنايةٌ خاصَّةٌ بمبحثِ النِّداء في القرآن الكريم، في ترتيبه وتناسقه وموضوعاته من حيثُ ذكرُ أداةِ النِّداءِ المستخدمة في القرآن الكريم، والمنادَى، وما ولي المنادَى. والمنهجيَّة وتقسيم الموضوعات .

وقد حرصتُ أن أضعَ في كلِّ فصلٍ ومَبْحَثٍ ومَطْلَبٍ خلاصةً إجماليَّة.

ولا يخفى أثر التَّنوُّع بالنِّسبة للمخاطَب الَّذي يتدبَّرُ الخطاب القرآني ويتأمَّلُه، حيثُ يدرك طبيعةَ الخطابِ وأهميَّة تنوُّعِهِ. فإنَّ مطلق الخطاب لا يخلو: إمَّا أن يكون بين الخالق والمخلوق، وقد يكون المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- هو الله ﷻ، وقد يكون المخاطِب هو المخلوق، وقد يكون من المخلوق إلى المخلوق. فإذا كان المخاطِب هو الله ﷻ، فإنَّه يدلُّ على الرِّفعة والعظمة، وعلى البون الشَّاسع بينه وبين المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- من حيث الصِّفات. . .وإذا كان من المخلوق إلى الخالق ﷻ كيف

ينبغي أن يكون؟ وإذا كان من المخلوق إلى المخلوق كيف ينبغي أن يكون؟

وكفى بالخطابِ القرآني منهجًا يتعلَّمُ منه المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- أَدَبَ الخطاب مع الخالق ﷻ، وطريقة مخاطبة المخلوق للمخلوق بما يتلاءمُ مع مكانة المخاطِب.

ومن ذلك على سبيل المثال: (الأدب في مخاطبة الله ﷻ) حيث يصِفُه بما يليقُ به من صفاتِ العظمة، ويصف المخاطَب حاله من الضَّعف والانكسار بما يتلاءم مع حاجته إلى المخاطِب تعالى، وبما يتلاءم مع ما مَنَّ المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- عليه وأسبغَ من النِّعم، حيث يكون الطَّلب من المخاطَب (المخلوق) إلى المخاطِب (الخالق) مقرونًا بالشُّكر والرِّضا. وإذا كان من المخاطِب كان محفِّزًا للمخاطَب على الامتثال.

وهي دارسةٌ تحليليَّةٌ شاملة من نزول الخطاب إلى بيان أساليبه وأثره في المخاطَبين.

وأضفت إضافات سمعتها من العلامة الأستاذ الدكتور إبراهيم عبدالرحمن خليفة -أستاذ ورئيس قسم التفسير بجامعة الأزهر في القاهرة-.

د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان

الباحث في إدارة مساجد محافظة الفروانية

الكويت المحروسة

كلمة شكر وتقدير

يقول النبي ﷺ: «**لاَ يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ**» ومن هنا لا يفوتني أن أشكر كلًّا من فضيلة الشيخ فيصل العلي الذي أسهم في إخراج هذه الرسالة إلى النور، كما أشكر فضيلة الأخ الشيخ ضياء الدين الطش (أبو حيان) حفظهما الله تعالى، سائلًا المولى ﷻ أن يحفظهما وأن يجري الخير على أيديهما، وأن ينفع بهما، وأن يجعل ذلك في صحيفة عملهما.

وأمَّا ما تتضمَّنه مقدِّمة الرِّسالة فبيانه على النَّحو التَّالي:

أوَّلا: **مقدِّمة التَّعريف بالموضوع**

ثانيا: **أهميَّة الموضوع**

ثالثا: **مشكلة الدِّراسة**

رابعا: **أسباب اختيار الموضوع**

خامسا: **الدِّراسات السَّابقة**

سادسا: **توطئةٌ للتَّعريف بمخططِ البحث**

سابعا: **منهج البحث**

ثامنا: **الصُّعوبات الَّتي واجهتني**

أوَّلاً: مقدِّمة التَّعريف بالموضوع

لا بدَّ في البداية من التَّفريق بين مفهومين للخطاب القرآني:

الأوَّل: الخطاب القرآني بمعنى كلِّ القرآن الكريم، وهو المعنى الأعمُّ.

الثَّاني: الخطاب بمعنى ما فيه من مواجهةٍ بين المخاطِب، وهو الله ﷻ، والمكلَّف أو المخاطَب، وهو الخطابُ بالمعنى الأخص.

وقد ذكر الزَّمخشريُّ الخطاب بهذا المعنى حيث قال: «خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام»[١].

وإنَّ جوهر الموضوع الَّذي أتناوله هو ما يتعلَّق بالخطاب من حيث معناه الأخصُّ الَّذي هو المواجهة بالكلام بين المخاطِب والمخاطَب، وما يتَّصل به.

وإنَّ إدراك مفهوم الخطاب القرآني من حيث معناه الأخص لا بدَّ من التَّمهيد له، وذلك من خلال التَّعرف على الخطاب القرآني من حيث معناه الأعم، وذلك للاعتبارات التَّالية:

أ- إنَّ الموضوع يتناولُ الخطابَ من المخاطِب ﷻ إلى المخاطَب.

ب- عدم صلاحية انفكاكِ الأخصِّ عن الأعمِّ في الموضوعات التَّمهيديَّة الأولى.

(١) أساس البلاغة، مادَّة: (خطب) (ص: ١١٤).

ج- لأنَّ الأخصَّ يندرج ضمن الأعمِّ في المباحث التَّمهيدية الأولى.

فكان التَّمهيد طريقًا موصلا إلى المقصود أو إلى جوهر الموضوع، ويتخلَّله محطَّاتٌ هي من الخطاب بمعناه الأخص، فلذلك كلِّه كان التَّمهيد أمرا يزيد البحث تكاملًا..كما أنَّه يزيل ما قد يخفى من المصطلحات المستخدمة في هذا المجال.

يبدأ التَّمهيد بالتَّعرف على مصطلحات البحث، والرُّجوع بالخطاب إلى المخاطِب، ثمَّ الانتقال إلى نزول الخطاب، وما يتعلَّق به من بيانٍ، وتعريف للمخاطِب الـمُنَزِّل، وبيان معنى النُّـزول، وكيفيته، وسببه، والمنَـزَّل عليه أو مُبَلِّغ الخطاب، وصيغ مخاطبة الرَّسول ﷺ، وكذلك أثرُ بشريَّةِ الرَّسول ﷺ في قضيَّةِ الأسوةِ وتفعيلِ الخطاب، وذلك في سلسلةٍ من الحلقاتِ المترابطة والمتدرِّجة .

وهي دارسةٌ تحليليَّةٌ شاملة من نزول الخطاب وما يتعلَّق به إلى أساليب الخطاب القرآني وتنوُّعه، مع سرد النَّماذج من علاقة الخطاب القرآني بالمخاطَبين، إلى أثره فيهم.

أمَّا توضيح (المعنى الاصطلاحي) لهذا المفهوم فتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ ما أُنزلَ إلى المخاطَبين من آيات الذكر الحكيم أعمُّ من أن يكون فيه مواجهةٌ بالكلام بين المخاطِب والمخاطَبين، وهو الخطاب العامُّ، أو هو القرآن من أوَّله إلى آخره، وما فيه مواجهة بين المخاطِب والمكلَّف أخصُّ، وهي جوهر هذا البحث .

ولا أَغْفِلُ الخطاب القرآني من حيث معناه الأعمُّ؛ لأنَّه يخدم جوهر الموضوع، ويُمَهِّدُ للمقصود، كما يندرجُ ما هو من الأخصِّ ضمن مباحثه...

ولكنَّ التَّركيز والاهتمام إنما هو على الخطاب القرآني من حيث معناه الأخصُّ الَّذي فيه مواجهة، وهو الفلك الَّذي تدور حوله سائرُ الموضوعات، وسرد النَّماذج التَّطبيقيَّة لعلاقة الخطاب بالمخاطَبين من توجيه الخطاب، وبيان صيغ الخطاب القرآني من حيث تنوُّعها، ودارسة وتحليل صيغ الطَّلب في الخطاب القرآني مع بيان أقوال المفسِّرين في ذلك، وتناول آراء الباحثين في علوم القرآن مع الزَّيادة أو التَّعقيب بما يخدم الموضوع، وبيان المقاصد والفوائد والنَّتائج.

والإشارة في أوَّل الأمر إلى ما يتعلَّق بالمصطلحات، والجديد في هذه الدِّراسة، فإنَّ أوَّل ما يلاحظ أنَّ من الخطاب الأعمِّ ما يتَّفق مع الأخصِّ من وجه -غير كونه قرآنًا منزَّلا- فقد ذكر الزَّركشيُّ في (البرهان)[1]، والسُّيوطيُّ في (الإتقان)[2]، ومن تبعهما من الباحثين -على سبيل المثال- ما يندرج تحت أوجه الخطاب: (خطاب التَّهكم)، وهو الاستهزاء بالمخاطَب، واستدلُّوا له بقول الله عز وجل: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩].

ولا خلاف أنَّه يندرج تحت مفهومِ الخطاب بمعناه الأخص الَّذي

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢١٧) فما بعد..

(٢) انظر: الإتقان (٢/ ٨٨) فما بعد.

فيه مواجهة بين المخاطِب والمخاطَب، وذكروا أيضًا عقب ذلك مباشرةً قولَ اللهِ عز وجل: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤٣-٤٤]، وهو من الخطاب بمعناه الأعم، وهو كونه قرآنًا منَزَّلا للمخاطَبين، فهو هنا خبرٌ وليس إنشاءً، ولكنَّ معنى التَّهكم واضحٌ في الخبرِ، وهو ما يجعله يتَّفق مع الخطاب الأخصِّ من هذا الوجه؛ لأنَّ الظِّل إنما يُستَظلُّ به اتِّقاءَ حرِّ الشَّمس، ولكنَّ المعنى المراد هنا: أنَّه ليس باردًا كسائر الظِّلال، ولا دافعًا أذى الحرِّ عمن يأوي إليه.

❁ ❁ ❁

ثانيًا: أهميَّة الموضوع

يمكنُ تحديدُ بعضِ النِّقاط التي تدلُّ على أهمية الموضوع، وذلك من محورين:

الأوَّل: **أهميَّة موضوع البحث بالنِّسبة للعلم** -أعني التَّفسير وعلوم القرآن- فذلك لأنَّه يجمع المتفرِّقاتِ تحتَ مظلَّةٍ واحدة، وفيه تحقيقٌ لكثير من المسائل، ومن ذلك:

١- بيانُ كيفيَّةِ وصولِ الخطابِ إلى المخاطَبين ضمنَ سلسلةٍ من الحلقاتِ المترابطة.

٢- التَّعرفُ على أساليبِ الخطاب وتنوُّعِه، ومقاصد التَّنوع والحِكَم.

وسيأتي بيانُ الطَّرحِ الجديد في هذا الموضوع، وما يدلُّ على تميُّزِه عن بعض ما كتب في جزئيَّاته.

الثَّاني: أهميَّته بالنِّسبة للمكلَّف: وبيان ذلك أنَّ الخطابَ إنَّما أُنْزِلَ للمخاطَبين لحاجتهم إليه، وليكونَ له أثرٌ في فكرهم ينعكسُ على أعمالهم وسلوكهم، وأيضًا لما فيه من التَّكليف الَّذي يتحدَّد على ضوء إمكانيات المكلَّف ووسعه، وفيه شكرُ المنعم على نعمه بالطَّريقة الصَّحيحة الَّتي شرعها العالمُ بأحوالِ المكلَّفينَ، وقيامُ المكلَّف بحقِّ الخالقِ على النَّحو الَّذي يرتضيه الخالق، وفيه تحديد لمفهوم الحُسْنِ

والقُبْحِ، وفيه أيضًا إزالةٌ للمنكر، وإقامةٌ للحدود، وذلك بتشريع العقوبات الشَّرعيَّة على من اقترف الجرائم الموجبة لها، وفي ذلك حياة للإنسان، ولولا ذلك لاختلف المكلَّفون باختلاف تفكيرهم، واختلاف البلدان والأعراف والتَّقاليد.

هذا كلُّه بالنَّظر إلى عموم الخطاب..أمَّا النَّظر إلى ما كان فيه معنى المواجهة فهو بالإضافة إلى ما سبق وسيلةٌ من وسائل الاتِّصال الَّتي لا يستغني المخاطَب عنها.

كما أنَّ التَّعرف على أساليب الخطاب القرآني فيه تذوُّقٌ لروعة أسلوبه، وتأدُّبٌ به، فهو التَّأدُّب بأسمى آداب الخطاب..، وفيه الإحساس والشُّعور بمدى قربِ المخاطِب من المخاطَبين..وما أشدَّ حاجة المخاطَب إلى ذلك.. كما أنَّ فيه من المقاصد ما فيه ممَّا سيأتي بيانه عَقِب كلِّ صيغة أو مبحث.

❊ ❊ ❊

ثالثًا: مشكلة الدِّراسة

وأهْدِف من خلال هذه الدِّراسة إلى الإجابة عن السُّؤال الآتي: ما هو الخطاب الَّذي فيه مواجهةٌ بين المخاطِب والمكلَّف أو المخاطَب؟ ومن هو المخاطِب؟ وكيف وصل إلى المخاطَبين؟ وما هي أساليب الخطاب القرآني المباشر؟ وما فائدة العلم بذلك؟

ويتفرَّع عن ذلك الأسئلة الآتية:

١ - هل لهذه الدِّراسة مصطلحات خاصَّة؟ وهل استخدمت هذه المصطلحات في الدِّراسات السَّابقة؟ وما الَّذي تتميَّز به من حيث الطَّرح والمنهجيَّة والتَّرتيب؟

٢ - ويتفرَّع عن بيان (مصطلحات البحث) السؤالُ التَّالي: ما الفرق بين الخطاب بمعناه الأعم، والخطاب بمعناه الأخص أو (الخطاب الَّذي فيه مواجهة)؟

٣ - ما الفرق بين الخطاب بمعناه الأخص المستخدم هنا، والخطاب عند الأصوليين أو الفقهاء؟

٤ - ما محور البحث الَّذي تدورُ حوله سائرُ موضوعات الرِّسالة؟ ما الَّذي أُعْنَى هنا بتحليله والاهتمام به؟

٥- ما فائدة التَّمهيد لذلك من حيث ذكر الخطاب بمعناه الأعم؟

٦ - ما أهميَّة التَّعرف على صفات المخاطِب بالنِّسبة للمخاطَبين؟ وكيف نزل الخطاب القرآني؟ وهل لذلك من صلةٍ بمحور البحث؟

٧ - كيف بُلِّغ الخطابُ إلى المخاطَبين؟ وما أهميَّةُ التَّعرف على صفات المبلِّغ بالنِّسبة إلى المخاطَبين، وما هي صيغ المخاطَبة بين المخاطِب والمبلِّغ؟ وما أثر بشريَّة المُبَلِّغ في تفعيل الخطاب وقبوله؟

٨ - هل لمعرفة زمن النُّـزول من أثر في تنوُّع أساليب الخطاب؟ وكيف ينعكسُ على المخاطَبين؟

٩ - هل من الممكن أن يجدَ الباحثُ في (التَّفسير وعلوم القرآن) ما يرجوه من البيان الَّذي يُعَرِّفه على تنوُّعِ أساليب الخطاب؟ وما مدى العناية باستخلاص ذلك من النَّظر في آيات القرآن الكريم؟ وهل وثِّقت أوجهُ الدِّلالة من كتب (التَّفسير وعلوم القرآن)؟ وما مدى استخدام العلوم المساعدة في خدمة موضوعات البحث؟ وما الجديد في ذلك؟

١٠ - كيف رُتِّبت هذه الأساليب مع ما يُعلم من تنوُّعها وكثرتها؟ وما الجديدُ الَّذي قد اعتمد في ترتيبِ هذه الأساليب؟ وكيفَ رُتِّبت النَّماذجُ والأمثلة فيها..

١١ - ما هو سبب الاهتمام بمبحث الأمر والنَّهي والاستفهام والدُّعاء والسؤال والتَّمني؟ وبعبارة أخرى: ما سبب الاهتمام بموضوعات الإنشاء الطَّلبي في القرآن؟ وما صلة ذلك بموضوع البحث؟ وما هي

صيغُ كلٍّ منها؟ وهل تخرج هذه الصِّيغ عن معناها؟ وما السَّبب في ذلك؟ وما علاقة ذلك بالمكلَّفين؟ وما الَّذي يستفاد من كلِّ صيغة؟

١٢ - ما هو سبب الاهتمام بمبحث النِّداء في القرآن؟ وما الَّذي قد استخدم من حروف النِّداء؟ وما هو السَّبب في هذا الاستخدام؟ وما فائدة ذلك؟ وما الَّذي ولي المنادَى في الخطاب؟ وما هي المقاصد العامَّة من ذلك؟

١٣ - ما هي المقاصد من تنوُّع صيغ وأساليب الخطاب؟ وما أثرُ الخطاب في المخاطَبين؟

١٤ - بيانُ وجهِ التَّرابط والصِّلة بين هذه الموضوعات، وكيفَ تندرجُ تحت العنوان العامِّ لهذه الدِّراسة؟

رابعًا: أسباب اختيار الموضوع

بالإضافة إلى ما سبق في الأهميَّة فإنَّ من أسباب اختيار هذه الموضوع ما يأتي:

١ - أنَّه جاء متفرِّقًا ضمن مباحث مختلفة في علوم القرآن الكريم، والعلوم الأخرى المساعدة.

٢ - أنَّ المصطلحات في ذلك ليست واضحةً على النَّحو الَّذي بيَّنته.

٣ - أنَّ التَّرتيب والمنهجيَّة لم يختلف من كاتبٍ لآخر إلا من حيثُ التَّحليل.

مثال ذلك: ما جاء من بيان وجوه المخاطبات في (البرهان في علوم القرآن)(١)، وفي (الإتقان)(٢)، من المتقدِّمين. وفي (مقدمة لدراسة القرآن)(٣)، وكذلك كتاب (دراسات في القرآن الكريم)(٤) من المتأخِّرين، حيث سار المتأخِّرونَ على ما سارَ عليه سلفُهم حذوَ القُذَّة بالقُذَّة(٥).

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢١٧).

(٢) انظر: الإتقان (٢/ ٨٨).

(٣) (مقدِّمة لدراسة القرآن الكريم)، للأستاذ الدُّكتور: منيع عبد الحليم محمود، أستاذ التَّفسير وعلوم القرآن، بكليَّة أصول الدِّين، في (جامعة الأزهر) بالقاهرة، وعميد الكليَّة حاليًا.

(٤) (دراسات في القرآن الكريم)، للدُّكتور محمد إبراهيم الحفناوي، مدرِّسُ أصول الفقه بكليَّة الشَّريعة والقانون، في (جامعة الأزهر) بالقاهرة.

(٥) بالذال معجمة: ريش السهم، وجمعها: قُذَذٌ، أي: مثلاً بمثل: يضرب في التسوية بين الشيئين، ومثله: (حذو النعل بالنعل).

٤ - على الرَّغم من عناية الباحثين بعرض وجوه الخطاب إلا أنَّ المناسبةَ بين هذه الوجوه غيرُ واضحةٍ من حيثُ سردها كاملةً تحت عنوان واحد.

٥ - الحاجةُ الملحَّةُ إلى وجود دارسةٍ تأصيليَّةٍ في هذا الموضوع، وذلك أنَّ جوهره يتَّصل بالمباحث اللَّفظية الخاصَّةِ، وهي من أسلوب القرآن الكريم الَّتي لها ما لها من الفوائدِ والمقاصد من حيث تنوُّعها ودلالاتها، والَّتي لولاها لخفيَ الكثيرُ من المعاني .

٦ - أغفلتْ الدِّراساتُ السَّابقة الكثيرَ من صيغِ الخطاب، والَّتي فيها الخطاب المباشر بإحدى صيغه، أو الَّتي فيها مواجهة بين المخاطِب والمخاطَب كمبحث النِّداء، وهو من صيغِ الخطاب القرآني المباشر، وكذلك صيغُ الطَّلب الأخرى، فلم يأتِ لذلك ذكرٌ فيما ذكروه من وجوه المخاطَبات، وإنما ذكر متفرِّقا، وفي مباحث مختلفة، كما جاء مُجْمَلًا ومقتضبًا، وعلى منهجٍ واحد، مع ما فيها من معنى المواجهة، والتَّنوع والحِكَم ما يجعل ذلك حريًّا بأن يكونَ ضمن ما يتعلَّق بأساليبِ الخطاب القرآني.

وكذلك صيغُ الخطابِ الأخرى كصيغِ الأمرِ والنَّهي..، والَّتي فيها أيضا مواجهةٌ بين المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- والمخاطَب -بفتح الطاء المهملة- لم يكن لها من حظٍّ أن تذكرَ في كتب علوم القرآن مندرجة تحت (تنوُّع أساليبِ ووجوه المخاطَبات) عند المتقدِّمين،

وكذلك من تبعهم من المتأخِّرينَ، أو قُلْ: تحتَ مظلَّةٍ تجمعُ صيغ الخطاب القرآني المباشر، أو أساليب الخطاب القرآني، وإِنَّما أتى بها الباحثونَ في علوم القرآن متفرِّقة..وهو أيضًا من أسباب اختيار (أساليبُ الخطابِ في القرآن) كمَظَلَّةٍ وعنوانٍ لكلٍّ ما ذكر .

وذلك كلُّه دفعني إلى التَّصدي لدراسة هذا الموضوع ونظمه في دراسةٍ متناسقةٍ ومتكاملة.

❊ ❊ ❊

خامسًا: الدِّراساتُ السَّابقةُ والطَّرح الجديدُ في الموضوع

الجديدُ في هذا الطَّرحِ أنَّه طَرْحٌ متكاملٌ يرجع بالخطاب إلى أصوله، وإلى كيفيَّة اتِّصاله مع المخاطَبين، وإلى بيان الخطابِ نفسه، ولعلَّ ما كُتِبَ في هذا المجال يقتصر على بيان أحدِ جوانب الموضوع، أو أكثر من جانب، ولكنَّني لم أجد صياغةً متكاملةً -حتَّى تاريخ إعداد هذه الدِّراسة- على التَّرتيب المتَّبع في هذا البحث.

وإن كان هناك من الدِّراسات المتفرِّقة لبعض موضوعات الرِّسالة حيث ذكر الزَّركشيُّ مثلا في كتابه (البرهان في علوم القرآن)[١]: (وجوه المخاطبات في القرآن الكريم) لكنَّها أَتتْ متفرِّقة، وضمن مباحثَ متنوِّعة في علوم القرآن -كما أسلفت-، وكذلك السُّيوطيُّ في (الإتقان)[٢] ذكر وجوه المخاطَبَاتِ مختصرةً ومتفرِّقة، وهي أيضًا ضمن مباحث متنوِّعة في علوم القرآن، وكذلك من كَتَبَ في علوم القرآن من المتأخرِّينَ كالدُّكتور منيع عبد الحليم محمود في كتابه: (مقدِّمة لدراسة القرآن)، وقد سارَ فيما كتبه على النَّحو الَّذي سار عليه المتقدِّمون -كما سبق-.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢١٧).
(٢) الإتقان (٢/ ٨٨).

وقد خالفتُ طريقةَ المتقدِّمين ومن تبعهم من حيثُ التَّرتيب والمنهجية، وإضافة موضوعاتٍ جديدة تزيدُ الموضوعَ تكاملًا وتناسقًا.

ولا أُبَرِّئُ نفسي من التَّقصير والخلل والنقص.

(وَتَخلُّلُ الفَتَراتِ لِلْعَزمَاتِ أَمْـــرٌ لازِم لِطَبِيْعَةِ الإِنْسَانِ)
(وَتَولُّدُ النُّقْصانِ مِن فَتَراتِهِ أَولَيْسَ سَائِرُنَا بَنِي النُّقْصَانِ)[1].

❊ ❊ ❊

(وَظُنَّ بِهِ خَيْرا وَسَامِحْ نَسِيجَهُ بالإِغْضاءِ وَالْحُسْنَى وَإِنْ كانَ هَلْهَلا)
(وَإِنْ كانَ خَرْقٌ فَأدرِكْهُ بِفَضْلَةٍ مِنَ الْحِلْمِ ولْيُصْلِحْهُ مَنْ جادَ مِقْوَلا)[2].

❊ ❊ ❊

---

(١) الكافية الشَّافية في الانتصار للفرقة النَّاجية، البيت رقم [٤٢٠٨- ٤٢٠٩]، (ص:٣٠٣)، توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة ابن القيِّم، أحمد بن إبراهيم بن عيسى (٢/ ٣٨٠).

(٢) حرز الأماني ووجه التَّهاني في القراءات السَّبع (ص:١٥).

سادسًا: توطئةٌ للتَّعريف بمخططِ البحث

إنَّ موضوعات البحث تستدعي أوَّل ما تستدعي التَّعرف على المخاطِب عز وجل، وذلك من خلال توضيح (مفهوم الألوهيَّة).

ومن هنا فإنَّ التَّمهيد لما يتعلَّق بالخطاب في القرآن الكريم يرجعُ إلى الإله، فإن الفرق بين صفات الخالق، وبين صفات الإنسانِ المخلوق عظيم، ولا يملكُ الإنسانُ من تلك الصِّفات إلا ظلالا وأوهامًا إنْ دلَّتْ فإنَّما تدلُّ على عجْزِه وضعفه.

ومع أنَّ الإنسان لا يملكُ من هذه الصِّفات إلا ما ذُكِر، فإنَّ هذه الصِّفات من شأنها إذا وجدتْ في الإنسانِ أن تنسيه حقيقة نفسه في كثيرٍ من الأحيان، فيتوهَّمُ أنَّه القَويُّ أو صاحبُ الملكِ الموروث الَّذي لا يصلحُ له غيره.

ومع أنَّ الفرقَ شاسعٌ بين صفاتِ الخالقِ والمخلوق فقد مدَّ الخالق -جلَّ وعلا - جسورَ الصِّلة مع هذا المـخلوق الضَّعيف، فأنزل له كتابًا فيه الخطاب الَّذي يتضمَّن التَّوجيه والإرشاد والآداب والأمر والنَّهي وغير ذلك، فكان في ذلك الخطاب الخيرُ والصَّلاح لهذا المخلوق. وجعل المسافة بينه وبين هذا المخلوق لا تتقطَّع دونها الأعناق، فكان قريبًا من المخلوق إذا دعاه المخلوق أجابه. قال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى

وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦].

وإن كنتُ أتعرَّض للتَّعريف بالمخاطِب بإيجاز وإجمال، لا بتفصيلٍ وإطنابٍ يُخْرجُ البحثَ عن المقصود منه، كما أنَّني أتجنَّب الاختلافاتِ في هذا المجال ما أمكن، لكونه مقدِّمة وتأسيسا لغيره...

وبعد التَّعرُّف على المخاطِب أتعرَّضُ لبيان الواسطة بين المخاطَب ومبلِّغ الخطاب، ثمَّ لبيان نزول القرآن الكريم لما له من الصِّلة الوثيقةِ بالموضوع.

فإذا ما تجاوزتُ مبحثَ النزول اشتاقتْ النَّفسُ إلى معرفة الشَّخص المؤهَّل لحمل هذه الرِّسالة، وهذا الخطاب إلى البشر، فلا بدَّ من الدَّليل والهادي الَّذي يدلُّ على الإله ويعرِّفُ به، ويُبيِّن للنَّاس ما نُزِّل إليهم من الخطاب، ويبيِّن فائدةَ الرِّسالة الَّتي يحملها.

ويلاحظ أنَّ ما جاء في التَّمهيد من الخطاب بمعناه الأعم في غالبه، وذلك للتَّفريق بينه وبين الخطاب من حيث معناه الأخص -كما قد اصطلح على ذلك هنا-، وللتَّأسيس لما سيأتي في صلبِ الموضوع.

وما جاء في صلب الموضوع يلاحظ أنَّه من الخطاب بمعناه الأخص في غالبه، من بيان أساليب الخطاب، وصيغ المخاطبة، والعلاقة بين الخطاب والمخاطَبين، وأثره فيهم. وإن أتى للخطاب من حيثُ معناه الأعمُّ ذكرٌ فهو بما يخدم الموضوع، وذلك من حيث التَّحليل واستيفاء ما له به صلة، أو للتَّمهيد له، ولم يأتِ غالباً إلا مندرجًا تحتَ مظلَّة الأخص.

ففي التَّمهيد يصدق على غالبه ما يتضمَّنه مصطلح الخطاب القرآني بمعناه الأعم، وهو لفظ القرآن بعمومه، وذلك لكونه تأسيسًا لما بعده، كما أنَّه يتضمَّنُ محاورَ للخطاب بمعناه الأخص لا يمكن انفكاكها عنه، ثمَّ أنتقلُ بعد ذلك إلى الخطاب من حيث معناه الأخص حتَّى يصل بنا تدرجُ الموضوعاتِ إلى التَّعرف على الخطاب، وتنوُّعه ومقاصده..

ويندرجُ تحت مفهوم الخطاب القرآني من المخاطِب إلى المخاطَب حلقاتٌ متتابعة من مُنَـزِّله إلى نزوله وما يتعلَّق به.

وذلك التَّدرج يبدأ من التعرُّف على المخاطِب إلى التَّعرف على الخطاب نفسه من حيثُ ما يتعلَّق بنـزوله وصفته وتناسق ألفاظه وأسلوبه، وطرقه وأدواته، ووجوه مخاطباته، وتنوُّع أساليب الخطاب.

وهي حلقاتٌ تتشابكُ كلٌّ واحدةٍ في رباطٍ وثيقٍ مع الأخرى، فكلَّما قطع الإنسانُ شوطًا من المعرفة في تجاوزِ حلقةٍ من هذه الحلقات اشتاقتْ نفسُه إلى الأخرى، حتَّى تتكاملَ جوانب البحث فيه، وكأنَّ هذه الحلقات في ترابطها وحدةٌ متكاملة لا يستغني الباحث في هذا المجال بحلقةٍ عن الأخرى، فإذا ما تجاوزت أصلَ الخطاب فلا بدَّ من معرفة كيفية الاتِّصال مع هذا الإله الخالق المنعم، وفهم كلامه وخطابه عز وجل، وذلك من خلال التَّعرف على صيغِ توجيه الخطابِ من المخاطِب إلى المخاطَبين...

ولأنَّ الملكات الإنسانية من العقل والتَّجربة نسبيَّةٌ، وما لا يستقلُّ العقلُ بمعرفته وإدراكه لا بدَّ أن نلتمسه في وحي الله عز وجل؛ فلذلك

يتبيَّن لكلِّ متأمِّلٍ مدى أهميَّة هذا اللُّون من ألوان الخطاب المباشر، ومدى حاجة المخاطَبين إليه.

فإذا تَمَهَّد ذلك احتجنا إلى معرفة العلاقة بين الخطابِ والمخاطَبين، وتذوُّق المخاطَبين روعة ما في أساليبه من التَّنوُّعِ، وبيان أنَّها تتلاءمُ مع العقولِ المتفاوتة من حيث البعد عن الغموضِ والتَّعقيد، وتشرقُ في النَّفسِ مهما كان مستوى المخاطَب وثقافته.

كما أنَّ الخطاب يجعل الصِّلة مع المخاطَب محدَّدة المعالم، وهو ممَّا يدعم الاتِّصال مع المخاطِب. فإذا تمهَّد ذلك فإنَّ المخاطَب يتطلَّع إلى التَّعرف على أساليبِ الخطابِ القرآني من حيثُ تنوُّعه ومقاصده؛ ليتذوَّق ما فيه الإحكام والمعاني والبلاغة، وليتأدَّبَ بآدابه.

❊ ❊ ❊

سابعًا: منهج البحث

أ- المصطلحات:

تفسيرُ الغامضِ من مصطلحاتِ البحث، والمصطلحات ذاتِ الصِّلة.

ب- المسائل والموضوعات:

١- تقسيم الموضوع إلى فصولٍ ومباحث. وتقسيم المباحث إلى مطالب فضلًا عن مقدِّمةٍ تتضمَّن أهميَّة الموضوع، وأسباب اختياره، والدِّراسات السَّابقة، ومخطَّط الدِّراسة، وطريقة البحث، وتمهيدًا مطوَّلا للتَّأسيس لموضوعاتِ البحث والدَّراسة، وخاتمة تتضمَّن المقاصد، ونتائج البحث.

٢- عرضُ الفكرةِ وتحليلها تحليلًا علميًّا موضوعيًّا.

٣- بيانُ وعرضُ أساليبِ الخطاب القرآني، وتوثيقُ ما يذكر من دلالات ألفاظ الخطاب.

٤- بيانُ مناهج المفسِّرين عند أهل السُّنة والجماعة في توضيح الآيات، والاعتماد في ذلك على أمَّهاتِ كتب التَّفسير المعتمدة.

٥- ذكرُ ما يترجَّحُ من الأقوال المختلف فيها إن كنتُ أرى في ذلك ترجيحًا يعتمد على قوَّة الاستدلال والحجَّة.

٦- ذكرُ أوضح الأدلَّة من مختلف المصادر الشَّرعيَّة والعلميَّة والتَّاريخيَّة الَّتي تؤيِّدُ ما يندرج من الموضوعات تحت العنوان العام، وأن تكون

المصادر أصليَّة في الموضوع ما أمكن ذلك، وتوفَّرت المراجع.

ج- المنهجيَّةُ والتَّرتيب:

١- أمَّا بالنِّسبة للتَّرتيب والمنهجيَّة بالنِّسبة للآيات القرآنية، فقد التزمت ترتيبها على حسب التَّرتيب المصحفي إلا ما كان من الأشباه والنظائر فإني أذكره مع نظيره، أو كان نقلًا لقول من الأقوال من غير تصرُّفٍ فإني أنقله كما هو..

٢- أمَّا ترتيب الموضوعات فقد التزمت في ذلك التَّرابط بين الفصول، والانتقال من الأعمِّ منها إلى الأخصِّ، فالأخص.

فإنَّ الفصل الأوَّل (تنوُّع وجوه المخاطَبات في القرآن الكريم) هو أكثر عمومًا من الفصل الثَّاني (أساليب الطَّلب في الخطاب القرآني)، والفصل الثَّاني أكثر عمومًا من الفصل الثَّالث (النِّداء في القرآن)، ويجمعُ بين الفصول الثَّلاثة كونها من الخطاب من حيثُ معناه الأخص الَّذي قد اصطلحَ عليه في هذه الدِّراسة، ولا يمنع ذلك من اندراج الأعمِّ في مظلَّةِ الأخصِّ.

٣- أمَّا التَّرتيب بين موضوعات الفصل، فقد التزمت ما أمكن إظهار المناسبة بين السَّابق واللاحق من الموضوعات، وعلى سبيل المثال فقد بيَّنتُ في مقدِّمة الفصل الأوَّل المنهجية في تقسيم (وجوه المخاطَبات).

٤- أمَّا ترتيب ما خرجَ من الصِّيغ عن معناه الأصليِّ إلى معانٍ أخرى

فإنِّي ألتزمُ ترتيبها ترتيبا أبجديًّا، وأن تكون النَّماذج على حسب التَّرتيب المصحفي.

٥- وحيث إنَّ الأصل في موضوع البحث: استقصاءُ مواضع الصِّيغ -أعني صيغ الخطاب المباشر، أو ما فيه مواجهة - وترتيبها منهجيًّا فإنَّ ما خرج عن الاستقصاء فقد يكون لأغراض ظاهرة ككثرة هذه الصِّيغ مع وضوح النَّظائر. وعلى سبيل المثال: الخطاب بضمير المخاطَب (أنتَ)، أو بضمير المخاطَب (التاء)... .فإنَّه يُكتَفى بذكر نماذج من أوائل السور يقاس عليها غيرها.

كما تجدرُ الإشارة إلى أنَّ المنهجيَّة في التَّرتيب بين السَّابق واللاحق، أو المتقدِّم والمتأخِّر قد تختلفُ في جزئيَّات فصلٍ عن فصلٍ آخر أو مبحثٍ عن مبحث آخر، بما يكون أكثر ملائمة له، ولذلك فإنَّ مثل هذه المنهجيَّة الخاصَّة يأتي بيانها في مقدِّمة ذلك الفصل أو المبحث....

د- العزوُ والإحالةُ والتَّخريج:

١ - إذا كنتُ بصددِ تفسيرِ آيةٍ، وتكرَّرت الآيةُ ولو في أكثر من صفحة فإنِّي أكتفي بذكر السُّورة ورقم الآية في الموضع الأوَّل.

٢- ألتزمُ ذكر كتب التَّفسير بما قد اشتهرَ من اسم كتاب التَّفسير، أو اسم المفسِّر، أو واحدٍ منهما إن كانت الشُّهرة لهما معا.

٣ - ألتزمُ ذكر مادَّة كلِّ لفظٍ من المعاجم المعتمدة في الحاشية، مع ذكر

الجزء ورقم الصَّفحة.

٤ - وأمَّا تخريج الأحاديث النَّبويَّة فيكون تخريجها على النَّحو التَّالي:

إذا كان الحديث في الصَّحيحين، فإني أقتصر عليهما في التَّخريج، وإن كان في أحدهما دون الآخر، فإني أخرجه منه وأكتفي. وأمَّا إذا لم يكن الحديث موجودًا في الصَّحيحين أو أحدهما فإنِّي أسعى جاهدًا إلى تخريجه من كتبِ السُّننِ الأخرى على التَّرتيب..أبو داود فالتَّرمذي فالنَّسائي فابن ماجة...فإن لم أجده في الكتب السَّابقة أرجعُ إلى المصنَّفاتِ والمسانيد والسُّنن.

أمَّا الحكم على الحديث فإنني أذكرُ درجةَ الحديث إن لم يكن في الصَّحيحين.

٥- إذا تكرَّر ذكر الحديثِ الشَّريف في مواطنَ لاحقةٍ، فإنَّني أكتفي بالإشارة لتقدُّمه، وكذلك إذا تكرَّر ذكرُ الأثر أو القول، فإنَّني أكتفي بالإشارة إلى تقدُّمه.

وإذا تعذَّر تخريج الحديث الشَّريف -بعد استفراغ الجهد في البحث عنه- أقول: لم أقف عليه، وكذلك الأثر، أو الَّذي وقفت عليه كذا وكذا..

٦- توثيقُ الأشعار والأمثال من مصادرها.

٧- ألتزمُ أن يختم الاقتباس بذكر المرجع الَّذي قد اقتبس منه في الحاشية.

هـ- التَّرجمة والتَّعريفات بأنواعها:

١- ألتزمُ التَّرجمة لكلِّ مفسِّرٍ لم يشتهر من (طبقات المفسِّرين) للسُّيوطي، ولأحمد بن محمَّد الأدنوري، ولشمس الدِّين محمَّد بن علي بن أحمد الدَّاودي، وكتب التَّراجم المشهورة.

٢- إن كان المتَرْجَم له من رواة الحديث ذكرتُ رأي علماءِ الجرح والتَّعديل فيه، وغالبًا كان هذا من (تقريب التَّهذيب) لابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من الكتب المعروفة في هذا المجال، هذا إن لم يكن مشهورًا بالتَّوثيق والرِّواية كالزُّهري والسُّفيانين وغيرهم.

٣- التَّعريفات بأنواعها: (الأعلام- الأماكن- الوقائع..إلخ)، وأترجمُ للأعلام الوارد ذكرهم مستثنيًا من ذلك مشاهير الأعلام، وأترجم لهم في أوَّل موضع يرد فيه ذكرهم. وتتضمَّن ترجمة العلم -غالبًا- ذكر اسمه وكنيته، وما اشتهر به وسنة ولادته ووفاته، وإذا تعذَّر عليَّ - بعد البحث والجهد - قلتُ: لم أقف عليه، أو الَّذي وقفت عليه كذا وكذا..

والتَّعريف بالأماكن الغريبة من كتبِ معاجمِ البلدان إن أمكن ذلك، والتَّعريف بالوقائع والحروب من المراجع المعتمدة.

٤- التَّعريف بالكتب الغريبة، وذلك بذكر اسم الكتاب كاملا، أو بما اشتهر به، مع ذِكْر اسم صاحبه، وأذكر إن كان مخطوطًا أو مطبوعًا، وأترجمُ لصاحب هذا الكتاب.

ز- المراجع والمصادر:

١ - أمَّا بالنِّسبة للمراجع والمصادر فإني أذكر ما توفر لديَّ -بعد البحث- من ذكر دار النَّشر، ومدينة النَّشر، وسنة النَّشر، على أنَّ ما أذكره من تفصيلاتٍ - غير ذكر اسم الكتاب والجزء والصفحة - يكونُ في آخر الكتاب فقط.

٢- ترتيبُ المراجعِ ترتيبًا أبجديًّا في الفهارس.

وأخيرا: إذا ذكر النَّبي ﷺ فإني ألتزم الصَّلاة والسَّلام عليه ﷺ كتابة حيثما ورد، وكلَّما تكرَّر -ولا أختصرها كما يفعل البعض- فإنَّ ذكرها وكتابتها فيه ما فيه من الفوائدِ الَّتي يتعجَّلها طلبة العلم، ومن أغفل ذلك فقد حُرِمَ حظًّا عظيمًا، وما يكتبه الباحث فهو دعاءٌ يثبته لا كلام يرويه، فلهذا لا يتقيَّد فيه بالرِّواية، ولا يقتصرُ على ما في الأصل إن كان ناقصًا، وهكذا الأمر في الثَّناء على الله كعزَّ وجلَّ، وتبارك وتعالى، وما أشبه هذا.

وكذا التَّرضي والتَّرحم على الصَّحابة والعلماء وسائر الأخيار.

فإذا وجد شيءٌ من ذلك قد جاءتْ به الرِّوايةُ كانتْ العنايةُ بإثباته أكثر -كما حقق ذلك الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في (الإرشاد) [1].

---

(١) انظر: إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق ﷺ، للإمام النَّووي (ص: ١٤٤-١٤٥).

ثامنًا: الصُّعوبات الَّتي واجهتني

إنَّ صعوبة هذا البحث كامنةٌ في كون مسائله متفرِّقة ومتناثرة، الأمر الَّذي جعل الموضوع يحتاجُ إلى مراجعَ كثيرةٍ، وقد حصلت عليها من بلاد مختلفة، وكذلك فإنَّ تشابه الصِّيغ وكثرتها وتنوُّعها يقتضي الدِّقة في النَّظر، والإمعان في البحث، ومع اختلافها في العدد وتنوُّعها وكثرتها فإنَّها تحتاجُ إلى منهجٍ في التَّرتيب، وقد يختلف من مبحث لآخر، أو من مطلبٍ لآخر بما يكون أوفق وأكثر ملائمة، فترتيب ذلك وإيضاح ما له صلة مباشرة بمحور البحث بما يتناسب مع عدد الصِّيغ يقتضي أيضًا: الدِّقة في النَّظر، وفيه ما فيه من بذلِ الوسعِ والجهد، حيث إنَّ كلَّ طرحٍ جديد يحتاج إلى إحكام المنهج.

أمَّا تفسير تلك الصِّيغ، والنَّظر فيما يترجَّح من بين أقوال المفسِّرين فإنَّه يقتضي النَّظر في معظم أقوال المفسِّرين، واختلافاتهم، وهو ما يحتاج إلى مزيد من الدِّقة والتَّمحيص، ويحتاج إلى مزيد وقتٍ للإلمام بأقوالهم وترجيح ما يترجَّح..، وإلى التَّأكُّد من دقَّة التَّوثيق والعزو والإحالة.



التَّمهيد

١- المخاطِب -بكسر الطاء المهملة-

٢ - الوحي (الواسطة بين المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- ومبلِّغ الخطاب)

٣ - التَّعريف بالنُّـزول

٤ - مبلِّغ الخطاب

٥ - التَّعريف بالخطاب

٦ - التَّعريف بالقرآن الكريم

٧ - التَّعريف بالمخاطَب -بفتح الطاء المهملة- المكلَّف

٨ - بيان معنى تعلُّق الخطاب بفعل المكلَّف

٩ - التَّعريف بالأسلوب

١٠ - المعنى الاصطلاحي لمفهوم الخطاب في هذه الدِّراسة

١١- نتائجُ البحث الَّتي توصلت إليها من التَّهميد



بسم الله الرحمن الرحيم

● توطـئة:

إنَّ الإيجاز في التَّعريف مقصود في التَّمهيد فيما كان مقدِّمة للوصول إلى المراد وليس من صلب الموضوع، ولذلك جاء معنى المخاطِب مجملًا، وكذلك النُّزول؛ وكذلك التَّعريف بمبلِّغ الخطاب، بينما جاء بيان معنى الخطاب مفصَّلًا؛ لأنَّه المقصود.

على أنَّ هناك من الاعتبارات ما يقتضي زيادة في التَّفصيل؛ لصلتها بمحور البحث وذلك لتتكامل حلقات البحث.

وقد جعلت التَّمهيد مرتَّبًا من الأعلى نزولًا، وتحت مظلَّة العنوان، وقد جاء على النَّحو التَّالي:

١- المخاطِب -بكسر الطاء المهملة-:

والغرضُ منه ينحصرُ في:

أ .**بيان أهميَّة الإشارةِ إلى المخاطِب** -بكسر الطاء المهملة-:

إنَّ التَّعرف على المخاطِب له من الأهميَّة ما لا يخفى، وأهميَّة ذلك أجملها في الأمور التَّالية:

أوَّلاً: أهميَّتها بالنِّسبة للمخاطَب -بفتح الطاء المهملة-:

١ - إنَّ التَّعرف على المخاطِب يفيدُ في معرفةِ مَصْدَرِ الخطاب.

٢ - إنَّ التَّعرف على المخاطِب يعطي التَّصورَ الصَّحيحَ عن المخاطِب.

٣ - إنَّ التَّعرف على المخاطِب له من الأثرِ ما يَدْفَعُ المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- إلى النَّظرِ في الخطاب، الأمرُ الَّذي يزيدُه إيمانًا بالخطاب وفهمًا له، ويبصِّرُهُ بكيفيَّة التَّعامل مع الخطاب بطريقةٍ صحيحة تُرضي المخاطِب -بكسر الطاء المهملة-.

٤ - إنَّ لها صلة بالمخَاطَب من حيث كون الخطاب بين مخاطِب ومخاطَب.

ثانيًا: أهميَّتها بالنِّسبة للموضوع:

أمَّا أهميَّتها بالنِّسبة للموضوع فيمكن إيجاز ذلك فيما يلي:

١ - كونها مقدِّمةً وتمهيدًا وأساسًا لابدَّ منه.

٢ - إنَّ لها ارتباطًا وثيقًا بعنوان هذا البحث.

٣ - الإشارة إلى أنَّ المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- هو الله عز وجل من حيث تناول ألفاظ الخطاب القرآني.

٤ - التَّدرج في التَّعريفات.

ثالثًا: أثر هذه المعرفة في المخاطَب -بفتح الطاء المهملة-:

١ - تحملُ المخاطَب على النَّظر في الخطاب القرآني عن حُبٍّ وشغف.

٢ - تزيدُ المخاطَب فهمًا للخطاب.

٣ - تزيدُ المخاطَب إيمانًا بالخطاب، وتصديقًا له، وعملا به.

٤ - توضح للمخاطَب الطَّريقة الَّتي يتَّصل فيها مع المخاطِب على الوجه الذي يَرْضَى به عنه، وهو الطَّريق الذي شرعه.

رابعًا: أهميَّة هذه المعرفة بالنِّسبة للعلوم الأخرى:

ذكر غير واحد من أهل العلم أنَّ أشرفَ صناعة يتعاطاها الإنسانُ: تفسير القرآن. وبيان ذلك أنَّ شرف الصِّناعة إمَّا بشرف موضوعها، مثل الصِّياغة، فإنَّها أشرفُ من الدِّباغة؛ لأنَّ موضوع الصِّياغة الذَّهبُ والفضَّة، وهما أشرفُ من موضوع الدِّباغة الَّذي هو: جلدُ الميتة. وإمَّا بشرف غرضها، مثل: صناعة الطِّب، فإنَّها أشرفُ من صناعة الكناسة؛ لأنَّ غرض الطِّب: إفادة الصِّحة، وغرض الكناسة: تنظيف المستراح. وإمَّا لشدَّة الحاجةِ إليها كالفقهِ؛ فإنَّ الحاجة إليه أشدُّ من الحاجةِ إلى الطِّب؛ إذ ما من واقعةٍ من الكون في أحدٍ من الخلق إلا وهي مفتقرةٌ إلى الفقه؛ لأنَّ به انتظام صلاح أحوال الدُّنيا والدِّين، بخلاف الطِّب؛ فإنَّه يحتاج إليه بعض النَّاس في بعض الأوقات.

وإذا عرف ذلك فصناعةُ التَّفسير قد حازت الشَّرف من الجهات الثلاث. أمَّا من جهة الموضوع؛ فلأنَّ موضوعه كلامُ الله عز وجل الَّذي هو ينبوعُ كلِّ حكمةٍ، ومعدن كلِّ فضيلةٍ. فيه نبأُ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحكمُ ما بينكم. لا يَخْلَقُ على كثرة الرَّد، ولا تنقضي عجائبه. وأمَّا من جهة الغرض؛ فلأنَّ الغرضَ منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السَّعادة الحقيقيَّة الَّتي لا تفنى. وأمَّا من جهة شدَّة الحاجة؛ فلأنَّ كلَّ كمال دينيٍّ أو دنيويٍّ عاجليٍّ أو آجليٍّ مفتقرٌ إلى العلومِ الشَّرعية، والمعارف الدِّينيَّة، وهي متوقفةٌ على العلمِ بكتاب

الله ﷻ[(١)].

وإنَّ أشرفَ الموضوعاتِ الَّتي يتناولها التَّفسيرُ ما يتعلَّق بالعلم بالله ﷻ وصفاته، وتنـزيهه عن النَّقائص، وعن المشابهة للمخلوقات.

وإنَّ العلم بالله ﷻ وأسمائِهِ وصفاتِهِ هو أشرفُ العلوم على الإطلاق، وهو مطلوبٌ لنفسه، مرادٌ لذاته، قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]، فقد أخبر ﷻ أنَّه خلقَ السَّموات والأرض، ونَزَّل الأمرَ بينهنَّ ليعلم عباده أنَّه بكلِّ شيءٍ عليم، وعلى كلِّ شيءٍ قدير، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة.

وقال ﷻ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فالعلم بوحدانيته ﷻ، وأنَّه لا إله إلا هو مطلوبٌ لذاته، وإن كان لا يُكتفى به وحده، بل لا بدَّ معه من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبانِ لأنفسهما، أن يعرف الربَّ ﷻ بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن يعبد بموجبها[(٢)].

فإنَّ القلب إذا كان خاليا من معرفة الحقِّ، واعتقاده والتَّصديق به؛

---

(١) الإتقان (٢/ ٤٦٥ - ٤٦٦)، أبجد العلوم (١/ ٩٠)، وقد بينا ذلك مفصلاً في حاشيتنا على إتمام الدراية شرح نقاية العلوم، للسيوطي .

(٢) انظر: مفتاح السَّعادة (٢/ ١٧٨)، الصَّواعق المرسلة (٣/ ١١٣٢)، ودرءُ التَّعارض (١/ ٢٤)، وقاعدة في المحبَّة (ص: ١٣).

كان معرَّضًا لأن يعتقد نقيضه[١]، ويصدِّق به، ولاسيَّما في الأمور الإلهيَّة الَّتي هي غاية مطالبِ البريَّة، وهي أفضلُ العلومِ وأعلاها وأشرفها وأسماها، والنَّاس الأكابر لهم إليه غاية التَّشوف والاشتياق، وإلى جهته تمتدُّ الأعناق، فالمهتدون فيه أئمَّةُ الهدى كإبراهيم الخليل -عليه السلام- وأهل بيته، وأهل الكذب فيه أئمَّة الضَّلال كفرعون وقومه. قال الله ﷻ في أولئك: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقال ﷻ في الآخرين: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١][٢].



(١) وذلك لأنَّ العقل البشري لا يخلو من الشَّيء ونقيضه، فإذا خلا من الإيمان بالله ﷻ اشتغلَ تلقائيًّا بالإيمان بسواه. وقد جاء ذلك واضحًا في قول الله ﷻ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ﴾ [يونس: من الآية: ٣٢]. يعني أنَّه لا فراغ، ولا يمكن أن يرتفعَ النَّقيضان..وقد قال النبي ﷺ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا». صحيح مسلم [٥٥٦]، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى- في (النونية):

(هربوا من الرِّق الذي خلقوا له فبلو برقِّ النَّفس والشَّيطان).

(٢) درء التعارض (٥/ ٣٧٧) .

● خاتمة في إبراز أهم النتائج:

١ - إنَّ هذا البابَ يعتبرُ الحلقةَ الأولى من حلقاتِ هذا البحث والَّتي تعتبرُ تأسيسًا لما سيأتي بعدها.

٢ - يبيِّنُ حاجةَ المخاطَب للتَّعرُّف على المخاطِب.

٣ - إنَّ هذا الباب يعطي التَّصُّورَ الصَّحيح عن المخاطِب -بكسر الطاء المهملة-، الَّذي يدلُّ على مكانته وعظمته.

٤ - لا شكَّ أنَّ ذلك يدفع المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- إلى النَّظر في الخطاب حتَّى يكون على بصيرةٍ وبيِّنةٍ، ويفهم من خلال ذلك ألفاظ الخطاب، فيكون أَدْعَى إلى الامتثال والعمل بمقتضى ما فيه من الأمر والنَّهي والتَّوجيه والإرشاد على النَّحو الَّذي يرضى عنه المخاطِب ﷻ.



٢ -الوحي (الواسطة بين المخاطِب - بكسر الطاء المهملة - ومبلِّغ الخطاب)

أ- توطئة تبيِّن أهميَّة هذا البحث:

إنَّ الوحي هو الَّذي يفيد العقل ما لا يستقلُّ بمعرفته، ولا عبرة للتَّحسين والتَّقبيح بالعقل وحده؛ لأنَّ العقول متفاوتة، وإنما العبرة بالشَّرع؛ ولأنَّ ملكاتِ الإنسان من العقل والتَّجربة محدودة ونسبيَّة، فمن هنا كانت الحاجة إلى الوحي؛ لأنَّ ما لا ندركه بعقولنا لا بدَّ أن نلتمسه في وحي الله ﷻ. فبالوحي يتَّصل عالم الغيبِ بعالم الشَّهادة، ويصبح الوحي مصدر المعرفة الإنسانيَّة عن عالم الغيب.

كما أنَّ الوحي فيه التَّجدد الَّذي يتناسب مع تطوُّر العصور والواقع. وقد كانت الشَّرائع قبل الإسلام محليَّة ومرحليَّة، فعندما يتطوَّر الواقع فَتُنْسَخُ شريعةٌ يأتي رسولٌ جديدٌ بشريعةٍ جديدة، لكن أَمَا وقد بلغتِ الإنسانيَّةُ سنَّ الرُّشدِ، وشاء اللهُ ﷻ ختمَ رسالاتِ السَّماء جاءت الشَّريعة المحمَّديَّة لتقف عند الثَّوابت والأُطر، وتترك التَّجديدَ ومواكبة العصور للفقه الإسلاميِّ الَّذي هو علم الفروع، وللإعجاز بألوانه المختلفة والمتجدِّدة..ولكن ينبغي التَّنبيه إلى أنَّ ما يقابل العقل عندنا ليس النَّقل، وإنما الجنون..فالإسلام لا يعرف قضيَّة التَّناقض بين العقل والنَّقل، وإنما يقرأُ النَّقل بالعقل.

ب- الصِّلة بين (الوحي) وموضوع البحث:

إنَّ الحديث عن (الوحي) من حيث الجملة يعتبر بمثابة المقدِّمة

والتَّمهيد للخطاب بمعناه الأخص -والَّذي هو محور الموضوع- وإن كان من موضوعات الوحي ما هو من الخطاب بمعناه الأخص -كما سيأتي- كما أنَّ الوحي هو الواسطة بين منزِّل الخطاب ﷻ، وبين مبلِّغه صلى الله عليه وسلم إلى المخاطَبين، وله طرقٌ ومعانٍ هي صلةٌ بين المخاطِب والمخاطَبين؛ ولأنَّ الوحي كلمةٌ يندرج تحتها ألوانٌ من الخطابِ من المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- إلى المكلَّم أو المخاطَب من قبله.

ج- الوحيُ والإلهام:

وأشير هنا إلى ما قيل في أصل كلمة (الوحي) لغة، ثمَّ بيان معنى الوحي اصطلاحًا.

وقد جاء في بيان معنى (الوحي) أنَّه الإشارة، والكتابة، والرِّسالة، والإلهام، والكلام الخفيُّ، وكلُّ ما ألقيته إلى غيرك، يقال: (وحيت إليه الكلام)، و(أوحيت)، و(وحى وحيا)، و(وأوحى) أيضًا، أَي: كتب. و(الوحي): المكتوب والكتاب أَيضًا، وعلى ذلك جمعوا فقالوا: (وُحِيٌّ) مثل: حَلْي وحُلِيَ. و(أوحى إليه): ألهمه. وفي التَّنزيل العزيز: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] .وفيه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: ٥]، أي: إليها، فمعنى هذا أمرها، و(وحى) في هذا المعنى، و(وحى) في البيت بمعنى كتب، و(وحى إليه) و(أوحى): كلَّمه بكلام يُخفيه من غيره. و(وحى إليه) و(أوحى): أومأ. قال الله ﷻ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

وقيل فـي قوله ﷻ: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: أشار إلـيهم[١]. و(أوحى) و(وحى) و(أومى) و(ومى) بمعنى واحد، ووحى يحِي، وومى يمي. (وحيتُ إِلـيه بالكلام أحي به)، و(أوحيتُه إِلـيه)، وهو أَن تكلِّـمه بكلام تـخفـيه من غيره. (أَوحت إلـيه) أي: كلَّـمته، و(أوحى الله ﷻ إلـى أنبـيائه) - عليهم الصَّلاة والسَّلام-. و(أوحى الرَّجل) إذا بعث برسول ثقة إلـى عبد من عبـيدِه ثِقة، و(أوحى) أَيضًا إِذا كلَّـم عبده بلا رسول..

و(الوَحْيُ): ما يُوحِيه الله ﷻ إلـى أَنبـيائه - عليهم الصَّلاة والسَّلام-. وقيل: سمي وَحْيًا؛ لأَنَّ الـملك أَسَرَّه علـى الـخلق، وخَصَّ به النَّبـيَّ ﷺ الـمبعوثَ إلـيه، قال الله ﷻ: ﴿**يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ**﴾ [الأنعام: ١١٢]، معناه: يُسِرُّ بعضُهم إِلـى بعض، فهذا أَصل الـحرف. ثمَّ قصر الوحي للإلهام، ويكون للأَمر، ويكون للإِشارة.

وقيل فـي قوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: ١١١]: أَلْهَمْتُهم[٢]، كما قال ﷻ: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى

(١) انظر: تفسير الطَّبري (١٦/ ٥٣)، الدُّر المنثور (٥/ ٤٨٣)، تفسير مجاهد (١/ ٣٨٤)، تفسير الواحدي (٢/ ٦٧٧)، أضواء البيان (٢/ ٤٠٩)، (٣/ ٣٧٧)، البحر المحيط (٦/ ١٦٧)، السِّراج المنير (٢/ ٢٥٧)، الرَّازي (١١/ ٢٦٥)، تفسير الماوردي (٣/ ٣٥٩)، النَّسفي (٣/ ٥٠).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (٧/ ١٢٨)، تفسير القرطبي (٦/ ٣٦٣)، تفسير الواحدي (١/ ٣٤١)، البحر المديد (٢/ ٢٢٦)، الكشف والبيان (٤/ ١٢٤)، تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٤٢)، الخازن (٢/ ١٠٩)، تفسير السَّمعاني (٢/ ٧٨)، تفسير الماوردي (٢/ ٨١).

ٱلنَّحۡلِ﴾ [النحل: ٦٨]. وقيل: ﴿أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾: أمرتهم[١].
وقيل في قوله ﷻ: ﴿أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ أتيتُهم في الوَحْي إليك بالبَراهين والآيات. وقيل في قوله ﷻ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص:٧]: (الوَحْيُ) ههنا: إلقاءُ الله ﷻ في قلبها، قال: وما بعد هذا يدلُّ -والله أعلم- على أنَّه وَحْيٌ من الله ﷻ على جهة الإعلامِ، للضَّمانِ لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. وقيل: إنَّ معنى (الوَحْي) ههنا: الإلهام[٢]. وجائز أَن يُلْقِيَ الله ﷻ في قلبها أَنه مردود إليها، وأَنه يكون مرسلا، ولكن الإعلام أَبين في معنى الوحي ههنا.

وأَصل (الوحي) في اللغة كلِّها: إعلام في خَفاء، ولذلك صار (الإلهام) يسمَّى وَحْيًا، وكذلك (الإشارةُ) و(الإيماءُ) يسمَّى وَحْيًا، و(الكتابة) تسمَّى: وحيًا.

وقال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى:٥١]، معناه: إلا أَن يُوحيَ إليه وحيًا فيُعْلمه بما

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٨٥)، الكشاف (١/ ٦٥٣)، فتح القدير (٤/ ٥٠٨)، تفسير البيضاوي (٢/ ٣٧٩)، الجلالين (ص: ١٦٠)، روح المعاني (٧/ ٥٨).

(٢) انظر: تفسير البيضاوي (٤/ ٢٨٣)، القرطبي (١٣/ ٢٥٠)، ابن كثير (٢/ ١١٦)، الطَّبري (٢٠/ ٢٩)، الدُّر المنثور (٦/ ٣٩٣)، الصَّنعاني (٣/ ٨٧)، معاني القرآن، للنَّحاس (٥/ ١٥٨-١٥٩)، تفسير أبي السُّعود (٧/ ٣)، الواحدي (٢/ ٨١٣)، البغوي (٣/ ٤٣٤)، الشَّوكاني (٤/ ١٥٩)، ابن الجوزي (٦/ ٢٠١)، ابن عادل (١١/ ٣٧)، (١٢/ ١١١)، السِّراج المنير (٢/ ١٠٦)، (٢/ ٢٧٣)، السلمي (٢/ ١٠٠)، السَّمعاني (٣/ ١٤). وسيأتي التَّعقيب على هذا القول وتوضيحه.

يَعْلـمُ البشرُ أنه أعْلَـمَه، إمَّا إلهامًا أَو رُؤيا، وإِمَّا أَن يُنـزِّل علـيه كتابًا كما أنزل علـى موسى عليه السلام، أَو قرآنًا يتلى علـيه كما أنزله علـى مـحمَّد ﷺ، وكلُّ هذا إعلامٌ، وإن اختلفت أسباب الإعلام فـيها.

و(وَحَى الله ﷻ للأرض بأن تَقِرَّ قرارًا ولا تميد بأَهلها) أي: أشار إلـيها بذلك، ويكون (وحى لها القرار) أَي: كَتَب لها القرارَ، يقال: (وَحَيْتُ الكتابَ أَحِيهِ وَحْيًا) أَي: كتبته فهو: مَوحِيٌّ[1]. وذكر الحافظ في (الفتح) أنَّ (الوحي) لغة: «الإعلام في خفاء، و(الوحي) أيضًا: الكتابة والمكتوب والبعث والإلهام والأمر والإيماء والإشارة والتَّصويت شيئًا بعد شيء. وقيل: أصله التَّفهيم، وكلُّ ما دللت به من كلامٍ أو كتابةٍ أو إشارةٍ فهو وحي»[2].

د- تعريف الوحي في الاصطلاح الشَّرعي:

الوحي شرعًا: «الإعلام بالشَّرع، وقد يطلق الوحي ويراد به اسم المفعول منه، أي: الموحَى، وهو كلام الله ﷻ المنـزَّل على النبي ﷺ»[3].

وفي (المفردات): «أصل الوحي: الإشارة السَّريعة، ولتضمُّن السُّرعة قيل: أمر وحى. وذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض، وقد يكون بصوت مجرَّد عن التَّركيب، وبإشارةٍ ببعض

(١) بتصرُّفٍ عن (لسان العرب)، مادَّة: (وحى) (١٥/ ٣٧٩).
(٢) فتح الباري، لابن حجر (١/ ٩).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٩).

الجوارح، وبالكتابة. وقد حمل على ذلك قوله ﷻ عن زكريا -عليه السلام-: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾ [مريم: ١١]. فقد قيل: (رَمَزَ). وقيلَ: (اعتبارٌ). وقيل: (كَتَبَ). وعلى هذه الوجوه قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقولُهُ ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فذلك بالوسواسِ المشار إليه بقوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس: ٤]، وبقوله ﷺ: «**إنَّ للشَّيْطَانِ لَمَّةَ**»(١).

ويقال للكلمة الإلهيَّة الَّتي تلقى إلى أنبيائه: (وحي). وذلك أضْرُبٌ حسبما دلَّ عليه قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١]، وذلك إمَّا برسول مشاهد ترى ذاته ويسمع كلامه، كتبليغ جبريل للنَّبي ﷺ في صورة معيَّنة، وإمَّا بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى عليه السلام كلام الله ﷻ، وإمَّا بإلقاء في الرَّوع كما ذكر ﷺ: «**إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعِي**»(٢)، وإمَّا بإلهام نحو:

---

(١) أخرجه الترمذي [٢٩٨٨]، وقال: حسن غريب. والنسائي في (الكبرى) [١١٠٥١]، وابن أبي الدنيا في (مكايد الشيطان) [٤١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٥٠٦]، وابن حبان [٩٩٧]. وأبو يعلى [٤٩٩٩]، والطبري في (التفسير) (٣/٨٨)، وابن أبي حاتم في (تفسيره) [٢٨٥٥]، رواه أبو بكر بن مردويه في (تفسيره).

(٢) مصنَّف ابن أبي شيبة [٣٤٣٣٢]، مسند البزَّار [٢٩١٤]، مسند الشِّهاب القضاعي [١١٥٠]، شعب الإيمان [١١٨٥]، [١٠٣٧٦]، نوادر الأصول [١٨٢]، علل الدَّارقطني =

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وإمَّا بتسخيرٍ نحو قوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، أو بمنام كما قال عليه ﷺ: «**انْقَطَعَ الْوَحْيُ وَبَقِيَتِ المُبَشِّرَاتُ رُؤْيَا المُؤْمِنِ**»(١)،

= [٨٧٥]، مسند الشَّافعي (١/ ٢٣٣). وفي (الكشف): «إنَّ روح القدس نَفَثَ في روعي لن تموت نفسٌ حتَّى تستكملَ رزقها، فاتَّقوا الله وأجملوا في الطَّلب». رواه في (مسند الفردوس) عن جابر في (حرف الهمزة) ورواه في (حرف النُّون) عنه بلفظ: «نَفَثَ في روعي روحُ القدس أنَّ نفسًا لن تخرج من الدُّنيا حتَّى تستكمل رزقها» الحديث. ورواه أبو نعيم والطَّبراني عن أبي أمامة والبزَّار عن حذيفة ﵁، وأخرجه أيضًا ابن أبي الدُّنيا، وصحَّحه الحاكمُ [بألفاظ مختلفة، ووافقه الذَّهبي] عن ابن مسعود ﵁ كذا في (فتح الباري) اهـ. كشف الخفاء (١/ ٢٦٨)، فتح الباري (١/ ٢٠)، المستدرك [٢١٣٤، ٢١٣٥، ٢١٣٦، ٧٩٢٤].

(١) أخرجه ابن ماجه بلفظ: «ذهبت النُّبوَّة وبقِيت الْمُبَشِّرَات»، [٣٨٨٦]. وفي (مجمع الزَّوائد) (٧/ ١٧٣): إسناده صحيح ورجاله ثقات. وأخرجه أحمد [٢٥٨٩٠]. وفي (الأحوذي) (٦/ ٤٥٥)، باب «ذهبت النُّبوَّة وبقِيت المُبَشِّرَات»-بكسر الشِّين المعجمة-، جمع مبشرة، وهي البشرى. وقد ورد في قوله ﷻ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤] هي الرُّؤيا الصَّالحة. ونحوه الحديث الَّذي أخرجه البخاريُّ وغيره، وأذكر رواية البخاريِّ عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءا مِنْ النُّبُوَّةِ». البخاري [٦٤٧٢، ٦٤٧٣]. ورواية البخاري من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ تَكْذِبُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ، وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ، وَمَا كَانَ مِنْ النُّبُوَّةِ فَإِنَّهُ لا يَكْذِبُ». قَالَ مُحَمَّدٌ [وهو محمَّد بن سيرين أبو بكر مولى أنس بن مالك من الطَّبقة الوسطى من التَّابعين الأنصاري المتوفى (١١٧هـ)]: وأنا أقولُ هذه، قال: وكان يقال: الرُّؤْيا ثلاثٌ: حديثُ النَّفْسِ، وَتَخْوِيفُ الشَّيْطان، وبُشْرَى من اللَّه، فَمَنْ رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ فلا يَقُصَّهُ على أَحدٍ، وَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ، قال: وكان يُكْرَهُ الْغُلُّ في النَّوْم، وكان يُعْجِبُهُمْ الْقَيْدُ، ويقالُ: الْقَيْدُ ثَبَاتٌ فِي الدِّينِ. وروى قَتَادَةُ، وَيُونُسُ [وهو بن عبيد بن دينار العبدي الصُّغرى من التَّابعين المتوفى (١٣٩ هـ)] =

فالإلهام والتَّسخير والمنام «دلَّ عليه قوله ﷻ: ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ ، وسماع الكلام معاينة دلَّ عليه قوله ﷻ: ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، وتبليغ جبريل عليه السلام في صورة معينة دلَّ عليه قوله ﷻ: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ﴾ [الشورى: ٥١]، وَقولُهُ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فذلك لمن يدَّعي شيئا من أنواع ما ذكرناه من الوحي، أي: نوعٍ ادَّعاه من غير أَنْ حَصَلَ له. وقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ [الأنبياء: ٢٥] الآية، فهذا الوحي هو عامٌّ في جميع أنواعه، وذلك أنَّ معرفة وحدانيَّة الله ﷻ، ومعرفة وجوب عبادته ليست مقصورة على الوحي المختصِّ بأولي العزم من الرُّسل، بل يعرف ذلك بالعقل والإلهام كما يعرف بالسَّمع. والقصد من الآية تنبيه أنَّه من المحال أن يكون رسولاً لا يعرف وحدانيَّة الله ﷻ، ووجوب عبادته، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١]، فذلك وحي بوساطة عيسى عليه السلام، وقوله ﷻ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾

= وَهِشَامٌ [وهو بن حسان الأزدي القردوسي لم يلق الصَّحابة أبو عبد الله المتوفى (١٤٨هـ)] وأَبُو هلال [وهو محمَّد بن سليم الرَّاسبي لم يلق الصَّحابة المتوفى (١٦٧هـ)] عن ابْنِ سِيرِينَ عن أبي هريرة عن النَّبِيِّ ﷺ. وأدرجَهُ بعضهم كله في الحديث، وحديث عَوْفٍ [بن أبي جميلة العبدي الهجري أبو سهل لم يلق الصَّحابة المتوفى (١٤٦ هـ)] أَبْيَنُ، وقال يونس: لا أحسبُهُ إِلا عن النبي ﷺ في الْقَيْدِ، قال أبو عبد اللَّه: لا تكون الأَغلالُ إلا في الأَعْنَاقِ. البخاري [٦٤٩٩]. تقريب التَّهذيب، لابن حجر العسقلاني (ص: ٤٨٣)، (٤٥٣)، (٦١٣)، (٥٧٢)، (٤٨١)، (٤٣٣).

[الأنبياء: ٧٣]، فذلك وحي إلى الأمم بوساطة الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام-.

ومن الوحي المختصّ بالنَّبي ﷺ: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ فوحيه إلى موسى عليه السلام بوساطة جبريل، ووحيه ﷻ إلى هارون بوساطة جبريل وموسى، وقوله ﷻ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢]، فذلك وحى إليهم بوساطة اللَّوح والقلم فيما قيل.

وقوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]، فإنَّ كان الوحي إلى أهل السَّماء فقط فالموحى إليهم محذوف ذكره، كأنَّه قال: أوحى إلى الملائكة؛ لأنَّ أهل السَّماء هم الملائكة، ويكون كقوله ﷻ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الأنفال: ١٢]، وإن كان الموحى إليه هي السَّموات فذلك تسخير عند من يجعل السَّماء غير حي، ونطق عند من جعله حيًّا، وأمَّا قوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: ٥]، فقريب من الأوَّل، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]، فحثَّ على التَّثبت في السَّماع، وعلى ترك الاستعجال في تلقيه وتلقنه»[1].

(١) بتصرُّفٍ عن (المفردات في غريب القرآن الكريم)، مادَّة: (وحى) (ص: ٥١٦).

هـ- بيان معنى الإلهام والفرق بينه وبين الوحي:

و(الإِلْهامُ): «ما يُلْقى في الرُّوع. فـ (الإلهامُ) أَن يُلقِي اللَّه ﷻ في النَّفس أمرًا يبعثُه على الفعل أو التَّرك، وهو نوع من الوحي، يَخُصُّ الله ﷻ به من يشاء من عباده..»[1].

و- تعريف الشَّيخ محمَّد عبده للوحي والإلهام في الاصطلاح الشَّرعي:

قال: «وقد عرَّفوه شرعًا أنَّه كلام الله ﷻ المنـزَّل على نبيٍّ من أنبيائه، أمَّا نحن فنعرِّفه على شرطنا بأنَّه: عرفانٌ يجده الشَّخص من نفسه مع اليقين بأنَّه من قبل الله ﷻ بواسطة أو بغير واسطة، والأوَّل بصوت يتمثَّل لسمعه أو بغير صوت، ويفرَّق بينه وبين الإلهام بأنَّ الإلهام: وجدانٌ تستيقنه النَّفس، وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسُّرور»[2].

ز- تعقيب لرئيس قسم التَّفسير بجامعة الأزهر إبراهيم عبد الرَّحمن خليفة:

يقول: «لا نوافق الشَّيخ محمد عبده في قصر الموحى إليه على الأنبياء والأولياء، بل نقول بمزيد من التَّعميم بحيث يشمل غير الأولياء

---

(١) بتصرُّفٍ عن (لسان العرب)، مادَّة: (لهم) (١٢/ ٥٤٧)، وانظر: مادَّة: (لهم) في (مقاييس اللُّغة) (٥/ ٢١٧)، مختار الصِّحاح (ص: ٦١٢).

(٢) رسالة التَّوحيد، محمد عبده (ص: ١٠٨).

كذلك من أهل سخطه ﷻ، كإبليس المكلَّم من قبل الله ﷻ، وكالأقرع والأبرص المحدَّثين من قبل المَلَك[١]. نعم كثر إطلاق الوحي بمعناه المصدري على ما يكون إلى الأنبياء خاصَّة، وبمعناه الحاصل بالمصدر، والَّذي هو إطلاق المصدر وإرادة المفعول (الموحَى) -بفتح الحاء- على ما يلقى إلى الأنبياء خاصَّة كذلك. ولكنَّ هذا لا يمنع من أنَّ كلا من المعنيين المصدري والحاصل بالمصدر هو أرحب دائرةً وأوسع أفقًا من هذا الإطلاق، وأنَّ كلا منهما في دائرته الرحبة وأفقه الواسع هو أيضًا معنىً شرعي من قبل أنَّه إعلام بشرع. وسواء علينا في ذلك أقلنا: إنَّ هذا المعنى الشَّرعي هو جزء من جزئيَّات الحقيقة اللُّغويَّة الموضوعة للقدر المشترك بينه وبين سائر ما يندرج تحت الحقيقة من الجزئيَّات الأخرى، وأنَّ استعمال تلك الحقيقة اللُّغويَّة في هذا المعنى ليس من باب قصر الحقيقة على بعض أفرادها حتَّى يكون مجازًا من إطلاق العامِّ وإرادة الخاصِّ، بل هو من تحقيق القدر المشترك في الجزئيِّ فيكون الإطلاق حقيقة. سواء علينا أقلنا ذلك، وهو ما نفهمه بالفعل من تصرُّف الرَّاغب الأصفهاني حيث لم يفرِّق [في نقله السَّابق] بين قولٍ وآخر، ولا أعطى أيًّا من المعاني التي ذكرها بخصوصه وصف الشَّرعيَّة، أم قلنا: إنَّ الإطلاق الشَّرعي هنا كنظائره العديدة من قصر الحقيقة على بعض أفرادها فيكون إطلاق الوحي هو من باب الحقيقة العرفيَّة والَّتي هي في الأصل مجاز من إطلاق العامِّ

---

(١) حديث الأقرع والأبرص أخرجه البخاريُّ[٣٤٦٤]، ومسلم [٢٩٦٤] .

وإرادة الخاص كما ذكرنا، بأيِّ الاعتبارين قلتَ فلا ضيرَ عليك»[(١)].

ومن هنا يعلم الفرق بين عموميَّة الإطلاق اللُّغوي، وخصوصيَّة الإطلاق الشَّرعي من حيث إنَّ الإطلاق الشرعي إنما هو إعلام بالشَّرع سواء أردنا الوحي بمعناه المصدري أو الحاصل بالمصدر فهو إعلام بشرع -كما سبق-، وأنَّ الصِّلة وثيقة بينهما، فمن أدرج المصطلح الشَّرعي في المصطلح اللغوي كالرَّاغب فله من التَّأويل ما ذكر .

ح- حقيقة الوحي إلى أم موسى عليه السلام:

يقول أستاذنا العلامة الدُّكتور عبد الرَّحمن خليفة: «مرَّ بك في كلام الرَّاغب أنَّ وحي الله ﷻ إلى أمِّ موسى عليه السلام كان بالإلهام، وقد نحا نحوه هذا عديد من المفسِّرين منهم: البيضاويُّ، وابن كثير على سبيل المثال، ثمَّ قلَّد هؤلاء كثير غيرهم...غير أن هذا الرَّأي غير متَّجه، وإلا فمن أين لفطرة كائن من كان اعتقاد جازم بأنَّ فلانًا من النَّاس سيكون من المرسلين، حتَّى يتصَّور ارتكاز مثل هذا الاعتقاد في فطرة أمِّ موسى عليه السلام بالنِّسبة لولدها عليه السلام حسبما نطقت الآية الكريمة؟ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ هكذا وعلى النَّحو المؤكَّد بـ: (إنَّ، وإسميَّة الجملة)[(٢)] ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فهذه واحدة، وثانية لا تدنو عن أختها دلالة،

(١) منَّة المنان في علوم القرآن (٢/ ١٥٠-١٥١).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٠/ ٤٥) .

وهي تعبيره ﷻ عن هاتين البشارتين بالوعد في قوله ﷻ: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ١٣]، فمن أينَ يصلح لمجرَّد الإلهام أو حتَّى لرؤيا منامٍ رآها غير نبيٍّ مهما تكن درجته من الصَّلاح والورع؟

من أين يصلح أن يقال لشيء من هذا أو ذاك وعد؟ فمن ثمَّ استظهر كلٌّ من أبي حيَّان[1] والآلوسيِّ[2] أن يكون الوحي إلى أمِّ موسى عليه السلام من طريق ملك أرسله الله ﷻ، إليها فاطنًّا أوَّل الرَّجلين إلى ثانية هاتين الحجتين، وثانيهما إلى أولاهما، وكذلك يظهرُ هذا الاختيار من صنيع القرطبي[3].

ط- تعقيب على ما ذكر من أقوال المفسِّرين:

قال في (منَّة المنان): «وما يحمل هؤلاء وأولئك من قدامى القائلين بدعوى الإلهام ومحدثيهم في حسباننا إلا خشية أن يُظنَّ بأمِّ موسى -عليه السلام- النُّبوَّة، مع إجماع المسلمين وغيرهم[4] على عدم نبوَّتها، بل مع إجماع المسلمين على أنَّ من شرط النُّبوة: الذُّكورة انطلاقًا من نحو: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

---

(١) البحر المحيط (٧/ ١٠٠).

(٢) روح المعاني (٢٠/ ٤٥- ٤٩).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٣/ ٢٥٠).

(٤) إجماع غير المسلمين غير معتبر ولا يحتج به، فلا أعلم سبب إقحامه إيَّاه، وهو في معرض الاستدلال.

ولكن من أينَ يقتضي إرسال الملك إلى أحد نبوَّته؟ أفلا يرون إلى إرساله ﷻ جبريل عليه السلام إلى مريم -عليها السَّلام- حيث تمثَّل لها بشرًا سويًّا، وكلَّمها بما ذكر الله ﷻ من قصَّتها في كتابه الكريم، أَوَلا يرون إلى إرسال الله ﷻ المَلَكَ إلى كلٍّ من الأقرع والأبرص والأعمى، على ما في حديث الشَّيخين وغيرهما المنبَّه إليه غير مرَّة، فبنحو هذا نظر كلٌّ من أبي حيَّان والقرطبي أيضًا في استظهارهما ما استظهراه في هذا الوحي من كونه كان عن طريق مَلَكٍ أرسله الله ﷻ إلى أمِّ موسى عليه السلام، على أنَّه لا يستبعد أيضًا أن يكون هذا الوحي عن طريق نبيٍّ في زمانها لم يقص القرآن علينا قصَّته، وأيُّ ذلك كان ممَّا الله ﷻ أعلم به فليس لما قاله أهل دعوى الإلهام، ومثلهم أهل دعوى رؤيا المنام وجه البتَّة"[1].

أقول: وما ذكره الدُّكتور إبراهيم خليفة من دعوى الإجماع يوافق ما ذكره البيضاويُّ في تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢] قال: كلَّموها شِفاهًا كرامةً لها، ومن أنكر الكرامة زعم أنَّ ذلك كانت معجزةً لزكريَّا عليه السلام، أو إرهاصًا لنبوَّةِ عيسى عليه السلام، فإنَّ الإجماع على أنَّه ﷻ لم يستنبئ امرأةً لقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل: ٤٣][2].

(١) منَّة المنان في علوم القرآن (٢/ ١٥٣).
(٢) تفسير البيضاوي (٢/ ٣٨)، وانظر: أحكام القرآن، للجصَّاص (٢/ ٢٩٣).

ويوافق أيضًا ما ذكره الحافظُ ابنُ كثير في (تفسيره)، قال: «يخبرُ ﷻ أنَّه إنما أرسل رسله من الرِّجال لا من النِّساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دلَّ عليه سياق هذه الآية الكريمة أنَّ الله ﷻ لم يوح إلى امرأة من بنات آدم عليه السلام وحي تشريع. وزعم بعضهم أنَّ سارة امرأة الخليل -عليه السلام- وأمَّ موسى عليه السلام ومريم بنت عمران أمُّ عيسى عليه السلام نبيِّات، واحتجُّوا بأنَّ الملائكة بشَّرتْ (سارة) بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله ﷻ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: ٧] الآية، وبأنَّ الملك جاء مريم -عليها السَّلام- فبشَّرها بعيسى عليه السلام.

وبقوله ﷻ: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢- ٤٣]. وهذا القدر حاصل لهنَّ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكنَّ نبيَّات بذلك، فإن أراد القائل بنبوَّتهنَّ هذا القدر من التَّشريف فهذا لا شكَّ فيه، ويبقى الكلام معه في أنَّ هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النُّبوة بمجرَّده أم لا؟ الَّذي عليه أهل السُّنة والجماعة، وهو الَّذي نقله الشَّيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم أنَّه ليس في النِّساء نبيَّة، وإنما فيهنَّ صدِّيقات كما قال ﷻ مخبرًا عن أشرفهنَّ مريم بنت عمران -عليها السَّلام- حيث قال ﷻ: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة: ٧٥]، فوصفها في أشرف مقاماتها بالصدِّيقة، فلو كانت نبيَّة لذكر ذلك في مقام التَّشريف والإعظام،

فهي صِدِّيقة بنصِّ القرآن إلى آخر ما ذكره»[(١)].

وأرى أنَّ ما ذكر من دعوى الإجماع غير مسلَّم، فقد ذكر الزَّجاجُ[(٢)] والقرطبيُّ[(٣)] أنَّ معنى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ أي: اختارك، ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: من الكفر عن مجاهد، والحسن، والزَّجاج[(٤)]: من سائر الأدناس من الحيض والنِّفاس وغيرهما. ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ﴾ لولادة عيسى عليه السلام، ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعنى: عالمي زمانها. عن الحسن وابن جريج وغيرها. قيل: على نساء العالمين أجمع إلى يوم الصُّور. وهو الصَّحيح على ما نبينه، وهو قول الزَّجاج وغيره[(٥)]. وكرَّر الاصطفاء؛ لأنَّ معنى الأوَّل: الاصطفاء لعبادته، ومعنى الثَّاني: لولادة عيسى عليه السلام. وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**كَمَلَ مِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إِلا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**»[(٦)]. والكمال هو التَّناهي والتَّمام، ويقال في ماضيه:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٩٧)، وانظر: لوامع الأنوار البهيَّة (٢/ ٢٦٦)، فتح الباري، للحافظ ابن حجر (٦/ ٤٤٧- ٤٧٣)، عمدة القاري (٧/ ١٢)، (٢٣/ ٣٤٩)، غمز عيون البصائر (٣/ ٣٩٣)، البداية والنِّهاية (٢/ ٧١).

(٢) معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (١/ ٤١٠).

(٣) تفسير القرطبي (٤/ ٨٢-٨٤) .

(٤) معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (١/ ٤١٠).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١٠).

(٦) أخرجه البخاريُّ عن أبي موسى رضي الله عنه [٣١٥٩، ٣١٧٩، ٣٤٨٥، ٤٩٩٨]، ومسلم [٤٤٥٩].

(كَمُل) -بفتح الميم وضمها-، و(يَكملُ) في مضارعه -بالضَّم-. وكمال كلِّ شيء بحسبه، والكمال المطلق إنما هو لله ﷻ خاصَّة، ولا شكَّ أنَّ أكمل نوع الإنسان الأنبياء، ثمَّ يليهم الأولياء من الصدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين..»[١].

ورأي الآلوسي فيه زيادة في التَّفصيل والتَّحقيق، وهنا أختصر ما قاله مع التَّعقيب: قال: «واستدلَّ بهذه الآية من ذهب إلى نبوَّة مريم -عليها السَّلام-؛ لأنَّ تكليم الملائكة يقتضيها، ومنعه اللَّقاني[٢]...إلخ. وادَّعى أنَّ من توهَّم أنَّ النُّبوة مجرَّد الوحي ومكالمة الملك فقد حاد عن الصَّواب. ومن النَّاس من استدلَّ على عدم استنباء النَّساء بالإجماع، وبقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ [النحل: ٤٣][٣]، ولا يخفى ما فيه.

(١) بتصرُّفٍ واختصارٍ عن (تفسير القرطبي) (٤/ ٨٢- ٨٤). وانظر أيضًا: تفسير القرطبي لكلٍّ من قول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقوله ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾ [مريم: ١٦].

(٢) هو الشَّيخ إبراهيم بن إبراهيم بن حسن بن علي اللَّقاني المالكيِّ، المصريِّ، برهان الدِّين، أبو الأمداد، من علماء الحديث، وأصوله، والكلام، والفقه. و(اللقاني) نسبةٌ إلى (لقانة) من (البحيرة) بمصر. توفي وهو راجع من الحجِّ، ودفن بالقرب من عقبة (إيلة)، من مؤلفاته: بهجة المحافل وأجمل الوسائل بالتَّعريف برواة الشَّمائل، قضاء الوطر من نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، جوهرة التَّوحيد، حاشية على مختصر خليل، وتوضيح ألفاظ الأجروميَّة [١٠٤١هـ]. كشف الظُّنون (١/ ٦٢٠)، الأعلام (١/ ٢٨)، معجم المؤلِّفين (١/ ٢). وابنه: عبد السَّلام بن إبراهيم بن إبراهيم اللَّقانيّ المصريّ، شيخُ المالكيَّة في وقته بالقاهرة..الأعلام (٣/ ٣٥٥).

(٣) انظر: تفسير البيضاوي (٢/ ٣٨)، أحكام القرآن، للجصَّاص (٢/ ٢٩٣).

أمَّا أوَّلاً: فلأنَّ حكاية الإجماع في غاية الغرابة، فإنَّ الخلاف في نبوَّة نسوة كحواء وآسية وأم موسى وسارة وهاجر ومريم موجود خصوصًا مريم، فإنَّ القول بنبوَّتها شهير، بل مال الشَّيخ تقيُّ الدِّين السُّبكي، وابن السَّيد[1] إلى ترجيحه، وذكر أنَّ ذكرها مع الأنبياء في سورتهم قرينة قويَّة لذلك.

وأمَّا الثَّانية: فلأنَّ الاستدلال بالآية لا يصحُّ؛ لأنَّ المذكور فيها الإرسال، وهو أخصُّ من الاستنباء على الصَّحيح المشهور، ولا يلزم من نفي الأخصِّ نفي الأعمِّ[2].

أقول: وبيان ذلك أنَّه يلزم من ثبوت الأخصِّ ثبوت الأعمِّ، ولا يلزم من ثبوت الأعمِّ ثبوت الأخصِّ، وشرط موضوع الدَّليل إمَّا أن يكون مساويا لموضوع المدَّعَى أو أعمَّ منه.

وشرط محمول الدَّليل إمَّا أن يكون مساويا لمحمول المدَّعى أو أخصَّ منه، ويلزم من ثبوت الأخصِّ ثبوت الأعمِّ.

ومن حيث الإجمال أقول: المحمولُ الثَّابت لموضوع أخص، أعمُّ من المحمول الثَّابت لموضوع أعم، فمثلا عندما يقال: (حضر محمَّد)، فإنَّ المحمول الثَّابت للأخصِّ أعمُّ من أن يكون مع هذا

---

(١) انظر: الدُّرر الكامنة (١/ ١٤٦)، البدر الطَّالع (١/ ٣٥)، والأعلام (١/ ١١٩). ولعلَّه يقصد بابن السِّيد: السَّيد علي الشَّريف ابن السَّيد محمد الشَّهير بابن الجرجي المصري، قد صنَّف الحاشية وعلَّقها على تفسير البيضاوي، وكانت وفاته في سنة (عشر وتسعمائة). انظر: طبقات المفسِّرين، لأحمد بن محمد الأدنروي (١/ ٣٦٤) .

(٢) روح المعاني (٣/ ١٥٤-١٥٥).

الحضور طالب آخر أو لا، فقولنا: (حضر محمَّد) يصدق عليه عدَّة احتمالات، نقول مثلًا: (حضر محمَّد وحده)، (حضر محمَّد مع خالد)، (حضر محمَّد مع خالدٍ وعليٍّ) . . .وهكذا. فهو أعمُّ من قولنا: (حضر المحمَّدان) أو (حضر المحمَّدون) أو (حضر جميعُ الطَّلبة). وبناءً على ذلك لا يلزم من نفي كونه رسولًا نفي كونه نبيًّا.

أقول: وبناءً على ما سبق فلا يوجد دليل على نبوَّتها، كما أنَّه لا يستطيع أحدٌ أن يقول: إنها ليستْ نبيَّة؛ لانتفاء الدَّليل كما سبق .

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج:٥٢]، والعطفُ يقتضي المغايرة. وما استدلُّوا به من قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ [1] غير منتج؛ لأنَّه أعمُّ من المدَّعى، ومن القواعد والأسس أنَّه يلزم من ثبوت الأخصِّ ثبوتُ الأعمِّ، ولا يلزم من ثبوت الأعمِّ ثبوتُ الأخصِّ، وقد تقرَّر أنَّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولا، فبينهما عموم وخصوص مطلق[2].

والحاصل أنَّ الخلاف إنما جرى ذكره هنا لبيان أنَّها ليست واسطة في تبليغ الخطاب على معنى أنَّها مرسلة، وهذا لا خلاف فيه.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي (٢/ ٣٨)، وانظر: أحكام القرآن، للجصَّاص (٢/ ٢٩٣).

(٢) العموم والخصوص المطلق بمعنى: أن يصدقا على شيءٍ، وينفردُ الأعمُّ منهما، مثل النِّسبة بين الحيوان والإنسان، أمَّا العموم والخصوص الوجهي فهو أن يجتمعا في شيءٍ وينفرد كلٌّ منهما في شيءٍ، مثل النِّسبة بين الحيوان والأبيض.

ي- المقاصدُ من الوحي، وتتمثَّل في مراتبِ الهداية الخاصَّة والعامَّة:

وهي عشر مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله ﷻ لعبده يقظةً بلا واسطة، بل منه إليه:

وهذه أعلى مراتبها كما كلَّم موسى -عليه السلام-، قال الله ﷻ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ ، فذكر في أوَّل الآية وحيه إلى نوح -عليه السلام- والنَّبيين من بعده[(١)]، ثمَّ خصَّ موسى -عليه السلام- من بينهم بالإخبار بأنَّه كلَّمه، وهذا يدلُّ على أن التَّكليم الَّذي حصل له أخصُّ من مطلق الوحي الَّذي ذكر في أوَّل الآية[(٢)].

الثَّانية: مرتبة الوحي المختصِّ بالأنبياء:

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء:١٦٣]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]. الآية. فجعل الوحي في هذه الآية قسما من أقسام التكليم وجعله في آية النساء قسيما للتكليم وذلك باعتبارين، فإنه قسيم التكليم الخاص الذي هو بلا واسطة وقسم من التكليم العام

---

(١) وتمام الآيتين: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾﴾ [النِّساء: ١٦٣-١٦٤].

(٢) بتصرُّفٍ واختصار عن (مدارج السَّالكين) (١/ ٣٧)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ١٢٩-٥٥٨)، وانظر: الصَّفدية (١/ ٢٤٩)، بغية المرتاد في الرَّد على المتفلسفة والقرامطة والباطنيَّة (ص:٣٨١)، بدائع الفوائد (٢/ ٣١٢).

الذي هو إيصال المعنى بطرق متعددة.

الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري:

فيوحي إليه عن الله ﷻ ما أمره أن يوصله إليه، فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا تكون لغيرهم[(١)].

الرابعة: مرتبة التحديث وهذه دون مرتبة الوحي الخاص:

«وتكون دون مرتبة الصديقين كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه كما قال النبي ﷺ: «**إن في أمتي لمحدثين وإن عمر منهم**»[(٢)].

وقد جزم ابن تيمية رحمه الله «بأنهم كائنون في الأمم قبلنا وعلق وجودهم في هذه الأمة بـ: (إن) الشرطية مع أنها أفضل الأمم لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ﷺ ورسالته، فلم يحوج الله ﷻ الأمة بعده إلى محدث، ولا ملهم، ولا صاحب كشف، ولا منام، فهذا التعليق؛ لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها..و(المحدث) هو الذي يحدث في سره وقلبه بالشيء فيكون كما يحدث به..» [(٣)].

---

(١) انظر: مدارج السَّالكين (١/ ٣٨-٣٩)، الرَّد على المنطقيين (ص:٥٣٩)، وانظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣٩٧-٣٨٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ [٣٤١٣، ٣٥٧٧]. ونصُّ الحديث عند البخاريِّ: «عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب». ومسلم [٤٤١١]، وقد جاء هذا المعنى مفصَّلاً في (الإقناع بين طريقة القرآن وعرض المفسِّر) (ص٢٥- ٢٧).

(٣) المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١/ ١١١)، مدارج السَّالكين (١/ ٣٩).

الخامسة: مرتبة الإفهام:

قال الله ﷻ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩].

السَّادسة: مرتبة البيان العامِّ:

«وهو تبيين الحقِّ وتمييزه من الباطل بأدلَّته وشواهده وأعلامه بحيث يصير مشهودًا للقلب كشهود العين للمرئيَّات، وهذه المرتبة هي حجَّة الله ﷻ على خلقه الَّتي لا يعذِّب أحدًا ولا يُضلُّه إلا بعد وصوله إليها. قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ [التوبة:١١٥]، فهذا الإضلال عقوبةً منه لهم حين بيَّن لهم فلم يقبلوا ما بيَّنه لهم، ولم يعملوا به، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضلَّ الله ﷻ أحدا قطُّ إلا بعد هذا البيان..».

السَّابعة: البيان الخاصُّ:

«وهو البيان المستلزم للهداية الخاصَّة، وهو بيان تقارنه العناية والتَّوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب، فلا تتخلَّف عنه الهداية البتَّة. قال ﷻ في هذه المرتبة: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾ [النحل: ٣٧]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦]، فالبيان الأوَّل شرط، وهذا موجب».

الثَّامنة: مرتبة الإسماع:

«قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]. وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، وهذا الإسماع أخصُّ من إسماع الحجَّة والتَّبليغ، فإنَّ ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجَّة عليهم، لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب».

المرتبة التَّاسعة: مرتبة الإلهام:

قال ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧-٨].

«والتَّحديث أخصُّ من الإلهام، فإنَّ الإلهام عامٌّ للمؤمنين بحسب إيمانهم، فكلُّ مؤمن فقد ألهمه الله ﷻ رشده الَّذي حصل له به الإيمان، فأمَّا التَّحديث فالنَّبي ﷺ قال فيه: «**إنَّ في أمتي لمحدَّثين، وإنَّ عمر منهم**»، يعني من المحدَّثين، فالتَّحديث إلهام خاصٌّ، وهو الوحي إلى غير الأنبياء»(١).

المرتبة العاشرة: الرُّؤيا الصَّادقة:

وهي من أجزاء النُّبوة كما ثبت عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: «**الرُّؤيا الصَّالحة من الرَّجل الصَّالح جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءًا من النُّبوة**»(٢).

---

(١) مدارج السَّالكين (١/ ٤١- ٤٤)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ١١).

(٢) أخرجه البخاريُّ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، [٦٤٦٨]. وقد سبق بيان روايات الحديث.

ك- النَّتائج:

١ - الوحيُ هو الواسطة بين منـزِّل الخطاب ﷻ، وبين مبلِّغه ﷺ إلى المخاطَبين، وله طرق ومعانٍ هي صلةٌ بين المخاطِب ﷻ -بكسر الطاء المهملة- ومبلِّغ الخطاب ﷺ ...

٢ - الموحى إليه أعمُّ من أن يكون إلى الأنبياء والأولياء، بل يشمل غير الأولياء كذلك من أهل سخطه ﷻ كإبليس المكلَّم من قِبَل الله ﷻ، وكالأقرع والأبرص المحدَّثين من قِبَل المَلَك..، ويكون أيضًا بالإشارة والإلهام..، وإلى البشر وإلى غيرهم من المخلوقات الأخرى..

٣ - ما يأتي به الوحي له من الأهميَّة ما لا يخفى، وهو يفيدُ العقلَ ما لا يستقلُّ بمعرفته؛ لأنَّ ملكات الإنسان محدودة...

٤ - أمّا بيان موقعه من موضوع البحث هنا فهو من المكمِّلات حتى لا تفقد حلقة من حلقاته، وهي كونه واسطة -كما أسلفت-، كما أنَّ فيه التَّصريح ببعض صور الخطاب، كَأَنْ يكون المخاطَب رسولا أو غير رسول، نبيًّا أو غير نبيٍّ، من أولياء الله ﷻ أم من أهل سخطه -كما أسلفت-.

٣ - التَّعريف بالنُّـزول

أ- تَقَدُّمُ مبحث النـُّزول على غيره من مباحث علوم القرآن:

لـمَّا كان العلم بنـزول الخطاب القرآني سابقًا سبق أصالةٍ ووجود على تبليغ النَّازل فضلًا عن امتثال ما فيه، والعمل به، وعن العلم بما يتعلَّق بالخطاب نفسه ناسب أن يتقدَّم هذا المبحث ذكرًا، ولما هو متقرِّرٌ من أنَّ حقَّ ما هو مقدَّم طبعًا أن يتقدَّم وضعًا.

يقول الشَّيخ الزُّرقاني: «هذا مبحث مهمٌّ في علوم القرآن، بل هو أهمُّ مباحثه جميعًا؛ لأنَّ العلم بنـزول القرآن أساسٌ للإيمان بالقرآن، وأنَّه كلام الله ﷻ، وأساسٌ للتَّصديق بنبوَّة الرَّسول ﷺ، وأنَّ الإسلام حقٌّ، ثمَّ هو أصلٌ لسائر المباحث الآتية بعد في علوم القرآن، فلا جرم أن يتصدَّرها جمعاء؛ ليكون من تقريره وتحقيقه سبيلٌ إلى تقريرها وتحقيقها، وإلا فكيف يقوم البناء على غير أساسٍ ودعام؟»[١].

ب- **معنى (النُّـزول) لغة**: الهبوط من علوٍ إلى سفل .ينـزل نزولًا، ويتعدَّى بالحرف والهمزة والتَّضعيف فيقال: نَزَلْتُ به، وأَنْزَلْتُهُ، ونَزَّلْتُهُ، واسْتَنْزَلْتُهُ، بمعنى: أَنْزَلْتُهُ. و(المنْزِلُ): موضع النُّزول، و(المنْزِلَةُ) مثله، وهي أيضًا: الْمَكَانَةُ، و(نَزَّلْتُ هذا مكان هذا): أَقَمْتُهُ مُقَامَهُ. و(نَزَلْتُ عن الحق): تركته، و(أَنْزَلْتُ الضيف) -بالألف- فهو (نَزِيلٌ) فعيل بمعنى مفعول، و(النُّزُلُ) بضمتين طعام النَّزيل الَّذي يهيَّأ له. و(النُّزُول):

(١) مناهل العرفان (١/ ٣٠).

الحلول، و(قد نَزَلَهُم)، و(نَزَلَ بهم)، و(نَزَلَ عليهم يَنْزِلُ نُزولًا ومَنْزِلًا): حَلَّ. و(نَزَّلَهُ تَنْزِيلًا)، و(أَنْزَلَهُ إِنْزَالًا)، و(مُنْزَلًا) كمُجْمَلٍ. و(تَنَزَّلَ): نَزَلَ في مُهْلَةٍ. الْمَكَانَةُ...»[(١)].

وممَّا سبق يتبيَّن أنَّ (النُّـزول) في اللُّغة يطلق على معنيين:

أحدهما: الانحدارُ من علوٍ إلى سفل:

انحدارُ الشَّيء من علوٍ إلى سفل نحو: (نزلَ فلانٌ من الجبل)، والمتعدِّي منه يكون معناه: تحريك الشَّيء من علوٍ إلى سفل، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

ثانيهما: الحلول بالمكان:

والمراد: الحلول في مكان والأوي به، ومنه قولهم: (نزلَ الأميرُ المدينة)، والمتعدِّي منه وهو (الإنزال) يكون معناه: إحلال الغير في مكان وإيواءه به، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: ٢٩].

«لكن الظَّاهر أنَّ المعنى الأوَّل، وهو الانحدار من علوٍ إلى سفل هو الأصل في المادَّة، وإن كثُر استعمالها في المعنى الثَّاني حتَّى صارت فيه حقيقةً لغويَّة أيضًا، وشعور النَّفس بأنَّ المعنى الأوَّل هو الأصل في

(١) انظر: مادَّة: (نَزَلَ) في كلٍّ من (المصباح المنير) (٢/ ٦٠٠-٦٠١)، لسان العرب (١١/ ٦٥٦)، تاج العروس (٣٠/ ٤٨١)، المحكم والمحيط الأعظم (٩/ ٤٦)، المغرب (٢/ ٢٩٧)، الصِّحاح، للجوهري (٥/ ١٨٢٩)، التَّعاريف (ص: ٢٩٣).

استعمال المادَّة يكاد يكون فطريًّا»[١].

ج- معنى (النُّـزول) اصطلاحًا:

جاء التَّعبير بمادَّة نزول القرآن الكريم وما تصرَّف منها في القرآن الكريم، ومن أمثلته: قوله ﷻ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء:١٠٥].

أقول: إنَّ المراد من معنى النُّـزول هنا: ما يدلُّ على نزول الخطاب القرآني من حيث معناه الأعم، وقد قيِّد بكونه قرآنيًّا.

وينبغي أن نلاحظ أهميَّة هذا المبحث بالنِّسبة لموضوع البحث:

١- يبيَّن أهميَّة تقدُّمه على غيره من مباحث علوم القرآن.

٢ - ويبيَّن أنَّه أساسٌ لا بدَّ منه لغيره من المباحث.

وينبغي أن نلاحظ أنَّ للقرآن الكريم وجوداتٌ ثلاثة:

«١ - وجودٌ في اللَّوح المحفوظ.

٢ - وجود في السَّماء الدُّنيا [على قول من قال بذلك، وهو أمرٌ مختلفٌ فيه بين علماء علوم القرآن].

٣ - وجودٌ في الأرض بنـزوله على النَّبي ﷺ.

ولم يقترن لفظ: (النُّـزول) إلا بالوجود الثَّاني والثَّالث، أمَّا الوجود الأوَّل فلم يرد لفظ: (النُّـزول) مقترنًا به قطُّ، وعلى هذا فلا ينبغي أن نسميه نزولًا أو تنـزُّلًا»[٢].

---

(١) منَّة المنان في علوم القرآن (١/ ٦-٨)، التِّبيان في علوم القرآن، للشَّيخ الصَّابوني (ص: ٤٥).
(٢) انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبة (ص: ٤٨).

أقول: يلاحظ على ما حكاه الشَّيخ الدُّكتور أبو شهبة في (المدخل) ما يلي:

١- فيه ردٌّ على من قال من علماء علوم القرآن بالتَّنزل إلى (اللَّوح المحفوظ) كالشَّيخ الزُّرقاني في (مناهل العرفان)[١].

٢ - إنَّ الشَّيخ هو ممَّن رجَّح نزول القرآن الكريم إلى السَّماء الدُّنيا. وقد ذكر ذلك كثيرٌ من علماء التَّفسير وعلوم القرآن[٢]، وهو ممَّا قد اختلف فيه المفسِّرون وعلماء علوم القرآن، وقد بسط الخلاف في ذلك وحقَّقه الأستاذ الدُّكتور إبراهيم خليفة في (منَّة المنان)[٣]، وردَّ ما جاء من نزوله إلى السَّماء الدُّنيا في كلامٍ مطوَّل.

ولا يختلف أحدٌ أنَّ القرآن الكريم كان في (اللَّوح المحفوظ) قبل النُّزول لقوله ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١-٢٢].

(١) ذكر الشَّيخ الزُّرقاني أنَّ للقرآنِ ثلاثة تنزُّلات: «التَّنزل الأوَّل: إلى اللَّوح المحفوظ، ودليله قوله ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. المناهل (١/ ٣٢)، ثمَّ ذكر التَّنزل الثَّاني إلى (بيت العزة) في السَّماء الدُّنيا، ثمَّ ذكر التَّنزل الثَّالث بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام يهبط به على قلب النَّبي ﷺ، واستدلَّ على ذلك. انظر: المناهل (١/ ٣٢-٣٥).

(٢) انظر: على سبيل المثال: الطَّبري (٢/ ١٤٤)، القرطبي (٢/ ٦٢، ٢٩٧)، (١٦/ ١٢٦)، (٢٠/ ١٣٠)، المناهل (١/ ٣٢-٣٥)، ابن كثير (١/ ٢١٧)، (٣/ ٦٩، ٣١٩)، (٤/ ٢٤٠، ٥٣٠)، الدُّر المنثور (١/ ٤٥٧)، (٥/ ٣٤٦)، (٨/ ٥٦٧)، تفسير الواحدي (١/ ١٥٠)، البغوي (١/ ١٥١)، فتح القدير (١/ ١٨٤، ٥٧٠)، (٥/ ٤٧٣)، زاد المسير (١/ ٥، ١٨٧)، (٩/ ١٨١)، روح المعاني (١/ ٣٤)، (٣/ ٧٦)، (١١/ ٥٩)، (١٥/ ١٨٨)، (١٩/ ١٢١)، (١٩/ ١٣٣)، (٣٠/ ١٨٩)، كتب ورسائل ابن تيمية في التَّفسير (١٢/ ١٢٦)، (١٥/ ٢٢٣)، (١٦/ ٣٠٧)، البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٧، ٢٢٩)، الإتقان (١/ ١١٨، ١٢٦)، فضل القرآن (١/ ٧٠).

(٣) انظر: منَّة المنان في علوم القرآن من (ص: ٢٩) إلى (٨٥).

٤ - مبلِّغ الخطاب

توطئة:

لا بدَّ من الإشارة أوَّلا إلى أنَّ مبلِّغ الخطاب القرآني هو الرَّسول محمَّد ﷺ.

وإنَّ التَّعريف بمبلِّغ الخطاب القرآني له من الأهميَّة ما لا يخفى، فهو يدلُّ على أهليَّة المبلِّغ لتبليغ الخطاب القرآني، وذلك من خلال التَّعرف على صفاتِ المبلِّغ ﷺ، وبيان أنَّه لا ينطق عن الهوى، وأنَّ كونه بشرًا مع يضاف إلى ذلك من صفاته وخصائصه ﷺ له أثرٌ في تفعيل الخطاب القرآني، ويجعله في مقامِ الأسوة والقدوة، وأيضًا يبيِّن للنَّاس ما نزِّل إليهم من الخطاب، وكذلك يتبيَّن للمخاطَب المكلَّف: الغاية والهدف من إرسال الرُّسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام-.

كما أنَّ التَّعرف على صيغ الخطاب القرآني الخاصَّة بخطابِ مبلِّغ الخطاب القرآني ﷺ ممَّا له صلةٌ بمحور البحث، وكذلك كان الاهتمام ببيان ما يستفاد من الأهداف والمقاصد.

وأخيرًا فإنَّ التَّعريف بمبلِّغ الخطاب القرآني لا بدَّ أن يسبق التَّعريف بالخطاب وضعًا، وذلك مما يقتضيه التَّدرج في التَّعريفات.

- **أوَّلاً: التَّعريفُ بمبلَّغ الخطاب القرآني (الرَّسول ﷺ):**

لا بدَّ من الإشارة هنا إلى الاهتمام بإبرازِ صيغِ الخطاب والتَّمهيد

لذلك بإيجاز؛ إذ إنَّ التَّعريف بالمبلِّغ يحتاجُ إلى مجلداتٍ كثيرة، وقد كفانا مؤونة ذلك ما كتبه الأئمَّة الأعلام قديمًا وحديثًا[1]؛ ولذلك فإنَّ الاهتمام هنا بما له صلة بمحور البحث من إبراز للصِّيغ من حيث كونها خطابًا.

وأوَّل ما ينبغي أن يعلم أنَّ الرَّسول محمَّد ﷺ هو مبلِّغ الخطاب القرآني لقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ [الأنعام: ١٩].

كما أنَّه ﷺ يبيِّن للنَّاس ما نزِّل إليهم كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل: ٦٤].

كما أنَّه لا ينطق عن الهوى قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم: ٣-٥]. وقال الله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠]. وقال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا

---

(١) ولعلَّ من خير ما كتب حديثًا في ذلك: (موسوعة نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول ﷺ)، وهو من إعداد مجموعة من المتخصِّصين، طبع دار الوسيلة، في جدَّة، المملكة العربيَّة السُّعوديَّة. ولذلك فإنَّ المنهج المتَّبع في هذه الدِّراسة عمومًا، وفي هذا المبحث خصوصًا -على ما فيه من إيجاز- يتناسق مع محور البحث، ويتمِّم لبناته..

ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف:٢٠٣]. وقال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾﴾ [يونس:١٥]. وقال الله ﷻ: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف:٩].

ومن هنا كان لا بدَّ من ذكر صفاتِ المبلِّغ ﷺ، وأهميَّة معرفة المكلَّف ذلك..

١- إنَّ أهميَّة ذكر صفاتِ مبلِّغ الخطاب تدلُّ على أنَّ به من الصِّفات ما يجعله أهلًا لذلك التَّبليغ، وقد وصف الرسول ﷺ بأنَّه أسوة: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب:٢١]، ولا شكَّ أنَّه لا يكون أسوة إلا إذا كان له من الصِّفات ما يؤهِّله للاصطفاء، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج:٧٥]، ولتلك الصِّفات أثرٌ بالنِّسبة للمخاطَب -بفتح الطاء المهملة- يدفعه إلى قبول الخطاب عن محبَّة منه. وإذا كان التَّرغيب والتَّرهيب يؤثرُ في نفس المخاطَب ويحمله على امتثال ما يتضمَّنه الخطاب من الأوامر، والانتهاء عن النَّواهي، فإنَّ أساس الاتباع يكون محبَّة من المكلَّف للمخاطِب ﷻ -بكسر الطاء المهملة- والمبلِّغ ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، وقد جاء في

الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ**»(١). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(٢).

وممَّا جاء في شرح النَّووي رحمه الله: «أنَّه لم يرد بِهِ حُبّ الطَّبع، بل أراد بِهِ حبَّ الاختيار؛ لأنَّ حُبَّ الإنسان نَفْسَه طبع، ولا سبيل إلى قلبه. قال: فمعناه لا تَصدُق في حُبِّي حتى تُفْني في طاعتي نفسك، وتُؤثر رضاي على هواك، وإن كان فيه هلاكك. وممَّا قاله القاضي عياض وغيره(٣): المحبَّة ثلاثة أقسام: محبَّة إجلال وإعظام كمحبَّةِ الوالد، ومحبَّة شفقة ورحمة كمحبَّةِ الولد، ومحبَّة مشاكلة واستحسان كمحبَّةِ سائر النَّاس، فجمع ﷺ أصناف المحبَّة في محبَّته. والمعنى: أنَّ من استكمل الإيمان علم أنَّ حقَّه ﷺ آكدُ عليه من حقِّ أبيه وابنه والنَّاس أجمعين؛ لأنَّ به ﷺ استنقذنا من النَّار، وهدينا من الضَّلال. قال القاضي عياض رحمه الله: ومن محبَّته ﷺ: نصرةُ سنَّته، والذَّبُّ عن شريعته، وتمني حضور حياته، فيبذل ماله ونفسه دونه، قال [أي: القاضي عياض في (إكمال المعلم)]: وإذا تبيَّن ما ذكرناه تبيَّنَ أنَّ حقيقة الإيمان لا يتمُّ إلا بذلك، ولا يصحُّ الإيمان إلا بتحقيق إعلاء قدر النَّبي

(١) أخرجه البخاريُّ [١٣].

(٢) أخرجه مسلم [٦٢].

(٣) انظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (١/ ٢٨٠-٢٨١).

ﷺ ومنـزلته على كلِّ والد وولد ومحسن ومفضل، ومن لم يعتقد هذا واعتقد سواه فليس بمؤمن(١).

ثانيًا: موافقةُ بعض أسماء أو صفاتِ النَّبي ﷺ بعض أسماء الله ﷻ الحسنى:

أ- **الرَّؤوف الرَّحيم**: قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]. وفي الآية ما يدلُّ على حرص النَّبي ﷺ على أمَّته، وهذا الحرص له أوجه متعدِّدة، والَّذي له صلةٌ بموضوع البحث هنا حرصه ﷺ على تبليغ الخطاب القرآني على أكمل وجه قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، بالإضافة إلى كونه الأسوةَ في العمل والتَّطبيق، وذلك له أثره في تفعيلِ الخطاب.

ب- **المبين**: قال الله ﷻ: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ [الحجر: ٨٩]. ويلاحظ أنَّ كونه ﷺ منذرا ممَّا يحمل المخاطَب على التَّنبه لمضمون الخطاب، والعمل به.

ج- **الحقُّ**: قال ﷻ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٥]. وقد قيل: الحقُّ هو محمَّد ﷺ(٢).

---

(١) بتصرُّفٍ عن (شرح النَّووي على صحيح مسلم) (٢/ ١٦)، وإكمال المعلم (١/ ٢٨٠-٢٨١). وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٦٣)، والبخاري بشرح الكرماني (١/ ٩٧-٩٩)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/ ٦٦)، وإرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري (١/ ١٣٨)، الدِّيباج على مسلم (١/ ٦٠).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (٧/ ١٤٩)، القرطبي (١٧/ ٤)، البغوي (٢/ ٨٥)، ابن عادل

وقيل: القرآن الكريم[1]. وسواء كان المراد بالحقِّ مبلِّغ الخطاب (محمَّد ﷺ)، أو كان المراد به الخطاب القرآني نفسه بمعناه الأعم، فإنَّ التَّكذيب لواحد منهما تكذيب للآخر، وهو تكذيبٌ للحقِّ الواضح المبين.

د- **الشَّهيد**: قال الله ﷻ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل:٨٩]، ﴿وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا﴾ [الحج:٧٨]. وفي ذلك ما يثبت أنَّ المبلِّغ يشهد على من بلَّغه الخطاب القرآني بعد أن بُلِّغ وبُيِّن له .

هـ- **الخبير**: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩]. ومن أخبر من المبلِّغ المبيِّن للنَّاس ما نزِّل إليهم؟! والَّذي لا ينطقُ عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى.

و- **النُّور**: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥]. قيل: المراد بالنُّور: محمَّد ﷺ[2]. وقد قال الله ﷻ:

(٢٧/٨)، المحرَّر الوجيز (٢٦٨/٢)، البحر المحيط (٧٩/٤)، الخازن (١١٩/٢)، السِّراج المنير (٤٧٣/١).

(١) انظر: روح المعاني (٦٢/٧)، أبو السُّعود (١٠٩/٣)، زاد المسير (٤/٣)، البيضاوي (٣٩٢/٢)، البغوي (٨٥/٢)، الجلالين (ص: ١٦٢).

(٢) انظر: الطَّبري (١٦١/٦)، وهو قول الزَّجاج. انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (١٦١/٢)، القرطبي (١١٨/٦)، البيضاوي (٣٠٧/٢)، النَّسفي (٣٩٨/١)، وهو قول قتادة كما في (زاد المسير) (٣١٦/٢)، البحر المديد (١٥٦/٢)، الدُّر المنثور (٤٣/٣)، الكشف والبيان (٣٩/٤)، تفسير ابن عادل (٢٥٩/٧)، الثَّعالبي (٤٥٣/١)، الخازن

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥]. «وقد سمَّى الله ﷻ كتابه نورًا فقال: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤]، وسمَّى نبيَّه ﷺ نورًا فقال: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ ، وهذا لأنَّ الكتاب يهدي ويبيِّن، وكذلك الرَّسول ﷺ»[1].

وإذا علم المكلَّف أو المخاطَب ذلك تبيَّن له ما للمبلِّغ ﷺ من مكانةٍ ومنـزلةٍ وتأهُّل للتَّبليغ، وتفعيلٍ للخطاب القرآني، ومن ثَمَّ كيفية التَّعامل مع المبلِّغ ﷺ من حيث التَّقدير والتَّوقير، يستفاد ذلك من الخطاب القرآني نفسه، فإنَّه يدلُّ على أنَّ الله ﷻ أعلى من ذكر محمَّد ﷺ حيث قال: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾ [الشرح: ٤]، وذلك مما يحمل المخاطَبين على التَّقدير والتَّوقير والاتِّباع والنُّصرة، وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ونهى الله ﷻ عن نداء النَّبي ﷺ باسمه مجرَّدًا، قال ﷻ: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النُّور: ٦٣]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن

(٢/ ٢٨)، السِّراج المنير (١/ ٤٢٠)، الرَّازي (٢/ ٢٥٨)، روح المعاني (٦/ ٩٧)، تفسير النَّيسابوري (٢/ ٥٧٠)، (٤/ ٥٣٠)، تفسير الماوردي (٢/ ٢٢).

(١) القرطبي (١٢/ ٢٥٧) .

تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات: ٢-٣]، وتعلم هذه المكانة أيضًا من اقتران اسمه ﷺ باسم الله ﷻ في شهادة التَّوحيد الَّتي هي إحدى أركان الإسلام، وفي الخطب والأذان، وفي الآيات القرآنيَّة الَّتي توجب طاعةَ الرَّسول ﷺ كقوله ﷻ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وكذلك ينبغي الاقتداء بأسلوب القرآن الكريم في مخاطبةِ النَّبي ﷺ، ووصفه بما يليق به من الصِّفات حيث لم يقع الخطاب في القرآن الكريم بـ: (يا محمَّد) بل بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، وبـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤] تعظيمًا له ﷺ وتشريفًا.

ثالثًا: أسماء أو صفات أخرى في القرآن الكريم:

أقتصر على ما ورد في القرآن الكريم، ومنها:

١ - (**محمَّد** ﷺ): وهو أشهرها[1]، قال ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقد ورد اسم محمَّد ﷺ في أربعة مواضع وهي: [آل عمران: ١٤٤]، [الأحزاب: ٤٠]، [محـمَّد ﷺ: ٢]، [الفتح: ٢٩].

٢ - (**المنذر**): قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾ [الرعد: ٧]. وقد ورد في أربعة مواضع وهي: [الرَّعد: ٧]، [ص: ٤، ٦٥]، [ق: ٢]، [النَّازعات: ٤٥].

٣ - ٤ - ٥ - (**الشَّاهد - المبشِّر - النَّذير**). قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) انظر: زاد المعاد (١/ ٨٧).

ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب:٤٥]. وقد وردت في موضعين: [الأحزاب:٤٥]، [الفتح:٨]، والشَّاهد له ذكر في موضع آخر: [المزمِّل:١٥].

٦ - (**الدَّاعي إلى الله** ﷻ): ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [الأحزاب:٤٦]. وقد ورد في موضع واحد، وورد أنَّه يدعو على بصيرة: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف:١٠٨].

٧ - (**السِّراج المنير**): قال الله ﷻ: ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب:٤٦]، في موضع واحد أيضًا.

٨ - (**خاتمُ النَّبيين**): ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب:٤٠]، في موضع واحد أيضًا.

٩ - ومنها: (**أحمد**): وقد ورد في موضع واحد. قال الله ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف:٦] (١).

١٠ - (**عبد الله**): ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجن:١٩]، في موضع واحد أيضًا.

١١- (**المُذَكِّر**): ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾﴾ [الغاشية:٢١]، في موضع واحد أيضًا.

---

(١) وينظر في بيان معنى الاسمين مفصَّلا ومبيَّنًا: (زاد المعاد) (١/ ٨٩)، (١/ ٩٣)، وجلاء الأفهام (١/ ١٩٣)، (١/ ٢٠١).

١٢ - (**الْمُزَّمِّلُ**): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل:١]، في موضع واحد أيضًا.

١٣ - (**الْمُدَّثِّرُ**): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر:١]، في موضع واحد أيضًا.

١٤ - ١٥ - ١٦ - (**الرَّسول - النَّبي - الأمِّي**). وقد اجتمعت هذه الأوصاف الثَّلاثة في قول الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف:١٥٧]. وقد جاء الوصف بالأمِّي أيضا في قوله ﷻ: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢].

١٧- (**الرَّحمة المهداة**): ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]. وقال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

*وقد اختلف في: (**طه**) و(**يس**)، هل هي من أسماء النَّبي ﷺ؟ والخلاف مبسوط في كتب التَّفسير. وقد فصَّل ذلك على سبيل المثال: القرطبيُّ في (تفسيره)[1]، وكذلك الشَّوكانيُّ.

رابعا: صيغُ مخاطبةِ الرَّسول ﷺ:

أ- ما كان الخطاب في وصفه بأنَّه مرسل. وهو وصف مدح وتشريف. وقد ورد في موضعين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة:٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

---

(١) تفسير القرطبي (١١/١٦٦) .

ب. ما كان في وصفه بأنَّه نبيٌّ. وهو أيضًا وصفُ مدحٍ وتشريف. وقد ورد في ثلاثة عشر موضعًا، وهي النَّحو التَّالي:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ [الأنفال: ٧٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة: ١٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].

وفي المغايرة بين الوصفين يقول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢].

وسيأتي في المقاصد بيان ما يتعلَّق بهذه الصِّيغة من المقاصد..

ج. ما كان وصفًا لحاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ في موضع واحد: [المدَّثر: ١].

وما كان وصفًا لحاله أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ في موضع واحد: [المزَّمل: ١] .

ويلاحظُ في صيغِ الخطاب القرآني السَّابقة أنَّها مسبوقةٌ بياء النِّداء، والَّتي هي من صيغِ الخطاب القرآني، والَّتي لها ما لها من الأهميَّة، وسيأتي ما يتعلَّق بالنِّداء بهذه الصِّيغة في الخطاب القرآني في (النِّداء). ولكن ينبغي الإشارة هنا إلى أن النِّداء أعمُّ من أن يعقبه الطَّلب، وأنَّه قد ينفكُّ عن الأمر والنَّهي -كما سيأتي-.

أمَّا ما ولي خطاب الله ﷻ لنبيِّه ﷺ فهو إمَّا تكليف أو توجيه، فالتَّكليف بقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ؛ لأنَّ ما بعدهما تكليف وتوجيه وإرشاد؛ ولذلك ألحقهما بعبارات تدلُّ على ذلك مثل قوله ﷻ: ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ، ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ ، ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ ، ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ ، ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ ......الخ.

أمَّا قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ ، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ ، فما

بعدها، توجيه لترك الادِّثار والتَّزمُّل لأمر أهم، وهو قيام اللَّيل والإنذار، وإن كان ما بعد الخطابين تكليف، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل: ١-٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ١-٥].

خامسًا: صيغ أخرى لخطاب اللَّه ﷻ لنبيِّه ﷺ:

أ. الخطاب القرآني بصيغة الأمر ﴿قُلْ﴾ . أمَّا عدد الآيات فهي: [٢٧٠]، وأمَّا عدد التَّكرار فهو: [٢٩٤]. وهي: [البقرة: ٨٠، ٩١، ٩٣، ٩٤، ٩٧، ١١١، ١٢٠، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٨٩، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢]، و[آل عمران: ١٢، ١٥، ٢٦، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٦٤، ٧٣، ٨٤، ٩٣، ٩٥، ٩٨، ٩٩، ١١٩، ١٥٤، ١٦٥، ١٦٨، ١٨٣]، و[النِّساء: ٧، ٧٧، ٧٨، ١٢٧، ١٧٦]، و[المائدة: ٤، ١٧، ١٨، ٥٩، ٦٠، ٦٨، ٧٦، ٧٧، ١٠٠]، و[الأنعام: ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ١٩، ٣٧، ٤٠، ٤٦، ٤٧، ٥٠، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٧١، ٩٠، ٩١، ١٠٩، ١٣٥، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٨، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤]، و[الأعراف: ٢٨، ٢٩، ٣٢، ٣٣، ١٥٨، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٥، ٢٠٣]، و[الأنفال: ١، ٣٨، ٧٠]، و[التَّوبة: ٢٤، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٦١، ٦٤، ٦٥، ٨١، ٩٤]، و[يونس: ١٥، ١٦، ١٨، ٢١، ٣١، ٣٤، ٣٥، ٣٨، ٤٩، ٥٠، ٥٣، ٥٨، ٥٩، ٦٩، ١٠١، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٨]، و[هود: ١٣، ٣٥]، و[يوسف: ١٠٨]،

و[الرَّعد: ١٦، ٢٧، ٣٠، ٣٣، ٣٦، ٤٣]، و[إبراهيم: ٣٠، ٣١]، و[النَّحل: ١٠٢]، و[الإسراء: ٤٢، ٥٠، ٥١، ٥٦، ٨٤، ٨٥، ٨٨، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ١٠٠، ١٠٧، ١١٠]، و[الكهف: ٢٢، ٢٦، ١٠٣، ١٠٩، ١١٠]، و[مريم: ٧٥]، و[طه: ١٣٥]، و[الأنبياء: ٢٤، ٤٢، ٤٥، ١٠٨]، و[الحجّ: ٤٩، ٧٢]، و[المؤمنون: ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٣]، و[النُّور: ٣٠، ٥٣، ٥٤]، و[الفرقان: ٦، ١٥، ٥٧، ٧٧]، و[النَّمل: ٥٩، ٦٤، ٦٥، ٦٩، ٧٢]، و[القصص: ٤٩، ٧١، ٧٢، ٨٥]، و[العنكبوت: ٢٠، ٥٠، ٥٢، ٦٣]، و[الرُّوم: ٤٢]، و[لقمان: ٢٥]، و[السَّجدة: ١١، ٢٩]، و[الأحزاب: ١٦، ١٧، ٢٨، ٥٩، ٦٣]، و[سبأ: ٣، ٢٢، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٠، ٣٦، ٣٩، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠]، و[فاطر: ٤٠]، و[يس: ٧٩]، و[الصَّافات: ١٨]، و[ص: ٦٥، ٦٧، ٨٦]، و[الزُّمر: ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٣، ١٤، ١٥، ٣٨، ٣٩، ٤٣، ٤٤، ٤٦، ٥٣، ٦٤]، و[غافر: ٦٦]، و[فصِّلت: ٦، ٩، ٤٤، ٥٢]، و[الشُّورى: ٢٣]، و[الزُّخرف: ٨١]، و[الجاثية: ١٤، ٢٦]، و[الأحقاف: ٤، ٨، ٩، ١٠]، و[الفتح: ١١، ١٥، ١٦]، و[الحجرات: ١٤، ١٦، ١٧]، و[الطُّور: ٣١]، و[الواقعة: ٤٩]، و[الجمعة: ٦، ٨، ١١]، و[التَّغابن: ٧]، و[الملك: ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٠]، و[الجن: ١، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٥]، و[الكافرون: ١]، و[الإخلاص: ١]، و[الفلق: ١]، و[النَّاس: ١].

ب- **ما كان تخويلاً من الله ﷻ لرَسوله ﷺ:**

أمَّا ما يُعَدُّ تخويلا من اللَّه ﷻ لرسوله ﷺ بمخاطبة النَّاس، وإيذانًا بأنَّه رسول الله إليهم فنحو قوله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس: ١٠٤]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الحج: ٤٩][1]. فرسالة الرَّسول ﷺ عامَّة لكلِّ النَّاس، والدَّعوة فيها متوجِّهة إلى عبادة اللَّه ﷻ وحده، والرَّسول ﷺ هو واسطة بين اللَّه ﷻ وعباده كلِّهم، فيجب عليهم أن يسمعوا لرسول اللَّه ﷺ، ويستجيبوا لرسالته.

سادسًا: الخطاب المباشر بصيغة النِّداء:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقد سبق بيان مواضع هذه الصيغ..

وممَّا يلاحظ أنَّه لم يقع في القرآن الكريم النِّداء بـ: (يا محمَّد) بل بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ ، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ تعظيمًا له وتبجيلًا وتخصيصًا بذلك عن سواه. وسيأتي بيان ذلك في (تنوُّع أساليب الخطاب القرآني)، كما سيأتي أنَّه خطابُ مدحٍ وتشريف وتكريم.

---

(١) وانظر: [العنكبوت: ٥٠]، [ص: ٧٠]، [الأحقاف: ٩]، [الذاريات: ٥٠- ٥١]، [الملك: ٢٦].

سابعًا: الخطاب بضمير المخاطَب[(١)]:

ولكن يبقى النَّظر هنا هل الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمَّته؟ أو هو من خطاب العام الذي لم يرد مخاطب معين؟ أو هو من خطاب العام ويدخل النبي ﷺ فيه؟ سيأتي تحقيق ذلك في موضعه.

أ. الخطاب بضمير المخاطَب: ﴿أَنتَ﴾ :

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٤٥].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: ١٠٧].

﴿...وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: ٩١][(٢)].

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ﴾ [النمل: ٨١].

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ﴾ [الروم: ٥٣].

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١].

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦].

---

(١) ملاحظة: حيث لا يتضح الشَّاهد إلاَّ بذكر الآية، فإني أذكر الآية؛ لينظر إلى موضع الشَّاهد فيها...

(٢) ونحوه الخطاب ليوسف عليه السلام من إخوته: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، ولشعيب عليه السلام من قومه: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٨٦].

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ [ق: ٤٥].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ [هود: ١٢] .

﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾ [هود: ٤٩].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾ [الرَّعد: ٧].

﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾[النَّحل: ١٠١].

﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣﴾ [فاطر: ٢٣].

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ٥٤﴾ [الذَّاريات: ٥٤].

﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩﴾[الطُّور: ٢٩].

﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾ [القلم: ٢].

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣﴾ [النَّازعات: ٤٣].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥﴾ [النازعات: ٤٥].

﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١﴾ [الغاشية: ٢١].

ب. الخطاب بضمير المخاطَب: (التاء):

وهو أنواع:

الأوَّل: تاء الفعل المضارع:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة: ٦].

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾ [البقرة: ٩٦].

﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾ [البقرة: ١٠٦] .

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧][(١)].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ [البقرة: ١١٩].

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤].

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة: ١٤٧][(٢)].

﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

والأمثلة كثيرة، وقد ذكرت في المتن نماذج من (سورة البقرة) فقس ما لم أذكره على ما ذكرته.

---

(١) ونحوه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٤٠]، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠].

(٢) ونحوه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس: ٩٥]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧].

الثَّاني: تاء الفعل الماضي:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة:٦].

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠][١].

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة:١٤٣][٢].

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا

---

(١) ونحوه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٤٥]، ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ٣٧﴾ [الرعد:٣٧].

(٢) ونحوه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران:٤٤]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء:١٠٢]، ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٩٤]، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ﴾ [هود:٤٩]، ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف:٣]، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ١٠٢﴾ [يوسف:١٠٢]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص:٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٤٥]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [القصص:٤٦]، ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [القصص:٨٦]، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الشورى:٥٢].

جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٥].

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٩][(١)].

الثَّالث: الخطاب بضمير المخاطَب (الكاف):

١ - للمفعول به[(٢)]:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩][(٣)].

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠][(٤)].

---

(١) ونحوه: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٥٠].

(٢) ولكثرة الأمثلة فإنَّ النَّظائر تذكرُ في الحاشية، وذلك بغرض الاختصار..، وحيث تكثر النَّماذج فإنِّي أكتفي بالتَّمثيل الَّذي يقاس عليه غيره، واختلاف ذلك إنما يرجع إلى كثرة الصِّيغ، ووضوحها في بعض المواطن، والحاجة إلى الاستقصاء في مواطنَ أخرى.

(٣) ونحوه: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ [الرعد: ٣٠]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٤]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فاطر: ٢٤]، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الفتح: ٨].

(٤) ونحوه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾ [آل عمران: ٦١]، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤]، ﴿...وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ =

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ [البقرة: ١٤٤] .

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩](1).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢٠٤].

والأمثلة كثيرة، وقد ذكرت في المتن نماذج من (سورة البقرة) فقس ما لم أذكره على ما ذكرته.

٢- للمجرور:

وأذكر نماذج من هذه الصِّيغ، حيث إنَّ الأمثلة كثيرة، وهي تأتي على النَّحو التَّالي:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤].

ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة: ١٢]، ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١]، ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾﴾ [عبس: ٨]. =

(١) ونحوه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٥]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ﴾ [المائدة: ٤]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢]، أمَّا ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ ففي المواضع التَّالية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ﴾ [الإسراء: ٨٥]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ﴾ [الكهف: ٨٣]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥].

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ﴾ [البقرة: ٩٩][1].
﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].
﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].
﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢].
والأمثلة كثيرة، وقد ذكرت في المتن نماذج من (سورة البقرة) فقس ما لم أذكره على ما ذكرته.

٣ - للمضاف إليه:
﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤].
﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧].
﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ [البقرة: ١٤٤].
﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَۚ﴾ [البقرة: ١٤٥].
﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة: ١٤٧].
والأمثلة كثيرة، وقد ذكرت في المتن نماذج من (سورة البقرة) فقس ما لم أذكره على ما ذكرته.

(١) ونحوه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥]، ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَۚ﴾ [العنكبوت: ٤٧]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٢].

ثامنًا: أقسام الخطاب الموجَّه إلى الرَّسول ﷺ:

إنَّ الخطاب الموجَّه للرَّسول في القرآن الكريم على ثلاثة أقسام:

القسمُ الأوَّل: أن يقوم الدَّليل على أنَّه خاصٌّ به فيختصُّ به.

القسمُ الثَّاني: أن يقوم الدَّليل على أنَّه عامٌّ فيعم.

القسمُ الثَّالث: أن لا يدلَّ دليل على هذا ولا على هذا، فيكون خاصًّا به لفظًا، عامًّا له وللأمَّة حكمًا.

مثال الأوَّل: قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ [الشرح: ١-٢]. ومثاله أيضا قوله ﷻ: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩].

ومثال الثَّاني الموجَّه للرَّسول ﷺ، وفيه قرينة تدلُّ على العموم قوله ﷻ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، فوجَّه الخطاب أوَّلا للرَّسول ﷺ، ولم يقل: (يا أيُّها الَّذين آمنوا إذا طلقتم)، ولم يقل: (يا أيها النَّبي إذا طلَّقت)، فدلَّ هذا على أنَّ الخطاب الموجَّه للرَّسول ﷺ موجَّهٌ له وللأمَّة.

وأمَّا أمثلة الثَّالث: فهي كثيرةٌ جدًّا يوجِّه الله ﷻ الخطاب للرَّسول ﷺ، والمراد الخطاب له لفظا، وللعموم حكمًا.

وقد تقرَّرَ في الأصول أنَّ الخطاب الخاصَّ به ﷺ يعمُّ حكمه جميع الأمَّة إلا بدليل على الخصوص كما عقده في (مراقي السُّعود) بقوله:

(ومـا بـه قـد خـوطـب الـنَّـبـي تعميمه في المذهب السُّني)[1].

(١) مراقي السُّعود، رقم [٣٧٢] (ص: ٥٠)، وسيأتي بيان ذلك كلِّه مفصَّلاً..[انظر: =

أمَّا الخطاب القرآني بصيغة الأمر فسيأتي في الأمر، والَّذي بصيغة النَّهي سيأتي في النَّهي، وكذلك الاستفهام والتَّعجب..

تاسعًا: واجب المكلَّف نحو المبلِّغ (الرسول ﷺ):

١- أن نؤمن به ونصدقه في كلِّ ما يقول، وأنَّه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنَّ شريعته عامَّة وشاملة لكلِّ زمان ومكان. قال الله ﷻ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٩٠]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف:١٠٤]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان:١]. ..، وأنها نسخت الشَّرائع السَّابقة، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة:٣٣]، وختمت الرِّسالات السَّماوية، قال الله ﷻ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، وأنَّ القرآن الكريم شاهدٌ على الكتبِ كلِّها وحاكمٌ عليها، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨]، وأنَّ حكمه هو الحكمُ

= ص:١٠٨]. والخطاب الخاصُّ بالنَّبي ﷺ فيه تفصيل مبسوط في كتب الأصول. انظر: نشر البنود على مراقي السُّعود (١/ ٢٢٢-٢٢٣)، نثر الورود على المراقي (١/ ٢٦٠) .انظر الخطاب الخاصَّ بالنَّبي ﷺ في (أضواء البيان) (١/ ١٥١)، أحكام القرآن، للجصَّاص (٤/ ٩٨)، البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢١٨)، الكليَّات (ص: ٤٢٠).

المتَّبع، والصَّالح لكلِّ زمانٍ ومكان، وهو الأصلح للعباد، وهو الَّذي فيه الخيرُ والحياة لهم، والَّذي يتناسب مع كلِّ العصور والأزمنة، وهو الَّذي يتناسب مع شتَّى فئات النَّاس، وعلى اختلافهم، قال الله ﷻ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩]. كما أنَّ الأعمال الصَّالحة الَّتي شرعها الله ﷻ في خطابه، وبيَّن الرَّسول ﷺ ما يحتاج إلى البيان، وبلَّغ رسالة ربِّه ﷻ هي السَّبيل إلى الحياة الطَّيبة في الدُّنيا، وإلى الجزاء الحسن في الآخرة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

٢- أن نتمسَّك بسنَّته فإنَّها الأساسُ في بيان ما يتعلَّق بالخطاب، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

٣- أن نحبَّه ونوقره، وأن تكون المحبَّة ليست مجرَّد الاتِّباع، وإنما هي أساس الاتِّباع وباعثه، فلولا المحبَّة لما وجد وازع قويٌّ من إلجاء أو إكراه أو ترغيب أو ترهيب يحمل الإنسان على الاتِّباع في العمل؛ ولذلك جعل الرَّسول ﷺ مقياس الإيمان بالله ﷻ: امتلاء القلب بمحبَّته ﷺ بحيث تغدو محبَّته ﷺ متغلِّبة على محبَّة الولد والوالد والنَّاس

أجمعين -كما سبق-.

ومقتضى ذلك أن نتَّبعه ونعمل بما جاء به ﷺ، وأن ننصره ونذبَّ عنه. قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١]. وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: ٩].

٤- أنَّ طاعته ﷺ هي طاعةٌ لله ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾ [النساء: ٨٠].

وقد جاءت طاعةُ الرَّسول ﷺ مقرونةً بطاعةِ الله ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ [النساء: ١٣]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء: ٦٩]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ [الفتح: ١٧].

عاشرًا: المقاصد العامَّة من إرسال الرُّسل:

أمَّا ما يستفاد من نداء الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- فهو على قسمين:

الأوَّل: نداءُ الله ﷻ للأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام-.

والثَّاني: نداءُ الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- إلى أقوامهم.

أمَّا نداءُ الله ﷻ للأنبياء فهو لتبليغِ الخطاب، ولبيان مكانتهم...

وأمَّا نداءُ الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- إلى أقوامهم فهو لتبليغهم الخطاب، وبيانه لهم، وإفادتهم ما لا يستقلُّون بمعرفته، وقطع أعذارهم...

وأمَّا الآيات الَّتي تبيِّن المقاصد العامَّة من إرسال الرُّسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام-:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤].

والآية تدلُّ على وجوب طاعة الرُّسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام -.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾ [الأعراف: ٩٤].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ [يوسف: ١٠٩].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ [النحل: ٤٣].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾ [الأنبياء: ٧].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: ٢٠].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤﴾ [سبأ: ٣٤].

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾ [البقرة: ١١٩].

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾ [النساء: ٨٠].

﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الرعد: ٣٠].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: ٥٤].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦﴾ [الفرقان: ٥٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥﴾ [الأحزاب: ٤٥].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر: ٢٤].

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨﴾ [الفتح: ٨].

الحادي عشر: خطاب العتاب:

الخطاب الذي يتضمَّن عتاب المبلِّغ فيه دلالة على أنَّ الخطاب ليس من صنيع المبلغ له، وإنما هو من عند الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [المائدة: ٩٩].

وهاك الآيات الَّتي تتضمَّنُ العتاب الشَّديد والقاسي، وفيها: النَّقدُ حتَّى في أقلِّ الأشياء خطرًا....

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨].

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣﴾ [التوبة: ٤٣].

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ [التوبة: ١١٣].

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[الأحزاب: ٣٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ [التحريم: ١].

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس: ١-١٠].

الثَّاني عشر: أثر بشريَّة الرَّسول ﷺ في تفعيل الخطاب:

أمَّا الآياتُ الَّتي تبيِّن الحكمةَ من كونِ الرَّسول بشرًا فهي على النَّحو التَّالي:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٩].

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، و[فصلت: ٦].

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠].

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال الله ﷻ عن المسيح عليه السلام:

﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة: ٧٥].

وهو ما ينفي عن الرَّسول الألوهيَّة، وليعلم الفارق والبون الشَّاسع بين (مقام الألوهيَّة) و(مقام النُّبوَّة).

وإذا كان هناك اعتراض على بشريَّة الرَّسول ﷺ فقد كان الرُّسل كلُّهم بشرًا:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ [الرعد: ٣٨].

وإذا كان الاعتراض بأنَّه لم يأتِ بخارقةٍ ماديَّةٍ، فذلك ليس من شأنه إنما هو شأن الله ﷻ. قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ٣٨]، وفق ما تقتضيه حكمته، وعندما يشاء[١].

وجاء في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٣٤﴾

---

(١) انظر: الظِّلال (١٣/ ٢٠٦٥).

[المؤمنون: ٣٣-٣٤] «أنَّ الاعتراض على بشريَّة الرَّسول هو الاعتراض النَّاشئ من انقطاع الصِّلة بين قلوب هؤلاء الكبراء المترفين، وبين النَّفخة العلويَّة الَّتي تصل الإنسان بخالقه الكريم ﷻ. والتَّرف يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسدُّ المنافذ، ويفقدُ القلوبَ تلك الحساسيَّة المرهفة الَّتي تتلقَّى وتتأثَّر وتستجيب. ومن هنا يحارب الإسلام التَّرف، ويقيم نظمه الاجتماعيَّة على أساسٍ لا يسمحُ للمترفين بالوجود في الجماعة المسلمة؛ لأنَّهم كالعفنِ يفسد ما حوله، حتَّى لينخر فيه السُّوس...»[1].

وقد قال الله ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس: ٢].

وفي هذه الآيات الكريمة يبين الله ﷻ أنَّ الكفَّار يتَّخذون من بشريَّة الرَّسول ﷺ حُجَّةً بأنَّ هذا الكتاب ليس من عند الله ﷻ، فإنَّ الردَّ عليهم هو: أنَّ كلَّ الرُّسل السَّابقين كانوا بشرًا، فما هو العجب في أن يكون محمَّدٌ ﷺ بشرًا؟!

والاعتراض على بشريَّة الرَّسول أمرٌ قديم توارثه أهلُ الكفر والعناد من أيام نوح عليه السلام، ألم يَقُلْ له قومه: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]؟!!

---

(١) انظر: الظِّلال (١٨/ ٢٤٦٧).

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ۝١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ۝١٥﴾ [يس: ١٣-١٥].

وقالوا: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ۝٢٤﴾ [القمر: ٢٤]؛ لذلك يدعونا الحقُّ ﷻ إلى النَّظر في السُّنة المتَّبعة في الرُّسل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ [يوسف: ١٠٩]. أي: ليسوا ملائكة، لا بُدَّ أنْ يكونوا رجالًا لِيتمَّ اللِّقاء بينكم، وإلا فلو جاء الرَّسول مَلَكًا كما تقولون، فهل سترَوْن هذا الملَك؟ قالوا: لا، هو مُستتر عنَّا، لكنَّه يرانا. والجواب أنَّ تبليغ الرِّسالة لا يقوم على مجرَّد الرُّؤية، فتبليغ الرِّسالة يحتاج إلى مخالطة ومخاطبة. وهنا لا بُدَّ أنْ يتصوَّر لكم الملَك في صورة رجل؛ ليؤدي مهمَّة البلاغ عن الله ﷻ، وهكذا نعود من حيث بدأنا؛ لأنَّها الطَّبيعة الَّتي لا يمكن لأحد الخروجَ عنها. لذلك يقول ﷻ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: ٩]. إذن: لا داعي للعناد، ومصادمة الفطرة الَّتي خلقها الله ﷻ، والطَّبيعة الَّتي ارتضاها لخَلْقه.

ثمَّ يقول الحقُّ ﷻ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ۝٩٥﴾ [الإسراء: ٩٥]. فقوله ﷻ: ﴿قُل﴾ أي: رَدًّا عليهم: لو أنَّ الملائكة يمشون في الأرض مطمئنين لَنـزَّلنا عليهم مَلَكًا رسولا لكي يكون من طبيعتهم، فلا بُدَّ أنْ يكون المبلِّغ من جنس المبلَّغ، وهذا واضح في حديث جبريل عليه السلام

الطَّويل حينما جاء إلى رسول الله ﷺ يسأله عن بعض أمور الدِّين لِيُعلِّم الصَّحابة: ما الإحسان؟ ما الإيمان؟ ما الإسلام؟ فيأتي جبريل عليه السلام مجلس رسول الله ﷺ في صورة رجلٍ من أهل البادية، وبعد أنْ أدَّى مهمَّته انصرف دون أنْ يشعر به أحد، فلمَّا سألوا عنه قال لهم رسول الله ﷺ: «**إنَّه جبريل، أتاكم لِيُعلِّمكم أمور دينكم**»(١).

وشيء آخر يقتضي بشريَّة الرَّسول ﷺ، وهو أنَّ الرَّسول ﷺ أسوة سلوك لقومه، كما قال ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]. فالرَّسول عندما يُبلِّغ منهج الله ﷻ فهو إمام المخاطَبين في القول والعمل.

وقوله ﷻ: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون:٣٢]، وقوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢]. وغيرُ هذا كثيرٌ ممَّا أكَّده القرآن، وهو المنطق والحكمة الَّتي اقتضتها مشيئته (الله) ﷻ لما هو من خصائص الرِّسالات الَّتي توجب أن يكون المرسل إلى النَّاس من جنسهم حتَّى يحسن إبلاغهم بما كلَّفه الله ﷻ بإبلاغه إليهم، وحتَّى يستأنسوا به، ويفهموا عنه.

ومن هنا تكون (بشريَّة الرَّسول ﷺ) بمعنى أن يجري عليه ما يجري على النَّاس من البلاء والموت، ومن الصِّحة والمرض، وغيرها من الصِّفات البشريَّة فيكون ذلك أدعى لنجاح البلاغ عن الله ﷻ.

(١) أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه [٩] .

والآياتُ القرآنيَّة تثبت (بشريَّة الرَّسول ﷺ) في مواقفَ كثيرةٍ. وتوضِّحُ أنَّه بشرٌ لم يخرج عن نطاق البشريَّة، وأنَّ ما أتى به من وحي، وما جرى على يديه من آيات فإنما هو بقدرة الله ﷻ وحده، وأنَّ الرَّسول ﷺ لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا إلا أن يشاء الله ﷻ. قال ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠﴾ [العنكبوت: ٥٠].

وكما أنَّ الرَّسول ﷺ لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا فهو من باب أولى لا يملك لغيره الضَّر أو النَّفع أو الهداية، بل كلُّ ذلك بيد الله ﷻ وحده...

قال ﷻ: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾ [الجن: ٢١-٢٢]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ [القصص: ٥٦].

ولما طالب كفَّارُ قريش الرَّسول ﷺ بمطالب كثيرة بقصد التَّعجيز ذريعة لهم للتَّكذيب والكفر كان ردُّ الله ﷻ عليهم هو التَّأكيد على بشريَّة الرَّسول ﷺ. قال ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ

ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٥].

وفي قوله ﷻ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ تأكيدٌ على أنَّ الرَّسول ﷺ بشرٌ يقف عند حدود بشريَّته، ولا يأتي بشيء من عنده. ولكنَّنا نجد نصوص الشَّرع تؤكِّد على بشريَّة الرَّسول ﷺ. قال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقد جاء في الحديث: «**إنَّما أنا بشر، وإنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحجَّته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حقِّ أخيه شيئًا فلا يأخذه فإنَّما أقطع له قطعةً من النَّار**»(١).

والحاصلُ أنَّ التَّأكيد على بشريَّة الرَّسول ﷺ جاء مرَّة بلسانه هو -عليه الصَّلاة والسَّلام- وجاء أيضًا: تقريرًا من الله ﷻ. وأنَّ لهذا التَّأكيد المتكرِّر أهدافٌ ومقاصد، منها ما سبق بيانه.

---

(١) أخرجه البخاريُّ [٢٤٨٣]، ومسلم [٣٢٣١]. والحديث مرويٌّ في البخاريِّ ومسلم عن أمِّ سلمة ؓ.

ومنها: ترسيخُ الفكرة في عقول الأتباع ونفوسهم حتَّى لا يلتبس في تصوُّرهم، أو يتميَّع الفارق بين مقام الألوهيَّة، ومقام النُّبوَّة، وأيضًا: حتَّى لا ينقلب حبُّهم لنبيِّهم ﷺ إلى المغالاة؛ فإنَّ الرَّسول ﷺ مع أنَّه أفضل خلق الله ﷻ لم يخرج عن أن يكون عبدًا من عبيد الله ﷻ، يصيبه من أعراض العبوديَّةِ ما يصيبُ العباد، وبذلك لا يضلُّ المسلمون في إطرائه، ولا يغلون في إجلاله كما ضلَّ النَّصارى في عيسى ابن مريم عليه السلام.

ومنها: أن يدرك الأتباع أنَّ بشريَّة الرَّسول ﷺ مقصودةٌ من الله ﷻ العليم الخبير. ومن فائدة ذلك أن يخلق لهم نموذجًا ومثالًا كاملًا وقدوة لهم، فإذا كان قريبًا منهم يسهل الاقتداء به؛ ولأنَّ أيَّ نموذج غير بشريٍّ سيكون عصيًّا على مداركهم تحجزهم المسافة الخارقة بينهم وبينه، وذلك باعتباره مثالًا خارقًا يصعب عليهم اللَّحاق به.

وممَّا سبق يعلم أنَّ منهج الرِّسالة، وصفات الرَّسول ﷺ كفيلان بأن يقنعا العقول، وأن يكون لذلك أثرٌ في القلوب ما يجمع حوله الأتباع، وينشأ له في النَّفس قيمة وهيبة.

ومن التَّأكيد على بشريَّة الرَّسول ﷺ يبرزُ لنا الفارق بين مقاماتٍ ثلاث:

١- مقام الألوهيَّة.
٢ - مقام النُّبوَّة.
٣ - مقام العباد.

وكذلك تبيَّن الفارق بين مقام الألوهيَّة ومقام النُّبوَّة، فلا يجوز أن ننسى الفارق بين مقام النُّبوة، ومقام من دونه من البشر مهما كان لهم من دورٍ بارز، أو بصماتٍ في الحياة.

وكذلك ممَّا له أثرٌ في تفعيل الخطاب الكمالاتُ والخصائص الَّتي انفرد بها الرَّسول المبلِّغ ﷺ مما جاء ذكرها مبسوطًا في كتب السِّير[1].

❊ ❊ ❊

(١) انظر على سبيل المثال: أعلام النُّبوة (١/ ٢٨٢-٢٨٣)، وانظر: موسوعة نضرة النَّعيم (١/ ٤٣٩) فما بعد.

٥ - التَّعريف بالخطاب

أ. التَّعريف اللُّغوي:

وأذكر هنا مادَّة: (الخطاب) في المعاجم، وفي النُّصوص القرآنيَّة، وما قاله المفسِّرون من معنى للآيات التي لها صلة، والَّتي يفيد فهم معناها توضيح المراد من الخطاب؛ لأنها المادَّة الأهم في هذا البحث، وقد أتى ذكرها متأخِّرًا لما ذكرت من قبل من التَّرتيب الَّذي يأتي متدرِّجًا، ومتناسقًا.

أقول: إنَّ التَّعريف بالخطاب لا بُدَّ منه لتحديد المصطلحات سواء الخاص منها بالبحث، أو ما له صلة، ومن خلال هذا العرض من المعاجم وكتب التَّفسير لما يتَّصل بالخطاب من معنى تستخلص تلك المصطلحات، وأذكر أوَّل ما أذكر تعريفًا للزَّمخشريِّ فإنَّ فيه من الوضوح والبيان ما يدلُّ على المقصود، وهو الَّذي يحدِّد المعنى الأخص الَّذي هو محور الموضوع كما سيأتي. يقول في (أساس البلاغة): "يقال: (خاطبه أحسن الخطاب)، وهو: المواجهة بالكلام. و(خطب الخطيب خطبة حسنة)، و(خطب الخاطب خطبة جميلة)، و(كثر خطَّابها)، و(هذا خطبها)، و(هذه خطبه وخطبته)، وكان يقوم الرَّجل في النَّادي في الجاهلية فيقول: (خِطْب)، فمن أراد إنكاحه قال: (نكحٌ). و(اختطب القوم فلانًا): دعوه إلى أن يخطب إليهم،

يقال: (اختطبوه فما خطب إليهم)... ومن المجاز: (فلان يخطب عمل كذا): يطلبه. و(قد أخطبك الصيد فارمه)، أي: أكثبك وأمكنك، و(أخطبك الأمر)، وهو (أمر مخطب)، ومعناه: أطلبك من طلبت إليه حاجة فأطلبني. و(ما خطبك)؟ ما شأنك الذي تخطبه؟ ومنه (هذا خطب يسير)، و(خطب جليل). وهو يقاسي خطوب الدَّهر»[(١)].

أقول: وممَّا سبقَ يتبيَّن أنَّ الخطاب في اللُّغة توجيهُ الكلام بين مخاطِب ومخاطَب، وله صيغٌ محدَّدة، وأنَّ الغاية منه إفهام المخاطَب، والخطاب أخصُّ من الكلام، وهناك من المصطلحات الخاصَّة بالخطاب ما سيأتي بيانه.

ب. مادَّة (الخطاب) في النُّصوص القرآنيَّة:

إنَّ بيان مادَّة (الخطاب) في النُّصوص القرآنيَّة هو من صلب الدِّراسات القرآنيَّة المتعلِّقة بالخطاب؛ إذ إنَّه يُميِّز هذه المادَّة من حيث ورودها في القرآن الكريم، وما له صلة بموضوع هذا البحث، وما ليس له صلة، والنَّظر هنا إلى مادَّة (الخطاب) في النُّصوص القرآنيَّة من محورين:

الأوَّل: استقصاء مادَّة (الخطاب) في النُّصوص القرآنيَّة.

الثَّاني: تفسير الآيات ذات الصِّلة.

وأذكر أوَّلًا مادَّة (الخطاب) في النُّصوص القرآنيَّة مرتَّبة على حسب ترتيب السُّور التَّرتيب المصحفي[(٢)]:

---

(١) أساس البلاغة، مادَّة: (خطب) (ص: ١١٤-١١٥)، بقليلٍ من التَّصرُّف.

(٢) وهنا فائدة أذكرها استطرادًا: إذا ذكر (التَّرتيب المصحفي) فذلك للاحتراز عما يسمِّيه البعض =

الآية الأولى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

الآية الثَّانية: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: ٣٧].

الآية الثَّالثة: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١].

الآية الرَّابعة: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الحجر: ٥٧].

الآية الخامسة: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾﴾ [طه: ٩٥].

الآية السَّادسة: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون: ٢٧].

الآية السَّابعة: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

الآية الثَّامنة: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: ٢٣].

= بالتَّرتيب النزُّولي للسُّور، فلا يوجد ترتيب نزولي للسُّور، وإنما ترتيب لآيات معيَّنة. انظر ما حقَّقه الدُّكتور إبراهيم خليفة في مبحث (ترتيب النُّزول) في تفسيره لسورة النِّساء من (ص: ٤٧) إلى (٩٥).

الآية التَّاسعة: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾ [ص: ٢٠].

الآية العاشرة: ﴿إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ۝٢٣﴾ [ص: ٢٣].

الآية الحادية عشرة: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١﴾ [الذاريات: ٣١].

الآية الثَّانية عشرة: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧﴾ [النبأ: ٣٧].

أمَّا بيان معنى الآيات ذات الصِّلة فهي ممَّا يزيدُ مفهوم الخطاب وضوحًا. فقد قال الله ﷻ في حقِّ داود عليه السلام: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾، والمراد (بفصل الخطاب) في قول الله ﷻ: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾: هو الحكم بالبيِّنة أو اليمين. وقيل: معناه: أن يفصل بين الحقِّ والباطل ويميِّز بين الحكم وضدِّه، أو هو الفقهُ في القضاء، أو هو النُّطْقُ بـ: (أمَّا بعد). وداود عليه السلام أوَّل من قال: (أمَّا بعد) يعني: ما مضى من الكلام فهو كذا وكذا..[1].

(١) انظر: روح المعاني (٢٣/ ١٧٧)، الطَّبري (٢٣/ ١٤٠)، القرطبي (١٥/ ١٦٢)، النُّكت والعيون (٥/ ٨٤)، ابن كثير (٤/ ٣١)، الدُّر المنثور (٧/ ١٥٤)، معاني القرآن، للنَّحاس (٦/ ٩٣)، زاد المسير (٧/ ١١١-١١٢)، النَّسفي (٤/ ٥٢)، أحكام القرآن، للجصاص (٥/ ٢٥٦)، تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٣٧-٣٢٣٨)، تفسير الرَّازي (٢٦/ ٣٨٩)، التَّحرير والتَّنوير (٢٣/ ٢٢٩)، الكشف والبيان (٩/ ٣٠٨)...، الكليَّات (ص: ٦٨٧).. إلخ.

و(الخِطَابُ والمُخَاطَبَةُ): مراجعة الكلام، و(قد خاطبه بالكلام مُخَاطَبَةً وخِطَابًا)، و(هما يتخاطبان). قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ [هود: ٣٧] [(١)]. «أي: لا تكلِّمني فيهم بشفاعةٍ وإنجاء لهم من الغرق ونحوه»[(٢)]. و(الخُطْبَةُ) و(المُخَاطَبَةُ) مُفَاعَلَةٌ من الخِطَابِ والمُشَاوَرَة[(٣)].

فقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ ، أي: لا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم. وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل: ولا تدعني فيهم. وحيث كان فيه ما يلوح بما يستتبعه أكَّد التَّعليل فقيل: إنهم مغرقون[(٤)].

وجاء في معنى قول الله ﷻ: ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ . قال الزَّركشيُّ: «إنَّ الله ﷻ قسَّم الحقَّ بين عباده فأولاهم بالصَّواب من عبَّر بخطابه عن حقيقة المراد قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، ثمَّ قال ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ [القيامة: ١٩]، أي: على لسانك وألسنة العلماء من أمَّتك وكلام السَّلف راجع إلى المشتبه بوجه لا إلى المقصود المعبَّر عنه بالمتشابه في خطابه؛ لأنَّ المعاني إذا دقَّت تداخلت وتشابهت على من

---

(١) انظر مادَّة: (خطب) في كلٍ من: (لسان العرب) (١/ ٣٦٠)، وتاج العروس (٢/ ٣٧٦) .
(٢) روح المعاني (١٨/ ٢٧) .
(٣) انظر: لسان العرب، مادَّة: (خطب) (١/ ٣٦٠)، وكذلك في (تاج العروس) (٢/ ٣٧٦).
(٤) انظر: روح المعاني (١٢/ ٥٠)، تفسير البيضاوي (٣/ ٢٣٣)، تفسير أبي السُّعود (٤/ ٢٠٦).

لا علم له بها كالأشجارِ إذا تقارب بعضها من بعض تداخلت أمثالها واشتبهت. أي: على من لم يمعن النَّظر في البحث عن منبعث كلِّ فنٍّ منها. قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام:١٤١]، وهو على اشتباكه غير متشابه، وكذلك سياق معاني القرآن العزيز قد تتقارب المعاني، ويتقدَّم الخطاب بعضه على بعض، ويتأخَّر بعضه عن بعض لحكمةِ الله ﷻ في ترتيب الخطاب والوجود، فتشتبك المعاني، وتشكل إلا على أولي الألباب، فيقال في هذا الفنِّ: متشابه»[١].

وفي (نظم الدُّرر) للبقاعي: «﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أي: ومعرفة الفرق بين ما يلتبس في كلام المخاطَبين له من غير كبير رويَّة في ذلك، بل يفرق بديهة بين المتشابهات بحيث لا يدع لبسًا يمكن أن يكون معه نزاعٌ لغير معاند، وكسوناه عزًّا وهيبة ووقارًا يمنعُ أن يجترئ أحد على العناد في شيءٍ من أمره بعد ذلك البيان الَّذي فصل بين المتشابهات، وميَّز بين المشكلات الغامضات، وإذا تكلَّم وقف على المفاصل، فيبين من سرده للحديث معانيه، ويضع الشَّيء في أحكم مبانيه. ولما كان السِّياق للتَّدريب على الصَّبر والتَّثبيت الشَّافي، والتَّدبر التَّام، والابتلاء لأهل القرب، وكان المظنون بمن أوتي فصل الخطاب أن لا يقع له لبس في حكم ولا عجلة في أمر، وكان التَّقدير: هل أتتك هذه

(١) البرهان (٢/ ٧٠).

الأنباء؟ عطف عليه مبينا عواقب العجلة معلِّمًا أنَّ على من أعطى المعارف أن لا يزال ناظرًا إلى من أعطاه ذلك سائلا له التَّفهيم، استعجازًا لنفسه متصورًا لمقام العبوديَّة الَّتي كرَّر التَّنبيه عليها في هذه السُّورة بنحو قوله ﷻ: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ [ص: ٣٠]»[١].

قال الآلوسيُّ في قوله ﷻ: ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾: «أي: فصل الخصام بتمييز الحقِّ عن الباطل، فالفصل بمعناه المصدري، و(الخطاب): الخصام؛ لاشتماله عليه أو لأنَّه أحد أنواعه، خصَّ به؛ لأنَّه المحتاج للفصل أو الكلام الَّذي يفصل بين الصَّحيح والفاسد، والحقِّ والباطل، والصَّواب والخطأ، وهو كلامه -عليه السَّلام- في القضايا والحكومات، وتدابير الملك والمشورات، فالخطاب الكلام المخاطب به.

و(الفصل): مصدر بمعنى اسم الفاعل أو الكلام الَّذي ينبه المخاطَب على المقصود من غير التباس، يراعي فيه مظانُّ الفصل والوصل، والعطف والاستئناف، والإضمار والحذف، والتَّكرار، ونحوها، فالخطاب بمعنى: (الكلام المخاطب به) أيضًا، و(الفصل): مصدر إمَّا بمعنى اسم الفاعل، أي: الفاصل المميِّز للمقصود عن غيره، أو بمعنى اسم المفعول، أي: المقصود، أي: الَّذي فصل من بين أفراد الكلام بتلخيصه ومراعاة ما سمعت فيه، أو الَّذي فصل بعضه عن بعض ولم يجعل ملبسًا مختلطًا. وجوِّز أن يراد بـ: (فصل

(١) نظم الدُّرر (٦/ ٣٧٢)، وانظر: السِّراج المنير (٣/ ٤٨٩).

الخطاب): الخطاب القصد الَّذي ليس فيه اختصار مُخِلٌّ، ولا إشباع مُمِلٌّ، كما جاء في وصف كلامِ نبيِّنا ﷺ: لا نزرٌ ولا هذر..»[1].

وأمَّا تحقيق العلامة محمد الطَّاهر بن عاشور لتفسير (فصل الخطاب) بأنَّه قول داود عليه السلام في خطبه: (أمَّا بعد)، وداود عليه السلام أوَّل من قال ذلك فقد قال: «ولا أحسب هذا صحيحًا؛ لأنَّها كلمة عربيَّة، ولا يعرف في كتاب داود عليه السلام أنَّه قال ما هو بمعناها في اللُّغة العبريَّة، وسمِّيت تلك الكلمة: (فصل الخطاب) عند العرب؛ لأنَّها تقع بين مقدِّمة المقصود وبين المقصود. فالفصل فيه على المعنى الحقيقي، وهو من الوصف بالمصدر، والإِضافة حقيقية[2].

---

(١) روح المعاني (٢٣/ ١٧٨). وقد جاء في وصف كلام النَّبي ﷺ: إنَّ تكلَّم سماه وعلاه البهاء، أجمل النَّاس وأبهاه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، حلو المنطق، فصلٌ لا نزر ولا هذر، كأنَّ منطقة خرزاتُ نظمٍ يتحدَّرن. انظر: الخصائص الكبرى (١/ ٣١٠-٣١١)، الاكتفاء بما تضمَّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثَّلاثة الخلفاء (١/ ٣٤٢)، السِّيرة الحلبية (٢/ ٢٢٨)، الثِّقات، لمحمد بن حبَّان (١/ ١٢٦)، الطَّبقات الكبرى (١/ ٢٣١)، الفائق (١/ ٩٥)، الاستيعاب (٤/ ١٩٦٠)، صفة الصَّفوة (١/ ١٤٠-١٤٣)، البداية والنِّهاية (٣/ ١٩٢)، (٦/ ٢٩)، (٦/ ٣١).

(٢) وقد اختلف في أوَّل من قال: (أمَّا بعد) فقيل: هو داود عليه السلام. وقيل: سحبان وائل. وقيل: قس بن ساعدة. وقيل: كعب بن لؤي. وقيل غير ذلك. انظر: تهذيب الأسماء (٣/ ٢٧)، تاريخ الطَّبري (٣/ ٥٣٣)، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس (٢/ ٢٩٣)، صبح الأعشى (١/ ٤٩٢)، (٦/ ٢٢٢)، المزهر (١/ ١١٦)، فيض القدير (١/ ٤٨)، وانظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٩٧)، تفسير ابن كثير (٤/ ٣١)، الدُّر المنثور (٧/ ١٥٥)، فتح القدير، للشَّوكاني (٤/ ٤٢٨)، وما سبقت الإشارة إليه من كتب التَّفسير. وقد حقَّق ذلك الحافظ ابن حجر في (الفتح) (٢/ ٤٠٤) فما بعد.

وفي (تفسير الرَّازي): ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ : «اعلم أنَّ أجسام هذا العالم على ثلاثة أقسام: **أحدها**: ما تكون خاليةً عن الإدراك والشُّعور، وهي الجمادات والنَّباتات.

وثانيها: الَّتي يحصل لها إدراكٌ وشعور، ولكنَّها لا تقدر على تعريف غيرها الأحوال الَّتي عرفوها في الأكثر، وهذا القسم هو جملة الحيوانات سوى الإنسان.

وثالثها: الَّذي يحصلُ له إدراكٌ وشعور، ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الأحوال المعلومة له، وذلك هو الإنسان. وقدرته على تعريف الغير الأحوال المعلومة عنده بالنُّطق والخطاب. ثمَّ إنَّ النَّاس مختلفون في مراتب القدرة على التَّعبير عما في الضَّمير، فمنهم من يتعذَّر عليه إيراد الكلام المرتَّب المنتظم، بل يكون مختلطَ الكلام مضَّطرب القول، ومنهم من يتعذَّر عليه التَّرتيب من بعض الوجوه، ومنهم من يكون قادرًا على ضبط المعنى والتَّعبير عنه إلى أقصى الغايات، وكلُّ من كانت هذه القدرة في حقِّه أكمل كانت الآثار الصَّادرة عن النَّفس النُّطقيَّة في حقِّه أكمل، وكلُّ من كانت تلك القدرة في حقِّه أقلَّ كانت تلك الآثار أضعف. ولما بيَّن الله ﷻ كمال حال جوهر النَّفس النُّطقيَّة الَّتي لداود عليه السلام بقوله ﷻ: ﴿وَءَاتَيۡنَـٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [ص: ٢٠]. أردفه ببيان كمال حاله في النُّطق واللَّفظ والعبارة فقال: ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾. وهذا التَّرتيب في غاية الجلالة. ومن المفسِّرين من فسَّر ذلك بأنَّ داود عليه السلام أوَّل من قال في كلامه: (أمَّا بعد)،

وأقول: حقا إنَّ الَّذين يتَّبعون أمثالَ هذه الكلمات فقد حرموا الوقوف على معاني كلام الله ﷻ حرمانا عظيما - والله أعلم-. وقول من قال: المراد معرفة الأمور الَّتي بـها يفصل بين الخصوم، وهو طلب البيِّنة واليمين فبعيد أيضًا؛ لأنَّ (فصل الخطاب): عبارةٌ عن كونه قادرًا على التَّعبير عن كلِّ ما يخطر بالبال، ويحضر في الخيال، بحيث لا يختلط شيءٌ بشيء، وبحيث ينفصل كلُّ مقام عن مقام، وهذا معنى عام يتناول جميع الأقسام -والله أعلم-......»[1].

وجاء النَّهي عن الخطاب في قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

«ودلَّ النَّهي على أنَّ كفَّار قوم نوح عليه السلام سينـزل بهم عقاب عظيم، لأنَّ المراد بالمخاطبة المنهيِّ عنها: المخاطبة الَّتي ترفع عقابهم فتكون لنفعهم كالشَّفاعة، وطلب تخفيف العقاب لا مطلق المخاطبة. ولعلَّ هذا توطئة لنهيه عن مخاطبته في شأن ابنه الكافر قبل أن يخطر ببال نوح عليه السلام سؤال نجاته حتى يكون الرد عليه حين السؤال ألَطَف.

وجملة: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ إخبار بما سيقع، وبيان لسبب الأمر بصنع الفلك. وتأكيد الخبر بحرف التَّوكيد في هذه الآية مثال لتخريج الكلام على خلاف مقتضى الظَّاهر، بتنـزيل غير السَّائل المتردد منـزلة السَّائل إذا قدم إليه من الكلام ما يلوِّح إلى جنس الخبر، فيستشرفه لتعيينه استشرافًا يشبه استشراف السَّائل عن عين الخبر»[2].

---

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) (١٣/ ١٧٢).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (١٢/ ٦٧).

أقول: والحاصل أنَّ الخطاب هو الكلام المخاطَب به، وله درجات من الرُّقي يتسامى فيها فيكون فصلًا يميِّز الحقَّ عن الباطل، والصَّحيح عن الفاسد بالبيان الواضح الَّذي لا لبس فيه، وله من الضَّوابط والمقاصد والأهداف ما ينبغي أن يُراعى في فهم تلك النُّصوص الفهم الصَّحيح الَّذي يدلُّ على عمق المعنى. يدركُ ذلك العلماء الَّذين لا يقفون على تلك الأقوال الضَّعيفة الَّتي تدلُّ على قصور المعنى إلَّا للتَّنبيه على ضعفها وقصورها. وقد جاءت الألفاظ في الخطاب القرآني مثالًا يحتذى به للفصاحة والبيان، فلا ينبغي أن نتمسَّك بتلك الأقوال، وكما قال الإمام الرَّازي -في قوله الآنف الذِّكر- إنَّ الَّذين يتَّبعون أمثال هذه الكلمات، أو قل: التَّأويلات، فقد حرموا الوقوف على معاني كلام الله ﷻ حرمانًا عظيمًا.

ج. تعريف (الخطاب) عند الأصوليين والفقهاء:

إنَّ أهميَّة التَّعريف عند الفقهاء والأصوليين بالنِّسبة لموضوع البحث:

١ - أنَّه يوضِّح المصطلحات، ويميِّز بعضها عن البعض الآخر.

٢ - إنَّ تعلُّق الخطاب القرآني بأفعال المكلَّفين له صلةٌ ببعض موضوعات البحث، وهو جانبٌ من جوانبِ الخطاب القرآني لا ينبغي إغفاله.

٣ - إنَّ أثر خطاب الله ﷻ المتعلِّق بأفعال المكلَّفين اقتضاءً أو تخييرًا أو وضعًا أيضًا له صلةٌ ببعض الموضوعات لاسيَّما المتعلِّق منها بالمقاصد.

٤ - إنَّ التَّعرض لتعريف الخطاب عند الفقهاء والأصوليين يحقِّق التَّكامل في الموضوعات.

و(الخطاب) عند جمهور الأصوليين هو الَّذي يتعلَّق بأفعال المكلَّفين اقتضاءً أو تخييرًا أو وضعا[١]. «يقال: (خاطب زيدٌ عمرا يخاطبه خطابًا ومخاطبة)، أي: وجَّه اللَّفظ المفيد إليه، وهو بحيث يسمعه، فالخطاب هو التَّوجيه، وخطاب الله ﷻ توجيه ما أفاد إلى المستمع أو من في حكمه...»[٢].

«أمَّا عند الفقهاء فهو يتعلَّق بأثر خطاب الله المتعلِّق بأفعال المكلَّفين اقتضاءً أو تخييرًا أو وضعا، فالحكم عندهم هو الأثر، أي: الوجوب ونحوه، وليس الخطاب نفسه.

وبيان ذلك يرجع إلى تعريف (الحكم)، وبيان أنواعه وأقسامه:

«(الحكم) لغةً: القضاء. وأصل معناه: المنع. يقال: (حكمت عليه بكذا) إذا منعته من خلافه فلم يقدر على الخروج من ذلك، ويقال: حكم الله، أي: قضاؤه بأمر، والمنع من مخالفته[٣].

---

(١) انظر: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لابن بدران (ص:٦٦)، شرح مختصر الرَّوضة (١/ ٢٥٥)، مسلم الثُّبوت (١/ ٥٤)، تيسير التَّحرير (١/ ١٠-١٣).

(٢) شرح البدخشي (مناهج العقول)، ومعه شرح الإسنوي (نهاية السُّول) (١/ ٤١)، وانظر: البحر المحيط (٢/ ٣٤٠).

(٣) انظر مادَّة: (حكم) في كلٍ من (المصباح المنير) (٢/ ٤٣٤)، المعجم الوسيط (١/ ١٩٠)، مقاييس اللُّغة (٥/ ٩٩)، مختار الصِّحاح (ص:١٦٧)، والموسوعة الفقهيَّة الكويتيَّة، مادَّة: (حكم)، (١٨/ ٦٥-٦٦). وانظر: التَّعريفات (ص:٢٢٥)، وانظر: مادة: (قضى) في

ولتعريف الحكم اصطلاحًا يقيَّد بالشَّرعيِّ، تفريقا له عن العقليِّ والعاديِّ وغيرهما، فالحكم الشَّرعيّ عند جمهور الأصوليِّين هو: خطابُ الشَّارع المتعلِّق بأفعالِ المكلَّفين اقتضاءً أو تخييرًا أو وضعًا.

أمَّا عند الفقهاء فهو: أثرُ خطاب الله ﷻ المتعلِّق بأفعال المكلَّفين اقتضاءً أو تخييرًا أو وضعًا، فالحكم عندهم هو الأثر، أي: الوجوب ونحوه، وليس الخطاب نفسه[١].

وأمَّا أنواع الحكم: فينقسم الحكم -الذي هو هنا خطاب الله ﷻ المتعلِّق بأفعال المكلَّفين اقتضاءً أو تخييرًا أو وضعًا كما هو عند الأصوليين، أو أثر خطاب الله المتعلِّق بأفعال المكلَّفين اقتضاءً أو تخييرًا أو وضعًا كما هو عند الفقهاء- إلى التَّكليفيِّ والوضعيِّ، وبعضهم زاد التَّخييريّ، ويدلُّ تعريف الحكم على هذه الأنواع، فالمراد بالاقتضاء في تعريف الحكم هو الطَّلب، ويسمَّى هذا النَّوع من أنواع الحكم: (الحكم التّكليفيِّ) لما فيه من إلزام كلفة.

ويتناول كلًّا من طلب الفعل جازمًا، وهو الوجوب، أو غير جازم، وهو النَّدب، كما يتناول طلب التَّرك جازمًا، وهو التَّحريم، أو غير جازم، وهو الكراهة.

(الصِّحاح)، للجوهري، (٦/ ٢٤٦٣)، وكذلك في (لسان العرب) (١٥/ ١٨٦). الكليَّات (ص: ٧٠٥)، وانظر الفرق بين القضاء والحكم في (الفروق) (١/ ٤٣١).

(١) مسلم الثُّبوت (١/ ٥٤)، جمع الجوامع (١/ ٣٥)، إرشاد الفحول (ص: ٦)، التَّوضيح (١/ ١٤).

والمراد بالتَّخيير -في التَّعريف-: الإباحة، وهي أن لا يكون الشَّيء مطلوب الفعل أو التَّرك. وبأحكام الاقتضاء والتَّخيير تستكمل أقسام الأحكام التَّكليفيّة الخمسة أو السَّبعة -على ما سيأتي- وقصرها بعض الأصوليِّين -كالآمديِّ- على ما يتعلَّق بطريق الاقتضاء، وأفرد الإباحة باسم: (الحكم التَّخييريِّ) في حين أنَّ بعض الأصوليِّين يخرجون المندوب من الحكم التَّكليفيِّ؛ لأنَّه ليس فيه إلزام بمشقَّة. قال الآمديُّ: «وهو أولى من المباح بالخروج من الحكم التَّكليفيِّ»[١].

والمراد بالوضع -في تعريف الحكم- خطاب الله ﷻ المتعلِّق بجعل الشَّيء سببًا، أو شرطًا، أو مانعًا، أو صحيحًا، أو فاسدًا، أو باطلا -على ما ذهب إليه الحنفيَّة من التَّفرقة بين الفاسد والباطل-[٢].

وأمَّا أقسام الحكم التَّكليفيِّ: فهو ينقسم عند الجمهور إلى خمسة أقسام هي: الفرض، والنَّدب، والإباحة، والحرمة، والكراهة، وتزيد الأقسام عند الحنفيَّة قسمين آخرين هما الوجوب: وهو بين الفرض والنَّدب. والكراهة التَّحريميَّة: وهي بين الحرمة والكراهة التَّنزيهيَّة، فالفرض غير الواجب عند الحنفيَّة[٣]، أمَّا الجمهور فيسوُّون بين

---

(١) الإحكام، للآمدي (١/ ١٧٠). وينظر مصطلح: (إباحة) من الموسوعة الفقهيَّة الكويتيَّة (١/ ١٢٦) فما بعد. .

(٢) نهاية السُّول (١/ ٧١)، التَّقرير والتَّحبير (٢/ ١١). وتفصيله في مصطلحي: (باطل) و(بطلان) في الموسوعة الفقهيَّة (٨/ ١٠٦- ١٢٤).

(٣) انظر: تحفة الفقهاء (١/ ٢٠١)، وانظر: ردّ المحتار على الدُّر المختار، باب قضاء الفوائت (١/ ٤٨٥) فما بعد، التَّقرير والتَّحرير في علم الأصول (٢/ ١٦٦).

الفرض والواجب[١].

هذا ولبعض أقسام الحكم التَّكليفيِّ كالواجب تقسيماتٌ كثيرةٌ باعتباراتٍ مختلفة، أهمُّها: تقسيمه بحسب وقت أدائه إلى مؤقَّت ومطلق، وبحسب المطالب بأدائه إلى عينيٍّ وكفائيٍّ، وبحسب المقدار المطلوب منه إلى محدَّدٍ وغير محدَّد، وبحسب تعيين المطلوب إلى معيَّن ومخيَّر[٢].

أمَّا أقسام الحكم الوضعيِّ: فينقسم الحكم الوضعيُّ إلى أقسامٍ كثيرة أهمُّها: السَّبب، والشَّرط، والمانع، والرُّخصة، أو العزيمة، والصِّحَّة، أو البطلان[٣].

د. مسألة في بيان المراد من الخطاب عمومًا:

المراد من الخطاب خطاب الله ﷻ مطلقًا سواء أكان منسوبًا إليه مباشرة كالقرآن، أم بالواسطة كالسُّنة والإجماع والقياس وغيرها من الأدلَّة الشَّرعيَّة؛ لأنَّ هذه الأدلَّة في الواقع راجعة إلى الله ﷻ، وهي كلُّها في الحقيقة معرِّفات لخطاب الله ﷻ وليست مثبتات، فالسُّنة وإن كانت من الرَّسول ﷺ فهي ثابتةٌ بطريق الوحي الَّذي لا يقره الله ﷻ

(١) انظر: الإحكام، للآمدي (١/ ١٣٩)، الذَّخيرة، للقرافي (١/ ٢٤٧).

(٢) انظر: تفصيل ذلك كلِّه في مصطلح: (حكم)، من الموسوعة الفقهيَّة (١٨/ ٦٥-٦٦). وانظر: مصطلح: (حق) (١٨/ ٧-٤٨). وانظر: إرشاد الفحول (ص:٦-٧)، والمستصفى (١/ ٥٦).

(٣) المستصفى (١/ ٩٣) فما بعدها.

على باطل، والإجماع لا بدَّ أن يكون له مستند من الكتاب والسُّنة أو غيرها من الأدلَّة الشَّرعية، والقياس ليس مثبتًا للحكم، وإنما هو كاشفٌ أو مظهر له، والمثبت في الحقيقة هو دليل حكم الأصل من الكتاب أو السُّنة أو الإجماع[١].

ويتبيَّن مما سبق: أنَّ خطاب الله ﷻ يدلُّ عليه القرآن الكريم، والسُّنة، والإجماع، والقياس، وغيرها من الأدلَّة الشَّرعية؛ ولذلك قُيِّد الخطاب هنا بكونه قرآنيًّا عامًّا، ثمَّ قُيِّد الأعمُّ منه بالأخصِّ، هو الَّذي فيه صيغة خطاب مباشرة، أو مواجهة بالخطاب؛ ولذلك جاء العنوان مقيَّدًا، وناسب التَّعريف بالقرآن الكريم أن يكون عقب التَّعريف بالخطاب، وسياتي بيان المعنى الاصطلاحي لمفهوم الخطاب في هذه الدِّراسة موضحًا.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: التَّلويح على التَّوضيح (١/ ٢٧)، أصول الفقه الإسلامي، للدُّكتور وهبة الزُّحيلي (١/ ٣٨-٣٩)، البحر المحيط، للزَّركشي (١/ ١٢)، الإحكام، للآمدي (٣/ ٢٩٢).

٦ - التَّعريف بالقرآن الكريم

توطئةٌ لبيانِ سببِ الاهتمام بهذا التَّعريف:

إنَّ الاهتمام هنا بالخطاب القرآني المنـزَّل من قِبَل الوحي دون غيره من أنواع الخطاب المنـزَّل الأخرى كالأحاديث القدسيَّة، والأحاديث النَّبويَّة؛ لأنَّه المعنيُّ هنا بالبحث.

وإن كان الاعتناءُ منصبًّا على ما كان منه خطابًا مباشرًا بصيغةٍ من صيغِ الخطاب.

ومن هنا كانت الحاجةُ إلى بيان معنى القرآن الكريم، وذلك لاعتبارين:

الأوَّل: لأنَّه الأصلُ في بيان مصطلحاتِ البحث هنا.

الثَّاني: لأنَّه جزءٌ من العنوان.

ويأتي في التَّعريف المعنى اللُّغوي، والمعنى المراد منه اصطلاحًا على النَّحو التَّالي:

أ- التَّعريف اللُّغوي: «هو مصدرٌ مرادفٌ للقراءة، ومنه قوله ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٧-١٨]. ثمَّ نقل من هذا المعنى المصدري، وجعل اسمًا للكلام المعجز المنـزَّل على النَّبي ﷺ من باب إطلاق المصدر على مفعوله»[١].

(١) مناهل العرفان (١/ ١٤-١٥).

يقال: «(قرأ الكتاب قراءةً وقُرْءانًا) -بالضمِّ-. و(قرأ الشَّيء قُرْءانًا) -بالضمِّ- أيضًا: جَمَعَه وضَمَّه. ومنه سمِّي القرآن؛ لأنه يَجْمَع السُّوَر ويَضُمُّها. وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾، أي: قراءته. و(فلانٌ قَرَأ عليك السلام)، و(أَقْرأك السَّلامَ) بمعنى. وجَمْعُ (القارِئ): قَرَأة، مِثْل: كافِر وكَفَرَة. والقُرَّاءُ -بالضَّمِّ والمَدِّ-: المُتَنَسك. وقد يكون جَمْعَ قارِئ"[1].

ب- تعريف القرآن شرعًا: «أمَّا القرآن باعتباره ألفاظًا منطوقة، فيعرَّفُ شرعًا بأنَّه: (القول المنـزَّل على محمَّدٍ ﷺ المعجزِ بسورةٍ منه، المتعبَّد بتلاوته، المنقول إلينا بين دفتي المصحف نقلا متواترًا)، فقولنا في هذا التَّعريف: (القول) يعني اللَّفظ المفيد، فهو جنسٌ في التَّعريف يشملُ سائرَ الأقوال يخرج عنه اللَّفظ غير المفيد بأن يكون مهملًا لا معنى له في لغة العرب أصلًا. وقولنا: (المنـزَّل) قيد أوَّل خرج به الأقوال غير المنـزَّلة سواء أكانت من كلام الله ﷻ أو من كلام غيره، وكان الغير ملكًا أو جِنيًّا أو بشرًا، أو ما شاء الله ﷻ من خلقه، فيخرج بهذا القيد جميع أحاديثه ﷺ؛ لكونها ألفاظًا من قبله هو، غير منـزَّلة عليه، وإن كانت معاني بعض تلك الأحاديث منـزَّلة؛ فإنَّ العبرة هنا بالألفاظِ لا بالمعاني. كما يخرج بهذا القيد أيضًا الأحاديثُ القدسيَّة

(١) مختار الصِّحاح، مادَّة: (قرأ) (ص:٥٦٠)، وانظر: مادَّة: (قرأ) في كلٍ من: (تاج العروس) (١/ ٣٦٤)، ولسان العرب (١/ ١٢٨)، والصِّحاح، للجوهري (١/ ٦٥). وانظر التَّعريف في كتاب (التَّيسير في قواعد علم التَّفسير)، للكافيجي (ص٣٣-٣٤)، وانظر: معاني القرآن، للفرَّاء (٣/ ٢١١)، وانظر: الموسوعة الفقهيَّة الكويتيَّة (٣٣/ ٣٠).

على القول بأنَّ ألفاظها ليست منـزَّلةً من عند الله ﷻ، بل هي من عند محمَّد ﷺ، وإنما المنـزَّل معانيها فحسب .

وهو ما اختاره الدُّكتور محمَّد عبد الله دراز[١] في كتابه: (النَّبأ العظيم)[٢].

وأمَّا القول بأنَّ ألفاظها منـزَّلة من عند الله ﷻ كمعانيها فإنَّها لا تخرج بهذا القيد، بل بقيد آخر في هذا التَّعريف -ممَّا سيأتي التَّنبيه عليه-.

وقولنا في هذا التَّعريف: (المنـزَّل على محمَّد ﷺ) قيدٌ ثانٍ خرج به أقوال الله ﷻ المنـزَّلة على غير نبيِّنا ﷺ كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام والزَّبور والإنجيل.

وقولنا: (المعجز بسورة منه)[٣] قيدٌ ثالثٌ خرج به ما هو منـزَّل على

---

(١) هو محمَّد بن عبد الله دراز، كان من هيأة كبار العلماء بالأزهر، عالم، أديب ولد في قرية (محلة دياي) بمصر، وانتسب إلى معهد (الإسكندرية) الدِّيني، وحصل على الشَّهادة الثَّانوية الأزهريَّة، وعلى شهادة العالميَّة، ثمَّ تعلَّم اللُّغة الفرنسيَّة، واختير للتَّدريس بالقسم العالي بالأزهر، ثمَّ أرسل في بعثة علميَّة إلى (فرنسا)، وحصل على شهادة الدُّكتوراه من (السُّوربون)، وعاد فاشتغل بالتَّدريس في (جامعة القاهرة) في (دار العلوم)، وفي كليَّة اللُّغة العربيَّة (بالجامعة الأزهريَّة)، ونال عضوية جماعة كبار العلماء، وكان عضوا في اللَّجنة العليا لسياسة التَّعليم، وفي مجلس الإذاعة، وفي اللَّجنة الاستشاريَّة الثَّقافيَّة في الأزهر، واشترك في المؤتمر العلميِّ الإسلاميِّ بمدينة (لاهور) بالباكستان، وتوفي بها فجأة في (١٦) جمادى الآخرة [١٣٧٧هـ]. انظر: الأعلام (٦/ ٢٤٦)، معجم المؤلِّفين (١٠/ ٢١٢-٢١٣) .

(٢) انظر: النَّبأ العظيم نظرة جديدة في القرآن الكريم، الدُّكتور محمَّد عبد الله دراز (ص: ١٤-١٥). وانظر: علم أصول الفقه، لعبد الوهاب خلاف (ص:٢٣).

(٣) قال (مراقي السُّعود) رقم [١٢٤]، (ص: ٢١):

محمَّد ﷺ غير معجز بسورة منه كالأحاديث القدسيَّة، على القول بأنَّ ألفاظها منزَّلة على النَّبي ﷺ كمعانيها[(١)]. وكالَّذي نسخت تلاوته من

= «لفظٌ منزَّلٌ على محمَّدِ لأجل الإعجاز وللتَّعبُّدِ».

انظر: نثر الورود على مراقي السُّعود (١/ ٩٠).

(١) انظر: إجابة السَّائل (ص:٦٣)، إرشاد الفحول (١/ ٨٦)، التَّقرير والتَّحبير (٢/ ٢٨٤)، تيسير التَّحرير (٣/ ٣)، معالم أصول الفقه (ص:١٠٣). وقد حقَّق هذه المسألة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين في (مجموع الفتاوى) حيث قال: «(الحديثُ القدسي) ما رواه النَّبي ﷺ عن ربِّه ﷻ. وقد أدخله المحدِّثون في الأحاديث النَّبويَّة؛ لأنَّه منسوب إلى النَّبي ﷺ تبليغًا، وليس من القرآن بالإجماع، وإن كان كلُّ واحد منهما قد بلَّغه النَّبي ﷺ أمَّته عن الله ﷻ. وقد اختلف العلماء -رحمهم الله- في لفظ: (الحديث القدسي) هل هو كلام الله ﷻ، أو أنَّ الله ﷻ أوحى إلى رسوله ﷺ معناه، واللَّفظ لفظُ رسول الله ﷺ؟ على قولين: القول الأوَّل: أنَّ الحديث القدسي من عند الله ﷻ لفظه ومعناه؛ لأنَّ النَّبي ﷺ أضافه إلى الله ﷻ. ومن المعلوم أنَّ الأصل في القول المضاف أن يكون بلفظ قائله لا ناقله، ولا سيَّما والنَّبي ﷺ أقوى النَّاس أمانة، وأوثقهم رواية. القول الثَّاني: أنَّ الحديث القدسي معناه من عند الله ﷻ ولفظه من النَّبي ﷺ، وذلك لوجهين: الوجهُ الأوَّل: لو كان الحديث القدسي من عند الله ﷻ لفظًا ومعنى لكان أعلى سندًا من القرآن؛ لأنَّ النَّبي ﷺ يرويه عن ربِّه ﷻ بدون واسطة، كما هو ظاهر السِّياق، أمَّا القرآن فنـزل على النَّبي ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام كما قال ﷻ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النَّحل:١٠٢]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشُّعراء:١٩٣- ١٩٥]. الوجه الثَّاني: أنَّه لو كان لفظ الحديث القدسي من عند الله ﷻ لم يكن بينه و بين القرآن فرق؛ لأنَّ كليهما على هذا التَّقدير كلام الله ﷻ، والحكمة تقتضي تساويهما في الحكم حين اتفقا في الأصل، ومن المعلوم أنَّ بين القرآن والحديث القدسي فروق كثيرة: منها: أنَّ الحديث القدسي لا يتعبَّد بتلاوته، بمعنى أنَّ الإنسان لا يتعبَّد لله ﷻ بمجرَّد قراءته، فلا يثاب على كلِّ حرف منه عشر حسنات، والقرآن يتعبَّد بتلاوته بكلِّ حرف منه عشر حسنات. ومنها: أنَّ الله ﷻ تحدَّى أن يأتي النَّاس بمثل القرآن أو آية منه، ولم يرد مثل ذلك في الأحاديث القدسيَّة. ومنها: أنَّ القرآن محفوظ من عند الله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ =

القرآن إن قلنا بوجود هذا النَّوع في الواقع، . .وهو قول الجمهور أيضًا[(١)]؛ وذلك لأنَّه لا يوجد من هذا المنسوخ سورة بتمامها حتَّى

= نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩]، والأحاديث القدسيَّة بخلاف ذلك، ففيها الصَّحيح والحسن، بل أضيف إليها ما كان ضعيفا أو موضوعا، وهذا وإن لم يكن نسب إليها، وفيها التَّقديم والتَّأخير والزِّيادة والنَّقص. ومنها: أنَّ القرآن لا تجوز قراءته بالمعنى بإجماع المسلمين. وأمَّا الأحاديث القدسيَّة، فعلى الخلاف في جواز نقل الحديث النَّبوي بالمعنى، والأكثرون على جوازه. ومنها: أنَّ القرآن تشرع قراءته في الصَّلاة، ومنه ما لا تصحُّ الصَّلاة بدون قراءته، بخلاف الأحاديث القدسيَّة. ومنها: القرآن لا يمسُّه إلاَّ الطَّاهر على الأصحِّ، بخلاف الأحاديث القدسيَّة. ومنها: أنَّ القرآن لا يقرؤه الجنب حتَّى يغتسل على القول الرَّاجح، بخلاف الأحاديث القدسيَّة. ومنها: أنَّ القرآن ثبت بالتَّواتر القطعي المفيد للعلم اليقيني، فلو أنكر منه حرفًا أجمع القُرَّاء عليه لكان كافرًا، بخلاف الأحاديث القدسيَّة فإنَّه لو أنكر شيئًا منها مُدَّعيًا أنَّه لم يثبت لم يكفر، أمَّا لو أنكر مع علمه أنَّ النَّبي ﷺ قاله لكان كافرا لتكذيبه النَّبي ﷺ. وأجاب هؤلاء عن كون النَّبي ﷺ أضافه إلى الله ﷻ، والأصل في القول المضاف أن يكون لفظ قائله. وبالتَّسليم أنَّ هذا هو الأصل، لكن قد يضاف إلى قائله معنى لا لفظًا، كما في القرآن، فإنَّ الله ﷻ يضيف أقوالا إلى قائليها، ونحن نعلم أنها أضيفت معنى لا لفظًا، كما في (قصص الأنبياء) وغيرهم، وكلام الهدهد والنَّملة، فإنَّه بغير هذا اللفظ قطعًا. فتاوى ابن عثيمين (٩/ ٦٩-٧١). وقال في التَّرجيح: وبهذا يتبيَّن رجحان هذا القول. .وقال: ثمَّ لو قيل في مسألتنا الكلام في الحديث القدسي: إنَّ الأولى ترك الخوض في هذا خوفا من أن يكون من التَّنطع الهالك فاعله، والاقتصار على القول بأنَّ الحديث القدسي ما رواه النَّبيُّ ﷺ عن ربِّه ﷻ وكفى، لكان ذلك كافيًا، ولعلَّه أسلم -والله أعلم-. فتاوى ابن عثيمين (٩/ ٧١-٧٢). وأميل هنا إلى ترجيح قول الشَّيخ في هذه المسألة فلا أبين منه .

(١) وينظر في ذلك من كتب التَّفسير على سبيل المثال: تفسير القرطبي (٢/ ٦٦)، تفسير الثَّعالبي (١/ ٩٦)، روح المعاني (١/ ٢٥)، ومن كتب علوم القرآن: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٢)، الإتقان (٢/ ٧١)، التِّبيان، للنَّووي (ص: ٧٤)، مناهل العرفان (٢/ ١٥٤-١٧٠)، وقد جاء ذلك مفصَّلا في كتب الأصول. انظر على سبيل المثال: الإبهاج (٢/ ٢٤٩)، الإحكام، للآمدي =

تكون معجزة، كما لا يعرف منه ما هو كلام تامٌّ قدر سورة، ولو كأقصر سورة (كسورة الكوثر) مثلًا على القول بتوقف التَّمام المقصود على ثلاث آيات متوالية على الأقلِّ (كسورة الكوثر) مثلا.

وأمَّا عند من لا يشترط عدد ثلاثِ آياتٍ متواليات في التَّمام فلا يخرج منسوخ التِّلاوة بهذا القيد، وإنما يخرج بغيره -ممَّا سيأتي- على أنَّ هذا كلَّه إنَّما يستقيم إذا أردنا بقولنا في هذا القيد (منه) من جنسه

= (٣/ ١٥٧)، البحر المحيط، للزَّركشي (١/ ٣٥٦)، (١/ ٣٨٤)، المحصول (٣/ ٥٠٩)، حاشية العطار (١/ ٢٩٥)، رفع الحاجب (٤/ ٧٠)، شرح الكوكب المنير (٣/ ٥٥٤)، كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي (١/ ٣٧)، نهاية السول (١/ ٤٣٧). أمَّا الضَّرب الَّذي نسخت تلاوته دون حكمه فشاهده المشهور ما قيل من أنَّه كان في (سورة النور): (الشَّيخ والشَّيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله). انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٥)، مباحث في علوم القرآن، للدكتور صبحي الصالح (ص: ٢٦٥). وقد رواه البخاري في (صحيحه) معلّقا. انظر: صحيح البخاري، بتحقيق البغا (٦/ ٢٦٢٢). وانظر: النَّواسخ، لابن الجوزي (ص: ١١٥) وجزء فيه قراءات النَّبي ﷺ (ص: ١٣٢). ومما يدلُّ على اضطراب الرِّواية أنَّ في (صحيح ابن حبان) ما يفيد أنَّ هذه الآية الَّتي زعموا نسخ تلاوتها كانت في (سورة الأحزاب) لا في (سورة النَّور). صحيح ابن حبان [٤٤٢٨]، وكذلك في (المستدرك) [٣٥٥٤]، [٨٠٦٨]، مسند الإمام أحمد [٢٠٢٦١]، تفسير ابن كثير (٣/ ٤٦٦)، الدُّر المنثور (٦/ ٥٥٨-٥٥٩)، تفسير السَّمعاني (٣/ ٤٩٩)، نواسخ القرآن، لابن الجوزي (ص: ٣٥-٣٦)، مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح (ص: ٢٦٥). وأما الضَّرب الَّذي نسخت تلاوته وحكمه معا فشاهده المشهور في كتب النَّاسخ والمنسوخ: ما ورد عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثمَّ نسخن بخمس معلومات، وتوفِّي رسول الله ﷺ وهي فيما يقرأ من القرآن». والحديث أخرجه مسلم في (صحيحه) [٢٦٣٤]. وانظر في ذلك: تفسير القرطبي (٥/ ١٠٩)، تفسير ابن كثير (١/ ٤٧٠)، وانظر: قواطع الأدلَّة (١/ ٤٢٧). =

الصَّادق بما دون المجموع الكامل للقرآن.

وأمَّا عند قصدنا بهذا القول (منه) من شخصه القاصر على إرادة المجموع الكامل للقرآن، والَّذي يعتبر لفظ القرآن له علم شخص لا اسم جنس، فإنَّ قيد الإعجاز بسورة منه على هذا يخرج به منسوخ التِّلاوة بكلِّ اعتبار قطعًا، بل يخرج به كذلك ما دون ما فوق السُّورة بكمالها من القرآن نفسه حيث لا يقال لما دون هذا القدر: (إنَّه معجز بسورة منه) لكونه سورة أو دونها مثلًا، فليس ينقسم إلى سور حتى يصلح أن يقال: سورة منه وإن كان ذلك قرآنًا قطعًا بالمعنى الجنسي.

وقولنا في التَّعريف: (المنقول إلينا بين دفتي المصحف نقلا متواترًا) قيدٌ رابعٌ خرج به منسوخ التِّلاوة عند من يقول بوجوده في الواقع.

ويقصد بقولنا: (منه) في القيد السَّابق من جنسه كما عرفنا، لكن منسوخ التِّلاوة لم ينقل في المصحف فضلا عن أن يكون متواترًا.

أمَّا عند من لا يقول بوجود منسوخ التِّلاوة في الواقع، أو بوجوده ولكن يشترط عدد ثلاث آيات متواليات في تمام الكلام، أو يقصد من قولنا: (منه) في القيد السَّابق من جنسه، فإنَّ هذا القيد الرَّابع أعني المنقول إلينا ..إلخ لا يكون للإخراج، بل لبيان واقع أمر القرآن فحسب؛ لكون واقع أمر القرآن أنَّه مكتوب في المصاحف، منقول بالتَّواتر الشَّامل كلِّياته وجزئيَّاته.

وقولنا في التَّعريف: (المتعبَّد بتلاوته) هو في الحقيقة حكم من أحكام القرآن لا قيد في تعريفه يذكرونه لتمام الإيضاح فحسب يعنون به

أنَّ هذا الكتاب العظيم قد تعبَّدنا الله ﷻ بتلاوته، أي: جعل تلاوته عبادة يثاب عليها في الصَّلاة وغيرها.

وبعد: فهذا هو تعريف القرآن بالمعنى الشَّرعي باعتباره لفظًا منطوقًا، أمَّا باعتباره نقشًا مرسومًا فهو أظهر ما يكون لا يحتاج منا إلى أدنى شرح، حيث هو ذلك المكتوب في المصحف من أوَّل (سورة الحمد) إلى آخر (سورة النَّاس)"(١).

وينبغي التَّنبيه على أنَّ للخطاب القرآني خصائص، وهذه الخصائص تنسحب على مجموعه، ومن هذه الخصائص:

١ - أنَّه كلام الله ﷻ المنـزَّل على رسوله محمَّد ﷺ.

٢ - أنَّ القرآن الكريم أو الخطاب القرآني هو مجموع اللَّفظ والمعنى، وأنَّ لفظه نزل باللِّسان العربيِّ، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسف: ٢].

٣ - أنَّه نقل بالتَّواتر المفيد للقطع واليقين.

٤ - أنَّه محفوظ من الزِّيادة والنُّقصان: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩].

٥ - أنَّه معجز عجز البشر عن الإتيان بمثله. قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ

---

(١) بتصرُّف واختصار عن الجزء الثَّاني من (منَّة المنان في علوم القرآن) (٢/ الصَّفحات: د، هـ، و، ز، ح، ص ٤-٩) من (التَّمهيد).

كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٤]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣]، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨] .

وتتنوُّع وجوه الإعجاز فيه، كالإعجاز البلاغي، والإخبار بوقائع تحدث في المستقبل، وإخباره بوقائع الأمم المجهولة، وكلُّ ذلك مبسوط في مظانِّه من الكتب الَّتي تتحدث عن الإعجاز أو عن جانب من جوانبه، وما أكثرها، وكذلك الإعجاز العلمي حيث أشار إلى كثير من الحقائق الكونيَّة، الَّتي أثبتها العلم الحديث، ولم تكن معروفة.

قال الله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾ [فصلت: ٥٣]. وإنَّ هذا العصر ليشهد تحقق وعد الله ﷻ، وكلَّما تقدمت الكشوف العلميَّة كشفت للنَّاس عن آيات الخلق الباهرة الَّتي تزيد الإنسان قوَّة واقتناعًا، وكشفت عن كثيرٍ من المعاني التي تحدَّث عنها القرآن الكريم صراحة أو أشار إليها فكان ذلك نوعًا من الإعجاز يظهر في عصر العلم ليشهد بأنَّ القرآن الكريم ليس من عند رجل أمِّي، أو من عند جيلٍ من الأجيال الَّتي كانت تجهل تلك الحقائق، وليس المجال مجال تفصيل أو بسط:

قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢][(١)].. إلخ.

٦ - أنَّه كتاب أحكمه الله ﷻ فأتقن إحكامه، وفصَّله فأحسن تفصيله.
قال الله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

أمَّا أحكامه فمنها: الأحكام المتعلِّقة بالعقيدة، كالإيمان بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله.

ومنها: الأحكام المتعلِّقة بتهذيب النَّفس وتقويمها، وهي الأحكام الأخلاقيَّة.

ومنها: الأحكام العمليَّة المتعلِّقة بأفعال وأقوال المكلَّفين، وهي المقصودة بـ: (الفقه). وهي نوعان: عبادات ومعاملات.

---

(١) وقد جاء بيان ذلك مفصَّلا في (الإقناع بين طريقة القرآن وعرض المفسِّر)، من (ص: ٥٠٨) إلى (٥٢٧).

٧ - التَّعريف بالمخاطَب المكلَّف

المكلَّف هو البالغ العاقل الَّذي لم يمتنع تكليفه، والمراد: جنس المكلَّف سواء أكان واحدًا أو أكثر، فيخرج بهذا القيد: الخطابات المتعلِّقة بفعل الصَّبي من عبادات ومعاملات ووجوب الزَّكاة في ماله، فالخطاب الوارد في ذلك موجَّه إلى الولي، وثواب الصَّبي على الصَّلاة وإن لم يؤمر بها لحكمة هي أن يعتادها، وهو يثاب عليها فضلا من الله ﷻ ونعمة[(١)].

وقد ظنَّ بعض الأصوليين أنَّ الصَّبي مخاطَبٌ بالتَّكليف فعرَّف الحكم بقوله: هو خطاب الله ﷻ المتعلِّق بأفعال العباد[(٢)]. ويرد عليه بأنَّه لا داعي لهذا؛ لأنَّ الخطاب ليس موجَّهًا إلى الصَّبي نفسه، وإنما لوليه -كما سبق-[(٣)].

وممَّا سبق يتبيَّن أنَّ المكلَّف هو البالغ العاقل الَّذي بلغته الدَّعوى، وتَأَهَّلَ للخطاب، فلا يتعلَّق الخطاب بالصَّبي والمجنون والسَّاهي والنائم.

وسيأتي بيان ما يتعلَّق بخطاب المكلَّف.

---

(١) انظر: أصول الفقه الإسلامي، للزُّحيلي (١/ ٣٩)، وانظر: حاشية البناني على شرح جمع الجوامع (١/ ٣٩)، التَّقرير والتَّحبير (٢/ ٧٨)، التَّلويح على التَّوضيح (١/ ٢٧)، محاضرات في أصول الفقه، لمحمد البنا (ص: ١٩)، غاية الوصول شرح لبِّ الأصول (١/ ٥).

(٢) أصول الفقه الإسلامي (١/ ٣٩)، التقرير والتحبير (٢/ ٧٨)، روضة الناظر (١/ ١٣٧). الإحكام، للآمدي (١/ ١٣٥)، الإبهاج (١/ ٤٤).

(٣) المراجع السَّابقة.

٨ - بيان معنى تعلُّق الخطاب بفعل المكلَّف

معناه: ارتباطه به على وجه يبيِّن صفته من كونه مطلوبًا أو غير مطلوب، والمراد بالفعل: ما يعدُّه العرف فعلا سواء كان من أفعال القلوب كالاعتقادات والنِّيات، أم من أفعال الجوارح واللِّسان كأداء الزَّكاة، وتكبيرة الإحرام، وجميع التَّصرفات القولية، ويدخل فيه الكفُّ كترك الزِّنى.

وقد احترز بقيد: (المتعلِّق بأفعال المكلَّفين) عن المتعلِّق بذاته الكريمة كقوله ﷻ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، وعن المتعلِّق بالجمادات كقوله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧]، فإنَّه خطاب من الله ﷻ، ومع ذلك فهو ليس بحكم؛ لعدم تعلقه بأفعال المكلَّفين، وكذلك يخرج المتعلِّق بذوات المكلَّفين [إيجادًا وإعدامًا] مثل: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥]. والتَّعلق إمَّا معنوي، وهو الصَّلوحيُّ القديم قبل وجود المكلَّف على معنى أنَّه إذا وجد مستجمعًا لشروط التَّكليف كان متعلِّقًا به، وإمَّا تنجيزيٌّ، وهو بعد وجود المكلَّف بعد البعثة؛ إذ لا حكم قبلها، وهو تعلُّق حادث(١).

وفي (شرح التَّلويح): «معنى تعلُّقه بأفعال المكلَّفين: تعلُّقه بفعل من أفعالهم وإلا لم يوجد حكمٌ أصلا؛ إذ لا خطاب يتعلَّق بجميع

---

(١) انظر: أصول الفقه الإسلامي، للزُّحيلي (١/ ٣٩)، الوجيز في أصول الفقه (ص: ٣٩ - ٤٠).

الأفعال، فدخل في الحدِّ: خواصُّ النَّبيِّ ﷺ كإباحة ما فوقَ الأربع من النِّساء. وخرجَ: خطابُ الله ﷻ المتعلِّق بأحوال ذاته وصفاته وتنـزيهاته، وغير ذلك ممَّا ليس بفعل المكلَّف. لا يقال إضافة الخطابِ إلى الله ﷻ تدلُّ على أنَّه لا حكم إلا خطابه ﷻ، وقد وجب طاعةُ النَّبيِّ ﷺ، وأولي الأمر، والسَّيد، فخطابهم أيضًا: حكم؛ لأنَّا نقول: إنما وجبت طاعتهم بإيجاب الله ﷻ إيَّاها فلا حكم إلَّا حكمه ﷻ.

ثمَّ اعترض على هذا التَّعريف بأنَّه غير مانع؛ لأنَّه يدخل فيه القصص المبيِّنة لأحوال المكلَّفين وأفعالهم والأخبار المتعلِّقة بأعمالهم كقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات:٩٦]، مع أنها ليست أحكامًا، فزيد على التَّعريف قيد يخصِّصه ويخرج ما دخل فيه من غير أفراد المحدود، وهو قولهم: بالاقتضاء أو التَّخيير، فإنَّ تعلُّق الخطاب بالأفعال في القصص والإخبار عن الأعمال ليس تعلُّق الاقتضاء أو التَّخيير، إذ معنى التَّخيير: إباحة الفعل والتَّرك للمكلَّف، ومعنى الاقتضاء: طلبُ الفعل منه مع المنع عن التَّرك، وهو الإيجاب أو بدونه، وهو النَّدب أو طلب التَّرك مع المنع عن الفعل، وهو التَّحريم أو بدونه، وهو الكراهة»[(١)].

وممَّا سبق يتبيَّن للمخاطَب أنَّ من ألفاظ الخطاب ما يتعلَّق بالمطلوب منه سواء كان فعلًا من أفعال الجوارح أو نيَّة أو اعتقادًا على اعتبار ذلك من أفعال القلوب..وبذلك يتحدَّد للمخاطَب ما يطلب منه فيكون على بيِّنةٍ وبصيرةٍ من التَّعامل مع ألفاظ الخطاب.

---

(١) شرح التَّلويح على التَّوضيح (١/ ٢٤).

٩ - التَّعريف بالأسلوب

أمَّا بيان موقع ذلك من هذا البحث فإنَّ بيانه على النَّحو التَّالي:

إنَّ المخاطَب إذا تعرَّف على صفاتِ المخاطِب ﷻ، وكيفيَّة وصول الخطاب القرآني إلى المخاطَبين، وصفات مبلِّغ الخطاب القرآني، وإذا علم أنَّه مكلَّف، وأنَّ الخطاب القرآني يتعلَّق بفعل المكلَّف وقوله، اشتاقت نفسه إلى التَّعرف على أسلوب الخطاب القرآني وطريقته، وسبر أغوراه.

أمَّا التَّعريف بـ: (الأُسْلُوب) فقد جاء في (تاج العروس) أنَّه «السَّطْرُ من النَّخِيل. والطَّرِيقُ يَأْخُذُ فِيه، وكُلُّ طَرِيقٍ مُمْتَدٍّ فَهُوَ أُسْلُوبٌ. و(الأُسْلُوبُ): الوَجْهُ والمَذْهَبُ. يقال: (هُمْ في أُسْلُوب سوْءٍ). ويجمع على (أَسَالِيب). و(قد سَلَكَ أُسْلُوبَه): طَرِيقَتَه. وكلامُه عَلَى أَسَالِيبَ حَسَنة. و(الأُسْلُوبُ) -بالضَّمِّ-: الفَنُّ. يقال: (أَخَذَ فُلَانٌ في أَسَالِيبَ من القَوْل) أي: أَفَانِين منه»[١]. و«(الأُسْلُوبُ) -بضمِّ الهمزة-: الطَّريق والفنُّ، وهو على (أُسْلُوبٍ) من (أَسَالِيبِ) القوم، أي: على طريق من طرقهم. (سَلَبَ الشيء) من باب نَصَرَ، و(الاسْتِلابُ): الاختلاس، و(السَّلَبُ) -بفتح اللَّام-: المسلوب وكذا (السَّلِيبُ)، و(الأسْلُوبُ): الفنُّ..»[٢].

---

(١) تاج العروس، مادَّة: (سلب) (٣/ ٧١).

(٢) وانظر: التَّوقيف على مهمات التَّعاريف، فصل اللَّام، (ص: ٤١١)، والمصباح المنير، مادَّة: (سلب) (١/ ٢٤٨)، وكذلك في (مختار الصِّحاح) (ص: ٣٢٦).

وعلى ذلك فإنَّ الأسلوب هو الطَّريق المستوي، ومنه أخذ في أساليب من القول، أي: ضروبٌ منه..

ولقد ضمن القرآن لهذه اللُّغة الخلود، وقد ساعدت تلاوةُ القرآن الكريم على ثباتِ تلك اللُّغة ولا سيَّما في جانبها الصَّوتي، وهو أكثر جوانب اللُّغة تعرضًا للتَّغيير والانحراف والتَّشويه، فضلًا على أنَّ الأسلوب القرآني ظلَّ المقياس الأمثل لرقيِّ أساليب الكُتَّاب والشُّعراء، حتَّى إنَّ مكانة أيِّ كاتبٍ أو شاعر تقاس دائمًا بمقدار ما يقتربُ من مثاليَّة الأسلوب القرآني، أو يبتعد عنه. فأسلوب القرآن الكريم يجري على نسق واحد بديع ورفيع خارج عن المألوف، وعلى المستوى نفسه من البراعة والبلاغة والإعجاز على الرغم من تنوُّع المعاني والموضوعات، ويصلح لمخاطبة النَّاس كافَّة على اختلاف ثقافتهم وعصورهم. وعلى ذلك فأساليب القرآن فيها: الفنون والتَّنوُّع البديع الَّذي يأتي بأسمى طرق التَّعبير وأبلغها وأدقِّها دلالة...

❁ ❁ ❁

١٠ - المعنى الاصطلاحي لمفهوم الخطاب في هذه الدِّراسة

أقول: يتبيَّن مما سبق أنَّ للخطاب مصطلحات مختلفة أذكرها مرتَّبة من الأعمِّ إلى الأخص، ومن هذه المصطلحات(١):

الاصطلاح الأوَّل: مصطلح الخطاب بالمعنى الأعم:

وهو كونه قرآنًا منـزَّلًا، كما أنَّه يشمل بهذا المعنى ما هو أعمُّ من كونه قرآنًا، أو وحيًا منـزَّلًا إلى مبلِّغ الخطاب. والمقصود هنا: خطاب الله ﷻ مطلقًا سواء أكان منسوبًا إليه مباشرة كالقرآن، أم بالواسطة كالسُّنة والإجماع والقياس وغيرها من الأدلَّة الشَّرعيَّة -كما سبق-. ولا أتناول في هذا البحث الخطاب من حيث كونه خطابًا منـزَّلًا من قِبل الوحي على عمومه وإطلاقه، كذلك لا أتناول الإجماع والقياس والأدلَّة الشَّرعيَّة الأخرى؛ ولذلك قيِّد الخطاب الأعمُّ هنا بكونه قرآنيًّا، وذلك للاحتراز عن الخطاب بالواسطة. كما قيِّد أيضًا بكونه مباشرًا أو فيه مواجهة للاحتراز عن الخطاب العامِّ الَّذي يعمُّ ألفاظ القرآن كلَّها كما سيأتي.

الاصطلاح الثَّاني: مصطلح الخطاب بالمعنى الأخص:

والمعنى الأخص الَّذي قد استخدم في الغالب فيما يندرج تحت

---

(١) إنما عبَّرت هنا بالجمع؛ لأنَّ الخطاب بالمعنى الأخص له مصطلحات ثلاثة .

مفهوم الخطاب من قِبَل العلماء المتقدِّمين في علوم القرآن الكريم فيما يخصُّ مبحث الخطاب الَّذي فيه مواجهة بين المخاطِب والمخاطَب بصيغة من صيغ الخطاب أعمّ من أن يكون له تعلُّق بأفعال المكلَّفين أو لا يكون له ذلك .

وذلك كقوله ﷻ: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدخان:٤٩]، فإنَّه خطاب بصيغة أمرٍ، وهي من الصِّيغ الَّتي فيها مواجهةٌ بين المخاطِب ﷻ والمخاطَب .

وكقول مالك عليه السلام (خازن النار) مخاطِبًا أهل النَّار: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]، فإنَّه خطاب بصيغة مباشرة من صيغ الخطاب بين مخاطِبٍ ومخاطَب، وليس له تعلُّقٌ بأفعال المكلَّفين، كما أنَّ التَّكليف إنما هو في الدُّنيا .

وما له تعلُّق بأفعال المكلَّفين اقتضاءً أو تخييرًا أو وضعًا هو مصطلح الخطاب عند الأصوليين، وهو أكثر تخصيصًا من الَّذي قبله، وما له أثرٌ في أفعال المكلَّفين اقتضاءً أو تخييرًا أو وضعًا هو مصطلح الخطاب عند الفقهاء.

أقول: ما أنزل إلى المخاطَبين أعمُّ من أن يكون فيه مواجهة بالكلام بين المخاطِب والمخاطَبين، وما فيه مواجهةٌ أخص، وكذلك فإنَّ تعريف الخطاب عند الأصوليين والفقهاء من المصطلحات الخاصَّة، وهي ممَّا يندرج تحت معناه الأعم. وقد اعتبر هنا: المعنى الأخصُّ الَّذي فيه المواجهة؛ لأنَّه الفلك الَّذي تدور حوله سائر الموضوعات،

والَّتي لها به صلة فإنِّي أعرضها لما لها من الارتباط بالمعنى الأخصِّ من وجه، وعلى ذلك يكون التَّركيز على المعنى الأخص لمفهوم الخطاب؛ لكونه أسّ الموضوعات الأخرى...

ولا أُغفل ما يخدم محور البحث من الخطاب الأعم، وقد استخدم كلا المفهومين -أعني: مفهوم الخطاب بمعناه الأعم وبمعناه الأخص- كثيرٌ من الباحثين في علوم القرآن كالزَّركشي في (البرهان)، والسُّيوطي في (الإتقان) -كما سبق-.

وبناء على ذلك فإنَّ ما أطلق على مفهوم الخطاب من العموم ألتزم به من حيث جعله مقدِّمةً وتمهيدا للدُّخول في المعنى المقصود، أو موصلا إليه، معينًا على إدراكه وفهمه من المحاور المحدَّدة.

ويكون ما أطلق من عموم المفهوم ليس جاريًا على الحقيقة اللُّغوية، وإنَّما على (المجاز المرسل) بمرتبتين:

الأولى: الانتقالُ من التَّقييد بمعنىً من المعاني، أو بمفهومٍ من المفاهيم إلى ما يشملها ويعمُّها بعلاقة التَّقييد على اعتبار المعنى المنتقل عنه.

الثَّانية: الانتقالُ من الإطلاق إلى التَّقييد بكونه مخصوصًا بمعنى من المعاني، وهو مواجهةٌ بالكلام بين المخاطِب والمخاطَب بعلاقة الإطلاق هذه المرَّة، وذلك باعتبار المعنى المنتقل عنه -كما أسفلت-.

وممَّا سبق يتبيَّن وجه الارتباط بين مفهوم الخطاب القرآني العامِّ، ومفهومه الخاص..، من حيثُ قصر العامِّ هنا على بعض أفراده،

فيكون من العامِّ الَّذي أريد به الخصوص..وإن كان ذلك الخصوصُ الَّذي قد اصطلح عليه هنا أعمُّ ممَّا قد اصطلح عليه في أصول الفقه، وكذلك هو أعمُّ ممَّا قد اصطلح عليه في الفقه -كما سبق-.

ولكن ينبغي التَّنبه إلى أمرٍ مهمٍّ، وهو أنَّني لا أُغفل الخطاب القرآني من حيثُ معناه الأعمُّ، بما يخدم محورَ البحث -كما سبق-، وحيث يكونُ مندرجًا تحت عنوانها الأخص..



١١ - نتائج البحث التي توصلت إليها من التَّمهيد

١ - تحديدُ مصطلحاتِ البحث.

٢ - بيانُ أنَّ ما أنزل إلى المخاطَبين أعمُّ من أن يكون فيه مواجهةٌ بالكلام بين المخاطِب والمخاطَبين، وما فيه مواجهةٌ أخص.

٣ - التَّفريقُ بين الخطابِ بمعناه الأخص، والخطاب بمعناه الأعم.

٤ - بيانُ أنَّ الخطاب بالمعنى الأخص هو الَّذي فيه مواجهةٌ بين المخاطِب والمخاطَب.

٥ - تحديدُ مصطلح الخطاب العامِّ بأنَّه الخطاب بالمعنى الأعمِّ أو هو القرآن.

٦ - المخاطبةُ مفاعلة من الخطاب والمشاورة.

٧ - أقربُ النَّاس إلى فهمِ الخطاب من عبَّر بخطابه عن حقيقةِ المراد.

٨ - بيانُ المراد من قوله ﷻ: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

٩ - إنَّ من ألوانِ الخطاب ما هو منهيٌّ عنه، وتوضيح السَّبب لهذا النَّهي..

١٠ - تحديدُ مصطلح الخطاب في أصول الفقه وفي الفقه، وبيان أنَّه من المصطلحات الخاصَّة الَّتي تندرج تحت مفهوم الخطاب القرآني العامِّ. وتبيَّن أنَّ الخطاب في اللُّغة الكلام بين متكلّمٍ وسامعٍ، وفي

(اصطلاح الفقهاء) هو: الكلام المقصود منه إفهام من هو متهيِّئ للفهم، والخطاب أخصُّ من الكلام.

١١ - بيانُ السَّبب في تحديد هذا المصطلح -الخطاب في أصول الفقه وفي الفقه- لما له من الصِّلة بالمكلَّف.

١٢ - بيانُ أنَّ السَّبب في تحديد هذا المصطلح -الخطاب في أصول الفقه وفي الفقه- أنَّه لون من ألوان الخطاب، والنَّظر إليه من هذا الجانب.

١٣ - بيانُ أنَّ ذلك التَّحديد لهذه المصطلحات إنَّما هو بغرض تميُّز بعضها عن البعض الآخر، وأنَّ العناية إنما تنصبُّ على ما كان منها خاصًّا بمحور الموضوع.

١٤ - بيان الحاجة إلى المخاطِب ﷻ، وأن معرفة صفاته الحلقة الأولى من حلقات البحث.

١٥ - بيان الواسطة بين المخاطِب ومبلِّغ الخطاب..الحلقة الثَّانية..

١٦ - التَّعريف بالنُّـزول الحلقة الثَّالثة.

١٧ - الحاجة إلى المبلِّغ، وأن معرفة صفاته الحلقة الرَّابعة من حلقات البحث.

١٨ - التَّعرف على أساليب الخطاب القرآني، وبيان أهميَّة ذلك.. (محور البحث) .

الفصل الأوَّل

تنوُّع وجوه المخاطَبات في القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

أ. المنهجية في تقسيم وجوه المخاطَبات

أمَّا وجوه المخاطَبات فإنَّ الخطاب في القرآن يأتي على أوجهٍ كثيرة جدًّا أذكرها مرتَّبة ترتيبًا منهجيًّا مع ذكر نماذجَ تطبيقيَّةٍ لكلِّ وجه، وقد جعلت عنوانًا لكلِّ مطلب يندرج تحته أوجهٌ متنوِّعة من الخطاب، وذلك ليسهل الرُّجوع إليها حيث جاء الكثيرُ منها متناثرًا في كتب التَّفسير وعلوم القرآن، كما أني أذكرُ المناسبة بين المطالب من حيثُ المعنى، والتَّرتيب لفقرات المطالب، وبيان أنَّه لا يأتي جزافًا مع وضوح ما يجمعها من تنوُّع الأساليب، ولا شكَّ أنَّ هذا التَّنوع هو العنوان العامُّ لهذا الفصل.

وقد قسَّمتها على النَّحو الآتي:

المبحث الأوَّل: توجيهُ الخطاب في القرآن الكريم:

وهو الأولى بالتَّصدير في هذا المقام، وذلك أنَّ التوجيه هو أوَّل ما ينبغي أن يتأمَّله المخاطَب من حيث عمومه.

المبحث الثَّاني: تنوُّع أساليبِ الخطابِ من حيثُ النُّـزول:

وقد جاء هذا المبحث عقِبَ توجيه الخطاب؛ لأنَّ النُّـزول هو من حلقاتِ البحث الأولى في الموضوع، وذلك بعد أن تعرَّف المخاطَب

المكلَّف على صفاتِ المخاطِب ﷻ، ومدى حاجة المخاطَب إليه، والطَّريق الموصل إلى رضوانه، وبعد أن عرف أسلوب توجيهِ الخطاب من المخاطِب ﷻ إلى المخاطَب كانت الإشارة إلى تنوُّعِ أساليب الخطاب من حيث النُّـزول من المباحث الَّتي تستحقُّ أن تأتي عقب توجيه الخطاب.

المبحثُ الثَّالث: العامُّ والخاصُّ:

وينظر إليه هنا من جانبين:

أمَّا الجانب الأوَّل: فقد أردفتُ ما يتعلَّق بتوجيه الخطاب، وتنوُّعه من حيثُ صلة ذلك التَّنوع بالنُّـزول ما يتعلَّق بتنوُّعه من حيثُ العموم والخصوص، ولا أتناول في هذا المطلب إلا ما له صلة بتنوُّع أوجه الخطاب من هذه الحيثيَّة.

وقد أتى ذكره بعد توجيه الخطاب؛ لما ذكرتُ من وجه تصدير الخطاب؛ ولكونه أشمل أوصاف الخطاب، وأكثرها تنوُّعًا، وناسب ذكر الجمع والإفراد والتَّثنية بعده.

أمَّا الجانب الثَّاني فينظر إليه من حيثُ ما فيه من العدول إلى غير الظَّاهر من الجمعِ والإفراد والتَّثنية. أو (التَّجوز في الإفراد والتَّثنية والجمع).

وقد جعلته بعد الجانب الأوَّل؛ لأنَّ فيه من المخصِّصات ما يجعله أقلَّ شمولًا من سابقه، وله من الصِّلة مع سابقه ما لا يخفى من تعلُّقه بتنوُّع الخطاب القرآني من حيث عمومه وخصوصه.

المبحثُ الرَّابع: العدولُ إلى غير الظَّاهر أو (التَّجوز في الإفراد والتَّثنية والجمع):

وهو ما له صلةٌ بالمخاطَب، والعدول فيه هو لونٌ من ألوان الخطاب لا ينفكُّ عن كونه موجَّها إلى المخاطَب، والنَّظر إليه من هذا الجانب المجرَّد إلا عن صفةِ العدول، وبيان أنَّ هذه الصِّفة فيها من التَّنوع ما يدلُّ على بلاغة الخطاب، وقد أتى بعد تلك المذكورات لكون الصِّفة المذكورة لها صله بتوجيه الخطاب، وفيه تخصيصٌ بالصِّفة المذكورة، وإن كان فيها من التَّنوع ما تتعدَّد ألوانه، ففيها أيضا تجردٌّ عن غير تلك الصِّفة..

المبحثُ الخامس: ما يتعلَّق بحالِ الإنسانِ ومشاعره وأحاسيسه:

وإذا عرف المخاطَب ما يتعلَّق بتنوُّع الخطابِ من الحيثيَّاتِ المذكورة اشتاقت نفسه إلى التَّعرف على ما يتعلَّق منه بحالِ الإنسان ومشاعره وأحاسيسه، والحكم على أفعاله، وأنَّ من أوجه التَّنوع ما له أثرُ قبول الخطاب أو العمل بمقتضاه، كالتَّهييج والإغضاب والتَّشجيع. . إلخ.

وكذلك (خطاب الاعتبار)، وهو ممَّا له تأثيرٌ في نفس المخاطَب حيث يجعله أقرب إلى تأمُّل الخطاب، والعمل بمقتضاه.

المبحث السَّادس: خطاب المدح والذَّم:

وهو مما له صلة بالحكم، وأثرٌ في القبول، وهو أخصُّ من سابقه، وخطاب المدح والذَّم وإن كان له من الصِّلة بمشاعر الإنسان ما لا يخفى، ولكن المدح والذَّم كما يتعلُّق بمدح المخاطَب، يكون أيضًا في

الأمور المعقولة كما في قوله ﷻ: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ [الكهف:٣١]، فبينهما عموم وخصوص.

المبحث السَّابع: ما يتعلَّق ببيانِ عجزِ المخاطَب عن الإتيان بمثل ما خوطِب به، ودحض تكذيبه:

وهو المبحث الَّذي يعزِّزُ ثقة المخاطَب بالخطاب، حيث إنَّه من المباحث المتعلِّقة بالإعجاز؛ لما فيه من التَّحدي، وتعجيزِ المخاطَبين عن الإتيان بمثل ألفاظ الخطاب. وذلك بعد أن تعرَّف المخاطَب على جملةٍ مترابطةٍ من ألوان الخطاب الَّتي تدلُّ على عظمة المخاطِب ﷻ، فلا بدَّ من بيان أنَّ من صيغ الخطاب المباشرة والصَّريحة ما هو من صيغ التَّحدي والتعجيز..

ثمَّ ما كان الغرضُ منه تكذيب المخاطَب المعاند، فلأجل إقامة الحجَّة عليه، وبيان عجزه. وبيان أنَّ تكذيبه للخطاب لم يكن بسبب الشَّكِّ في صدق مبلِّغ الخطاب ﷺ، وإنَّما لاعتباراتٍ أخرى.. وذلك مع إقرار المخاطَب بالعجز عن الإتيانِ بمثل ألفاظ الخطاب، وخاتمةٍ مناسبة في بيان عاقبة المكذِّبين.

المبحثُ الثَّامن: خطابُ التَّكليف:

وقد جاء متأخِّرًا عن سابقه؛ لأنَّ فيه من المقاصد والنَّتائج والأثر ما يجعله حريًّا بأن يكون متأخِّرًا؛ ولأنَّ التَّكليف فرع الاعتقاد..

المبحث التَّاسع: خطابُ المعدوم:

وإذا كانتْ المباحثُ السَّابقةُ ينظرُ إليها من حيثُ كون الخطاب فيها

موجَّها لغير المعدوم، فما شأن (خطاب المعدوم)؟ وما المقصود من (المعدوم) هنا؟

المبحثُ العاشر: خطابُ الجمادات:

وإذا عرفَ المخاطَب أنَّ للمعدوم خطابٌ، اشتاقت نفسه إلى التَّعرف على شأن الجمادات، هل يتناولها الخطاب؟ وما أوجه التَّنوع في خطاب الجمادات؟

وبيان ذلك على النَّحو التَّالي:

ب. توطئة في بيان أنواع الخطاب

وينبغي أن يلاحظ أنَّ من الباحثين من حَصَرَ أنواعَ الخطاب القرآني في (خمسة عشر) وجهًا كابن الجوزيِّ في (المدهش)[١]، حيث ذكر أنَّ الخطاب في القرآن الكريم على (خمسة عشر وجهًا)، وكان الأولى به أن لا يذكر ما يدلُّ على حصرها بهذا العدد؛ لأنَّ من الباحثين في علوم القرآن من ذكر من أنواع الخطاب القرآني أكثر من العدد المذكور بكثير، كالزَّركشيِّ في (البرهان)، والسُّيوطي في (الإتقان) من المتقدِّمين..قال السُّيوطيُّ: قال ابنُ الجوزي[٢]: «الخطاب في القرآن على (خمسة عشر وجهًا). وقال غيره على أكثر من (ثلاثين وجهًا)»[٣].

وأوصلها ابن النَّقيب[٤] في (مقدِّمة تفسيره) إلى (مائة وخمسة عشر

(١) المدهش، لابن الجوزي (١/ ١٥-١٦).

(٢) يقصد ما سبق ذكره من كلام ابن الجوزي في (المدهش) (١/ ١٥-١٦).

(٣) الإتقان (٢/ ٨٨) فما بعد..البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢١٧) فما بعد..

(٤) هو محمَّد بن سليمان بن الحسن البلخي، المقدسي، أبو عبد الله، جمال الدِّين ابن النَّقيب، مفسِّر، من فقهاء الحنفيَّة. أصله من (بلخ)، ومولده في (القدس). انتقل إلى (القاهرة) وأقرأ في بعض مدارسها. وعاد إلى (القدس)، فتوفي بها. له (تفسير) كبيرٌ حافلٌ، سمَّاه (التَّحرير والتَّحبير لأقوال أئمة التَّفسير). [انظر: كشف الظُّنون (١/ ٣٥٨)]. ذكره الشَّعرائي، وقال: ما طالعت أوسع منه. [٦٩٨هـ]. انظر: الأعلام (٦/ ١٥٠)، طبقات المفسِّرين، للأدنروي (ص:٢٥٨-٢٥٩)، طبقات المفِّسرين، للسَّيوطي (ص:١٠٠)، الجواهر المضيَّة (٢/ ٤١٠)، فوات الوفيات، للكتبي (٣/ ٣٨٢). وقد طبعت (مقدِّمة تفسير ابن النَّقيب) في مكتبة الخانجي، =

قسمًا)، وإذا حرِّرت بتفاصيلها جاوزت (المائة وعشرين نوعًا)، بل وأكثر من ذلك..وسيأتي ذكر ما له من ذلك صلة بموضوع البحث مفصَّلًا، وأذكر كثيرًا ممَّا لم يذكر...مع التَّفسير والتَّرتيب والتَّحقيق.

ولا بدَّ من الإشارة أوَّلًا إلى الأنواع الَّتي ذكرها ابنُ الجوزي، وذلك لأمرين:

الأوَّل: ليعلم ما قد استدرك عليه.

الثَّاني: لأنَّها تعطي فكرةً موجزةً عن هذه الأنواع.

قال: «البابُ الأوَّل في علوم القرآن، فصل في ذكر الخطاب بالقرآن، الخطاب في القرآن على (خمسة عشر وجهًا):

١ - خطابٌ عام: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

٢ - وخطابٌ خاص: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ [آل عمران: ١٠٦].

٣ - وخطابُ الجنس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١].

٤ - وخطابُ النَّوع: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

٥ - وخطابُ العين: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٣].

٦ - وخطابُ المدح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤].

٧ - وخطابُ الذَّم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التحريم: ٧].

٨ - وخطابُ الكرامة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأنفال: ٦٤].

= (القاهرة)، سنة [١٤١٥هـ]، تحقيق: د.زكريَّا سعيد علي. انظر: مقدِّمة المحقِّق في دارسة حول الكتاب ومؤلِّفه من (ص: ٥) فما بعد..انظر: المراجع.

٩ - وخطابُ التَّودد: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ [الأعراف: ١٥٠].

١٠ - وخطابُ الجمع بلفظ الواحد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ﴾ [الانفطار: ٦].

١١ - وخطابُ الواحد بلفظ الجمع: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ [النحل: ١٢٦].

١٢ - وخطابُ الواحد بلفظ الاثنين: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤].

١٣ - وخطابُ الاثنين بلفظ الواحد: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه: ٤٩].

١٤ - وخطابُ العين والمراد به الغير: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤].

١٥ - وخطابُ التَّلوين، وهو ثلاثة أوجه:

أحدُها: أن يخاطب ثمَّ يخبر:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]، ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

والثَّاني: أن يخبر ثمَّ يخاطب:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ﴿... وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١-٢٢].

والثَّالث: أن يخاطب عينا ثمَّ يصرف الخطاب إلى الغير:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّيُؤۡمِنُواْ﴾ [الفتح: ٨-٩].

وهذا على قراءة ابن كثير، وأبي عمرو فإنهما قرءا بالياء[(١)][(٢)].

وسيأتي الحديث عن (الالتفات) في موضعه.

أمَّا بيان ما سبق إجماله فبيانه وتفصيله على النَّحو الآتي:

---

(١) تفسير ابن عادل (١٧/ ٤٨٦)، زاد المسير (٥/ ٣٨٤)، التَّيسير في القراءات السَّبع (ص: ١٢٩)، كتاب السَّبعة في القراءات (ص: ٦٠٣)، تحبير التَّيسير (ص: ٥٦٠)، حجَّة القراءات (ص: ٦٧١).

(٢) المدهش، لابن الجوزي (١/ ١٥-١٦).

المبحث الأول

توجيه الخطاب في القرآن الكريم

- **توطئة:**

إنَّ أهميَّة توجيه الخطاب في القرآن الكريم يفيد الباحثَ معرفة ما فيه من التَّنوُّع، وفائدة هذا التَّنوُّع، وأنَّ الأسلوب في توجيه الخطاب القرآني لا يجري على نسقٍ واحد، بل يتنوَّع لحكمٍ ومقاصدَ، فمن ذلك:

أوَّلاً: يتنوَّعُ بما يتلاءمُ مع مقتضى المعنى.

ثانيًا: يتنوَّعُ بما يتلاءمُ مع طبيعة المخاطَبين.

ثالثًا: إنَّ في هذا التَّنوع ما يدلُّ على مكانة المخاطِب-بكسر الطاء المهملة-.

رابعًا: إن في هذا التنوع ما يدلُّ على مكانة المخاطَب- بفتح الطاء المهملة-.

ولا يخفى أثر التَّنوُّع بالنِّسبة للمخاطَب الَّذي يتدبَّرُ الخطاب القرآني ويتأمَّله، حيثُ يدرك طبيعة الخطاب القرآني وأهميَّة تنوُّعه. فإنَّ مطلق الخطاب لا يخلو: إمَّا أن يكون بين الخالق والمخلوق، وقد يكون المخاطِب هو الله ﷻ، وقد يكون المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- هو المخلوق، وقد يكون من المخلوق إلى المخلوق. فإذا كان المخاطِب هو الله ﷻ، فإنَّه يدلُّ على الرِّفعة والعظمة، وعلى البون

الشَّاسع بينه وبين المخاطَب من حيث الصِّفات -كما سبق في مقدِّمة البحث- وإذا كان من المخلوق إلى الخالق ﷻ كيف ينبغي أن يكون؟ وإذا كان من المخلوق إلى المخلوق كيف ينبغي أن يكون؟

وكفى بالخطابِ القرآني منهجًا يتعلَّمُ منه المخاطَب أَدَبَ الخطاب مع الخالق ﷻ، وطريقة مخاطبة المخلوق للمخلوق بما يتلاءمُ مع مكانة المخاطِب. ومن ذلك على سبيل المثال: (الأدب في مخاطبة الله ﷻ) حيث يصفه بما يليقُ به من صفاتِ العظمة، ويصف المخاطَب حاله من الضَّعف والانكسار بما يتلاءم مع حاجته إلى المخاطِب، وبما يتلاءم مع ما مَنَّ المخاطِب عليه وأسبغ من النِّعم، حيث يكون الطَّلب من المخاطَب (المخلوق) إلى المخاطِب (الخالق) مقرونًا بالشُّكر والرِّضا. وإذا كان من المخاطِب كان محفِّزًا للمخاطَب على الامتثال. وهذا الأدب في الخطاب يستفادُ من آياتٍ كثيرة جدًّا في القرآن الكريم، منها على سبيل المثال: أدب الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- في مخاطبة الله ﷻ، يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فهكذا ينبغي أن يكون حال المخاطَبين مع الله ﷻ..سمعٌ وطاعةٌ وأدبٌ في الخطاب، ووصفٌ لله ﷻ بما يليقُ به من صفات الكمال. ويقول الله ﷻ معلِّما المخاطَبين كيفية توجيه الخطاب: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦﴾ [آل عمران: ١٦]، ﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا

عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران: ١٤٧]، ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٤].

ومع أنَّ الله ﷻ عالمٌ بحال إبراهيم عليه السلام إلا أنَّ إبراهيم عليه السلام أرادَ أن يظهر حاجته إلى رحمة الله ﷻ ورعايته وحمايته، فوصفه بما يليق به من الصِّفات، وحمد الله ﷻ على نعمه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧-٣٩]، وسَأَلَ الله ﷻ أن يكون ممَّن يقيم الصَّلاة..ويؤدِّي ما أوجبه الله ﷻ عليه، حتَّى يتجاوز الله ﷻ عنه يوم يقوم الحساب، ويكرمه ويكرم والديه والمؤمنين برحمته، وهو من الرُّسل أولي العزم والمقرَّبين، فكيف بحال المخاطَبين ممَّن هم دونه في المكانة والمنـزلة؟ كيف ينبغي أن يكون توجيه الخطاب منهم إلى المخاطِب ﷻ. يقول الله ﷻ على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ

لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠-٤١].

في مخاطبة الرَّسول ﷺ يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات: ٢- ٣]، ومن ثَمَّ يبيِّنُ كيفيَّة التَّعامل مع الرَّسول ﷺ، -وعلى سبيل المثال- يقول الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، ويقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢]، ولا شكَّ أنَّ ذلك يترك أثرًا واضحًا في كيفية التَّعامل مع المخاطِب.

وبادئ ذي بدء لا بدَّ من بيان منهجي في عرض (صيغ الخطاب القرآني المتعلِّقة بتوجيه الخطاب):

فتجدر الإشارةُ هنا إلى أنَّ ما كان من هذه الصِّيغ يحتاجُ إلى استقصاء فإني ألتزم ذلك، وذلك كالصِّيغ المباشرة، وإذا كانت الأمثلة كثيرة فإني أذكر (اسم السُّورة)، و(رقم الآية)، وذلك بغرض الاختصار ما أمكن، وفي الوقت نفسه لإعطاء هذه الصِّيغ حقَّها من العرضِ والتَّحليل، وفي مواضع مختلفة، فإذا كان في هذه الصِّيغ ما يقتضي التَّفصيل في عرض ما يمكن أن يندرج تحت صيغة من صيغِ التنوُّع،

فإنِّي أَعْرضُ ذلك مفصَّلًا، وإذا كان الأمر يقتضي اختصارًا اختصرت مع ذكر الأمثلة. وضبط ذلك يرجع إلى ما يلي:

أ. إذا كان في استقصاء التَّمثيل ما يخدم الموضوع من حيث كونه دارسة شاملة للخطاب فإنِّي أهتمُّ بذلك العرض الَّذي يثري الموضوع ويزيده إحكاما وشموليَّة.

ب. أمَّا الاختصار فإنَّه يأتي لأغراض منها:

١ - عدم الوقوع في التَّكرار...

٢ - أن يكون قد سبق ذكره في موضعٍ آخر مفصَّلا، وقد جاء ذكره من حيثيَّة أخرى، فإني أهتمُّ بالتَّفصيل في الموضع الَّذي يحتاج إلى التَّفصيل أكثر من غيره، وأكتفي بالتَّمثيل في الموضع الآخر..، وبذلك يتحقَّق القصد..وأعرضُ أوَّلَ ما أعرض من هذه الصِّيغ:

● **أوَّلا: ما كان خطابا من الله ﷻ بصيغة المتكلِّم:**

وذلك باستخدام الضمائر المباشرة، وتأتي على النَّحو التَّالي:

أ. (نحن): وهي على التَّرتيب من المخاطِب ﷻ:

[الإسراء: ٥٨]، [الكهف: ١٣]، [مريم: ٤٠]، [طه: ١٠٤]، [طه: ١٣٢]، [المؤمنون: ٩٦]، [القصص: ٥٨]، [يس: ١٢]، [فصِّلت: ٣١]، [الزُّخرف: ٣٢]، [ق:٤٣، ٤٥]، [الواقعة: ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦٤، ٦٩، ٧٢، ٧٣]، [المعارج: ٤١]، [الإنسان: ٢٣، ٢٨].

ب. خطاب من الله ﷻ بصيغة المتكلِّم (إنِّي):

وهي من صيغ الخطاب القرآني المباشر .....، وقد جاءت على

التَّرتيب التَّالي:

١ - إلى الملائكة:

[البقرة: ٣٠ - ٣٣]، [الحجر: ٢٨]، [ص: ٧١].

٢ - إلى إبراهيم عليه السلام:

[البقرة: ١٢٤].

٣ - إلى عيسى عليه السلام:

[آل عمران: ٥٥].

٤ - إلى بني إسرائيل:

[المائدة: ١٢].

٥ - إلى الحواريين:

[المائدة: ١١٥].

٦ - إلى موسى عليه السلام:

[الأعراف: ١٤٤]، [طه: ١٢]، [النَّمل: ١٠]، [القصص: ٣٠].

٧ - إلى الرُّسل - عليهم الصلاة والسَّلام -:

[المؤمنون: ٥١].

٨ - إلى المؤمنين:

[المؤمنون: ١١١].

٩ - إلى آل داود عليه السلام:

[سبأ: ١١].

ج. خطاب من الله ﷻ بصيغة المتكلم (أني):

وهي من صيغ الخطاب القرآني المباشر..

١ - إلى المؤمنين:

[آل عمران: ١٩٥]، [الأنفال: ٩]، [الحجر: ٤٩]، [الأنفال: ٩].

٢ - إلى الملائكة:

[الأنفال: ١٢].

د. خطاب من الله ﷻ بصيغة (أنَّا) - بتشديد النُّون -:

وهي من صيغ الخطاب غير المباشرة، وقد جاءت على النَّحو التَّالي: [النِّساء: ٦٦]، [الرَّعد: ٤١]، [مريم: ٦٧، ٨٣]، [طه: ١٣٤]، [الأنبياء: ٤٤]، [النَّمل: ٥١، ٨٦]، [العنكبوت: ٥١، ٦٧]، [السَّجدة: ٢٧]، [يس: ٤١، ٧١، ٧٧]، [الزُّخرف: ٨٠]، [عبس: ٥٢].

هـ. خطابٌ من الله ﷻ بصيغةِ (أنا) - بالتَّخفيف -:

[الحجر: ٤٩]، [النَّحل: ٢]، [طه: ١٢، ١٤]، [الأنبياء: ٢٥]، [النَّمل: ٩]، [القصص: ٣٠]، [ق: ٢٩]، [المجادلة: ٢١].

و. خطابٌ من الله ﷻ بصيغة (إنَّا) أو الضَّمائر غير المباشرة، كضمير (الألف اللَّيِّنة في موضع الفاعل):

كما في الآيات التَّالية: [البقرة: ١١٩]، [النِّساء: ١٠٥، ١٦٣]، [المائدة: ٤٤]، [الأعراف: ٢٧]، [يوسف: ٢]، [الحجر: ٩، ٩٥]، [الكهف: ٧، ٢٩، ٣٠، ٥٧، ٨٤، ١٠٢]، [مريم: ٧، ٤٠]،

[الأنبياء: ١٠٤]، [القصص: ٧]، [العنكبوت: ٣٤]، [السَّجدة: ١٤، ٢٢]، [الأحزاب: ٤٥، ٥٠، ٧٢]، [فاطر: ٢٤]، [يس: ٨، ١٢، ٧٦]، [الصَّافات: ٦، ١١، ٣٢، ٣٤، ٦٣، ٨٠، ١٠٥، ١٢١، ١٣١]، [ص: ١٨، ٢٦، ٤٤، ٤٦]، [الزُّمر: ٢، ٤١]، [الزُّخرف: ٣]، [الدُّخان: ٣، ٥، ١٥، ١٦]، [الجاثية: ٢٩]، [الأحقاف: ٣٠]، [الفتح: ١، ٨]، [الحجرات: ١٣]، [ق: ٤٣]، [القمر: ١٩، ٢٧، ٣١، ٣٤، ٤٩]، [الواقعة: ٣٥]، [القلم: ١٧]، [الحاقَّة: ١١]، [المعارج: ٣٩، ٤٠]، [نوح: ١]، [المزَّمِّل: ٥، ١٥]، [الإنسان: ٢، ٣، ٤، ٢٣]، [المرسلات: ٤٤]، [النَّبأ: ٤٠]، [القدر: ١]، [الكوثر: ١].

ز. ضمير الياء للمتكلِّم ﴿فَإِنِّي﴾ :

كما في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

● **ثانيًا: خطاب عن الله ﷻ بصيغة الغَيْبَة:**

كما في نحو قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣][1].

---

(١) انظر مثلا: الآيات التَّالية: [البقرة: ٢٩]، [آل عمران: ٦ و٧]، [الأنعام: ٢]، [الأعراف: ١٨٩]، [الأنفال: ٦٢]، [التَّوبة: ٣٣]، [يونس: ٥ و٢٢، و٦٧]، و[الرَّعد: ١٢]، و[النَّحل: ١٠]، و[الأحزاب: ٤٣]، و[فاطر: ٣٩]، و[غافر: ١٣ و٦٧، و٦٨]، و[الفتح: ٤ و٢٨]، و[الحديد: ٤]، و[الحشر: ٢]، و[الصَّف: ٩]، و[الجمعة: ٢]، و[التَّغابن: ٢]، و[الملك: ١٥ و٢٣]، وانظر أيضًا الآيات التَّالية: [الأنعام: ٦٠، و٧٢، و٧٣، و٩٧، و٩٨، و٩٩، و١١٤، ١٤١، ١٦٥]، [الأعراف: ٥٧]، [هود: ٧]، =

● **ثالثًا: خطاب موجه من الله ﷻ إلى النَّبي ﷺ بلفظ مباشر:**

وفي البداية ينبغي التَّنبه إلى أنَّ (صيغ مخاطبة الرَّسول ﷺ)، وما له صلة بذلك قد سبق بيانه، ولكنِّي أذكر هنا ما يتعلَّق بتوجيه الخطاب القرآني، وعدم إغفال جانب من جوانبه، كما ينبغي التَّنبه إلى أنَّ (صيغ نداء الرَّسول ﷺ) أيضًا ستأتي في (النِّداء)، وقد تأخَّرَ؛ لأنَّ الخطاب أعمُّ من النِّداء، والنِّداء أخصُّ منه، وهو لون من ألوانه، وقد عرضتُّ هنا ما يتعلَّق بالخطاب الموجَّه من الله ﷻ إلى النَّبي ﷺ بلفظ مباشر، وذلك مما يندرج تحت عموم (توجيه الخطاب في القرآن الكريم):

١ - **النِّداء**: (يَا أَيُّها) كما في نحو قوله ﷻ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤].- وسيأتي بيان ذلك مفصَّلًا في (النِّداء)-.

٢ - **لفظ: (قُل)**:

قد سبق بيان ذلك في صيغ خطاب مبلِّغ الخطاب (الرَّسول ﷺ).

٣ - **ضميرُ المخاطَب (التَّاء)**:

كما في نحو قوله ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]. -وقد سبق في (صيغ خطاب المبلِّغ)-.

= [الرَّعد: ٣]، [النَّحل: ١٤]، [الأنبياء: ٣٣]، [الحج: ٦٦]، [المؤمنون: ٧٨، و٧٩، و٨٠]، [الفرقان: ٤٧، و٤٨، و٥٣، و٥٤، و٦٢]، و[الرُّوم: ٢٧]، و[الشُّورى: ٢٥، و٢٨]، و[الزُّخرف: ٨٤]، و[الفتح: ٢٤].

٤ - **الكاف**:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ٣]. -وقد سبق في (صيغ خطاب المبلِّغ)-.

● **رابعا: خطابٌ موجَّه إلى جماعاتٍ بعينها**:

كالمؤمنين أو أهل الكتاب، أو بني إسرائيل، أو النَّاس جميعًا، أو الإنس والجنِّ..- وسيأتي في (النِّداء) مفصَّلًا-.

● **خامسا: الخطابُ من الرُّسل - عليهم الصَّلاة والسَّلام -**:

وهو كثيرٌ جدًّا ومتنوِّع - وسيأتي في (النِّداء) ما جاء منه بصيغة النِّداء-. وأذكر هنا المحاور العامَّة الَّتي لها صلة بالتَّنوع من حيث توجيه الخطاب القرآني، فمنه الموجَّه إلى الله ﷻ، ومنه الموجَّه إلى أقوامهم، ومنه الموجَّه إلى غيرهم.

فمن الخطاب الموجَّه منهم إلى الله ﷻ ما جاء على نحو: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾ [الفرقان: ٣٠].

ومن الموجَّه إلى أقوامهم فهو كثير جدًّا على نحو: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [البقرة: ٥٤].

ومنه الموجَّه من موسى عليه السلام لهارون عليه السلام نحو: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾﴾ [طه: ٩٢].

● **سادسا: الخطاب من غير الرُّسل:**

والإضافة إلى ما سبق من تنوُّع أساليب توجيه الخطاب القرآني، فإنَّ هناك أوجهًا أخرى أذكرها هنا استكمالًا لجوانب البحث:

ومن ذلك التَّخاطب بين (أهل الجنَّة) و(أهل النَّار): ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤].

ونداءُ (أهلِ الأعراف) أهلَ الجنَّة: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦].

وندائهم (أهلَ النَّار): ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأعراف: ٤٨].

ونداءُ (أصحاب النَّار) (أصحابَ الجنَّة): ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠].

ومنه (نداء مالك عليه السلام) -خازن النَّار-، وقد جاء بصيغة النِّداء. -وسيأتي في (النِّداء)- إلى غير ذلك.

● **سابعا: خطاب من اختلف في نبوَّته:**

ومن خطاب من قيل: إنَّه كان نبيًّا، والأكثر على خلافه: (لقمان) - عليه السَّلام-[1]. وأذكره هنا لأنَّ أكثره جاء بغير صيغة النِّداء، وما

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (٢١/ ٦٧-٦٨)، تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٤-٤٤٦)، الدُّر المنثور =

جاء منه بصيغة النِّداء أذكره في (النِّداء). قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٣-١٩](١).

أمَّا خطاب من اختلف في نبوَّتها (مريم)- عليها السَّلام -فقد سبق تحقيق هذه المسألة في (الوحي)-.

= (٦/ ٥١٦)، بحرُ العلوم (٣/ ٣٧٠)، الإتقان (٢/ ٣٧٣).

(١) ومما ينبغي التَّنبه إليه من خلال سرد هذه الآيات أنَّ قوله ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هاتان الآيتان اعتراض بيِّن أثناء وصية لقمان عليه السلام. وقيل: إنَّ هذا مِمَّا أوصى به لقمان عليه السلام ابنه أخبر الله ﷻ به عنه. القرطبي (١٤/ ٦٣). والأكثر على خلافه، وأنَّه مِمَّا قد اعترض به على نهج الاستطراد في أثناء وصية لقمان تأكيدا لما فيها من النَّهي عن الشِّرك؛ ولأنَّه لما وصَّى بالوالدين ذكر ما تكابده الأمُّ وتعانيه من المشاقِّ في حمله وفصاله هذه المدة الطَّويلة تذكيرًا بحقِّها العظيم مفردًا. انظر: الكشاف (٣/ ٢٣٢)، تفسير أبي السُّعود (٧/ ٧١)، فتح القدير (٤/ ٢٣٨)، النَّسفي (٣/ ٤٠٧).

أمَّا خطابها بصيغة النِّداء فسيأتي في (النِّداء).

ثامنا: خطاب غيرهم من البشر:

وسيأتي في (نداء الأعلام وغيرهم) في (النِّداء).

تاسعا: خطاب غيرهم من المخلوقات:

وسيأتي أيضًا في (النِّداء).

عاشرا: النَّتائج:

١ - بيانُ أهميَّة توجيهِ الخطاب..

٢ - بيانُ التَّنوع في توجيهِ الخطاب، والفائدة من ذلك...

٣ - بيانُ الفرق بين كون الخطاب بين الخالق ﷻ والمخلوق، وبين المخلوق والمخلوق.

٤ - الإشارةُ إلى أدبيَّات توجيه الخطاب..

٥ - الإشارةُ إلى صيغِ توجيه الخطاب في القرآن الكريم.

هذا ما يتعلَّق بتوجيه الخطاب في القرآن الكريم مجملًا، وسيأتي مفصَّلًا ضمن فصول ومباحث، وأنتقل بعد ذلك إلى (تنوُّع وجوه المخاطبات في القرآن الكريم) الأخرى.. .

المبحث الثاني

تنوّعُ أساليب الخطاب من حيث النّزول

● ويتضمَّن:

١- أهميَّةُ العلم بالخطاب المكيِّ والخطاب المدنيِّ.

٢- الاصطلاحاتُ في معنى المكيِّ والمدني.

٣- بيان ما يتميَّزُ به كلٌّ من الخطاب المكيِّ عن المدني من حيث الأسلوب والموضوع.

٤- ما يستفادُ من كلّ من الخطاب المكيِّ، والخطاب المدني.

٥- ضوابطُ ومميِّزات الخطاب القرآني المكيِّ.

٦- ضوابطُ ومميِّزات الخطاب القرآني المدنيِّ.

٧- نتائجُ البحث.



- **توطئة لبيان صلة هذا المبحث بموضوع البحث**

لا بدَّ في البدايةِ من بيان ما أُعْنى هنا به من تنوُّع أساليب الخطاب، وارتباط ذلك التنوُّع بنـزول الخطاب، فإن ما أُعْنى ببيانه هنا: هو أساليبُ الخطاب المكيِّ، وأساليبُ الخطاب المدنيِّ. أمَّا ما له صلة بالنُّـزول ولا يعرفُ له تنوُّعٌ في أساليب الخطاب يعرف به فإنَّه لا صلة له بموضوع البحث.

ولا بدَّ ثانيًا من بيان ما أُعْنى ببيانه من الخطاب المكيِّ، والخطاب المدني.

ولذلك فإني أقول: إنَّ ما أُعْنى ببيانه من الخطاب المكي والخطاب المدني هو ما له صلة بمحور البحث، وفي ذلك ما فيه من تنوُّع الخطاب القرآني من حيث ما يلاحظ الزَّمان فيه مع بقائه على المستوى نفسه من البراعة والبلاغة والإعجاز، وذلك على أرجح الأقوال كما سيأتي.

وقد يقال: ما يلاحظ فيه المكان أو المخاطَب -على ما سيأتي بيانه من تحديد مصطلح الخطاب المكيِّ والمدني-.

وإنما يستفاد ذلك من التَّعريف بالخطاب المكيِّ، والخطاب المدنيِّ، وأيضًا ما له صلة بمحور البحث: التَّعرف على صيغ الخطاب المكي، وصيغ الخطاب المدني من حيث تنوُّعها، وبيان المقاصد من التَّنوع، وبيان فائدة العلم بذلك .

ولا أقصد من في هذا المبحث أن أستقصي بالتَّفصيل والتَّدليل آيات

القرآن الكريم وسوره، وأن أحقِّق ما كان منها مكيًّا وما كان مدنيًّا فتلك محاولة كبيرة جديرة أن تفرد بالتَّأليف. ولكن حسبي هنا أن أتكلَّم عن الاصطلاحات في معنى المكيِّ والمدني من حيث إنَّها من الأساسيَّات المتعلِّقة بهذا البحث؛ إذ لا بدَّ من استكمال حلقاته لمعرفة جوانب الخطاب وألوانه، والَّتي منها الخطاب المكيُّ، والخطاب المدني، ولا بدَّ من معرفة فائدة العلم بالمكيِّ والمدني، وعلى الطَّريق الموصلة إليه، وعلى الضَّوابط الَّتي يعرف بها، حيث إنَّ لها صلة وثيقة بالبحث، وهي من فروع (علم التَّفسير)[1].

وأيضًا ما له صلة بمحور البحث من بيانٍ لصيغ الخطاب القرآني، وما للزَّمن من أثر في فهم صيغ الخطاب القرآني، وذلك ممَّا له صلة بالخطاب المكيِّ، والخطاب المدني، والعامِّ والخاصِّ، والمطلق والمقيَّد...-كما سيأتي-..

والحاصلُ أنَّ محور الاهتمام بدراسة المكيِّ والمدنيِّ بالنِّسبة لما يتعلَّق بموضوع البحث هو ذكر صيغ الخطاب المكيِّ، وصيغ الخطاب المدنيِّ، وفائدة العلم بذلك، وارتباطه بالزَّمن.

---

(١) انظر: الإتقان (١/ ٢٧)، كشف الظُّنون (١/ ١٦)، (٢/ ١٨١٢)، وأبجد العلوم (١/ ٦٨).

● **أوَّلا: أهميَّة العلم بالخطاب المكيِّ والخطاب المدنيِّ:**

ولهذا العلم من الأهميَّة ما لا يخفى على كلِّ باحثٍ في هذا المجال. وقد قال أبو القاسم محمَّدُ بن حبيب النَّيسابوري في كتاب (التَّنبيه على فضل علوم القرآن)(١):

(١) (التَّنبيه على فضل علوم القرآن) لأبي القاسم محمَّد بن حبيب النَّيسابوري، المتوفى سنة [٢٤٥هـ]. انظر: كشف الظُّنون (١/ ٤٨٩)، وانظر: البرهان (١/ ١٩٢)، (١/ ٤٨٩)، أبجد العلوم (٢/ ٥٠٥). ومحمَّد النيسابوري هو محمَّد بن حبيب النَّيسابوري، أبو القاسم، مؤرخ، نسَّابة، مشارك في بعض العلوم، له (تاريخ بغداد)، (التَّنبيه على فضل علوم القرآن)، (رسالة في أسماء القبائل) توفي سنة [٢٤٥هـ]. انظر: معجم المؤلِّفين (٩/ ١٧٥). والكتاب منشور في مجلة (المورد) العراقيَّة، تحقيق: محمَّد عبد الكريم كاظم، عدد [٤]، مجلد [١٧]، عام [١٤٠٩هـ]. الصَّفحات (٣٠٥-٣٢٢) .**أقول**: والَّذي وقفت عليه أنَّ الكتاب -أعني: (التَّنبيه على فضل علوم القرآن)- أنه لأبي القاسم محمَّد بن حبيبٍ النَّيسابوري المتوفى سنة [٢٤٥هـ]، وليس كما ذكر كلٌ من الزَّركشي والسُّيوطي أنَّه للحسن بن محمَّد بن حبيب، وتبعهم في ذلك كثير من المعاصرين. .[البرهان (١/ ١٩٢)، الإتقان (١/ ٣٤)، وانظر: على سبيل المثال كتاب (مباحث في علوم القرآن)، لمناع القطان (ص: ٥١)] فقد ذكروا أنَّ الكتاب هو لأبي القاسم الحسن بن محمَّد بن حبيب. .ولعلَّ الصَّواب ما ذكرته من كونه لأبي القاسم محمَّد بن حبيب. أمَّا الحسن المذكور فهو الحسن بن محمَّد بن حبيب بن أيوب فهو أبو القاسم النَّيسابوري الواعظ المفسِّر. إمام عصره في معاني القرآن وعلومه، مصنِّف التَّفسير المشهور، وكان أديبًا نحويًّا عالمًا بالمغازي والقصص والسِّير، انتشر عنه (بنيسابور) العلم الكثير، وسارت تصانيفه الحسان في الآفاق، وكان أستاذ الجماعة، حدَّث عن الأصم وأبي زكريَّا العنبري، وذكره في كتاب (سر السرور)، وقال: هو أشهر مفسِّري (خراسان) وأقفاهم لحق الإحسان، وكان الأستاذ أبو القاسم الثَّعلبي من خواصِّ تلاميذه. وقال السَّمعانيُّ: كان أوَّلاً كرَّاميَّ المذهب، ثمَّ تحوَّل شافعيًّا. وقال الذَّهبي: سمع أبا حاتم بن حبَّان وجماعة. وروى عنه أبوبكر محمَّد بن عبد الواحد الحيري الواعظ، وأبو الفتح محمَّد بن إسماعيل الفرغاني وآخرون، وصنَّف في القراءات والتَّفسير والآداب وعقلاء المجانين، مات في ذي الحجَّة سنة (ست =

«من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل (بمكَّة) و(المدينة)، وما نزل (بمكَّة) وحكمه مدني، وما نزل (بالمدينة) وحكمه مكِّي، وما نزل (بمكَّة) في أهل (المدينة)، وما نزل (بالمدينة) في أهل (مكَّة)، وما يشبه نزول المكِّيِّ في المدني، وما يشبه نزول المدنيِّ في المكيِّ»[١].

● **ثانيا: الاصطلاحاتُ في معنى المكيِّ والمدني:**

للعلماءِ في معنى المكيِّ والمدني ثلاثة اصطلاحات:

الاصطلاح الأوَّل:

أنَّ المكيَّ ما نزل (بمكَّة) ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل (بالمدينة)[٢]:

ويدخل في (مكَّةَ) ضواحيها، كالمنـزَّل على النَّبي ﷺ بمنى وعرفات والحديبية، ويدخل في (المدينة): ضواحيها أيضا كالمنـزَّل عليه ﷺ في بدرٍ وأُحد، وهذا التَّقسيم لوحظ فيه مكان النُّـزول.

= وأربعمائة). ولم أقف في كتب التَّراجم على أنَّ للأخير هذا الكتاب، بل وقفت على ما أثبته.. انظر: طبقات المفسِّرين، للسُّيوطي (١/ ٤٥-٤٨)، وانظر: الأعلام (٢/ ٢١٣)، الأنساب (٣/ ١٢٥)، سير أعلام النُّبلاء (١٧/ ٢٣٧-٢٣٨)، تاريخ جرجان (١/ ١٩٠). وفي (المغني في الضُّعفاء): "الحسن بن محمد بن حبيب أبو القاسم المفسِّر، وهاه الحاكم في رقعة بخطِّه". المغني في الضُّعفاء (١/ ٦٦٦).

(١) الإتقان (١/ ٣٤).

(٢) انظر: روح المعاني (١٨/ ٩)، وانظر: أيسر التَّفاسير (١/ ١٠)، البرهان (١/ ١٨٧)، الإتقان (١/ ٣٥)، مناهل العرفان (١/ ١٩٣).

وينظر إلى هذا الاصطلاح من حيث اعتبار (مكان النُّـزول)...

ولكن من الملاحظ: أنَّ مثل هذا المصطلح غير ضابطٍ ولا حاصر؛ لأنَّه لا يشمل ما نزل بغير مكَّة والمدينة وضواحيهما، كقوله ﷻ: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ [التوبة: ٤٢]؛ فإنَّها نزلت (بتبوك)[١]. والأمثلة كثيرة.. وهي مبسوطةٌ في كتب علوم القرآن.

ولا ريب أنَّ عدم الضَّبط في التَّقسيم يترك واسطة لا تدخل فيما يذكر من الأقسام، وذلك عيبٌ يخِلُّ بالمقصود الأوَّل من التَّقسيم، وهو الضَّبط والحصر.

الاصطلاحُ الثَّاني:

أنَّ المكيَّ ما وقع خطابًا لأهل (مكَّة)، والمدني ما وقع خطابًا لأهل (المدينة)[٢]:

وينظر إلى هذا الاصطلاح من حيث اعتبار (المخاطَب)...

وعليه يحمل قول من قال: إنَّ ما صُدِّرَ في القرآن بلفظ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

(١) انظر: مناهل العرفان (١/ ١٣٥)، الإتقان (١/ ٦٢)، كما أخرج ذلك ابنُ جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في (تفسيره) (١٠/ ١٤١)، و(١١/ ٢)، والدُّر المنثور (٤/ ٢١٠)، تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠٤)، وتفسير الصَّنعاني (٢/ ٢٧٦)، وزاد المسير (٣/ ٤٤٤)، وانظر أيضا: البحر المديد (٣/ ٧٨)، الكشف والبيان (٥/ ٥٠)، تفسير ابن عادل (١٠/ ١٠٠)، البحر المحيط (٥/ ٤٧)، الخازن (٣/ ١٠٢)، تفسير الرَّازي (١٦/ ٥٦-٥٧)، القرطبي (٨/ ١٥٣)، تفسير الماوردي (٢/ ٣٦٧)، النَّسفي (٢/ ١٨٤)، تفسير مقاتل (٢/ ٤٨)، تفسير النَّيسابوري (٣/ ٤٧٤).

(٢) انظر: روح المعاني (١٨/ ٩)، البرهان (١/ ١٨٧)، الإتقان (١/ ٣٥).

﴿ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١][١] فهو مكيٌّ، وما صُدِّرَ فيه بلفظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [البقرة: ١٠٤] فهو مدنيٌّ؛ لأنَّ الكفر كان غالبًا على أهل (مكَّة) فخوطبوا بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وإن كان غيرهم داخلا فيهم؛ ولأنَّ الإيمان كان غالبًا على أهل (المدينة) فخوطبوا بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، وإن كان غيرهم داخلًا فيهم أيضًا. وألحق بعضهم صيغة: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦] بصيغة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [٢].

---

(١) انظر تاريخ ابن معين: رواية عثمان الدَّارمي (١/ ١٢٠).

(٢) «قال علقمة ومجاهد: كلُّ آية أوَّلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فإنَّما نزلت (بمكَّة)، وكلُّ آية أوَّلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فإنما نزلت (بالمدينة)، قلت: وهذا يردُّه أنَّ هذه السُّورة والنِّساء مدنيَّتان، وفيهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾. وأمَّا قولهما في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فصحيح. وقال عروة بن الزُّبير: ما كان من حدٍ أو فريضة فإنَّه نزل (بالمدينة)، وما كان من ذكر الأمم والعذاب؛ فإنَّه نزل (بمكَّة)، وهذا واضح». تفسير القرطبي (١/ ٢٢٥). وسيأتي ضمن الضَّوابط. المناهل (١/ ١٣٦)، قال الزيلعي في (تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف) (٤٩-٥٠): «بلغنا بإسناد صحيح عن إبراهيم عن علقمة أنَّه قال: كل ما نزل فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو مكي، وما نزل فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ فمدني. قلت: رواه ابن أبي شيبة في (مصنفه) في كتاب فضائل القرآن [٣٠٧٦٨]، حدثنا وكيع عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال: كلُّ شيء نزل فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو بمكة وكل شيء نزل فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فهو بالمدينة انتهى. وكذلك رواه الواحدي في (أسباب النزول) من حديث سفيان الثوري عن الأعمش به سندًا ومتنًا، وهذا مرسل. وقد أسند عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رواه الحاكم في (مستدركه) في آخر كتاب الهجرة عن يحيى بن معين ثنا وكيع عن أبيه عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فذكره سواء. وعن الحاكم رواه البيهقي في أواخر كتابه (دلائل النبوة) بسنده ومتنه، وكذلك رواه البزار في (مسنده) [١٥٣١] عن قيس عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله فذكره، ثم قال: وهذا يرويه غير قيس عن علقمة مرسلاً ولا نعلم أحدًا أسنده إلا =

وهذا التَّقسيم لوحظ فيه (المخاطَبون)، لكن يرد عليه أمران:

أحدُهما: ما ورد على سابقة من أنَّه غير ضابطٍ ولا حاصر؛ فإنَّ في القرآن ما نزل غير مُصَدَّرٍ بأحدهما، نحو قوله ﷻ: في فاتحة (سورة الأحـزاب): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]. ونحو قوله ﷻ في فاتحة (سورة المنافقون): ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١].

ثانيهما: أنَّ هذا التَّقسيم غير مطَّردٍ في جميع موارد الصِّيغتين المذكورتين، بل إنَّ هناك آيات مدنيَّة صُدِّرت بصيغة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾. وهناك آيات مكِّيَّة صُدِّرت بصيغة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. مثال الأولى: (سورة النِّساء)، فإنها مدنيَّة، وأوَّلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١]، وكذلك (سورة البقرة) مدنية، وفيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]. ومثال الثَّانية: (سورة الحجِّ)، فإنها مكِّيَّة مع أنَّ في أواخرها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ [الحج: ٧٧] . . إلخ. قال بعضهم: هذا القول إن أخذ على إطلاقه ففيه نظر؛ فإنَّ (سورة البقرة) مدنية، وفيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ إلى آخر ما ذكرناه . . .غير أنَّه قال أخيرا ما نصُّه: فإن أريد أنَّ الغالب

= قيس، انتهى كلامه. ورواه ابن مردويه في (تفسيره) في سورة الحج من حديث وكيع بن الجراح ثنا أبي عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله..» وانظر الروايات في (الدر المنثور)، للسيوطي (١/ ٨٥)، وانظر ما قاله السُّيوطيُّ في (الإتقان) في ضوابط في المكيِّ والمدنيِّ. الإتقان (١/ ٥٥)، وانظر: فهم القرآن (ص:٣٩٧). المستدرك [٤٢٩٥]، وانظر: فضائل القرآن، للقاسم بن سلام [٦٦٦]، فضائل القرآن، لمحمد بن الضريس [٢٥].

كذلك فصحيح»[١].

ثمَّ علَّق صاحب (المناهل) على ذلك بقوله: «ولكنَّ صحَّة الكلام في ذاته لا تسوِّغ صحَّة التَّقسيم؛ فإنَّ من شأن التَّقسيم السَّليم أن يكون ضابطًا حاصرًا، وأن يكون مطَّردًا، وقيَّد الغالبيَّة المراد لا يحقِّق الضَّبط والحصر، وإن حقَّق الاطِّراد، فيبقى التَّقسيم معيبًا، على أنهم قالوا: (المراد لا يدفع الإيراد»)[٢].

الاصطلاح الثَّالث:

وهو المشهور أنَّ المكي ما نزل قبل هجرته ﷺ إلى (المدينة)، وإن كان نزوله بغير (مكَّة)، والمدني ما نزل بعد هذه الهجرة وإن كان نزوله (بمكَّة)[٣]:

وينظر إلى هذا الاصطلاح من حيث اعتبار (زمن النُّـزول)..، وهو

---

(١) مناهل العرفان (١/ ١٩٣-١٩٤).

(٢) مناهل العرفان (١/ ١٩٤). قولهم: «المراد لا يدفع الإيراد»: هذه العبارة استخدمها الفقهاء كثيرًا في ثنايا كتبهم يعبِّرون عنها بأنَّ المراد الَّذي يساق الحكم من أجله من قِبَل الفقيه المثبت للمسألة لا يعتبر بمقابل الإيراد الَّذي هو الأصل فيها. ينظر: البحر الرَّائق شرح كنز الدَّقائق، لابن نجيم (٢/ ٣٤٤)، والفتاوى الفقهيَّة، لابن حجر الهيتمي (٢/ ١٠٧)، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، لابن حجر الهيتمي (٢/ ٤٩٢)، حاشية البجيرمي على شرح منهج الطُّلاب (التَّجريد لنفع العبيد) (٣/ ١٩٩)، حاشية الجمل على المنهج (١/ ٧٦)، حواشي الشَّرواني على تحفة المحتاج بشرح المنهاج (٣/ ٢٢٧، ٢٥٠، ٢٩٩)، (٦/ ٣١٩، ٤٢٠)، (٨/ ٣٦٠)، (١٠/ ١٧٤).

(٣) انظر: روح المعاني (٢٦/ ٨٤)، البرهان (١/ ١٨٧-١٨٨)، وانظر: العجاب في بيان الأسباب، لابن حجر العسقلاني (١/ ٢٤٣) .

الذي رجحَّه العلماء -كما سيأتي-. ولذلك ينظر إليه هنا من حيث كونه من ألوان الخطاب ذاتِ الصِّلة بالنُّـزول، أو يقال: تنوُّع الخطاب من حيث النَّظر إلى نزوله..[(١)].

«وهذا التَّقسيم لوحظ فيه زمن النُّـزول، وهو تقسيم صحيح سليم؛ لأنَّه ضابط حاصر ومطَّرد لا يختلف بخلاف سابقيه؛ ولذلك اعتمده العلماء، واشتهر بينهم. وعليه فآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] مدنيَّة[(٢)] مع أنها نزلت يوم الجمعة (بعرفة) في (حجَّة الوداع). وكذلك آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، فإنها مدنيَّة مع أنَّها نزلت بمكَّة في (جوف الكعبة) عام الفتح. .إلخ»[(٣)]. وهذا الرَّأي الَّذي أميل إلى ترجيحه؛ لسلامته من الاعتراض؛ ولكونه جامعًا مانعًا؛ ولكونه ضابطًا وحاصرًا ومطَّردًا لا يختلف، وقد اعتمده العلماء واشتهر بينهم...

---

(١) وهذه المنهجيَّة قد انفردت بها..، وقد أشرت إلى ذلك في (المقدِّمة)...

(٢) انظر: المحرَّر الوجيز (٢/ ١٥٤)، البحر المحيط (٣/ ٤٥٢)، الإتقان (١/ ٥٧)، البرهان في علوم القرآن (١/ ١٩٥)، مناهل العرفان (١/ ١٩٤). وذلك خلافًا لما ذكر على إطلاقه في التَّفاسير التَّالية -وكذلك كتب علوم القرآن-: تفسير القرطبي (٧/ ١١٦)، تفسير ابن عادل (٤/ ١٦٠)، تفسير السَّمعاني (٢/ ٥)، تفسير مقاتل (١/ ٢٧٦)، تفسير النَّيسابوري (٢/ ٥٣٩)، وما نقله الآلوسيُّ في (روح المعاني) (٦/ ٤٧)، زاد المسير (٢/ ٢٦٧)، البيان في عدِّ آي القرآن، للدَّاني (ص: ١٤٩)، قلائد المرجان، للكرمي (ص: ٩٦)..إلخ.

(٣) مناهل العرفان (١/ ١٩٤).

وهو الأقرب إلى فهم الصَّحابة ﷺ حيثُ إنَّهم عدُّوا من المدنيِّ (سورة التَّوبة)، و(سورة الفتح)، و(سورة المنافقون). ولم تنزل (سورة التَّوبة) كلُّها (بالمدينة)، فقد نزل كثير من آياتها على رسول الله ﷺ وهو في طريق عودته من (تبوك)[١]، ونزلت (سورة الفتح) على النَّبي ﷺ، وهو عائد من (صلح الحديبية)[٢]، ونزلت (سورة المنافقون) عليه، وهو في (غزوة المصطلق)[٣].

● **ثالثا: بيانُ ما يتميَّزُ به كلٌّ من الخطاب المكيِّ عن المدنيِّ من حيثُ الأسلوب والموضوع:**

أ- أمَّا **(من حيث الأسلوب)** فبيانه على النَّحو التَّالي:

١- الغالبُ في المكيِّ قوَّةُ الأسلوب، وقوَّة الألفاظ مع قصر الفواصل

---

(١) انظر على سبيل المثال: الدُّر المنثور (٤/ ١٩٠، ٢١٥، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٧٥، ٣١٤)، تفسير ابن أبي حاتم (٦/١٧٤٦) إلى (١٩٠٥)، تفسير الطَّبري (١١/٥٨)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٢)، وانظر من كتب السِّيرة: الاكتفاء بما تضمَّنه من مغازي رسول الله والثَّلاثة الخلفاء (١/ ٢٨٤)، (٢ / ٢٢٢-٢٣٦)، الرَّوض الأنف (٢/ ٣٧٦ إلى (٤/ ٣٠٩)، السِّيرة الحلبيَّة (٢/ ٦٦٤)، السِّيرة النَّبويَّة، لابن كثير (٢/ ٣٤٤-٣٤٦)، (٤/ ٣-٦٦)، حدائق الأنوار (١/ ٣٧٣-٣٧٤)، زاد المعاد (٢/ ٩٥) إلى (٣/ ٤٨٠)، سبلُ الهدى والرَّشاد (٥/ ٤٣٣) إلى (٥/ ٤٧٩)، عيون الأثر (١/ ٢٧٨)، مغازي الواقدي (٣ / ١٠٠٥)، إلى (٣/ ١٠٧٥).

(٢) وذلك مشهورٌ جدًّا في كتب التَّفسير والسِّيرة. انظر على سبيل المثال: الدُّر المنثور (٧/ ٥٠٧) إلى (٧/ ٥٣٥)، لبابُ النُّقول (١/ ١٩٣)، الرَّوض الأنف (٤/ ٥٦)، السِّيرة النَّبوية، لابن كثير (٣/ ٣٤٤-٤٢٨)، السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/ ٢٨٨)، حدائقُ الأنوار (ص: ٣٢٤-٣٢٩)، زاد المعاد (٣/ ٢٦٥)، عيون الأثر (٢/ ٢٢٢).

(٣) انظر على سبيل المثال: المحرَّر الوجيز (٥/ ٣١١)، التَّحرير والتَّنوير (٢٨/ ٢٣١)، زاد المسير (٨/ ٢٧١)، السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ٦١)، حدائقُ الأنوار (ص: ٦٧).

وإيجاز العبارة، وشدَّة الخطاب؛ لأنَّ غالب المخاطَبين معرضون مستكبرون. مثال ذلك: (سورتي المدَّثر)، و(القمر).

أمَّا المدنيُّ فالغالبُ فيه سهولةُ الخطاب؛ لأنَّ غالب المخاطَبين مقبلون منقادون، مثال ذلك: (سورة المائدة)[١].

٢- الغالب في المكيِّ: قصرُ الآيات، وقوَّة المحاجَّة؛ لأنَّ غالب المخاطَبين معاندون مشاقُّون، فخوطبوا بما تقتضيه حالهم، مثال ذلك: (سورة الطُّور).

أمَّا المدنيُّ فالغالبُ فيه طول الآيات، وذكر الأحكام، وبيان تفاصيل الأحكام في العبادات والمعاملات والحدود والجهاد مرسلة بدون محاجَّة؛ لأنَّ حالهم يقتضي ذلك، مثال ذلك: (آية الدَّين) في (سورة البقرة).

٣ - كثرةُ أسلوب التَّأكيد ووسائل التَّقرير، ومن ذلك: الإكثارُ من القسم وضرب الأمثال والتَّشبيه، وتكرار بعض الجمل أو الكلمات؛ وذلك ترسيخًا للمعاني.

ب- وأمَّا **(من حيث الموضوع)** فبيانه على النَّحو التَّالي:

١- الغالبُ في المكيِّ: تقرير التَّوحيد والعقيدة السَّليمة، خصوصًا ما يتعلَّق بتوحيد الألوهيَّة والإيمان بالبعث، وعبادة الله ﷻ، وذكر القيامة والجنَّة؛ لأنَّ غالب المخاطَبين ينكرون ذلك. ويفضح أعمال

---

(١) انظر ذلك مفصَّلا في (مناهل العرفان) (١/٢٠٧-٢٠٩).

المشركين من سفك الدِّماء وأكل أموال اليتامى، والإكثار من قصص الأنبياء وتكذيب أقوامهم..

أمَّا المدنيُّ فالغالبُ فيه: تفصيل العبادات والمعاملات، والحدود، والجهاد، والسِّلْم، والحرب، ونظام الأسرة، وقواعد الحكم، ووسائل التَّشريع؛ لأنَّ المخاطَبين قد تقرَّر في نفوسهم التَّوحيد والعقيدة السَّليمة، فهم في حاجةٍ لتفصيل العبادات والمعاملات.

٢- الإفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه والكشف عن سلوك المنافقين وبيان خطرهم على الدِّين في (القسم المدني)؛ لاقتضاء الحال، ذلك حيث شرع الجهاد، وظهر النِّفاق بخلاف (القسم المكيِّ).

ومخاطبة أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإسلام، وإقامة الحجَّة عليهم[١]..

● **رابعا: ما يستفادُ من كلّ من الخطاب المكيِّ، والخطاب المدنيَّ:**

١- ظهورُ بلاغة القران في أعلى مراتبها، حيث يخاطَب كلُّ قوم بما تقتضيه حالهم من قوَّةٍ وشدَّة، أو لينٍ وسهولة.

(١) انظر: مناهل العرفان (١/ ٢٠٤-٤١٦)، مباحث في علوم القرآن، لمناع القطَّان (ص: ٥٠-١١٣)، الموافقات، للشاطبي (٤/ ٤٩٣)، المحرَّر الوجيز (٥/ ٥)، البحر المحيط (٧/ ٤٦٤)، المحرَّر الوجيز (٥/ ٤١٦)، تفسير الثَّعالبي (٣/ ١٨٨)، وفي (البرهان) و(المناهل): «كلُّ سورة فيها ذكر المنافقين فمدنيَّة سوى (العنكبوت)، والتَّحقيق أنَّ (سورة العنكبوت) مكيَّة ما عدا الآيات (الإحدى عشرة) الأولى منها فإنها مدنيَّة. وهي الَّتي ذكر فيها المنافقون». البرهان في علوم القرآن (١/ ١٨٨)، مناهل العرفان (١/ ١٩٨)، النَّاسخ والمنسوخ، للكرمي (ص: ٣٧)، الموافقات، للشَّاطبي (٣/ ٢٤٠)، مباحث في علوم القرآن، لمناع القطَّان (ص: ٥٠)، و(ص: ٦٣)، فنون الأفنان في عيون علوم القرآن (ص: ٣٣٩- ٣٤٠).

٢- ظهورُ حكمةِ التَّشريع في أسمى غاياته، حيث يتدرَّج شيئًا فشيئًا بحسب الأهمِّ على ما تقتضيه حال المخاطَبين، واستعدادهم للقبول والتَّنفيذ.

٣- تربيةُ الدُّعاة إلى الله ﷻ، وتوجيههم إلى أن يتَّبعوا ما سلكه القرآن في الأسلوب والموضوع -من حيث النَّظر إلى المخاطَبين- بحيث يبدأ بالأهمِّ فالأهمِّ، وتستَعملُ الشدَّةُ في موضعها، والسُّهولة في موضعها.

٤- تمييز النَّاسخ من المنسوخ فيما لو وردت آيتان مكِّية ومدنيَّة، يتحقَّق فيهما شروط النَّسخ؛ فإنَّ المدنيَّة ناسخة للمكيَّة، لتأخُّر المدنيَّة عنها.

٥ - ويستفاد من تقسيم القرآن إلى مكيٍّ ومدني أنَّه نزل على النَّبي ﷺ مُفَرَّقًا، ولنـزوله على هذا الوجه حكمٌ كثيرة منها:

أ. **تثبيتُ قلب النَّبي** ﷺ، وذلك لقوله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣].

ب. **أن يسهل على النَّاس حفظه وفهمه والعمل به**، حيث يقرأ عليهم شيئًا فشيئًا، لقوله ﷻ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ج. **تنشيطُ الهمم لقبول ما نزل من القران وتنفيذه،** حيثُ يتشوَّق النَّاس بلهفٍ وشوق إلى نزول الآية، ولا سيَّما عند اشتداد الحاجة إليها كما في آيات الإفك واللِّعان.

د. **التَّدرج في التَّشريع حتى يصل إلى درجة الكمال،** كما في (آيات الخمر) الَّذي نشأ النَّاس عليه وألفوه، وكان من الصَّعب عليهم أن يجابَهوا بالمنع منه منعا باتًّا، فنـزل في شأنه أوَّلا قوله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة:٢١٩]، فكان في هذه الآية تهيئة للنُّفوس لقبول تحريمه حيث إنَّ العقل يقتضي أن لا يقدم الإنسان على شيءٍ ضرره أكبر من نفعه.

ثمَّ نزل ثانيًا قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]، فكان في هذه الآية تمرين على تركه في بعض الأوقات، وهي أوقات الصَّلوات. ثمَّ نزل ثالثًا قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة:٩٠-٩٢]، فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منعًا باتًّا في جميع الأوقات، وذلك بعد أن هُيِّئت النُّفوس، ثمَّ مرِّنت على المنع منه في بعض الأوقات.

هـ. **الاستعانةُ به في تفسير القرآن الكريم**، إذ إنَّ معرفةَ مكان نزول الآية تعين على فهم المراد بالآية، ومعرفة مدلولاتها، وما يراد فيها.

و. **إمعانُ النَّظر في سيرة الرَّسول ﷺ**، وذلك بمتابعة أحواله قبل الهجرة وبعدها، ومواقفه وسيرته في الدَّعوة.

ز. **بيانُ عناية المسلمين بالقرآن الكريم**، واهتمامهم به حيث إنَّهم لم يكتفوا بحفظ النَّص القرآني فحسب، بل تتبَّعوا أماكن نزوله، ما كان قبل الهجرة وما كان بعدها، ما نزل باللَّيل وما نزل بالنَّهار، ما نزل في الصَّيف وما نزل في الشِّتاء، إلى غير ذلك من الأحوال.

وذلك مما يعطي الثِّقة بهذا القرآن، وبوصوله إلينا سالمًا من التَّغيير والتَّحريف.

٦ - «المدنيُّ من السُّور ينبغي أن يكون مُنَزَّلًا في الفهم على المكيِّ، وكذلك المكي بعضه مع بعض، والمدني بعضه مع بعض، على حسب ترتيبه في التَّنـزيل، وإلا لم يصح. والدَّليل على ذلك أنَّ معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكيِّ، كما أنَّ المتأخِّر من كلِّ واحد منهما مبنيٌ على متقدمه، دلَّ على ذلك الاستقراء، وذلك إنما يكون ببيان مجمل، أو تخصيص عموم، أو تقييد مطلق، أو تفصيل ما لم يفصل، أو تكميل ما لم يظهر تكميله»[1].

---

(١) الموافقات، للشَّاطبي (٤/ ٢٥٦).

● **خامسا: ضوابطُ ومميِّزات الخطاب القرآني المكيِّ:**

١-كلُّ سورة فيها سجدة، سوى (الحجِّ) عند من يقول: إنَّها مدنيَّة(١).

٢ - كلُّ سورة فيها لفظ: ﴿كَلَّا﴾(٢).

٣ - كلُّ سورة فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾(٣).

---

(١) انظر: المدخل، لأبي شهبة (ص:٢٢٧)، ومنهم من يرى أنَّها مكِّية. انظر: تفسير القرطبي (٤/ ١٤٤)، وانظر: الإتقان (١/ ٥٥)، تفسير الصَّنعاني (٣/ ٣١)، تفسير الماوردي (النُّكت والعيون) (٤/ ٥)، النَّسفي (٣/ ٩٤) .والصَّحيح أنَّ (سورة الحجِّ) مدنيَّة بدليل آية الجهاد. ورجَّح ابنُ العربيِّ كونها - أي: آية الجهاد مكيَّة. انظر: أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (٣/ ١٢٩٧-١٢٩٨). وقال القرطبيُّ: «(سورة الحجِّ)، وهي مكيَّة، سوى ثلاث آيات، قوله ﷻ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الحج:١٩]، «إلى تمام ثلاث آيات، قاله ابن عباس ومجاهد. وعن ابن عباس أيضًا أنهنَّ أربع آيات، إلى قوله ﷻ: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج:٢٢]. وقال الضَّحاك وابن عباس أيضا: هي مدنيَّة، وقاله قتادة، إلا أربع آيات: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج:٥٢]، إلى ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٥]، فهن مكيَّات. وعدَّ (النَّقاش) ما نزل (بالمدينة) عشر آيات. وقال الجمهور: السُّورة مختلطة، منها مكيٌّ، ومنها مدني. وهذا هو الأصحُّ؛ لأنَّ الآيات تقتضي ذلك؛ لأنَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مكي و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مدني..». تفسير القرطبي (١٢/ ١)، وانظر: روح المعاني (١٧/ ١٠٩)، معاني القرآن الكريم، للنَّحاس (١/ ٥٦١)، وانظر: تفسير الواحدي (٢/ ٧٢٧)، وفتح القدير (٣/ ٤٣٤)، البرهان (١/ ١٩٠-١٩١)، النَّاسخ والمنسوخ، للكرمي (ص:١٤٢)، النَّاسخ والمنسوخ، لابن حزم (ص:٤٦). النَّاسخ والمنسوخ، للنَّحاس (ص: ٥٦١)، وانظر: تفسير السَّمعاني (٣/ ٤١٦).

(٢) انظر: البرهان (١/ ١٨٩)، الإتقان (١/ ٥٦)، النَّاسخ والمنسوخ، للكرمي (ص:٣٧)، وناسخ القرآن ومنسوخه، لابن البارزي (ص:٥٩)، والمناهل (١/ ١٣٨)، المدخل (ص:٢٢٦) .

(٣) قال الحافظ ابن كثير: «كلُّ سورة فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فهي مدنيَّة، وما فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فيحتمل أن يكون من هذا، ومن هذا، والغالب أنَّه مكيٌّ. وقد يكون مدنيًّا كما في (البقرة): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ =

٤ - كلُّ سورة فيها قصص الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- والأمم الغابرة.

٥ - كلُّ سورة فيها قصة آدم عليه السلام وإبليس ما عدا (البقرة).

٦ - كلُّ سورة تفتح بحروف التَّهجي مثل: ﴿الٓمٓ﴾ ، ﴿الٓر﴾ ، ﴿حمٓ ۝١﴾ ما عدا (البقرة) و(آل عمران)[1].

● **سادسا: ضوابطُ ومميِّزات الخطاب القرآني المدنيِّ:**

١- كلُّ سورة فيها فريضةٌ أو حدٌّ.

٢- كلُّ سورة فيها ذكر المنافقين.

٣ - كلُّ سورة فيها مجادلة أهل الكتاب.

٤ - كلُّ سورة تبدأ بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ .

● **سابعا: نتائجُ البحث:**

١ - بيانُ ما تتنوَّع فيه أساليب الخطاب من حيثُ صلة ذلك بالنُّـزول.

٢ - بيانُ الفرق بين أسلوب الخطاب المكيِّ وموضوعه، وبين أسلوب

= ۝٢١﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٦٨﴾ [البقرة: ١٦٨]». تفسير ابن كثير (١/ ١٠٢)، وانظر: الدُّر المنثور (١/ ٨٤)، وفي (المناهل): «كلُّ سورة فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ، وليس فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فهي مكيَّة، ولكنَّه ورد على هذا ما تقدَّم بين يديك من (سورة الحجِّ)". مناهل العرفان (١/ ١٣٨)، وانظر: البرهان (١/ ١٨٨-١٨٩)، وانظر: البيانُ في عدِّ آي القرآن، للدَّاني (ص: ١٣٢) .

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٠٢)، أضواء البيان (٢/ ١٦٨).

الخطاب المدنيِّ وموضوعه.

٣ - بيانُ المقاصد من هذا التَّنوع، وأنَّ جريانَ الخطاب فيه على المستوى نفسه من البلاغة والإعجاز والبيان..وبناء على ذلك فإنَّه ليس في القرآن فاضل ومفضول من هذه الحيثيَّة -أعني بلوغ كلِّ ألوان الخطاب أقصى درجات البلاغة والفصاحة-؛ لأنَّ الكلَّ كلام الله ﷻ الَّذي بلِّغ إلى المخاطَبين، فهو من حيثُ البلاغة والفصاحة في قِمَّةِ الذِّروة .

٤ - بيانُ فائدة العلم بالمكيِّ والمدني من ألوان الخطاب، وأهميَّته، والاصطلاحات فيه، مع بيان الرَّاجح منها..

٥ - بيانُ ضوابط كلٍّ من الخطابَين..

٦ - بيانُ أنَّه خطاب يتلاءم مع الواقع، ويطابق المقام، ومقتضى الحال.



المبحث الثالث

التّنوع في العموم والخصوص

وهو فرعانِ أو مطلبان:

الأوَّل: العمومُ والخصوص.

الثَّاني: الجمعُ والإفراد والتَّثنية.

وعلى ذلك فإنَّه ينظر إلى هذا المبحث من جانبين:

أمَّا الجانبُ الأوَّل: فقد أردفتُ ما له صلة بصيغ توجيه الخطاب ما يتعلَّق بتنوُّعه من حيثُ العموم والخصوص، ولا أتناول في هذا المطلب إلا ما له صلة بتنوُّع أوجه الخطاب من هذه الحيثيَّة.

وقد أتى ذكرُه بعد (توجيه الخطاب)؛ لما ذكرتُ من وجه تصدير (توجيه الخطاب)، ولكونه -أعني التَّنوع من حيثُ العموم والخصوص- من أشمل أوصاف الخطاب، وأكثرها تنوُّعًا، وناسب ذكره بعد توجيه الخطاب؛ لكونه أقل عمومًا، وناسب ذكر الجمع والإفراد والتَّثنية بعد العموم والخصوص؛ لأنَّه أكثر تخصيصًا.

أمَّا الجانبُ الثَّاني: فينظرُ إليه من حيثُ ما فيه من الجمع والإفراد والتَّثنية.

وقد جعلته بعد الجانب الأوَّل؛ لأنَّ فيه من المخصِّصات ما يجعله أقلَّ شمولًا من سابقه، وله من الصِّلة مع سابقه ما لا يخفى من تعلُّقه بتنوُّع الخطاب القرآني من حيث عمومه وخصوصه.

المطلب الأوَّل: العموم والخصوص

أمَّا المطلب الأوَّل فهو أقسام:

- **الأوَّل: خطابُ العامِّ المراد به العموم:**

والأمثلة من القرآن الكريم كثيرة:

منها: قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢]، ونحو ذلك من الآيات. وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤]، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر: ٦٧]، ونحو هذه الآيات، ونحو: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ [الانفطار: ٦].

- **الثَّاني: خطاب الخاصِّ والمراد به الخصوص:**

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ

وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٦]، ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]، ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وغير ذلك، والمعنى واضح.

• **الثَّالث: خطاب الخاصِّ والمراد به العموم:**

ومن الخاصِّ المراد به العموم قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، فقد افتتح الخطابُ بالنَّبيِّ ﷺ، والمراد سائر من يملكُ الطَّلاق[1].

يقول القرطبيُّ رحمه الله: «ومنها: خطاب خُصَّ به لفظًا وشركة جميعُ الأمَّة معنى وفعلا، كقوله ﷻ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] الآية. وقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨]. وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٢]، فكلُّ من دلكت عليه الشَّمس مخاطب بالصَّلاة، وكذلك كلُّ من قرأ القرآن مخاطبٌ بالاستعاذة،

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١٤٨).

وكذلك كلُّ من خافَ يقيم الصَّلاة بتلكَ الصِّفة. ومن هذا القبيل قوله ﷻ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]. وعلى هذا المعنى جاء قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:١]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١]»(١).

وهنا قد يردُ سؤالٌ مفاده: لماذا لم يُعبّر بألفاظِ العموم من أوَّل الأمرِ بدلًا من التَّعبير بالألفاظ الخاصَّة الَّتي تدلُّ على العموم؟

والحاصلُ في الجواب أنَّه قد دلَّت القرائن على عموم المراد مع خصوصِ ألفاظِ الخطاب في الآيات الآنفةِ الذِّكر..فإذا عُلِمَ ذلك فلابدَّ لمثل هذا العدول من نكتةٍ أو حكمة .

وفي بيـان الحكمة من ذلك، والوقوف على معنى هذا اللَّون من ألوان الخطاب عند من قال بهذا اللون من ألوان التَّفسير يقول الآلوسيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خصَّ النِّداء به ﷺ، وعمَّ الخطاب بالحكم؛ لأنَّ النَّبي ﷺ إمام أمَّته، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: (يا فلان: افعلوا كيت وكيت) إظهارًا لتقدُّمه واعتبارًا لترؤُّسه، وأنَّه المتكلِّم عنهم، والَّذي يصدرون عن رأيه، ولا يستبدُّون بأمر دونه، فكان وحده في حكمهم كلِّهم، وسادًّا مسدَّ جميعهم، وفي ذلك من إظهار جلالة منصبه ﷺ ما فيه؛ ولذلك اختير لفظ النَّبي؛ لما فيه من الدِّلالة على علو مرتبته ﷺ»(٢).

---

(١) تفسير القرطبي (٨/ ٢٤٥)، و(١٨/ ١٤٨).

(٢) تفسير الآلوسي (٢٨/ ١٢٨) .

ومنه قوله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وقال أبو بكرٍ الصيرفيُّ[(١)]: «كان ابتداءُ الخطابِ له ﷺ فلمَّا قال في (الموهوبة): ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ عُلم أنَّ ما قبلها له ولغيره ﷺ»[(٢)]. وهذه قرينةٌ تدلُّ على العموم.

أمَّا قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٢]. «فقد جرى أبو يوسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الظَّاهر فقال: إنَّ صلاةَ الخوفِ من خصائصِ النَّبي ﷺ»[(٣)].

---

(١) انظر ترجمته في تهذيبُ الأسماء (٢/ ٤٨٢)، الأنساب، للسَّمعاني (٢/ ٥٠٤)، تاريخ بغداد (٥/ ٤٤٩)، الأعلام (٨/ ١٦٤)، وفيات الأعيان (٤/ ١٩٩).

(٢) انظر: البرهان (٢/ ٢١٨)، الإتقان (٢/ ٨٨).

(٣) أقول: والفتوى في المذهب على قول أبي حنيفة ومحمَّد، وقول أبي يوسف الأوَّل الَّذي رجع عنه بعد ذلك، وهي موافقة لرأي الجمهور كما ذكر ذلك السَّرخسي في (المبسوط)، وكما في (بدائع الصَّنائع). قال السَّرخسيُّ: «اعلم أنَّ العلماء اختلفوا في صلاة الخوف في فصول أحدها: أنَّه مشروع بعد رسول الله ﷺ في قول أبي حنيفة ومحمَّد -رحمهما الله تعالى-. وقال أبو يوسف -رحمه الله تعالى- أوَّلا كذلك، ثمَّ رجع فقال: كانت في حياته ﷺ خاصَّة، ولم تبق مشروعةً بعده؛ لقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النِّساء: ١٠٢] فقد شرط كونه فيهم لإقامة صلاة الخوف؛ لأنَّ النَّاس كانوا يرغبون في الصَّلاة خلفه ما لا يرغبون في الصَّلاة خلف غيره فشرع بصفة الذَّهاب والمجيء لينال كلُّ فريق فضيلة الصَّلاة خلفه. وقد ارتفع هذا المعنى بعده، فكلُّ طائفة يتمكَّنون من أداء الصَّلاة =

وأجابَ الجمهورُ: بأنَّه لم يذكر فيهم على أنَّه شرط، بل على أنَّه صفةُ حال، والأصل في الخطاب أن يكون لمعيَّن، وقد يخرج على غير معيَّن ليفيد العموم كقوله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥]. وفائدته: الإيذانُ بأنَّه خليقٌ بأن يؤمر به كلُّ أحدٍ ليحصل مقصوده الجميل»[(١)].

وكقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١]..أخرج في صورة الخطاب لما أريد العموم للقصد إلى تقطُّع حالهم، وأنها تناهت في الظُّهور حتى امتنع خفاؤها، فلا تخصُّ بـها رؤيةُ راءٍ، بل كلُّ من يتأتَّى منه الرُّؤية داخلٌ في هذا الخطاب، كقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾ [الإنسان: ٢٠]، لم يُرَد به مخاطب معيَّن، بل عُبّر بالخطاب ليحصل لكلٍّ واحد فيه مدخل مبالغةً فيما قصد الله ﷻ من وصف ما في ذلك المكان من النَّعيم والملك، ولبناء الكلام في الموضعين على العموم لم يجعل لـ: ﴿تَرَىٰ﴾ ولا لـ: ﴿رَأَيْتَ﴾ مفعولا ظاهرًا ولا مقدرا ليشيع ويعم[(٢)].

ويتبيَّن ممَّا سبق:

١ - أنَّ من الخطاب ما لفظه خاصٌّ، ولكن المراد به العموم.

= بإمام على حدة فلا يجوز لهم أداؤها بصفة الذَّهاب والمجيء. وحجَّتنا في ذلك أنَّ الصَّحابة أقاموها بعد رسول الله ﷺ.. ثمَّ ذكر ما يدلُّ على ذلك من فعل الصَّحابة -رضوان الله عليهم- وردَّ رأي أبي يوسف -رحمه الله-». المبسوط (٢/ ٤٥-٤٦)، بدائع الصَّنائع (١/ ٢٤٢).

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢١٨-٢١٩) .

(٢) انظر: المرجع السابق (٢/ ٢١٩) .

٢ - القرائنُ هي الَّتي تدلُّ على المراد.

٣ - إنَّ لمثل هذا العدول حِكَمٌ ظاهرة.

• **الرَّابع: خطاب العامِّ والمراد الخصوص:**

وقد اختلفَ العلماءُ في وقوع ذلك في القرآن[١] فأنكره بعضهم؛ لأنَّ الدِّلالة الموجبة للخصوص بمنـزلة الاستثناء المتَّصل بالجملة كقوله ﷻ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤][٢].

قال الجصَّاص[٣] في (الفصول): «وقال بعضُ أصحابنا: لا يجوز ورود لفظِ العامِّ والمراد به الخصوص؛ لأنَّ الدِّلالةَ الموجبةَ للخصوصِ بمنـزلة الاستثناء المتَّصل بالجملة، كقوله ﷻ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ غير جائز أن يقال: إنَّ هذه الصِّيغة عبارة عن (أَلْفِ

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٢٠)، روضة النَّاظر (١/ ٢٣٩)، إرشاد الفحول (١/ ٢١٩)، المحصول (٢/ ٥٦)، تيسير التَّحرير (١/ ٣٥٣)، أصول البزدويِّ (١/ ٢١٣)، الكوكب الدُّري (١/ ٩٤)، المستصفى (٢/ ٨١)، الإحكام، للآمدي (٢/ ٢٢٩)، أصول السَّرخسي (٢/ ٣٨-٣٩).

(٢) وهذا يسمَّى كما قال السَّرخسي: (بيان التَّغيير والتَّبديل) قال: «أمَّا (بيان التَّغيير) فهو: الاستثناء، فإنَّ الألف اسم موضوع لعدد معلوم فما يكون دون ذلك العدد يكون غيره لا محالة، فلولا الاستثناء لكان العلم يقع لنا بأنَّه لبثَ فيهم (ألف سنة)، ومع الاستثناء إنما يقع العلم لنا بأنَّه لبث فيهم (تسعمائة وخمسين عامًا)، فيكون هذا تغييرا لما كان مقتضى مطلق تسمية (الألف)». أصول السَّرخسي (٢/ ٣٥).

(٣) هو أحمد بن علي الرَّازي، الحنفي، المعروف بالجصَّاص (أبو بكر). فقيهٌ مجتهدٌ، ورد (بغداد) في شبيبته، ودرس وجمع، وتخرَّج به المتفقهة، وتوفي (ببغداد) في ذي الحجَّة سنة [٣٧٠]، وله (٦٥) سنة. معجم المؤلِّفين (٢/ ٧). وانظر: طبقات الفقهاء، للشِّيرازي (ص: ٤٤)، الجواهر المضيَّة (ص: ٨٤).

سنة) كاملة. كذلك قيام الدِّلالة على إرادة الخصوص تجعل اللَّفظ خاصًّا، ويتبيَّن أنَّه لم يكن لفظ عموم قطّ. وليس وجود اللَّفظ الَّذي يصلح للعموم بموجب أن يكون عمومًا، بل هو لفظ خاصٌّ، صورته غير صورة لفظ العموم، كما أنَّ وجود لفظ: **(الألف)** مِنْ قوله ﷻ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ أن تكون هذه الصِّيغة هي صيغة (الألف) المطلقة العارية من الاستثناء، بل الصِّيغتان مختلفتان، كذلك اقتران دلالة الخصوص إلى اللَّفظ الَّذي يصلح للعموم يغيِّر صيغة اللفظ، ويمنع كونه عامًّا أريد به الخصوص. فدلَّ ذلك على أنَّ ما كان هذا وصفه من الألفاظ فهو حقيقة فيما ورد فيه مستعمل في موضعه. وليس أنَّ دلالة التَّخصيص غير مذكورة مع اللَّفظ بمانع أن يكون في معنى الاستثناء المتَّصل باللَّفظ؛ لأنَّا قد وجدنا اللَّفظ المطلق الَّذي قد أريد به في استثناء بعضه قد اقتصر فيه على الإطلاق من غير ذكر الاستثناء متَّصلًا به في بعض المواضع، وإن كان قد ذكر في بعضها، ولم يكن وجود ذلك في الكلام. وجوازه فيه بمانع أن يكون الاستثناء مرادًا كقوله ﷻ في قصة لوط عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الحجر: ٦٥]، فلم يستثن امرأته في هذا الموضع، وهي مستثناة في المعنى، وإن لم يذكرها. ثمَّ قال في موضع آخر: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١]، فأظهر الاستثناء في هذه الآية. ثمَّ لم يختلف حكم اللَّفظين في أنَّ كلَّ واحد

منهما مستثنى منه المرأة في المعنى، وإن كانت مذكورة في أحدهما غير مذكورة في الآخر.

ونحو قوله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، ومعلوم أنَّه لم يرد به المسيح وعزيرًا -عليهما السَّلام-، فأنزل الآية مطلقة اكتفاء بالدِّلالة الَّتي أقامها على أنَّه لا يعذبهما (في الآخرة)، وكان ذلك بمنزلة الاستثناء المتَّصل باللَّفظ، فلما قال المشركون هذا المسيح والعزير قد عبدا من دون الله ﷻ أنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ثمَّ لم يختلف حكم اللَّفظ بعد نزول هذه الآية وقبلها. فهذا يدلُّ على أن دلالة التَّخصيص بمنزلة الاستثناء فينبغي على هذا أن لا يختلف حكم اللَّفظ فيهما في كونه حقيقة في موضعه وأنَّه ليس بلفظ عموم»[١].

فهذه حجَّة من أنكر وقوع هذا اللَّون من ألوان الخطاب، لكنَّ الصحيح الَّذي أميل إلى ترجيحه أنَّ خطاب العام الَّذي أريد به الخصوص واقع كقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣]، وعمومه يقتضي دخول جميع النَّاس في اللَّفظين جميعًا، والمراد: بعضهم؛ لأنَّ القائلين غير المقول لهم، والمراد بالأوَّل: نعيم بن سعيد الثَّقفي ذكره في (البرهان)[٢] بهذا

(١) الفصول في الأصول (١/ ١٣٧) فما بعد.
(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٢٠)، (٣/ ٧).

الاسم، والصَّواب أنَّه نعيمُ بن مسعودٍ الأشجعيُّ.(١)(٢)

والثَّاني: أبو سفيان وأصحابه. ومما يقوِّي أنَّ المراد بالنَّاس في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ واحد قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥]، فوقعت الإشارة بقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى واحدٍ بعينة، ولو كان المعنى به جمعًا لكان: (إنَّما الشَّياطين)، فهذه دلالة ظاهرة في اللَّفظ. وقيل: بل وضع فيه ﴿ٱلَّذِينَ﴾ موضع (الَّذي)(٣).

---

(١) هو نعيمُ بن مسعود الأشجعيُّ، سمع النَّبي ﷺ، وكان في حجر عمر رضي الله عنه. يقال: إنَّه أسلم في (الخندق)، وهو خذل بين النَّاس يومئذٍ، وكان يسكن (المدينة)، وولده من بعده، وبقى إلى زمان عثمان رضي الله عنه، ومات في آخره روى عنه ابنه سلمة بن نعيم. .الجرح والتَّعديل (٨/ ٤٥٩)، وانظر ترجمته: تقريب التَّهذيب (ص:٥٦٥)، الكاشف (٢/ ٣٢٥)، تهذيب الكمال (٢٩/ ٤٩١-٤٩٢)، معجم الصَّحابة (٣/ ١٤٧)، الطَّبقات، لابن خيَّاط (١/ ١٢٩)، الاستيعاب (٤/ ١٥٠٨-١٥٠٩)، الطَّبقات الكبرى (٢/ ٦٩، الإصابة (٦/ ٤٦١).

(٢) انظر: الكشاف (١/ ٤٨٠)، التَّحرير والتَّنوير (٤/ ١٦٨)، أضواء البيان (١/ ٢١٧)، المحرَّر الوجيز (١/ ٥٤٢)، الخازن (١/ ٤٥٣)، السِّراج المنير (١/ ٣٠٢)، تفسير السَّمعاني (١/ ٣٨٠)، تفسير الرَّازي (٩/ ٤٣٢)، القرطبي (٤/ ٢٧٩)، تفسير الماوردي (١/ ٢٦١)، تفسير النَّسفي (١/ ٢٩٠)، زاد المسير (١/ ٥٠٤)، البحر المديد (١/ ٥٤٤)، العجاب في بيان الأسباب (٢/ ٧٩٤)، تفسير الطَّبري (٢/ ٢٩٤)، القرطبي (١٢/ ١٢٧)، (١٣/ ٣١٣)، الواحدي (١/ ٢٤٤)، البيضاوي (٢/ ١١٦)، البغوي (١/ ٢٩٨)، زاد المسير (١/ ٥٠٤)، فتح القدير (١/ ٤٠٠)، الإتقان (٢/ ٤٣)، (٢/ ٣٩٦)، ابن عادل (٥/ ١٩١)، (٦/ ٥٧)، (١٠/ ١٤٠)، (١٠/ ٣٩١)، البحر المحيط (٢/ ٤٦٤).

(٣) انظر: البرهان (٢/ ٢٢٠)، الإتقان (٢/ ٤٣ و٢٩٦)، تفسير الطَّبري (٢/ ٢٩٤)، تفسير القرطبي (٤/ ٢٧٩، ١٢/ ١٢٧- ١٢٧)، (١٣/ ٣١٣)، تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٢)، الدُّر المنثور (٢/ ٣٨٨)، الكشاف (١/ ٤٨٠-٤٨١)، تفسير البيضاوي (٢/ ١١٦)، البغوي =

قال في (مراقي السُّعود):

«**وما به الخصوص قد يراد جعله في بعضها النقَّادُ**»[1].

يعني أنَّ العامَّ المراد به الخصوص لم يُقصد فيه إلا بعض الأفراد، وبعضها لم يقصد، لا تناولًا ولا حكمًا، بل المراد فيه البعض فقط في الاستعمال والحكم معًا كقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ ، أي: نعيم، ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [آل عمران:٣٩]، أي: جبريل عليه السلام، فالأوَّل أريدت فيه الأفراد كُلا استعمالا لا حكمًا، والثَّاني لم يرد فيه إلا البعض استعمالا وحكمًا[2]. فالأوَّل من القسمين (العامُّ المخصوص)، والثَّاني: (العامُّ الَّذي أريدَ به الخصوص).

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة:١٣] على قول من قال من المفسِّرين[3]: إنَّ المراد: عبد الله بن سلام[4]. وقيل غير ذلك، وعلى أيَّةِ حال فإنَّ

= (١/ ٢٩٨)، تفسير فتح القدير (١/ ٤٠٠-٤٠٢)، تفسير الثَّعالبي (١/ ٣٣٤)، تفسير الواحدي (١/ ٢٤٣-٢٤٤)، زاد المسير (١/ ٥٠٤)، تفسير النَّسفي (١/ ١٩٢)، روح المعاني (٤/ ١٢٥) فما بعد.

(١) مراقي السُّعود، رقم [٣٨٨]، (ص:٥٢)، وانظر: نثرُ الورود على مراقي السُّعود (١/ ٢٧٥).

(٢) انظر: نثرُ الورود (١/ ٢٧٥).

(٣) القرطبي (١/ ٢٠٥)، البغوي (١/ ٥١)، روح المعاني (١/ ١٥٥)، فتح القدير (١/ ٤٣)، ولم يذكر الزَّركشي في (البرهان) غيره على خلاف عامَّة المفسِّرين. انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٢١) .

(٤) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، أبو يوسف، صحابيٌّ. قيل: إنَّه من نسلِ يوسف بن يعقوب عليه السلام. أسلم عند قدوم النَّبي ﷺ (المدينة)، وكان اسمه:

الألف واللَّام في السُّفهاء للعهد، فيعني به الصَّحابة، أو الصِّبيان والنِّساء، أو عبد الله بن سلام وأصحابه. ويحتمل أن تكون للجنس فيندرج تحته من فسَّر به النَّاس من المعهودين، أو الكاملون في السَّفه، أو لأنَّهم انحصر السَّفه فيهم؛ إذ لا سفيه غيرهم..»[1].

«وإنما أدخِلت الألف واللَّام في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ ، وهم بعضُ النَّاس لا جميعُهم؛ لأنهم كانوا معروفين عند الَّذين خُوطبوا بهذه الآية بأعيانهم، وإنما معناه: آمِنُوا كما آمَن النَّاس الَّذين تعرفونهم من أهل اليقين والتَّصديق بالله ﷻ، وبمحمَّد ﷺ، وما جاء به من عند الله ﷻ، وباليوم الآخر؛ فلذلك أدخِلت الألف واللَّام فيه»[2].

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ [الحجرات: ٤] على قول من قال من المفسِّرين: إنَّ المراد: الأقرع بن حابس التَّميمي ﵁، فيما أورده غير واحد.

ومن ذلك: قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]. لم

= (الحصين) فسمَّاه رسول ﷺ (عبد الله). ونزلت فيه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية[الأحقاف: ١٠]، ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرَّعد: ٤٣]. وشهد مع عمر ﵁ فتح (بيت المقدس) و(الجابيَّة). ولما كانت الفتنةُ بين علي ومعاوية -رضي الله عنهما-، اتَّخذ سيفا من خشب، واعتزلها. وأقام (بالمدينة) إلى أن مات[٤٣ هـ]. له (٢٥) حديثًا. الأعلام (٤/ ٩٠)، وانظر: الإكمال (٤/ ٤٠٣)، الإصابة (٤/ ١١٨)، المقتنى في سرد الكنى (٢/ ١٦٢)، تذكرة الحفَّاظ، للذَّهبي (١/ ٢٤)، تهذيب الكمال (١٥/ ٧٤)، تاريخ دمشق (٢٩/ ٩٧).

(١) انظر: البحر المحيط (١/ ٢٠٠)، السِّراج المنير (١/ ٣٢).

(٢) تفسير الطَّبري (١/ ١٢٧). =

يدخل فيه الأطفال والمجانين[١].

ثمَّ التَّخصيص يجيء تارة في آخر الآية كقوله ﷻ: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء:٤]، فهذا عامٌّ في البالغة والصَّغيرة عاقلة أو مجنونة، ثمَّ خصَّ في آخرها بقوله ﷻ: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء:٤] الآية. فخصَّها بالعاقلة البالغة؛ لأنَّ من عداها عبارتها ملغاة في العفو.

ونظيره قوله ﷻ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة:٢٢٨]، فإنَّه عامٌّ في البائنة والرَّجعيَّة، ثمَّ خصَّها بالرَّجعيَّة بقوله ﷻ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٢٢٨]؛ لأنَّ البائنة لا تراجع. وتارة في أوَّلها كقوله ﷻ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ [البقرة:٢٢٩]، فإنَّ هذا خاصٌّ في الَّذي أعطاها الزَّوج. ثمَّ قال بعد: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ فهذا عامٌّ فيما أعطاها الزَّوج أو غيره إذا كان ملكًا لها. وقد يأخذ التَّخصيص من آية أخرى كقوله ﷻ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال:١٦] الآية. فهذا عامٌّ في المقاتل كثيرًا أو قليلا ثمَّ قال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ﴾ [الأنفال:٦٥] الآية.

ونظيره قوله ﷻ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣]، وهذا عامٌّ في جميع الميتات، ثمَّ خصَّه بقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٤]، فأباح الصَّيد الَّذي يموت في فم الجارح المعلَّم،

(١) سيأتي ما يتعلَّق بخطاب الصَّبي والمجنون والمعدوم، ومن ليس منتظمًا في سلك التَّكليف وقت الخطاب.

وخصَّص أيضًا عمومه في آية أخرى، قال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٩٦]، تقديره: وإن كانت ميتة فخصَّ بهذه الآية عموم تلك. ومثله قوله ﷻ: ﴿أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ٢٩][1]. ونظيره قوله: ﴿وَٱلدَّمُ﴾ [البقرة: ١٧٣]، [المائدة: ٣]، [النحل: ١١٥]. وقال في آية أخرى: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، يعني: إلا (الكبد والطحال) فهو حلال. ثمَّ هذه الآية خاصَّة في (سورة الأنعام)، وهي مكيَّة، والآية العامَّة في (سورة المائدة)، وهي مدنيَّة، وقد تقدَّم الخاصُّ على العامِّ في هذا الموضع كما تقدَّم في النُّزول (آية الوضوء) على أنَّه التَّيمم. وهذا ماش على مذهب الشَّافعي في أنَّ العبرة بالخاصِّ سواء تقدَّم أم تأخَّر[2].

ومثله قوله ﷻ: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠]. والآية عامَّةٌ سواء رضيت المرأة أم لا، ثمَّ خصَّها بقوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن

---

(١) يعني أنَّه مخصص لقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ [النُّور: ٢٧] الآية.

(٢) انظر: المجموع شرح المهذَّب (١٠/ ٥٥)، الحاوي في فقه الشَّافعي (١٥/ ٤٣١)، حواشي الشَّرواني على تحفة المحتاج بشرح المنهاج (٧/ ٢٠٢)، البحر المحيط في أصول الفقه (٢/ ٥٣٧) فما بعد، (٣/ ٢٦٦)، (٤/ ٤٣٧)، التَّمهيد، للإسنوي (ص: ٢٨٠)، حاشية الدُّسوقي على الشَّرح الكبير (١/ ٢٥٣)، التَّحبير شرح التَّحرير (٣/ ١٥٠٣)، (٦/ ٢٦٥٢)، التَّقرير والتَّحبير (١/ ٣٦٦)، القواعد والفوائد الأصوليَّة (ص: ١٧٤)، الفواكه الدَّواني على رسالة ابن أبي زيد القيروانيِّ (١/ ١٢٠)، الرَّوض المربع شرح زاد المستنقع (١/ ٣٣٤). وانظر من كتب التَّفسير: أضواء البيان (٥/ ٤٢٥)، تفسير النَّيسابوري (غرائب القرآن) (١/ ٥٣١).

شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ﴾ [النساء: ٤]، وخصَّها بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. ومثله قوله ﷻ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] الآية، فهذا عامٌّ في المدخول بها وغيرها، ثمَّ خصَّها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩] الآية. فخصَّ الآيسة والصَّغيرة والحامل، فالآيسة والصَّغيرة بالأشهر، والحامل بالوضع.

ونظيره قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٤] الآية. وهذا عامٌّ في الحامل والحائل[١]، ثمَّ خصَّ بقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. ونظيره قوله ﷻ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] الآية. وهذا عامٌّ في ذوات المحارم والأجنبيَّات، ثمَّ خُصَّ بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] الآية. وقوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ [النور: ٢] عامٌّ في الحرائر والإماء، ثمَّ خصَّه بقوله: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، وقوله: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]؛ فإن الخُلَّة عامَّة، ثمَّ خصَّها بقوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]. . إلخ[٢].

---

(١) الحائل: الَّتي ليست حاملاً..

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٢١-٢٢٣).

ويتبيَّن مما سبق:

١ - أنَّ من العلماءِ مَنْ أنكرَ وقوع هذا اللَّون من ألوان الخطاب...

٢ - تحقيقُ هذه المسألة، وبيانُ أنَّ الرَّاجح الوقوع..

٣ - ذكرُ نماذجَ وأدلَّة وقرائن تدلُّ على ذلك...



المطلب الثَّاني: الجمع والإفراد والتَّثنية

أمَّا الشِّقُّ الثَّاني من (التَّنوع في عموم الخطاب وخصوصه) فإنَّه يتناول ما يتعلَّق بالجمع والإفراد والتَّثنية، وهو أقسام:

- **الأوَّل: خطابُ الجنس**

ولا بدَّ في البداية بيان مصطلح: (الجنس).. جاء في (المغرب): «(الجنس) عن أئمَّةِ اللُّغة الضَّرب من كلِّ شيء، والجمع: (أجناس)، وهو أعمُّ من (النَّوع)، يقال: (الحيوان جنس)، و(الإنسان نوع)؛ لأنَّه أخصُّ من قولنا: (حيوان)، وإن كان جنسا بالنِّسبة إلى ما تحته..»[(١)].

أقول: وعلى ذلك فالجنس -بالكسر- أعمُّ من النَّوع، وهو كلُّ ضرب من الشَّيء، فالإبل جنس من البهائم. وعلى ذلك فإنَّه ينظر إلى (الإنسان) مثلا من منظورين:

الأوَّل: بالنِّسبة لما فوقه فهو نوع.

الثَّاني: بالنِّسبة لما تحته فهو جنس، فيكون النَّوع الذَّكر والأنثى. وهو جنسٌ قريب فلا جنس تحته، وإنما تحته النَّوع. و(الجِنْس) لغة: الضَّرب من كلِّ شيء، وهو أعمُّ من النَّوع[(٢)]. وعلى ذلك فالجنس ثلاثة

---

(١) المغرب، مادَّة: (جنس) (١/ ١٦٤).

(٢) انظر: مادَّة: (الجنس) في كلٍّ من (الصِّحاح) (٣/ ٩١٥)، لسان العرب (٦/ ٤٣)، مختار الصِّحاح (ص:١١٩)، المصباح المنير (١/ ١١١)، التَّوقيف على مهمات التَّعاريف (ص:٢٥٦)، المغرب (١/ ١٦٤) .

أقسام: جنس قريب، وهو ما لا جنس تحته، وإنما تحته الأنواع كالإنسان والفرس ونحوهما، وجنس بعيد، وهو ما لا جنس فوقه، وتحته الأجناس كالجوهر-فليس فوقه جنس، وتحته أجناس، وهي الجسم والنَّامي والحيوان- وجنس متوسِّط، وهو ما فوقه جنس وتحته جنس كالجسم فإنَّ فوقه الجوهر، وتحته الحيوان .

وعند (المنطقيين) هو كلِّيٌّ مَقُول على كثيرينَ مختلفينَ بالحقيقة في جواب ما هو؟ مثل: (حيوان) فهو يصدق على أنواعٍ كثيرة مختلفة الحقائق كإنسان وفرس[(١)].

وبناءً على ما سبق من التَّعريف فإنِّي أستعرض الآيات الَّتي تصلح أن تكون خطابًا للجنس. فقد جاء في تفسير قول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق:٦] أنَّه (خطاب الجنس)[(٢)]. وجاء في تفسير قوله ﷻ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ [الانشقاق:١٩] (لتركبن) -بالضَّمِّ- على (خطاب الجنس)؛ لأنَّ النِّداء في قوله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ للجنس[(٣)]، نحو: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾

---

(١) انظر: شرح تنقيح الفصول (١/ ٤٠٩)، انظر: التَّعريفات (ص:١٩٣)، شرح السُّلم المنورق للملَّويِّ بحاشية الصبَّان (ص:٦٨)، شرح الشَّيخ درويش القويسني على السُّلَّم (ص:١٥-١٧)، تسهيلُ المنطق، للبدخشاني (ص:٤٧)، التَّعاريف، للمناوي (ص:٢٥٦)، الحدودُ الأنيقة (ص:٧٢-٧٣)، وينظر: تلخيص منطق أرسطو، لابن رشد، (كتاب قاطيغورياس)، المجلد الثَّاني (ص:٩-١٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٨/ ٤٣٩)، البحر المديد (٨/ ٤١٣)، تفسير الرَّازي (٣١/ ٩٩-١٠٤).

(٣) انظر: تفسير الرَّازي (٣١/ ١٠٤-١٠٥)، الكشاف (٤/ ٢٣٦).

[البقرة: ٢١]؛ فإنَّ المراد جنس النَّاس لا كلَّ فرد، وإلا فمعلوم أنَّ غير المكلَّف لم يدخل تحت هذا الخطاب، وهذا يغلَّب في خطاب أهل (مكَّة) -كما سبق-[١].

ورجَّحَ الأصوليُّون دخول النَّبي ﷺ في الخطاب بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾[٢].

وفي القرآن سورتان أولهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إحداهما في النِّصف الأوَّل، وهي السُّورة الرَّابعة منه، وهي (سورة النِّساء)، والثَّانية في النِّصف الثَّاني منه وهي (سورة الحجِّ). والأولى تشتمل على شرح المبدأ، والثَّانية تشتمل على شرح المعاد..فتأمَّل هذا التَّرتيب ما أوقعه في البلاغة[٣].

قال الرَّاغب في (المفردات): «والنَّاس قد يذكر ويراد به الفضلاء

---

(١) سبق بيان ذلك في الخطاب المكيِّ والخطاب المدني.

(٢) قال الآمديُّ: يدخلُ الرَّسول ﷺ في عمومه عندنا، وعند أكثر العلماء، خلافًا لطائفة من الفقهاء والمتكلِّمين. الإحكام (٢/ ٢٩٢-٢٩٤)، وفي (المحصول): «قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عامٌّ في حقِّهما، ومنهم من خصَّصه بالأمَّة، قال: لأنَّ منصب الرَّسول ﷺ يقتضي إفراده بالذِّكر، وهو باطل؛ لأنَّ اللَّفظ عامٌّ ولا مانع من دخول الرَّسول ﷺ فيه. وقال الصَّيرفيُّ: كلُّ خطاب لم يصدَّر بأمر الرَّسول ﷺ بتبليغه ولكن ورد مطلقًا فالرَّسول ﷺ مخاطب به كغيره، وكلُّ ما كان مصدَّرًا بأمر الرَّسول ﷺ بتبليغه فذلك لا يتناوله كقوله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. المحصول (٣/ ١٩٩-٢٠٠). وفي (اللُّمع): "إذا خوطب النَّبيُّ ﷺ بخطاب خاصٍّ لم يدخل معه غيره إلا بدليل كقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل: ١-٢]". اللُّمع (١/ ٢٢). انظر: المسودة (١/ ٣٠)، القواعد والفوائد الأصوليَّة (١/ ٢٠٧).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٢٦-٢٢٧).

دون من يتناوله اسم النَّاس تجوُّزا، وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانيَّة، وهو وجود العقل والذِّكر، وسائر الأخلاق الحميدة والمعاني المختصَّة به، فإنَّ كلَّ شيءٍ عدم فعله المختصُّ به لا يكاد يستحقُّ اسمه، كاليد فإنَّها إذا عدمت فعلها الخاصَّ بها فإطلاق اليد عليها كإطلاقها على يد السَّرير ورجله. فقوله ﷻ: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة:١٣]، أي: كما يفعل من وجد فيه معنى الإنسانيَّة، ولم يقصد بالإنسان عينًا واحدًا بل قصد المعنى، وكذا قوله ﷻ: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء:٥٤]، أي: من وجد فيه معنى الإنسانيَّة أي: إنسان كان»(١).

وقال الرَّاغب: «وربما قصد به النَّوع كما هو وعلى هذا قوله ﷻ: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء:٥٤]. قيل في الآية: إنَّ المراد بالنَّاس هو النَّبي ﷺ. وقيل: العرب»(٢).

والحاصل أنَّ النَّاس هنا عامٌّ أريد به الخصوص، وهو النَّبي ﷺ، كما في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ [آل عمران:١٧٣].

فالنَّاس الأولى عامٌّ أريد به خصوص رجل واحد، وهو (نعيم بن مسعود الأشجعي) -كما سبق-.

---

(١) مفردات القرآن الكريم، للرَّاغب، مادَّة: (نوس) (ص:٥٠٩)، البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٢٧).

(٢) مفردات القرآن الكريم، مادَّة: (نوس) (ص:٥٠٩). وانظر: تفسير الطَّبري (٥/ ١٣٨-١٣٩)، الدُّر المنثور (٢/ ٥٦٦)، روح المعاني (٥/ ٥٧-٦٢)، أبو السُّعود (٢/ ١٩٠).

ويتبيَّن مما سبق:

١ - أنَّ خطاب الجنس يدلُّ على عموم الخطاب، فهو من أعمِّ أنواع الخطاب (ما صَدُقًا)، أي: بالنِّسبة لما يندرج تحته من أفراد.

٢ - أنَّ غير المكلَّف لا يدخل في هذا الخطاب..

٣ - أن غير المشافهين بالخطاب يدخلون في الخطاب بالإجماع، لكن هل يدخلون بطريق الحقيقة أم المجاز؟ سيأتي بيان ذلك في (خطاب المعدوم ومن ليس منتظمًا في سلك التَّكليف وقت الوحي والإناث والعبيد والأمم الماضية).



● **الثَّاني: خطاب النَّوع**

أمَّا من حيث ذكر هذا اللَّون من الخطاب، فقد جاء عقب (خطاب الجنس)؛ لأنَّه أخصُّ منه.

وأمَّا ما يتعلَّق بالتَّعريف فقد جاء في (المعجم الوسيط) أنَّ (النَّوع): «الصَّنف من كلِّ شيءٍ[(١)]، ويقال: (ما أدْرِي على أيِّ نَوْعٍ هُوَ؟ أي: على أيِّ وَجْه) .

وفي (اصطلاح المناطقة): كُلِّيٌّ مَقُول على واحد أو على كثيرين متفقين في الحقائق في جواب ما هو؟ مثل: (إنسان)، فهو يصدق على أفراد كثيرة متَّفقة الحقائق، كزيد وعمرو[(٢)].

وفي (علم الأحياء): وحدةٌ تصنيفيَّة أقلُّ من الجنس يتمثل في أفرادها نموذج مشترك محدود ثابت وراثي، جمع: أنواع»[(٣)]. وبناءً على ما سبق من تعريف (الجنس) وتعريف (النَّوع) فإنِّي أستعرضُ الآيات الَّتي تصلحُ أن تكون خطابًا للنَّوع.

فقد جاء في (نظم الدُّرر) في تفسير قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى

---

(١) انظر: مادَّة: (النَّوع) في (المعجم الوسيط) (٢/ ٩٦٤)، ومادَّة: (صنف) في (مقاييس اللُّغة) (٣/ ٣١٣).

(٢) انظر: التَّعريفات (ص:٣٠٢)، شرح السُّلم المنورق للملَّوي بحاشية الصَّبان (ص:٧٠)، تسهيل المنطق، للبدخشاني (ص:٤٦)، وينظر: تلخيص منطق أرسطو، لابن رشد، (كتاب قاطيغورياس)، المجلد الثَّاني (ص:٩ -١٠).

(٣) بقليل من التَّصرف عن (المعجم الوسيط): مادَّة: (نوع) (٢/ ٩٦٤)، وانظر: تاج العروس (٢٢/ ٢٨٨).

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]:

«لمَّا كان خلق الحيوان أدلَّ على الوحدانيَّة والقهر بما خالف به الجمادات من الحياة الَّتي لا يقدر على الانفكاك عنها قبل أجله، وبما له من أمور اضطراريَّة لا محيص له عنها، وأمور اختياريَّة موكولة في الظَّاهر إلى مشيئته، وكان أعجبه خلقًا الإنسان بما له من قوَّة النُّطق، قال دالا على ما دلَّ عليه بخلق الخافقين لافتا القول إلى (خطاب النَّوع) كلِّه إيذانًا بتأهُّلهم للخطاب، وترقِّيهم في عُلا الأسباب، من غير عطفٍ، إيذانًا بأن كلا من خلقهم وخلق ما قبلهم مستقل بالدِّلالة على ما سيق له: ﴿خَلَقَكُم﴾ أي: أيُّها النَّاس المدعون لإلهية غيره»[(١)].

وقد مثَّلَ لخطاب (النَّوع) الزَّركشيُّ في (البرهان)، والسُّيوطيُّ في (الإتقان)[(٢)] بقول الله ﷻ: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ، والمراد: بنو يعقوب عليه السلام[(٣)].

وفي (روح المعاني): ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف:

(١) نظم الدُّرر (٦/ ٤٢١)، وانظر: السِّراج المنير (٣/ ٥٢١) .
(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٢٧)، وانظر: الإتقان (٢/ ٨٨).
(٣) قال الزركشي رحمه الله تعالى: «وإنما صرَّح به للطيفة سيقت في (النَّوع السَّادس) وهو (علم المبهمات). انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٢٧)، الإتقان (٢/ ٨٨). ويقصد الزَّركشي ما ذكره في (علم المبهمات) في كتابه (البرهان) أنَّه «قد يكون للشَّخص اسمان فيقتصر على أحدهما دون الآخر لنكتة، فمنه قوله ﷻ: في (مخاطبة الكتابيين): ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ، ولم يذكروا في القرآن إلاَّ بهذا دون (يا بني يعقوب)، وسرَّه أنَّ القوم لما خوطبوا بعبادة الله ﷻ، وذكِّروا بدين أسلافهم؛ موعظةً لهم؛ وتنبيها من غفلتهم، سمُّوا بالاسم الَّذي فيه تذكرة بالله ﷻ، فإنَّ (إسرائيل) اسم مضاف إلى الله ﷻ في التَّأويل..، ولما ذكر موهبته لإبراهيم =

٢٤]: «جَمعَ الخطاب؛ لأنَّه في قوَّة (خطاب النَّوع)»[١].

أقول: ويمكن أن يقال: إنَّ من (خطاب النَّوع) الآيات التَّالية:

قوله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [النساء: ٤٧].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ [النمل: ١٨].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ [النمل: ٢٩، ٣٢، ٣٨]، و[القصص: ٣٨].

﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٣٠، ٣٢].

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ [الجمعة: ٦].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التحريم: ٧].

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١].

أقول: وفي الخطاب بـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ ، ونحوه من الأمثلة السَّابقة قد يشكل ذلك على المخاطَب من أيِّ الخطابين هو؟ هل هو من (خطاب الجنس) أم من (خطاب النَّوع)؟

= عليه السلام، وتبشيره به قال: ﴿يَعْقُوبَ﴾ وكان أولى من (إسرائيل)؛ لأنَّها موهبة تعقب أخرى، وبشرى عقب بها بشرى، فقال ﷻ: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وإن كان اسم (يعقوب) عليه السلام عبرانيا لكن لفظه موافق للعربيِّ من العقب والتَّعقيب، فانظر مشاكلة الاسمين للمقامين فإنَّه من العجائب». بقليلٍ من التَّصرُّف عن (البرهان) (١/ ١٦٠-١٦١). وسيأتي مزيدٌ من البيان للخطاب بهذه الصِّيغة.

(١) روح المعاني (٨/ ١٢٩) .

ولكنَّ ذلك الإشكال يندفعُ بما حقَّقته من بيان صلاحيَّة هذا التَّمثيل لكلٍ من الخطابَين -أعني الجنس والنَّوع- وذلك باختلاف النَّظر، فهو بالنِّسبة لما فوقه -أعني الحيوان- نوع، وبالنِّسبة لما تحته جنس. ولكنَّا لما علمنا أنَّ ما فوقه ممَّا لا يتوجَّه الخطاب له على عمومه؛ لأنَّه إنما أنزل للعاقلين المميِّزين قلنا بأنَّه من (خطاب الجنس)، وعلى ذلك يخرَّج قول من قال من المفسِّرين: إنَّه من (خطاب الجنس) .

وإذا تقرَّر ذلك فإنَّه يقال في هذا الخطاب ما قيل في سابقه من كونه يدلُّ على عموم الخطاب، فهو من أعمِّ أنواع الخطاب (ما صَدُقًا)، أي: بالنِّسبة لما يندرج تحته من أفراد. ولكنَّ غير المكلَّف لا يدخل أصلًا في هذا الخطاب.....

- **الثَّالث: خطابُ العين**

من ألوان الخطابِ ما كان موجَّهًا إلى فرد، وهو ما يسمَّى (بخطاب العين).

فمن ذلك قوله ﷻ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٥]، ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ [النمل: ١٠]. ولم يقع في القرآن الكريم النِّداء بـ: (يا محمَّد) بل بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١] تعظيمًا له وتبجيلًا

وتخصيصًا بذلك عن سواه[١].

وقد قال أبو حيَّان في (البحر) في تفسير قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]: «إنَّ نداءه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ هو على سبيل التَّشريف والتَّكرمة والتَّنويه بمحلِّه وفضيلته، وجاء نداء غيره باسمه، كقوله ﷻ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٣]، ﴿يَٰنُوحُ﴾ [هود: ٣٢]، ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [هود: ٧٦]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [البقرة: ٥٥]، ﴿يَٰدَاوُۥدُ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وحيث ذكره على سبيل الإخبار عنه بأنَّه رسوله، صرَّح باسمه فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤] أعلم أنَّه رسوله، ولقَّنهم أن يسمُّوه بذلك. وحيث لم يقصد الإعلام بذلك، جاء اسمه كما جاء في النِّداء: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ [الفرقان: ٣٠]، وغير ذلك من الآي. وأمره بالتَّقوى للمتلبس بها، أمر بالدَّيموية عليها والازدياد منها.

والظاهر أنَّه أمرٌ للنَّبي، وإذا كان هو مأمورا بذلك، فغيره أولى بالأمر. وقيل: هو خطاب له لفظا، وهو لأمَّته»[٢] .

أقول: والحاصل أنَّ الَّذي يتقرَّر في ذلك:

أوَّلا: يعسرُ التَّحقيق في أنَّ كلَّ نبيٍّ قد نودي باسمه في عهده، وفي

---

(١) الإتقان (٢/ ٨٨-٨٩).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٢٠٦).

ذلك تكلُّف، إن قال قائل بذلك.

ثانيا: إنَّ من الرُّسل من ذكرهم الله ﷻ في القرآن الكريم بالوصف الَّذي يدلُّ على الرِّسالة، وذلك كما في قوله ﷻ حكاية عن صالح عليه السلام: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣﴾ [الشمس: ١٣]، ولكن من غير نداء.

ثالثا: ورد ذكر (محمَّد) ﷺ من غير نداء، كما في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [محمد: ٢].

رابعا: إنَّ هناك الكثير من الأنبياء في القرآن الكريم -عليهم الصَّلاة والسَّلام- لم يقع النِّداء أصلًا باسمهم، وإنما ذكر اسمهم كما ذكر اسم (محمَّد) ﷺ.

وإذا تقرَّر ذلك عُلِمَ أنَّ التَّخصيص بالتَّشريف المذكور إنما هو مقصورٌ على نداءات القرآن الكريم فحسب -وهو الَّذي يعنينا هنا-، ولا يشمل الكتب السَّماوية الأخرى؛ لانتفاء الدَّليل؛ إذ يعسر التَّحقيق في أنَّ كلَّ نبيٍّ نودي باسمه في عهده، وإنَّما علم ذلك من نداءات القرآن الكريم نحو قول الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وما سبق..

* * *

- **الرَّابع: خطاب الاثنين**

فمن ذلك الخطاب من إبليس لآدم وحواء -عليهما السَّلام-:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٢١].ومن الله ﷻ لآدم وحواء - عليهما السَّلام -:

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

والخطاب من فرعون لموسى وهارون -عليهما السَّلام-:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ [طه: ٤٩].

ومن الله ﷻ لموسى وهارون -عليهما الصَّلاة والسَّلام-:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس: ٨٧].

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٩].

ومن يوسف عليه السلام لصاحبيه في السِّجن:

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ﴾ [يوسف: ٣٧].

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف: ٣٩].

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: ٤١].

ومن الله ﷻ لموسى وهارون -عليهما الصَّلاة والسَّلام- أيضًا:

﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

والحاصل أنَّ من ألوان الخطاب في القرآن الكريم ما كان موجَّهًا إلى الاثنين..والآيات هنا تدلُّ على التَّنوع في أساليب الخطاب، وكذلك ينظر إلى المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- هنا، فقد يكون المخاطِب الله ﷻ، وقد يكون إبليس -لعنه الله-، وقد يكون رسولًا..وكذلك ينظر إلى اختلاف المخاطَبين..، واختلاف الخطاب بما يناسب المقام، وحال المخاطَبين ومكانتهم..

❊ ❊ ❊

المبحث الرَّابع

العدول إلى غير الظَّاهر في الإفراد والتَّثنية والجمع أو(التَّجوُّز في الإفراد والتَّثنية والجمع)

وهو ما له صلة بالمخاطَب، والعدول فيه هو لون من ألوان الخطاب لا ينفكُّ عن كونه موجَّهًا إلى المخاطَب، والنَّظر إليه من هذا الجانب المجرَّد إلا عن صفة العدول، وبيان أنَّ هذه الصِّفة فيها من التَّنوع ما يدلُّ على بلاغة الخطاب، وقد أتى بعد تلك المذكورات لكون الصِّفة المذكورة لها صلة بتوجيه الخطاب مع تخصيصِ الخطاب هنا بتلكِ الصِّفة، وفيها من التَّنوع ما تتعدَّد ألوانه..وفي هذا المبحث مطالب متعدِّدة، وهي:

المطلبُ الأوَّل: خطابُ الجمع بلفظ الواحد.

المطلبُ الثَّاني: خطابُ الواحد بلفظ الجمع.

المطلبُ الثَّالث: خطابُ الواحد بلفظ الاثنين.

المطلبُ الرَّابع: خطابُ الاثنين بلفظ الواحد.

المطلبُ الخامس: خطابُ الاثنين بلفظ الجمع.

المطلبُ السَّادس: خطابُ الجمع بعد الواحد.

المطلبُ السَّابع: خطابُ الواحد بعد الجمع.

المطلبُ الثَّامن: خطابُ الاثنين بعد الواحد.

المطلبُ التَّاسع : خطابُ الواحد بعد الاثنين.

المطلبُ العاشر: خطابُ عين والمراد غيره.

المطلبُ الحادي عشر: خطابُ الشَّخص ثمَّ العدول إلى غيره.

المطلبُ الثَّاني عشر: خطابُ الكلِّ وإرادة البعض.

المطلبُ الثَّالث عشر: خطابُ الملائكة وإرادة غيرهم.

المطلبُ الرَّابع عشر: الخطابُ القرآني العامُّ الَّذي لم يقصد به مخاطبٌ معيَّن.

المطلبُ الخامس عشر: أساليبُ الالتفات في الخطاب القرآني.

وبيانُ ذلك على النَّحو التَّالي:

المطلب الأوَّل: خطاب الجمع بلفظ الواحد

أ. بيانُ أهميَّة هذا اللَّون من ألوان الخطاب، واهتمام المفسِّرين والباحثين به:

وقد أورد هذا النَّوع من الخطاب القرآني كلٌّ من الزَّركشيِّ في (البرهان)[(١)]، والسُّيوطي في (الإتقان) مختصرًا[(٢)]، وابن الجوزيِّ في (المدهش) أكثر اختصارًا[(٣)]-وقد سبق-، وفي (بصائر ذوي التَّمييز) كذلك[(٤)].

وأهتمُّ في هذا المطلبِ بذكرِ ما يندرجُ تحتَ هذا اللَّون من ألوانِ الخطاب مفصَّلًا، مع إيرادِ ما يمكنُ أن يستدلَّ به على ذلك من أقوال المفسِّرين..

فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: ٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦]، والمراد الجميع بدليل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٢-٣].

أقول: ولا بدَّ هنا من توضيح هذه الآيات، وبيان الحكمة من خطاب (الجمع بلفظ الواحد). وقد تنبَّه إلى الحكمة الإمام الرَّازي في

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٣٣).
(٢) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٩٠).
(٣) المدهش (١/ ١٥-١٦).
(٤) انظر: بصائر ذوي التَّمييز (١/ ١٠٨-١١٠). وقد ذكر هذا النَّوع أيضًا سيبويه في (الكتاب) (١/ ٢١٠).

(تفسيره) -كما سيأتي-..كما أنَّ المزيد من البيان سيأتي في مبحث (النِّداء).

وقد أتيتُ بالتَّمثيل أوَّلًا بما شاعَ بين الباحثين في علوم القرآن مجملًا؛ لوضوحِ صيغةِ الخطاب القرآني من حيثُ معناه الأخصُّ في ذلك التَّمثيل، ولم أغفل الخطاب القرآني من حيثُ معناه الأعم ممَّا له صلة بخطاب الجمع بلفظ الواحد، ويأتي أيضًا توضيح أنَّ مثل هذا المنهج قد سلكه الزَّركشيُّ في (البرهان) من حيث التَّمثيل.

قال السُّيوطيُّ في (المزهر): «ومن سنن العرب ذكرُ الجمع والمراد واحد أو اثنان، قال عز وجل: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ﴾ [التوبة: ٦٦]، والمراد واحد، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ [الحجرات: ٤]، والمنادى واحد، ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥][(١)]، وهو واحد بدليل: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٣٧]»[(٢)].

أمَّا قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ فهو «استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لأنَّ ما قبله بمنزلة المقدِّمة له؛ لتهيئة السَّامع لتلقِّي هذه الموعظة؛ لأنَّ ما سبقه من التَّهويل والإنذار يهيئ النَّفس لقبول الموعظة؛ إذ الموعظة تكون أشدَّ تغلغلًا في القلب حينئذٍ؛ لما يشعر به

---

(١) المزهر، بتحقيق: محمَّد جاد المولى بك، ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمَّد البجاوي (١/ ٣٣٢-٣٣٣).

(٢) أمَّا الآيات الَّتي قبل هذه الآية -والَّتي فيها الإنذار التَّهويل الَّذي يهيئُ النَّفس لقبول الموعظة- فهي: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ [الانفطار: ١-٥].

السَّامع من انكسار نفسه، ورقَّة قلبه فيزول عنه طغيان المكابرة والعناد، فخطر في النُّفوس ترقُّب شيء بعد ذلك النِّداء للتَّنبيه تنبيهًا يشعر بالاهتمام بالكلام والاستدعاء لسماعه، فليس النِّداء مستعملًا في حقيقته؛ إذ ليس مرادًا به طلب إقبال، ولا هو موجَّه لشخص معيَّن أو جماعة معيَّنة، بل مثلُه يجعله المتكلم موجَّهًا لكلٍّ من يسمعه بقصد أو بغير قصد. فالتَّعريف في ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ تعريف الجنس، وعلى ذلك حمله جمهور المفسِّرين، أي: ليس المراد إنسانًا معينًا، وقرينة ذلك سياق الكلام مع قوله عَقِبَه: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾ [الانفطار:٩-١٠]. وهذا العموم مراد به الَّذين أنكروا البعث بدلالة وقوعه عقب الإنذار بحصول البعث. ويدلُّ على ذلك قوله بعده: ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ فالمعنى: (يا أيها الإنسان الَّذي أنكر البعث)، ولا يكون منكر البعث إلا مشركًا؛ لأنَّ إنكار البعث والشِّرك مُتلازمان يومئذ، فهو من العامِّ المراد به الخصوص بالقرينة أو من (الاستغراق العرفي)[1]؛ لأنَّ جمهور المخاطَبين في ابتداءِ الدَّعوة الإِسلامية هم المشركون. و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ استفهاميَّة عن الشَّيء الَّذي غرَّ المشرك فحمله على الإِشراك بربِّه وعلى إنكار البعث»[2].

---

(١) (الاستغراق العرفي) هو ما يعدُّ في العرف شمولا وإحاطة مع خروج بعض الأفراد، و(غير العرفي) وهو المسمَّى (بالحقيقي) ما يكون شمولا بجميع الأفراد في نفس الأمر. انظر: الكليَّات، (ص: ١٠٢٥).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٣٠/ ١٧٤).

أقول: وممَّا سبق يتبيَّن أنَّ سياق الكلام وسباقه يدلُّ العموم في تناولها لجميع العصاة؛ لأنَّ خصوص السَّبب لا يقدح في العموم. . .وهو الَّذي أميل إلى ترجيحه، وبالعموم قال جمعٌ من المفسِّرين(١) .

وهناك أقوالٌ أخرى؛ فقد روي عن ابن عباس، وعطاء أنَّ المراد بالإنسان هنا: الوليدُ بن المغيرة. وعن عكرمة المراد: أبيُّ بن خلف. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا: المراد: أبو الأشدِّ بن كَلَدَة الجُمحِي(٢). وقيل: غير ذلك(٣).

وما يعنينا في خطاب (الجمع بلفظ الواحد) هو أن يراد بالإنسان (الجنس) وهو الَّذي قد رجَّحناه هنا، وهو الأكثر فائدة..

أمَّا قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ فإنَّ المراد بالإنسان: الجنس أيضًا، أي: (يا ابن آدم). و(الكدح) في كلام العرب: العمل والكسب(٤).

(١) وأذكر على سبيل المثال ما قاله الطَّبري في تفسير هذه الآية: «يا أيُّها الإنسانُ الكافر، أيُّ شيءٍ غرَّك بربِّك الكريم؟!». تفسير الطَّبري (٣٠/ ٨٧)، وانظر: الجلالين (ص: ٧٩٥). وقال أبو حيَّان في (البحر): «والظَّاهر أنَّ المراد بالإنسان هنا ليس واحدا بعينه، بل المراد به الجنس كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦﴾ [العاديات: ٦]، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾ [المعارج: ١٩]. وهو راجع لمعنى الكافر». البحر المحيط (٦/ ٧٣)، وانظر: روح المعاني (٣٠/ ٤٥)، الخازن (٧/ ٢١٦)، وزاد المسير (٩/ ٤٧).

(٢) هو أبو الأشدِّ بن كَلَدَة بن أسد بن خلفٍ الجُمحِي قتل كافرا كنيته (أبو الأعور). نزهة الألباب في الألقاب، للحافظ ابن حجر (٢/ ٢٥١). وانظر: زاد المسير (٩/ ٧٤).

(٣) قال مقاتل: «نزلت في أبي الأشدين، اسمه أسيد بن كلدة، وكان أعور شديد البطش». تفسير مقاتل (٣/ ٤٥٨)، وانظر: تفسير ابن عادل (٢٠/ ١٩٦)، الخازن (٧/ ٢١٦)، تفسير البغوي (٤/ ٤٥٥).وقيل: في أبي جهل. انظر: تفسير السَّمعاني (٦/ ١٧٣).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٢٧١)، تفسير الرَّازي (٣١/ ٩٩) .

وقد أغفل الحكمةَ من (خطاب الجمع بلفظ الواحد) كثيرٌ من المفسِّرين، وتنبَّه إليها الإمام الرَّازي في (تفسيره)، وبيَّن المراد بيانًا واضحًا قد غفل عنه الكثير من المفسِّرين والباحثين في علوم القرآن الكريم، حيث قال في قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ «ففيه قولان: **الأوَّل**: أنَّ المراد جنس النَّاس كما يقال: (أيُّها الرَّجل)، وكلُّكم ذلك الرَّجل، فكذا ههنا. وكأنَّه خطاب خصَّ به كلُّ واحد من النَّاس. قال القفَّال: وهو أبلغ من العموم؛ لأنَّه قائم مقام التَّخصيص على مخاطبة كلِّ واحد منهم على التَّعيين بخلاف اللَّفظ العامِّ فإنَّه لا يكون كذلك.

والثَّاني: أنَّ المراد منه رجل بعينه، وههنا فيه قولان:

الأوَّل: أنَّ المراد به محمَّد ﷺ، والمعنى: أنَّك تكدح في إبلاغ رسالاتِ الله عز وجل، وإرشاد عباده، وتحمل الضَّرر من الكفار، فأبشرْ فإنَّك تلقى الله عز وجل بهذا العمل، وهو غير ضائع عنده.

الثَّاني: قال ابنُ عباس: هو أُبيُّ بن خلف. و(كدحه): جدُّه واجتهاده في طلب الدُّنيا، وإيذاء الرَّسول ﷺ، والإصرار على الكفر، والأقرب أنَّه محمول على الجنس؛ لأنَّه أكثر فائدة؛ ولأنَّ قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾ [الانشقاق: ٧]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾ [الانشقاق: ١٠] كالنَّوعين له»[(١)]. وما يعنينا هنا القول الأوَّل بأنَّ المراد: جنس النَّاس. وقد رجَّحَ الإمام الرَّازي أنَّه يتناولُ

---

(١) انظر: تفسير الرَّازي (٣١/ ١٠٤)، وانظر: تفسير السَّمعاني (٦/ ١٨٧).

جميعَ العصاة[١]. وهو الَّذي أميل إلى ترجيحه -كالآية السَّابقة- في تناولها لجميع العصاة؛ لأنَّ خصوص السَّبب لا يقدح في العموم.. -كما سبق-.

قال الزَّركشيُّ: «وكثيرا ما يجيء ذلك في الخبر»[٢].

أقول: وإتيان الزَّركشيِّ بالخبر يدلُّ على أنَّه لم يغفل الخطاب القرآني من حيث معناه الأعمُّ -وقد سبق بيان ذلك- من حيث إتيانه للخطاب بصيغة من صيغ الخطاب القرآني الَّتي تدلُّ على الطَّلب، وقد سبق الاصطلاح على ذلك بأنَّه من الخطاب القرآني من حيث الأخصِّ، وإتيانه بما لا يدلُّ على المواجهة أو الطَّلب كالخبر كما هو هنا..وقد ذكر في مظلَّة الأخص. ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٣٦]، و[آل عمران:٨٤]، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]، ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، أي: رفقاء[٣].

وإذا تقرَّر ذلك علم أنَّه لا خلاف بين أهل اللِّسان العربيِّ في وقوع إطلاق المفرد وإرادة الجمع مع تعريف المفرد وتنكيره وإضافته، وهو كثيرٌ في القرآن العظيم، وفي كلام العرب.

فمن أمثلته في القرآن واللَّفظ معرَّف: قوله عز وجل: ﴿وَتُؤْمِنُونَ

(١) انظر: تفسير الرَّازي (٣١ / ٧٩) .
(٢) البرهان (٢/ ٢٣٣).
(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٣٣).

﴿بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران: ١١٩]، أي: بالكتب كلِّها، بدليل قوله عز وجل: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥](١)، وقوله: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ﴾ [الشورى: ١٥]. وقوله عز وجل: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ [القمر: ٤٥]. يعني: الأدبار، كما هو ظاهر. وقوله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ [الفرقان: ٧٥]، يعني: الغرفات بدليل قوله عز وجل: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقوله عز وجل: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]. وقوله عز وجل: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر: ٢٢]، أي: الملائكة، بدليل قوله عز وجل: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله عز وجل: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ﴾ [النور: ٣١] الآية، يعني: الأطفال الَّذين لم يظهروا. وقوله عز وجل: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ [المنافقون: ٤] الآية، يعني: الأعداء.

ومن أمثلته واللَّفظ منكَّرٌ: قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤﴾ [القمر: ٥٤]، يعني: وَأَنْهارٍ(٢)، بدليل قوله عز وجل: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ [محمد: ١٥] الآية. وقوله عز وجل: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] يعني: أَئِمَّةً، وقوله عز وجل:

(١) وكذلك قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النِّساء: ١٣٦]. وهو واضح في الدِّلالة على ذلك.

(٢) انظر: الكشاف (٤/ ٤٢)، والنَّسفي (٤/ ٣٠٤)، والبيضاوي (٥/ ٢٧١).

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون: ٦٧]، يعني: سَامِرِينَ. وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥] يعني: أَطْفَالا، وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، أي: بَيْنَهُمْ. وقوله عز وجل: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، أي: رُفَقَاءَ. وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ۚ﴾ [المائدة: ٦]، أي: جُنُبِينِ أَوْ أَجْنَابًا. وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، أي: مُظَاهِرُونَ لِدَلالَةِ السِّيَاقِ فِيهَا كُلِّهَا عَلَى الْجَمْعِ. وَاسْتَدَلَّ سِيبَوَيْهِ[1] لهذا بقوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤]، أي: أَنْفُسًا.

ومن أَمْثِلَتِهِ وَاللَّفْظُ مُضَافٌ: قوله عز وجل: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْۚ﴾ [النور: ٦١]، أي: أصدقائكم، وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣] الآية، أي: أوامره، وقوله عز وجل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، أَي: نِعَم الله عز وجل، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ [الحجر: ٦٨] الآية، يعني: أَضْيَافِي»[2].

---

(١) انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٢١٠)، وانظر: ما استدلَّ به مِّما جاء في الشِّعر على لفظ الواحد ويراد به الجميع في (الكتاب) (١/ ٢١٠-٢١١).

(٢) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (السَّنة الأولى)، العدد الثَّالث (ص: ١٧)، وانظر: أضواء البيان (٤/ ٢٧٢-٢٧٣). وقد نقلت قول الشَّيخ الشنقيطي؛ لأنَّه قد انفرد من بين الباحثين من حيثُ المنهج، حيث ذكر ما جاء معرَّفًا، وما جاء منكَّرًا، وما جاء مضافًا. وقد أتيتُ في سرد النَّماذج على بيان الكثير مِّما ذكر هنا مجملاً، مع بيان عناية المفسِّرين بإبراز هذا اللَّون من ألوان الخطاب، ومع اختلاف في التَّرتيب.

وقد بيَّن الشَّيخ الشِّنقيطي في (دفع إيهام الاضطراب) من كلام العرب ما يدلُّ على أنَّ ذلك كان سائغًا عند العرب. قال: ولأجل مراعاة هذا لم يجمع في القرآن السَّمع والطَّرف والضَّيف؛ لأنَّ أصلها مصادر كقوله عز وجل: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة:٧]، وقوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣]، وقوله: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥]، وقوله: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ ..

ومن اللَّطائف الَّتي ذكرها في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١] أنَّه قد جاء في هذه الآية بصيغة خطاب الجمع في إفراد، والجمع في شيء واحد، فمعنى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ ، أي: أوَّل فريق كافر، فاللَّفظ مفرد، والمعنى جمع فيجوز مراعاة كلٍّ منهما[١].

❊ ❊ ❊

(١) بتصرُّفٍ عن (دفع إيهام الاضِّطراب عن آيات الكتاب)، (ص:١٧- ١٨)، وانظر: أضواء البيان (٤/ ٢٧٢-٢٧٣).

ب. سردُ النَّماذج والأمثلة[١]:

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣]، أي: ما كانوا يذبحونه من القرابين فوق الأنصاب. و(النُصُب) -بضمَّتين- الحجر المنصوب، فهو مفرد مراد به الجنس. وقيل: هو جمع وواحده (نِصاب).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام:٩٣]. فقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ﴾ (مَنْ) موصولة مراد به الجنس، أي: كلُّ من افترى أو قال، وليس المراد فردا معيَّنًا.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]. فعدوًّا هنا بمعنى أعداء[٢].

---

(١) وقد أتيتُ في سرد النَّماذج هنا -كما أسلفت- على بيان الكثير مما ذكر مجملاً، مع بيان عناية المفسِّرين بإبراز هذا اللَّون من ألوان الخطاب على التَّرتيب المتبع، ولكن الاهتمام ينصبُّ على الآيات الَّتي هي موضع عناية من المفسِّرين.

(٢) قال الرَّازي في (تفسيره) (١٣/ ١٤٥): «أراد أعدائي، فأدَّى الواحد عن الجمع، وله نظائر في القرآن. ومنها قوله: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذَّاريات: ٢٤]. جعل المكرمين - وهو جمع - نعتًا للضَّيف، وهو واحد، وثانيها: قوله عز وجل: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ﴾ [ق: ١٠]، وثالثها: قوله عز وجل: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النُّور:٣١]، ورابعها: قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر:٢-٣]، وخامسها: قوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران:٩٣] أكَّد المفرد بما يؤكَّد الجمع به، ولقائل أن يقول: لا حاجة إلى هذا التَّكلف؛ =

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]، الموصول في قوله ﷻ: ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ مراد به الجنس أيضًا؛ فلذلك استوى مفرده وجمعه[1].

= فإنَّ التَّقدير: (وكذلك جعلنا لكلِّ واحد من الأنبياء عدوًّا واحدًا)؛ إذ لا يجب لكلِّ واحدٍ من الأنبياء أكثر من عدوٍّ واحد. أمَّا قوله عز وجل: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، فالمراد أنَّ أولئك الشَّياطين يوسوس بعضهم بعضًا. واعلم أنَّه لا يجب أن تكون كلُّ معصيةٍ تصدرُ عن إنسان فإنَّها تكون بسببِ وسوسةِ شيطانٍ، وإلاَّ لزم دخول التَّسلسل أو الدَّور في هؤلاء الشَّياطين، فوجب الاعتراف بانتهاء هذه القبائح والمعاصي إلى قبيح أوَّل، ومعصيةٍ سابقةٍ حصلت لا بوسوسةِ شيطانٍ آخر». تفسير الرَّازي (١٣/ ١٥٤). والحاصلُ أنَّ (الطِّفل): اسم يصدق على الواحد والاثنين والجمع، للمذكَّر والمؤنث، قال عز وجل: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النُّور: ٣١]، ولكن لماذا جاء (الطِّفل) مفردًا، و(الَّذين) جمعا؟ وردتْ كلمةُ: (طفل) في (سورة النُّور) كما سبق، وكذلك في (سورة الحجِّ) [الآية: ٥]، وفي (سورة غافر) [الآية: ٦٧]. ووردت كلمة (الطِّفل) والأطفال في القرآن، و(الطِّفل) تأتي للمفرد والمثنَّى والجمع فنقول: (جاريةٌ طفل)، و(جاريتان طفل)، و(جواري طفل). فمن حيثُ اللُّغة ليست كلمةُ (الطِّفل) منحصرة بالمفرد. لكن وردت في (سورة النُّور) أيضا كلمةُ: (الأطفال). قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ [النور: ٥٩]. ولو لاحظنا في (سورة الحجِّ): ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ [الحج: ٥] الآياتُ تتكلَّم عن خلق الجنس، وليس عن خلق الأفراد، فكلُّ الجنس جاءَ من نطفةٍ، ثمَّ علقةٍ، ثمَّ مضغةٍ؛ لذا جاءت كلمةُ (طفل). أمَّا قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾؛ فإنَّ السِّياق هنا مبنيٌّ على علاقات الأفراد، وليس على الجنس؛ لأنَّ الأطفال عندما يَصِلونَ إلى سنِّ البلوغ تختلف نظرتهم إلى النِّساء كلُّ واحد له نظرة مختلفة عن الآخر، فلا يعود التَّعاطي معهم كجنس.

(١) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٨/ ١٧٦).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٦].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]، ونحوه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الزمر: ٨].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨٤]، ومثله قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١]، وكذلك [الحجر: ٦٥]، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ [مريم: ٩٨].

فالإنسان مراد به الجنس، والتَّعريف باللَّام يفيد (الاستغراق العرفي)، أي: الإنسان الكافر...، كما في قوله ﷻ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم: ٦٦].

ومن المفسِّرين[1] من جعل اللَّام في (الإنسان) للعهد، وجعل المراد به: أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي، واسمه (مُهَشِّم)[2]. ولكن

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (١١/ ٩٢)، البحر المحيط (٥/ ١٣٣)، تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٨٤).

(٢) (مُهَشِّم) -بضم الميم وفتح الهاء وتشديد الشِّين المعجمة المكسورة- كما نصَّ عليه في (تاج العروس) (٩/ ١٠٦). وأبو حذيفة بن عتبة هذا، جزم ابنُ حزم [في (جوامع السِّيرة وخمس =

ما يعنينا هنا ما سبقت الإشارة إليه غير مرَّة.

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾ [هود:٧٨]. ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي﴾ [الحجر:٦٨]. ولم يقل: (ضيوفي)؛ لأنَّه مصدر[(١)].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨]. قيل: اليمين بمعنى الأيمان، يعني أنَّه مفردٌ قائمٌ مقامَ الجمع، فوحَّد (اليمين) في اللفظ، والمراد (الأيمان)؛ فلذلك عطف عليه بالشَّمائل، وهي جمعٌ[(٢)].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٢]، أي: وكلاء.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ [الكهف:٤٩]. و(الكتاب)

= رسائل أخرى) (ص:٥٠)] بأنَّ اسمه: (مُهَشِّم)، وكذلك جزم ابنُ هشام [في (السِّيرة النَّبوية) (٢/ ٣٦٢)]، واقتصر عليه الذَّهبي [في (تاريخ الإسلام) (١/ ٣٦٤)]، فقال: قيل: اسمه (مُهَشِّم)، وهو مشهور بكنيته. وهو صحابيٌّ قديم، هاجرَ الهجرتين، وشهد المشاهد كلَّها، بدرا فما بعدها. وقتل (يوم اليمامة) شهيدا سنة [١٢]، الرَّوض الأنف (٢/ ٨٦)، جوامع السِّيرة (١/ ٥٠). وانظر: التَّحرير والتَّنوير (١١/ ١٠٩)، تفسير القرطبي (٨/ ٣١٧)، تفسير ابن جزي (٢/ ٩٠).

(١) انظر: البرهان (٢/ ٢٣٣)، روح المعاني (١٤/ ٧١)، تفسير أبي السعود (٥/ ٨٥)، البيضاوي (٥/ ٢٣٧).

(٢) انظر: الكشاف (٢/ ٤١٢)، ابن عادل (١٢/ ٧٠)، حجَّة القراءات، لأبي زرعة (ص:١٣٣).

مرادٌ به الجنس، أي: وضعتْ كتبُ أعمال البشر، واكتفى باسم الجنس عن الجمعِ؛ إذ لكلِّ أحدٍ كتاب على حدة. كما دلَّت عليه آياتٌ أخرى، منها قوله ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء:١٣-١٤]. ونحوه قوله ﷻ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [الجاثية:٢٨]؛ فإنَّ الإضافة فيه إلى ضمير الأمَّة على إرادة التَّوزيع على الأفراد؛ لأنَّ لكلِّ واحدٍ من كلِّ أمَّة صحيفةُ عمله، خاصّة به، فقوله ﷻ: ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي: إلى صحائف أعمالها، فاكتفى باسم الجنس.

وقد ذكر ذلك غيرُ واحد من المفسِّرين(١). ونحوه قوله ﷻ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الزمر:٦٩](٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ﴾ [طه:٦٤]، فالصَّفُّ هنا مراد به الجنس لا الواحدة، أي: ثمَّ ائتوا صفوفًا، فهو كقوله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ﴾ [النبأ:٣٨]، وقال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر:٢٢](٣).

---

(١) انظر: الكشاف (٣/٥١٣)، التَّحرير والتَّنوير (١٥/٣٣٧)، (٢٥/٣٦٧)، روح المعاني (٢٥/١٥٦).

(٢) وعلى سبيل المثال فقد قال ابنُ جزي في تفسير هذه الآية: «يعني صحائف الأعمال، وإنَّما وحَّدها؛ لأنَّه أراد الجنس». تفسير ابن جزي (٣/١٩٩).

(٣) ذكر ذلك الطَّاهرُ بن عاشور في (التَّحرير والتَّنوير) (١٦/٢٥٧). والمسألة فيها أقوالٌ، وقد أجملها الخطيبُ الشِّربينيُّ في تفسيره (السِّراج المنير): «الأوَّل: أن يعرض الخلق كلُّهم صَفًّا =

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ٦٧﴾ [المؤمنون: ٦٧]، أي: سمَّارًا[1]؛ لقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ قبله، وبعده ﴿تَهْجُرُونَ﴾ .

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [النور: ٢١].

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١]. و(الطِّفل) هنا مفرد مراد به الجنس، ويبيِّن ذلك ما بعده فقد أجرى الجمع في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ .

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١]. «و(صديق) هنا مراد به الجنس الصَّادق بالجماعة بقرينة إضافته إلى ضمير جماعة

= واحدًا؛ لاتساع الأرض ظاهرين لا يحجب بعضهم بعضًا. ثانيها: لا يبعد أن يكونوا صفًّا يقف بعضهم وراء بعض مثلَ الصُّفوفِ المحيطةِ بالكعبةِ الَّتي تكون بعضها خلفَ بعض، وعلى هذا فالمراد بقوله عز وجل: ﴿صَفًّا﴾ [أي:] صفوفًا، كقوله عز وجل: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]. أي: أطفالا. ثالثها: المراد بالصَّفِّ القيام كما في قوله عز وجل: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [الحج: ٣٦]، أي: قيامًا. وقيل: كلُّ أمَّة صفٌّ، ويقال لهم: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ٤٨]. السِّراج المنير (٢/ ٤٢٠). وما يعنينا هنا ما قيل من أنَّ الصفَّ مراد به الجنس، وهو الَّذي نصره الطَّاهر بن عاشور في قوله الآنفِ الذِّكر..

(١) انظر: الكشاف (٣/ ٣٦)، المحرَّر الوجيز (٤/ ١٥٠)، البحر المحيط (٨/ ٢٨٧)، القرطبي (١٢/ ١٣٦).

المخاطَبين، وهو اسم تجوز فيه المطابقة لمن يجري عليه إن كان وصفًا أو خبرًا في الإفراد والتَّثنية والجمع والتَّذكير والتَّأنيث، وهو الأصل. والغالب في فصيح الاستعمال أن يلزم حالة واحدة قال عز وجل: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١]. ومثله: (الخليط) و(القطين). و(الصديق): فعيل بمعنى فاعل، وهو الصَّادق في المودَّة. وقد جعل في مرتبة القرابة مما هو موقور في النُّفوس من محبَّة الصِّلة مع الأصدقاء. وسئل بعض الحكماء: أيُّ الرَّجلين أحبُّ إليك أخوك أم صديقك؟ فقال: إنما أحبُّ أخي إذا كان صديقي»[(١)] .

والحاصل أنَّ (الصَّديق) هنا بمعنى: (الأصدقاء)، وقد ذكر ذلك غيرُ واحدٍ من المفسِّرين[(٢)] . أمَّا الحكمة في كونه قد جمع (الشُّفعاء)، ووحَّد الصَّديق، فكثرة الشُّفعاء. وأمَّا (الصَّديق)، وهو الصَّادق في ودادك، الَّذي يهمُّه ما أهمَّك، ويسرُّه ما أسرَّك فقليل.

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. فـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مراد به الجنس؛ فالتَّوراة، والإنجيل، والزَّبور، والقرآن، كتب نزلت في ذرِّية إبراهيم عليه السلام[(٣)] .

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ

(١) التَّحرير والتَّنوير (١٨/ ٣٠٢).
(٢) انظر: الكشاف (٣/ ٧٧)، البحر المديد (٥/ ١٧٢)، تفسير أبي السُّعود (٦/ ٢٥٣).
(٣) انظر على سبيل المثال: التَّحرير والتَّنوير (٢٠/ ٢٣٩)، البحر المديد (٥/ ٤٦٧).

أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [العنكبوت: ٢٨].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]. فممَّا قيل[١]: إنَّ ملك الموت في هذه الآية مراد به الجنس، فتكون كقوله ﷻ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ﴾ [فاطر: ٤١].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الصافات: ٥١]. و(القرين) مراد به الجنس؛ فإنَّ هذا القول من شأنه أن يقوله كثير من خلطاء المشركين قبل أن يُسْلموا. و(القرين): المصاحب الملازم. شُبِّهت الملازمة الغالبة بالقرْن بين شيئين بحيث لا ينفصلان[٢].

والحاصل أنَّ لفظ (القرين): اسم جنس، فسائقه قرينٌ، وصاحبه من الزَّبانية قرينٌ، وكاتبُ سيِّئاته في الدُّنيا قرينٌ، والكلُّ تحتمله هذه

---

(١) انظر على سبيل المثال: روح المعاني (٢١/ ١٢٦)، التَّحرير والتَّنوير (٢١/ ٢٢١)، أضواء البيان (٦/ ١٨٤)، ابن عادل (٨/ ١٩٧).

(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٣/ ١١٦).

الآية ما يفيد الجمع، وإن كان اللَّفظ على الواحد[(١)].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝٣٠﴾ [غافر: ٣٠]. مراد به، الجنس لا (يومٌ) معيَّن، بقرينة إضافته إلى (جمع) أزمانُهم متباعدة. فالتَّقدير: مثل أيام الأحزاب، فإفراد (يوم) للإيجاز حيث إنَّ جمْعَ (الأحزاب) مع التَّفسير أغنى عن جمع (اليوم)[(٢)]. وذكر الرَّازي حكمةً أخرى غير الإيجاز، حيث قال: «والتَّقدير: (مثل أيام الأحزاب)، إلا أنَّه لما أضاف (اليوم) إلى (الأحزاب)، وفسَّرهم بقوم نوح وعاد ثمود، فحينئذٍ ظهر أنَّ كلَّ حزبٍ كان له يومٌ معيَّن في البلاء، فاقتصر من الجمع على ذكر الواحد لعدم الالتباس، ثمَّ فُسِّر قوله ﷻ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ بقوله: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ [غافر: ٣١] .

و(دأب هؤلاء) دونهم في عملهم من الكفر والتَّكذيب وسائر المعاصي، فيكون ذلك دائبًا ودائما لا يفترون عنه، ولا بُدَّ من حذف مضاف، يريد: (مثل جزاء دأبهم). والحاصل أنَّه خوفهم بهلاك معجَّل في الدُّنيا، ثمَّ خوفهم أيضًا بهلاك الآخرة»[(٣)].

---

(١) انظر: تفسير الثَّعالبي (٤/ ١٩٨)، السِّراج المنير (٣/ ٦٦٦).

(٢) أي: فسَّره بقوله عز وجل: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ۝٣١﴾ [غافر: ٣١]. كقوم لوط وشعيب -عليهما السَّلام-، لم يُلْبَسْ أنَّ كلَّ حزبٍ منهم كان له يوم دَمَارٍ... انظر: تفسير أبي السُّعود (٧/ ٢٧٥)، البحر المحيط (٧/ ٤٤٤).

(٣) تفسير الرَّازي (٢٧/ ٥١٧) .

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمَّد: ١٣].

«مراد به الجنس لوقوعه بعد (لا) النَّافية للجنس؛ فلذلك لا يقصد تضمُّنه لزمن ما؛ لأنَّه غير مراد به معنى الفعل، بل مجرَّد الاتِّصاف بالمصدر فتمحضَّ للاسميَّة، ولا التفات فيه إلى زمن من الأزمنة الثَّلاثة، ولذا فمعنى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾: فلم ينصرهم أحد فيما مضى. ولا حاجة إلى إجراء ما حصل في الزَّمن الماضي مجرى زمن الحال. وقولهم اسم الفاعل حقيقة في الحال جرى على الغالب فيما إذا أريد به معنى الفعل»[١].

وممَّا قيل في قوله ﷻ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النَّجم: ١]: إنَّ المراد بالنَّجم نجوم السَّماء، وعليه فهو من إطلاق المفرد وإرادة الجمع[٢].

وما قيل في قوله ﷻ: ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، يعني: الأدبار..[٣].

وأفرد (الدُّبر)، والمراد الجمعُ؛ لأنَّه جنس يصدق بالمتعدِّد، أي: يولي كلُّ أحد منهم دبره، وذلك لرعاية الفاصلة، ومزاوجة القرائن.

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢٦/ ٩٢).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (٢٧/ ٤١)، الكشاف (٤/ ٢٧)، تفسير ابن جزي (٤/ ٧٥)، تفسير أبي السُّعود (٨/ ١٥٤)، وقيل: أي: أسقط مع الصبح، وقيل النَّجم: الزُّهرة... وقيل غير ذلك. انظر المواضع ذاتها في (المصادر السَّابقة).

(٣) انظر على سبيل المثال: الكشاف (٤/ ٤١)، تفسير أبي السُّعود (٨/ ١٧٤)، البحر المحيط (٨/ ١٨١)...إلخ.

وفيه إشارة إلى أنَّ جميعهم يكونون في الانهزام كشخص واحد[(١)]. قال الفرَّاء: «مثله أن يقول: إنَّ فلانا لكثير الدِّينار والدِّرهم»[(٢)].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٧].

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن: ٢٢].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ [الإنسان: ٥].

فكأس مراد به الجنس، وتنوينه؛ لتعظيمه في نوعه[(٣)].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق: ١٠]، والمعنى واضح.

وذكر الزَّركشيُّ أنَّه يأتي في الوصف:

فمن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١]، فأوقع الطِّفل جنسًا، وقد سبق.

وأراد بالطِّفل: الأطفال، يكون واحدا وجمعًا[(٤)].

---

(١) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٧/ ٢١٣)، وكذلك في (الكشاف) (٤/ ٤١)، ومعاني القرآن للزَّجاج (٥/ ٩٢).

(٢) معاني القرآن، للفرَّاء (٣/ ١١٠).

(٣) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٩/ ٣٨٠).

(٤) انظر: تفسير البغوي (٣/ ٣٤٠).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

وقوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ [يوسف: ٨٠]، وجمعه: أنجية، من المناجاة. وأورد الزَّركشيُّ أنَّ نحو قوله ﷻ: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ﴾ «من باب يغلب عليه الاسم لا الصِّفة نحو: الشَّاة والبعير والإنسان والملك. قال ﷻ: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ [الحاقة: ١٧]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: ٢] .

ومن مجيئه في الصِّفة قوله ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ [الفرقان: ٢٧]، وقوله ﷻ: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢]، وكلٌّ واحدٍ من هذه الصِّفات لا تقع هذا الموقع إلا بعد أن تجري مجرى الاسمِ الصَّريح[(١)] .

ج. النَّتائجُ:

١ - بَيَّنْتُ أهميَّة هذا المطلب، وعناية الباحثين به، وصلته بموضوع البحث.

٢ - بَيَّنْتُ أنَّ خطابَ الجمع بلفظ الواحد أبلغُ من العمومِ؛ لأنَّه قائمٌ مقام التَّخصيص على مخاطبةِ كلِّ واحد على حدة، مع بيان الحِكَم الَّتي تختصُّ بها بعض هذه الصِّيغ.

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٣٤).

٣ - بَيَّنْتُ أنَّ خطابَ الجمعِ بلفظ الواحد من ألوان الخطاب الَّتي تدلُّ على التَّنوع العامِّ، كما تتنوَّع الأساليبُ فيه، فيجيءُ في الإنشاءِ والخبر، ويأتي واللَّفظ معرَّفٌ، كما يأتي واللَّفظ منكَّرٌ، كما يأتي واللَّفظ مضافٌ..

٤ - سَردُ النَّماذجِ والأمثلةِ من القرآن الكريم.

❊ ❊ ❊

المطلب الثَّاني: خطاب الواحد بلفظ الجمع

أ .**العرض والتَّحليل**: قال السُّيوطيُّ في (المزهر): «من سنن العربِ مخاطبةُ الواحد بلَفْظِ الجمع، فيقال للرَّجل العظيم: (انظُرُواْ في أمْري). وكان بعضُ أصحابنا يقول: إنَّما يُقال هذا؛ لأنَّ الرَّجلَ العظيم يقول: (نحنُ فَعَلْنا). فعلى هذا الابتداء خُوطبوا في الجواب. ومنه في القرآن: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]»[١].

وإنَّ هذا أسلوبٌ سائغٌ لغة، يقول ابنُ قتيبة في (تأويل مشكل القرآن): «ومنه: [أي: من خروج ضميرِ الجمع عن ظاهره إلى ما يخالفُ الظَّاهر] أن يخاطَب الواحدُ بلفظِ الجمع كقوله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ . وأكثرُ من يخاطَب بهذا الملوكُ؛ لأنَّ مذاهبهم أن يقولوا: (نحنُ فعلنا)، ويعني نفسه فخوطبوا بمثل ألفاظهم»[٢].

فهلْ هناكَ من هو أعظمُ من مَالِكِ الملك، وأولى منه بمثلِ هذا الأسلوب منه ﷻ؟

ومن أمثلة (خطاب الواحد بلفظ الجمع) ما قيل في قوله ﷻ:

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٩]. فقد قيل: إنَّ المراد بالنَّاس إبراهيم عليه السلام عبَّر عن الواحد بلفظ الجمع، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ

(١) المزهر (١/ ٣٣٣)، وانظر: البحر المحيط، للزَّركشيِّ (٣/ ١٣٨).
(٢) انظر: تأويل مشكل القرآن، شرح السَّيد أحمد صقر (ص: ٢٩٣).

ﭐلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤]. نزلت في الصِّديق ﷺ لما حلف أن لا ينفق على مسطح؛ لافترائه على عائشة -رضي الله عنها-[(١)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢] . فممَّا قيل في تفسير الآية: إنَّ الخطاب في ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ ظاهره أنَّه للأزواج. وقيل: لثابت بن يسار[(٢)]، خوطب الواحد بلفظ الجمع؛ للاشتراك في الحكم[(٣)]. وما كان تسمية للواحد بلفظ الجمع ما قيل في قوله ﷻ:

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٣/ ٩٧)، وتفسير أبي السُّعود (١/ ٢٢٣)، والبغوي (١/ ٢٠٠)، الدُّر المنثور (١/ ٦٤٢). وقيل: إنَّها نزلت في عبد الله بن رواحة ﷺ كان بينه وبين ختنه شيء، فحلف عبد الله أن لا يدخل عليه ولا يكلِّمه، وجعل يقول: قد حلفتُ بالله، فلا يحلُّ لي إلا أن تبرَّ يميني. فنـزلت هذه الآية. قاله ابن عباس ﷺ. كما في (زاد المسير) (١/ ٢٥٣)، وكما في (العجاب) (١/ ٥٧٦). .

(٢) هو ثابتُ بن يسارٍ الكعبيِّ الرَّبعيِّ الخزاعيِّ. قيل: نزل فيه قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١] الآية. روى ذلك الطَّبري وابن المنذر من طريق السدي. قال: كان رجل يقال له: ثابت بن يسار طلَّق امرأته، فلمَّا كادت عدَّتها تنقضي راجعها ثمَّ طلَّقها، فعل ذلك مرارًا فنـزلت. وذكره الثَّعلبي بغير إسناد. وأمَّا الآية الَّتي تليها، وفيها: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢] فنـزلت في معقل بن يسار. الإصابة في تمييز الصَّحابة (١/ ٣٩٩)، غوامض الأسماء المبهمة (٢/ ٧٣٤).

(٣) انظر: البحر المحيط (٢/ ٢١٧)، (٢/ ٢٢٢)، تفسير الطَّبري (٢/ ٤٨١)، تفسير القرطبي (١٨/ ١٤٨).

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة:٢١٣]. قال مجاهد: النَّاس آدم وحده، وسمِّى (الواحد بلفظ الجمع)؛ لأنَّه أصل النَّسل[١]. وقيل: المراد بالنَّاس بنو آدم عليه السلام..[٢]، وقيل: على دين واحد[٣].

والحاصل أنَّ الشَّاهد فيما قاله مجاهد أنَّه أراد آدم عليه السلام وحده، حيث كان أمَّة واحدة، فسمِّى (الواحد بلفظ الجمع)؛ لأنَّه أصل النَّسل وأبو البشر، ثمَّ خلق الله ﷻ حواء، ونشر منهما النَّاس فانتشروا، وكانوا مسلمين إلى أن قتل قابيلُ هابيل فاختلفوا .

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران:٣٩].

إنَّ لفظ (الملائكة) جمع لا واحد له. ومن الجائز في كلام العرب أن تخبر عن الواحد بمذهب الجمع، كما يقال في الكلام: (خرج فلانٌ على بغال البرد)[٤]، وإنما ركب بغلا واحدًا، وركب السُّفن، وإنما ركب سفينة واحدة، وكما يقال: ممَّن سمعت هذا الخبر؟ فيقال: من النَّاس. وإنَّما سمعه من رجل واحد. وقد قيل: إنَّ منه قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر: تفسير مجاهد (١/ ١٠٤)، وقال ذلك أيضا في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [يونس:١٩]. وانظر: تفسير مجاهد (١/ ٢٩٢)، وانظر: تفسير القرطبي (٣/ ٣٠)، تفسير ابن عادل (٣/ ٥٠٢)، السِّراج المنير (١/ ١٥٨)، البغوي (١/ ٢٤٣) .

(٢) انظر: القرطبي (٣/ ٣٠)، المحرَّر الوجيز (١/ ٢٨٥)، البحر المحيط (٢/ ١٤٣-١٤٤)، تفسير الماوردي (٢/ ٤٢٨)، تفسير العزِّ بن عبد السَّلام (١/ ٤٤٨).

(٣) انظر على سبيل المثال: الطَّبري (٢/ ٣٣٦)، (١١/ ٩٨)، (٢٥/ ١٠)...، الدُّر المنثور (٤/ ٤١٩)، القرطبي (٣/ ٣٠).. إلخ.

(٤) انظر: الأغاني (١١/ ٣١٩)، ثمارُ القلوب في المضاف والمنسوب، للثَّعالبي (ص:١٦٨).

قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣][١].

والمرادُ بالملائكة عند جمهور المفسِّرين[٢] جبريل -عليه السَّلام- ويسمَّى الواحد بالجمع كقوله ﷻ في (سورة النَّحل): ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ [النحل: ٢]، يعني: جبريل (بالرُّوح) بالوحي، ويجوز في العربيَّة أن يخبر عن (الواحد بلفظ الجمع) كقولهم: (سمعت هذا الخبر من النَّاس)، وإنَّما سمع من واحد، نظيره قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ يعني: نعيم بن مسعود. ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: أبا سفيان بن حرب»[٣]. قال الزَّمخشريُّ: «فإن قلت: كيف قيل: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ إن كان (نعيم) هو المثبِّط وحده؟ قلت: قيل ذلك؛ لأنَّه من جنس النَّاس، ما يقال: (فلانٌ يركبُ الخيل ويلبسُ البرود)، وماله إلا فرس واحد وبرد فرد، أو لأنَّه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل (المدينة) يضامونه، ويصلون جناح كلامه، ويثبِّطون مثل تثبيطه»[٤].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧].

قيل: أراد به ملك الموت وأعوانه، أو أراد ملك الموت وحده، كما قال ﷻ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، والعرب قد

---

(١) انظر ذلك في (تفسير الطَّبري) (٣/ ٢٤٩)، تفسير القرطبي (٤/ ٧٤).

(٢) ذكر ذلك الآلوسيُّ في (تفسيره) (١٤/ ٩٣)، وستأتي الإشارة إلى أقوال المفسِّرين.

(٣) انظر: تفسير الطَّبري (٣/ ٢٤٩)، تفسير القرطبي (٤/ ٧٤)، (٢٠/ ١٣٣).

(٤) الكشاف (١/ ٤٨٠-٤٨١).

تخاطب الواحد بلفظ الجمع[١].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤].

يعني محمَّدًا ﷺ وحده، فذكر الواحد بلفظ الجمع، ومثله كثير[٢].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

قيل: أراد بالرُّسل مَلَكَ الموت وحده، فذكر الواحد بلفظ الجمع[٣].

وقيل: أعوان مَلَكِ الموت يقبضونه فيدفعونه إلى مَلَكِ الموت فيقبض روحه، كما قال ﷻ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾. وقيل: الأعوان يتوفَّونه بأمر ملك الموت، فكأنَّ مَلَكَ الموت توفَّاه؛ لأنَّهم يصدرون عن أمره. ولعلَّ الرَّاجح أنَّ الموكَّلَ بقبض الأرواحِ مَلَكٌ واحد، هو المذكور هنا، ولكن له أعوانٌ يعملون بأمره..[٤].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأعراف: ٨].

---

(١) انظر: تفسير ابن عادل (٦/ ٥٩٠)، (٨/ ١٩٧)، تفسير البغوي (١/ ٤٦٩)، الخازن (١/ ٥٨٢)، السِّراج المنير (١/ ٣٣٩)، تفسير السَّمعاني (٢/ ١١٢).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (٥/ ١٣٧-١٤٠)، القرطبي (٢/ ١٦)، (٤/ ٢٧٩)، روح المعاني (٥/ ٥٧).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٢/ ١٠٣)، البحر المحيط (٤/ ١٥٢)، البحر المديد (٢/ ٢٢٦)، السِّراج المنير (١/ ٤٩٢)، السَّمعاني (٢/ ١١٢).

(٤) وينظر في ذلك مفصَّلا في: الطَّبري (٧/ ٢١٦-٢١٧)، القرطبي (٧/ ٧)، روح المعاني (٧/ ١٧٦)، (٢١/ ١٢٦)، تفسير البغوي (٣/ ١٠٣)، الدُّر المنثور (٣/ ٢٨١-٢٨٢).

فممَّا قيل في بيان (الموازين) أنَّه ذكر بلفظ الجمع، والميزان واحد. قيل: يجوز أن يكون لفظه جمعا ومعناه واحد، كقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون:٥١] وسيأتي بيانه في موضعه. وعلى ذلك فقد جمعت الموازين باعتبار الموزونات والميزان واحد. وقيل: لكلِّ عبد ميزان، وقيل غير ذلك..[١].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ [الأعراف:١٩٠].

قيل: يعني: إبليس، أخبر عن الواحد بلفظ الجمع[٢].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ [يونس:٨٣]. قيل: إنَّما قال: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ مع أنَّ فرعون واحد لوجوه: الأوَّل: أنَّه قد يعبر عن الواحد بلفظ الجمع، والمراد التَّعظيم. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر:٩]، الثَّاني: أنَّ المراد بفرعون: آل فرعون. الثَّالث: أنَّ هذا من باب حذف المضاف كأنَّه أريد بفرعون: آل فرعون[٣]. قال الفرَّاء: وإنما قال: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ -بالجمع- وفرعون واحد؛ لأنَّ

(١) انظر: تفسير البغوي (٢/ ١٤٩)، المحرَّر الوجيز (٢/ ٣٧٦)، الخازن (٢/ ٢١١)، السِّراج المنير (١/ ٥٣٤). وقد ذكر أبو حيَّان في (البحر) أنَّ جمع الموازين باعتبار الموزونات والميزان واحد أنَّه قول الجمهور. انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٧١).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (٩/ ١٤٩)، تفسير البغوي (٢/ ٢٢١)، الكشف والبيان (٤/ ٣١٥)، الخازن (٢/ ٣٢٥)، زاد المسير (٣/ ٣٠٢) .

(٣) انظر: تفسير الرَّازي (١٧/ ١٤٥)، روح المعاني (١١/ ١٦٨) .

الملك إذا ذكر ذهب الوهم إليه وإلى أصحابه[١].

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤].

قيل: المخاطب النَّبي ﷺ؛ لقوله عز وجل: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟﴾ [هود: ١٣][٢]. ولم يقل: (لك). فقيل هو على تحويل المخاطَبة من الإفراد إلى الجمع تعظيمًا وتفخيمًا، وقد يخاطب الرَّئيس بما يخاطب به الجماعة. وقيل: الضَّمير في ﴿لَكُمْ﴾ وفي ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ للجميع، أي: فليعلم الجميع أنَّما أنزل بعلم الله عز وجل. قاله: مجاهد[٣]. وقيل: الضَّمير في ﴿لَّكُمْ﴾ وفي ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ للمشركين، والمعنى: فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة ولا تهيَّأت لكم المعارضة فاعلموا أنَّما أنزل بعلم الله عز وجل. وقيل: الضَّمير في ﴿لَكُمْ﴾ للنَّبيِّ ﷺ وللمؤمنين، وفي ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ للمشركين[٤].

والحاصل أنَّه جمع الضَّمير إمَّا لتعظيم الرَّسول ﷺ، أو لأنَّ المؤمنين كانوا أيضًا يَتحدُّونهم، وكان أمر الرَّسول ﷺ متناولا لهم من حيث إنَّه يجب اتباعه عليهم في كلِّ أمر إلا ما خصَّه الدَّليل.

---

(١) معاني القرآن، للفرَّاء (١/ ٤٧٦-٤٧٧)، تفسير الطَّبري (١١/ ١٥٠)، تفسير البغوي (٢/ ٣٦٤)، الكشف والبيان (٥/ ١٤٣)، زاد المسير (٤/ ٥٣)، الخازن (٣/ ٢٠٣).

(٢) انظر: الإتقان (٢/ ٩٢).

(٣) انظر: تفسير مجاهد (١/ ٣٠١).

(٤) تفسير القرطبي (٩/ ١٣)، وانظر: تفسير البيضاوي (٣/ ٢٢٥)، زاد المسير (٤/ ٨٣)، البحر المديد (٣/ ٢٠١)، وتفسير مجاهد (١/ ٣٠١).

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢].

يعني: جبريل عليه السلام، و(الرُّوح): الوحي. وجائز في العربيَّة أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع، وقد جمعه تعظيمًا[1]، وقد سبق بيان ذلك.

ومما قيل في قوله عز وجل:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]: خاطب به النَّبي ﷺ بدليل قوله عز وجل: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [النحل: ١٢٧] الآية[2].

والَّذي أميل إلى ترجيحه أنَّها عامَّة، ثمَّ خصَّ النَّبي ﷺ بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾، أي: لا تعاقب انتقاما -ولو بالمثليَّة-، ولكن اصبر، وهو الَّذي يتوافق مع ظاهر الآية؛ إذ كيف يأمره بأن يعاقب بالمثل..ثمَّ يقول له: اصبر ولا تعاقب..؟!![3].

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠].

---

(١) انظر ذلك مفصَّلا في: تفسير القرطبي (٤/ ٧٤)، روح المعاني (١٤/ ٩٣)، الوجيز للواحدي (ص: ٦٠٠)، تفسير السَّمرقندي (٢/ ٢٢٨)، تفسير أبي السُّعود (٥/ ٩٥).

(٢) انظر: الإتقان (٢/ ٩٠)، البرهان (٢/ ٢٣٥)، وانظر: لباب النُّقول (١/ ١٣٥)، وزاد المسير (٤/ ٥٠٧)، وتفسير مجاهد (١/ ٣٥٥).

(٣) ومن المفسِّرين من قال باحتمال عمومها. انظر: تفسير ابن جزي (١/ ١٦٥)، البحر المديد (٤/ ٩٧).

يجوزُ أن يكون هذا الخطاب للمرأة وولدها والخادم. ويجوز أن يكون للمرأة وحدها خرج على ظاهر لفظ (الأهل)؛ فإنَّ (الأهل) يقع على الجمع. وأيضًا فقد يخاطب الواحد بلفظ الجمع تفخيمًا، أي: (أقيموا في مكانكم)[(١)] .

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، فقد ذكر الزَّركشيُّ أنَّه خطاب للنَّبي ﷺ وحده؛ إذ لا نبيَّ معه قبله ولا بعده، وقد سبق بيان ذلك.

أقول: وما ذكره وجزم به هو رأيٌ ذكره المفسِّرون، وهو في ظاهره مخالفٌ لما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ**[(٢)] **لا يَقْبَلُ إِلا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ**

---

(١) انظر: روح المعاني (١٦/ ١٦٥)، تفسير النَّيسابوري (٤/ ٥١٩)، تفسير ابن عادل (١٣/ ١٨٥)، (١٥/ ١١٠)، السِّراج المنير (٢/ ٤٩٩)، (٣/ ٨٥).

(٢) قال القاضي عياض: «(الطَّيب) في صفة الله عز وجل بمعنى: المنـزَّهُ عن النَّقائص، وهو بمعنى القدوس، وأصل (الطَّيب): الزَّكاة والطَّهارة والسَّلامة من الخبث». إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣/ ٥٣٢). وذكر النَّووي أنَّ «هذا الحديث أحدُ الأحاديث الَّتي هي قواعدُ الإسلام ومباني الأحكام، وقد جمعت منها (أربعين) حديثًا في جزء -[يعني: الأربعين النَّوويَّة]-. وفيه الحثُّ على الإنفاق من الحلال، والنَّهي عن الإنفاق من غيره. وفيه أنَّ المشروب والمأكول والملبوس ونحو ذلك ينبغي أن يكون حلالا خالصًا لا شبهة فيه، وأنَّ من أراد الدُّعاء كان أولى بالاعتناء بذلك من غيره. قوله: «ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب» إلى آخره.. معناه والله أعلم: أنَّه يطيل السَّفر في وجوه الطَّاعات كحجٍّ، وزيارة مستحبَّة، وصلة رحم، وغير ذلك. قوله ﷺ: «وغذي بالحرام» هو بضم الغين وتخفيف الذَّال المكسورة. قوله ﷺ: «فأنى يستجاب لذلك؟» أي من =

بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟»**[١].

وتفصيل القول في ذلك أنَّه خطاب لجميع الرُّسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام- لا على أنَّهم خوطبوا بذلك دفعةً؛ لأنَّهم أرسلوا متفرِّقين في أزمنةٍ مختلفة، بل على معنى أنَّ كلَّ رسولٍ منهم خوطِب به في زمانه، ونوديَ ووصِّي ليعلم السَّامع أنَّ إباحة الطَّيبات للرُّسل شرعٌ قديم، وأنَّ أمرًا نوديَ له جميعُ الأنبياء ووصُّوا به حقيقٌ أن يؤخذَ به ويعمل عليه. أي: وقلنا لكلِّ رسول: (كُلْ من الطَّيبات، واعملْ صالحًا)، فعبَّرَ عن تلكَ الأوامر المتعدِّدة المتعلِّقة بالرُّسل بصيغة الجمع عند الحكاية إجمالا للإيجاز. وقال بعضهم: إنَّه خطاب لرسول الله ﷺ وحَّده على دأب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجمع للتَّعظيم، وفيه إبانة لفضله، وقيامه مقام الكلِّ في حيازة كمالاتهم[٢]، وهو رأيُ

= أين يستجاب لمن هذه صفته؟ وكيف يستجاب له؟». شرح النَّووي على صحيح مسلم (٧/ ١٠٠)، إكمال المعلم (٣/ ٥٣٢).

(١) أخرجه مسلم [١٦٨٦].

(٢) انظر: تفسير روح المعاني (١٢/ ٢٣٩)، البيضاوي (٤/ ١٥٨)، أبو السُّعود (٦/ ١٨). وفي (التُّحفة): ((النِّداء خطاب لجميع الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- لا على أنَّهم خوطبوا بذلك دفعةً واحدة؛ لأنَّهم أرسلوا في أزمنةٍ مختلفة، بل على أنَّ كلا منهم خوطِب به في زمانه. ويمكن أن يكون هذا النِّداء يوم الميثاق لخصوص الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام-». =

الطَّبري[(١)]، جاء في (تفسيره): «يقول ﷻ: وقلنا لعيسى عليه السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ كلوا من الحلال الَّذي طيَّبه الله ﷻ لكم دون الحرام، واعملوا صالحًا. تقول في الكلام للرَّجل الواحد: (أيُّها القوم كفُّوا عنَّا أذاكم).

وكما قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ ، وهو رجل واحد. وبنحو الَّذي قلنا في ذلك قال أهل التَّأويل»[(٢)].

وكذلك في (معاني القرآن)، للنَّحاس[(٣)]، والواحدي[(٤)].

والحاصل: أنَّ الله ﷻ أمَرَ في هذه الآية الكريمة رسله -عليهم الصَّلاة والسَّلام- مع أنَّ الموجود منهم وقت نزولها واحدٌ، وهو نبيُّنا ﷺ، بالأكل من الطَّيبات، وهي الحلال الَّذي لا شبهة فيه على

= تحفة الأحوذيِّ (٨/ ٢٦٦-٢٦٧).

(١) وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسُّديِّ والكلبيِّ. انظر: تفسير البغوي (٣/ ٣١٠). وكذلك في (زاد المسير) (٥/ ٤٧٧). وقال ابنُ الجوزيِّ في (زاد المسير): «قال ابنُ عباس والحسن ومجاهد وقتادة في آخرين يعني بالرُّسل ها هنا محمَّدا ﷺ وحده، وهو مذهب العرب في (مخاطبة الواحد خطاب الجميع)، ويتضمَّن هذا أنَّ الرُّسل جميعًا كذا أمروا، وإلى هذا المعنى ذهب ابن قتيبة [في (تأويل مشكل القرآن) (ص: ٢٨٢)]، والزَّجاج [انظر: معاني القرآن وإعرابه، (٤/ ٥١)]. والمراد (بالطَّيبات): الحلال. قال عمرو بن شرحبيل كان عيسى عليه السلام يأكل من غزل أمِّه». زاد المسير (٥/ ٤٧٧).

(٢) تفسير الطَّبري (١٨/ ٢٨).

(٣) انظر: معاني القرآن، للنَّحاس (٤/ ٤٦٥). وانظر: الأعلام (١/ ٢٠٨)، البلغة في تراجم أئمَّة النَّحو واللُّغة (ص:٨)، بغية الوعاة (١/ ٣٦٢)، طبقات المفسِّرين.

(٤) انظر: تفسير الواحدي (٢/ ٧٤٨)، وانظر: الأعلام (٤/ ٢٥٥)، البلغة في تراجم أئمَّة النَّحو واللُّغة (ص: ٤٠)، بغية الوعاة (٢/ ١٤٥)، سير أعلام النُّبلاء (١٨/ ٣٣٩-٣٤٠).

التَّحقيق، وأن يعملوا العمل الصَّالح، وذلك يدلُّ على أنَّ الأكل من الحلال له أثرٌ في العمل الصَّالح، وهو كذلك، وهذا الَّذي أمرَ به الرُّسل في هذه الآية الكريمة، أمرَ به المؤمنين من هذه الأمَّة الَّتي هي خيرُ الأمم. وذلك في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾. والآية تدلُّ على أنَّ كلَّ رسولٍ أُمر في زمنه بالأكل من الحلال، والعمل الصَّالح، وتأثير الأكل من الحلال في الأعمال معروف. والحديث السَّابق يدلُّ دلالةً واضحةً أنَّ دعاءه الَّذي هو من أعظم القُرَب لم ينفعْه؛ لأنَّه لم يأكل من الحلال ولم يشرب منه، ولم يركب منه[1]. وسيأتي مزيد من التَّحقيق والبيان في (النِّداء).كما سيأتي أنَّه نداءُ تنبيهٍ مع مدح.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩﴾ [المؤمنون: ٩٩].

ولم يقل: (أرجعني)، وهو يسأل الله ﷻ وحده الرَّجعة، على عادة العرب؛ فإنهم يخاطبون الواحد بلفظ الجمع على وجه التَّعظيم، كما أخبر الله ﷻ عن نفسه فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩]، ومثله كثيرٌ في القرآن[2].

قيل: ﴿رَبِّ﴾ خطاب له ﷻ، أو استغاثة به، و﴿ٱرۡجِعُونِ﴾

---

(١) انظر: أضواء البيان (٥/ ٣٣٩).

(٢) تفسير البغوي (٣/ ٣١٧)، روح المعاني (١٣/ ٢٨٣)، وانظر: الخازن (٥/ ٤٤)، وانظر: البحر المحيط، للزَّركشي (٣/ ١٣٨).

للملائكة[(١)].

أقول: وأميل إلى ضعفِ[(٢)] هذا القول؛ لأنَّ فيه تفكيكًا للخطاب، ومخالفةً لظاهره؛ ولما تقرر أنَّ (خطاب الواحد بلفظ الجمع) أمرٌ سائغ، وله نظائرُ كثيرة فلا حاجة للعدول عن ظاهر الخطاب..، والحديث الَّذي ذكروه -وقد خرَّجتُه في الحاشية- مُرْسلٌ، وهو أيضًا محتمل.

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [النور: ٢٢]. هو مسطح؛ فإنَّه كان قريب أبي بكر رضي الله عنه، وكان مسكينًا، ومن المهاجرين. وقد ذكر (الواحد بلفظ الجمع)، ويجوز مثل هذا في اللُّغة. ويجوز أنَّه أراده وأراد غيره[(٣)].

---

(١) انظر: الإتقان (٢/ ٩٠). ويستأنسُ لهذا الوجه بما ذكره ابنُ جرير عن ابن جريج قال: قال رسول الله ﷺ لعائشة -رضي الله عنها-: «إذا عاينَ المؤمنُ الملائكة قالوا: نرجعك إلى دار الدُّنيا، فيقول: إلى دار الهموم والأحزان، فيقول: بل قدِّموني إلى الله عز وجل. وأمَّا الكافر فيقولون له: نرجعك، فيقول: ربِّ ارجعون». تفسير الطَّبري (١٨/ ٥٢)، روح المعاني (١٨/ ٦٣)، (١٣/ ٢٨٣)، تفسير البيضاوي (٤/ ١٦٧). وقد أخرجه ابنُ جرير من حَدِيث ابْن جريج مُرْسلاً. انظر: الفتح السَّماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي، للمناويِّ (٢/ ٨٥٧). وفي (تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزَّمخشري)، للزَّيلعي: رواه الطَّبريُّ..حدَّثني القاسم حدثنا الحسين بن حجاج عن ابن جريج قال: قال النَّبي ﷺ لعائشة: «إذا عاينَ المؤمنُ الملائكةَ..» إلى آخره..وذكره الثَّعلبي عن عائشة مرفوعًا من غير سند. (٢/ ٤٠٧). أقول: والحاصل أن الضَّعف يعتري هذا القول من جهة المنقول، وكذلك من جهة المعقول لاحتماله.

(٢) أقول: وقد ضعَّفه كذلك السَّمعاني في (تفسيره) (٣/ ٤٨٩).

(٣) انظر: تفسير الطَّبري (١٨/ ١٠٢- ١٠٣)، القرطبي (٣/ ٩٧)، و(١٢/ ٢٠٧)، وابن كثير (٣/ ٢٧١-٢٧٧)، وروح المعاني (٢/ ١٢٦)، و(١٨/ ١٢٥)، والدُّر المنثور (٦/ ١٦٢).

وأورد الزَّركشيُّ لإيقاع (خطاب الواحد بلفظ الجمع) قوله ﷻ:
﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ [النور: ٢٦]، ثمَّ قال: «يعني: عائشة رضي الله عنها وصفوان[١]»[٢].

أقول: والتَّحقيق أنَّ ذلك من إيقاع الجمع على التَّثنية إذا كان المراد عائشة رضي الله عنها وصفوان، فكيف يقول: إنَّ المراد عائشة وصفوان، ويجعل ذلك مندرجًا تحت خطاب الواحد بلفظ الجمع؟!! ويمكن أن يصحَّ قوله إذا كان قد ذَكَرَ أنَّه ممَّا قيل: إنَّ المراد عائشة رضي الله عنها فحسب[٣].

وعلى أيَّة حالٍ سيأتي إيقاع (الجمع على التَّثنية) في موضعه.

ومنهم من جعل من ذلك قوله ﷻ:
﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ [النمل: ٣٥].

فإنَّ المراد بالمرسلين: سليمان عليه السلام، أو الهدهد...

وفي (شرح الكوكب المنير): «وفيه نظر؛ لاحتمال إرادتها الجيش»[٤]. «ومثَّله بعضهم بقول الزَّوج لامرأته -وقد رآها تتصدَّى لناظرها-: تتبرَّجين للرِّجال؟ ولم يرَ إلا واحدًا؛ فإنَّ الأنفة من ذلك

---

(١) هو صفوان بن المعطل بن رحضة السلمي الذَّكواني، أبو عمرو، صحابيٌّ، شهد (الخندق) والمشاهد كلَّها. وحضر فتح (دمشق)، واستشهد (بأرمينية). وقيل: في (سميساط). وهو الَّذي قال أهل الإفك فيه وفي عائشة ما قالوا. روى عن النَّبي ﷺ حديثين [١٩هـ]. الأعلام (٣/ ٢٠٦)، الإصابة (٣/ ٤٤٠-٤٤١)، سير أعلام النُّبلاء (٢/ ٥٤٥) .

(٢) البرهان (٢/ ٢٣٨)، وانظر: أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (١/ ٣٤٠).

(٣) انظر: تفسير الطَّبري (١٨/ ١٠٩)، الدُّر المنثور (٦/ ١٥٢)، لباب النُّقول (١/ ١٥٧).

(٤) شرح الكوكب المنير (٣/ ١٥١)، وانظر: إرشاد الفحول (١/ ٢١٦).

يستوي فيها الجمع والواحد[١]. واعترض بأنَّه إنَّما أراد الجمع لظنِّه أنَّها لم تتبرَّج لهذا الواحد إلَّا وقد تبرَّجت لغيره»[٢].

أقول: والَّذي يترجَّح لديَّ القولُ بضعفِ احتمال إرادتها الجيشَ؛ لما ذكرت آنفًا من دلالة قوله ﷻ: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النمل: ٣٧]؛ فإنَّ الرَّسولَ واحدٌ، وهو الأقربُ إلى الظَّاهر الَّذي يدلُّ عليه سياقُ الآيات.

قال ابنُ العربي: «والرَّسول واحد»[٣].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [القصص: ٩].

والخطاب في ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ قيل: لفرعون، وإسناد الفعل إليه مجازي؛ لأنَّه الآمر، والجمع للتَّعظيم. وقيل غير ذلك[٤].

وفي (البرهان): «ولا ينبغي أن يستعمل ضمير الجمع (نحن) في واحد من المخلوقين على حكم الاستلزام؛ لأنَّ ذلك كِبْر»[٥]. «ومن هذا ما حكاه الحريريُّ[٦] في شرح (الملحة) عن بعضهم أنَّه منع من

---

(١) انظر: المحلَّى على جمع الجوامع (١/ ٤٢١)، البرهان في أصول الفقه (١/ ٣٥٣).

(٢) شرح الكوكب المنير (٣/ ١٥١). انظر: أدلَّة إطلاق الجمع على الاثنين مجازًا في (مختصر ابن الحاجب والعضد عليه) (٢/ ١٠٥)، المحلي والبناني على جمع الجوامع (١/ ٤٢١).

(٣) أحكام القرآن الكريم لابن العربي (١/ ٣٤٠).

(٤) انظر: روح المعاني (٢٠/ ٤٨).

(٥) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٣٦).

(٦) الحريريُّ هو القاسم بن علي بن محمَّد بن عثمان، أبو محمَّد البصريُّ الحريريُّ صاحب (المقامات) الَّتي بلغ بها أعلى المقامات. إمامُ عصره في الأدب والنَّظم والنَّثر والبلاغة، والفصاحة. ولد (بالبصرة) سنة (ستٍّ وأربعين وأربعمائة)، وقدم (بغداد) وتفقَّه على الشَّيخ =

إطلاق لفظه: (نحن) على غير الله ﷻ من المخلوقين لما فيها من التَّعظيم[١]، وهو غريب... فأمَّا قول العالم: (نحن نبيِّن أو نشرح) فمسموحٌ له فيه؛ لأنَّه يخبرُ بنون الجمع عن نفسه وأهلِ مقالته»[٢].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

وقد حُكِيَ عن الضحاك أنه قال في قوله ﷻ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. إن من الجن رسولا اسمه يوسف، وهو قول ضعيف. فإن المراد: الإنس؛ لأنَّ الرسل لا تكون إلا من بني آدم عليه السلام، وحكى بعضهم فيه الإجماع كما بين الزركشي[٣].

وهذه المسألة لا يبنى عليها عمل، وليس فيها نصٌّ قاطع، وقد اتَّفقوا على عموم رسالة محمَّد ﷺ إلى الإنس والجنِّ، وهذا أصل متَّفق عليه بين الصَّحابة والتَّابعين لهم بإحسان، وأئمَّة المسلمين، وسائر طوائف المسلمين أهل السُّنة والجماعة، وغيرهم، لم يخالف أحد من طوائف المسلمين فى وجود الجنِّ ولا في أنَّ الله ﷻ أرسل محمَّدًا ﷺ إليهم[٤].

= أبي إسحاق الشِّيرازي، وأبي نصر بن الصَّباغ، وقرأ الفرائض والحساب على أبي الفضل الهمدانيِّ وأبي حكيم الخبريِّ. توفي (بالبصرة) سنة [٥١٦هـ]، عن (سبعين سنة). وصنَّف (الملحة وشرحها)، و(درَّة الغوَّاص في أوهام الخواص). انظر: طبقات الشَّافعية، لابن قاضى شهبة (١/ ٢٨٩)، طبقات الشَّافعية الكبرى (٧/ ٢٦٧).

(١) شرح ملحة الأعراب في صناعة الإعراب (ص:١٣) .

(٢) بتصرُّف عن (البرهان في علوم القرآن) (٢/ ٢٣٦).

(٣) انظر البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٣٧).

(٤) انظر: كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/ ١٠-١١).

قال الحافظ ابن كثير: «﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أي: من جملتكم، والرُّسل من الإنس فقط، وليس من الجنِّ رسل كما نصَّ على ذلك مجاهدُ وابنُ جريج وغيرُ واحد من الأئمَّة من السَّلف والخلف. وقال ابنُ عباس: الرُّسل من بني آدم عليه السلام، ومن الجنِّ نذرٌ[(١)]. وحكى ابنُ جريرٍ عن الضَّحاك أنَّه زعم أن في الجنِّ رسلًا، واحتجَّ بهذه الآية الكريمة. وفيه نظرٌ؛ لأنَّها محتملة وليست بصريحة، وهي -والله أعلم- كقوله ﷻ: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩﴾ [الرحمن:١٩]. إلى أن قال: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢﴾. ومعلومٌ أنَّ اللُّؤلؤ والمرجان إنَّما يستخرجانِ من الملح لا من الحلو، وهذا واضحٌ -ولله الحمد-[(٢)]..وقد ذكر هذا الجواب بعينه ابن جرير...»[(٣)].

أمَّا ما يترجَّح لديَّ فهو أنَّ معنى: ﴿مِنكُمۡ﴾، أي: في الخلق

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٨). وحديث ابن عباس -رضي الله عنهما- أخرجه ابن جرير (٨/ ٣٦) من طريق ابن جريج، قال: قال ابن عباس: هم الجنُّ الَّذين لقُوا قومهم، وهم رسلٌ إلى قومهم. ومعلوم أنَّ ابن جريج لم يدرك ابن عباس. وقد ورد عن يحيى بن سعيد أنَّه قال: إذا قال ابن جريج قال، فهو شبه الريح. انظر: تهذيب الكمال (١٨/ ٣٥١)، تهذيب التَّهذيب (٦/ ٤٠٤)، سير أعلام النُّبلاء (٦/ ٣٣٠)، ولهذا أورد ابنُ الجوزيِّ قولَ ابن عباس هذا بصيغة التَّمريض فقال: «ورُوي عن ابن عباس». انظر: زاد المسير (٣/ ١٢٥)، وانظر: شرح العقيدة الطَّحاوية، لابن أبي العزِّ الحنفيِّ (ص:١٦٦)، معاني القرآن، للنَّحاس (٢/ ٤٩٢).

(٢) سيأتي التعقيب على هذا القول في موضعه.

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٨)، تفسير الطَّبري (٨/ ٣٦).

والتَّكليف والمخاطَبة، ولمَّا كانت الجنُّ ممَّن يخاطَب ويعقل قال: ﴿مِنكُمْ﴾ ، وإن كانت الرُّسل من الإنس، وغلَّب الإنس في الخطاب كما يغلِّب المذكَّر على المؤنَّث. وإنَّ الرُّسل من الإنس، والنُّذر من الجنِّ كما نصَّ على ذلك الأئمَّة، وهو الذي يتَّفق مع الأدلَّة، وما خالف ذلك من الأدلَّة محتمل»[(١)].

ويشهد لهذا أنَّ الله ﷻ ذكر أنَّهم منذرين لقومهم في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩]. وقيل: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ ، أي: من مجموعكم الصَّادق بخصوص الإنس؛ لأنَّه لا رسل من الجنِّ. ويستأنسُ لهذا القول بأنَّ القرآن ربَّما أطلق فيه المجموع مرادا بعضه كقوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ١٦]، وقوله ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشَّمس: ١٤][(٢)] مع أنَّ العاقر واحدٌ منهم، كما بيَّنه بقوله ﷻ: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: ٢٩][(٣)].

ولا يلزم إثبات رسل من الجنِّ بطريق إثبات نفر من الجنِّ يستمعون القرآن من رسل الإنس، ويبلِّغونه إلى قومهم وينذرونهم، ويصدق على

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٨٥، فتح القدير (٢/ ٢٣٦).

(٢) وكذلك قوله عز وجل: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ﴾ [هود: ٦٥]، وقوله عز وجل: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الشُّعراء: ١٥٧].

(٣) انظر: أضواء البيان (١/ ٤٩٣)، دفعُ إيهام الاضِّطراب، السَّنة الثَّالثة، العدد الأوَّل، (ص: ٦).

أولئك النَّفر من حيث إنَّهم رسل (الرُّسل)، وقد سمَّى الله ﷻ رسل عيسى عليه السلام بذلك حيث قال ﷻ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ [يس: ١٤][1].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥]. والمراد بالمرسلين: نوح عليه السلام[2].

و(القوم) يذكَّر ويؤنَّث؛ لأنَّ أسماء الجموع الَّتي لا واحد لها من لفظها إذا كان للآدميِّين فإنَّه يذكَّر ويؤنَّث، مثل: (رَهْطٍ) و(نَفرٍ). وقد قال ﷻ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ [الأنعام: ٦٦] فذكَّرَ. وقال ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ فأَنَّثَ. فإن صغَّرتَ لم تدخل فيها الهاء، وقلت: قُوَيْمٌ ورُهَيْطٌ ونُفَيْرٌ[3]. وقيل: هو مذكَّر ولحقت فعله علامة التَّأنيث على إرادة الأمَّة والجماعة منه، وتكذيبهم المرسلين باعتبار إجماع الكلِّ على التَّوحيد وأصول الشَّرائع الَّتي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأعصار[4].

ولكن جوِّز أن يراد بالمرسلين (نوح عليه السلام) بجعل اللَّام للجنس، فهو نظير قولك: (فلانٌ يركبُ الدَّواب ويلبسُ البرود) وماله

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٣٧).

(٢) انظر: الكشاف (٣/ ١١٩-١٢٠)، روح المعاني (١٩/ ١٠٦)، أيسر التَّفاسير (٣/ ٦٦٢).

(٣) انظر: الصِّحاح، للجوهريِّ، مادَّة: (قوم) (٢/ ١٠١-١٠٢)، وكذلك في (مختار الصِّحاح) (ص: ٥٦٠)، وينظر: لسان العرب، مادَّة: (قوم) (١٢/ ٤٩٦).

(٤) انظر: روح المعاني (١٩/ ١٠٦-١٠٧)، تفسير أبي السُّعود (٦/ ٢٥٤)، البحر المحيط (٧/ ٢٩)، التَّحرير والتَّنوير (١٩/ ١٥٦-١٦٤).

إلا دابَّة واحدة وبرد واحد[١] .وهو الَّذي يعنينا هنا...

ونحوه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠] .

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾ [القمر: ٣٣].

ب. النتائج:

١ - بيَّنتُ أنَّ (خطاب الواحد بلفظ الجمع) من الصِّيغ الَّتي تدلُّ على التَّعظيم، وأنَّ من الحِكَم ما يكون خاصًّا بكلِّ صيغة على حدة..وقد جاء عقب كلِّ صيغة.

٢ - بينتُ أنَّ (خطاب الواحد بلفظ الجمع) من ألوان الخطاب السَّائغة عند العرب.

٣ - يقالُ في هذا اللَّون من ألوان الخطاب ما قيل في سابقه، من حيث التَّنوع..

❁ ❁ ❁

(١) انظر: روح المعاني (١٩/ ١٠٦-١٠٧)، تفسير أبي السُّعود (٦/ ٢٥٤)، تفسير النَّسفي (٣/ ٢٧٧)، البحر المديد (٥/ ١٧٥)، البحر المحيط (٣/ ١٢٣)، وهذا القول مستفادٌ مما ذكره الزَّمخشري في (الكشاف) حيث يقول: «(القوم): مؤنَّثة، وتصغيرها (قويمة). ونظير قوله عز وجل: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ، والمراد نوح عليه السلام: قولك: (فلان يركب الدَّواب ويلبس البرود)، وماله إلا دابَّة وبرد..)). الكشاف (٣/ ١١٩-١٢٠).

المطلب الثالث: خطاب الواحد بلفظ الاثنين

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ [ق: ٢٤]، والخطاب لمالك عليه السلام خازن النَّار..

وقال الفرَّاء: «الخطاب لخزنة النَّار والزَّبانية. وأصلُ ذلك أنَّ الرُّفقة أدنى ما تكون من ثلاثة نفر، فجرى كلام الواحد على صاحبيه. ويجوز أن يكون الخطاب للملكين الموكَّلين من قوله ﷻ: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: ٢١]»(١).

وقيل: لما ثنَّى الضَّمير استغنى عن أن يقول: (ألق ألق)، يشير إلى إرادة التَّأكيد اللَّفظي(٢).

وقد ذكر الطَّبري(٣) أنَّ فيه متروكًا استغني بدلالة الظَّاهر عليه منه، وهو: (يقال ألقيا في جهنَّم)، أو قال ﷻ: ألقيا، فأخرج الأمر للقرين، وهو بلفظ واحد مخرج (خطاب الاثنين).

وفي ذلك وجهان من التَّأويل:

---

(١) معاني القرآن، للفرَّاء (٣/ ٧٨-٧٩)، وانظر: تفسير الطَّبري (٢٦/ ١٦٥)، تفسير القرطبي (١٧/ ١٦)، و(١٧/ ١٥٨)، والكشاف (٤/ ٧-٨)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٢٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٢/ ١٤٩)، (١٧/ ١٦)، روح المعاني (٢٦/ ١٨٥)، زاد المسير (٨/ ١٦)، فتح القدير (٣/ ٤٩٨)، مشكل إعراب القرآن، لمكي (٢/ ٥٠٥).

(٣) انظر: تفسير الطَّبري (٢٦/ ١٦٥).

أحدُهما: أن يكونَ القرينُ بمعنى الاثنين، كالرَّسول، والاسم الَّذي يكون بلفظ الواحد في الواحد والتَّثنية والجمع، فردَّ قوله ﷿: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ إلى المعنى.

والثَّاني: أن يكون كما كان بعض أهل العربيَّة يقول، وهو أنَّ العرب تأمر الواحد والجماعة بما تأمر به الاثنين، فتقول للرَّجل: (ويلك أرحلاها وازجراها)، وذكر أنَّه سَمِعها من العرب، واستدل على ذلك من كلام العرب[(١)].

ومنهم من جعل من هذا النَّوع قوله ﷿: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩][(٢)].

قال أبو جعفر: «وهذا خبرٌ من الله ﷿ عن إجابته لموسى وهارون -عليهما السَّلام- دعاءهما على فرعون وأشراف قومه وأموالهم. يقول

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (٢٦/ ١٦٥)، تفسير القرطبي (١٧/ ١٦)، تفسير ابن عادل (١٨/ ٣١)، البغوي (٤/ ٢٢٣)، فتح القدير (٥/ ٧٦)، زاد المسير (٨/ ١٥).

(٢) ومنهم: (المهدوي) كما ذكر الزَّركشيُّ في (البرهان) (٢/ ٢٤٠). و(المهدوي) هو أحمد بن عمَّار المهدوي العالم الفاضل، صنَّف: (التَّفصيل الجامع لعلوم التَّنزيل)، وهو من أكبر التَّفاسير [ومن] أشرفها، ثمَّ بعد ذلك أعرب ما ينبغي إعرابه، وذكر أوجه القراءات وما ينبغي لكلِّ وجه من أوجهها من الإعراب، توفي سنة (إحدى وثلاثين وأربعمائة). قال السُّيوطي: وقد اختصره أبو حفص الشَّيخ عمر بن أحمد الأندلسي، وسمَّاه: (عين الأعيان)، وكان ذلك في سنة (أربع وستِّين وسبعمائة). انظر: طبقات المفسِّرين، للأدنوري (١/ ٩٧)، (١/ ١١١)، وطبقات المفسِّرين، للسُّيوطيِّ (ص: ١٩)، وطبقات المفسِّرين، للدَّاوديِّ (١/ ٥٦). وفي (بغية الوعاة) (٢/ ٣٥١): «هو أحمد بن عمَّار أبو العباس المهدويِّ المقرئ النَّحوي المفسِّر، أصله من (المهدويَّة)، ودخل (الأندلس)، وتوفي سنة [٤٤٠]».

وَعَجَلَّ: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ ، في فرعون وملئه وأموالهم[١]. فإن قال قائل: وكيف نسبت (الإجابة) إلى اثنين و(الدُّعاء) إنَّما كان من واحد؟ قيل: إنَّ الدَّاعي وإن كان واحدا فإنَّ الثَّاني كان مؤمِّنا، وهو هارون عليه السلام؛ فلذلك نسبت الإجابة إليهما؛ لأنَّ المؤمِّن داعٍ. وكذلك قال أهل التَّأويل. وذكر من ذلك ما روى عن عكرمة قال: كان موسى عليه السلام يدعو، وهارون عليه السلام يؤمِّن. وعن محمَّد بن كعب[٢]

(١) يعني قول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: ٨٨].

(٢) قال ابن سعد: محمَّد بن كعب بن حيَّان بن سليم، الإمام العلاَّمة الصَّادق، أبو حمزة. وقيل: أبو عبد الله القرظيُّ المدنيُّ، من حلفاء (الأوس)، وكان أبوه (كعب) من سبي (بني قريظة)، سكن (الكوفة)، ثمَّ (المدينة). قيل: ولد محمَّد بن كعب في حياة النَّبي ﷺ، ولم يصحَّ ذلك. قال زهير بن عبَّاد الرؤاسي، عن أبي كبير البصري، قالت أمُّ محمَّد بن كعب القرظي له: يا بنيَّ لولا أنِّ أعرفك طيِّبًا صغيرًا وكبيرًا لقلت: إنَّك أذنبت ذنبًا موبقًا لما أراك تصنع بنفسك، قال: يا أمَّاه، وما يؤمنني أن يكون الله عز وجل قد اطَّلع عليَّ، وأنا في بعض ذنوبي فمقتني، وقال: اذهب لا أغفر لك، مع أنَّ عجائب القرآن ترد بي على أمور حتَّى إنَّه لينقضي اللَّيل ولم أفرغ من حاجتي. وروى يعقوب الفسوي عن محمَّد بن فضيل البزَّاز قال: كان لمحمَّد ابن كعب جلساء من أعلم النَّاس بالتَّفسير، وكانوا مجتمعينَ في مسجد (الرَّبذة)، فأصابتهم زلزلة، فسقط عليهم المسجد، فماتوا جميعًا تحته. قال أبو معشر وجماعة: توفي سنة (ثمان ومائة). وقال الواقديُّ وخليفة والفلاس وجماعة: مات سنة (سبع عشرة). قال الواقديُّ وجماعة: وهو ابن (ثمان وسبعين) سنة. وقال محمَّد بن عبد الله بن نمير: سنة (تسع عشرة). وقال ابنُ المدينيِّ وابنُ معين وابن سعد: سنة (عشرين ومائة). وأخطأ من قال: سنة (تسع وعشرين). سير أعلام النُّبلاء (٥/ ٦٥-٦٦)، وانظر: الأنساب (٤/ ٤٢٨)، الثِّقات، لابن حبان (٥/ ٣٥١)، الطَّبقات الكبرى، لابن سعد (١/ ١٣٤).

قال: دعا موسى عليه السلام، وأمَّن هارون عليه السلام. وعن الرَّبيع بن أنس[١] قال: دعا موسى عليه السلام وأمَّن هارون. . . . عليه السلام[٢]، فذلك قوله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ .

وقد زعمَ بعضُ أهل العربية أنَّ العرب تخاطب الواحد خطاب

(١) هو الرَّبيع بن أنس بن زياد البكريُّ، سكن (مرو) يروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه. روى عنه ابنُ المبارك وأبو جعفر الرَّازي، والنَّاس يتَّقون حديثه ما كان من رواية أبي جعفر عنه؛ لأنَّ فيها اضطرابًا كثيرًا. الثِّقات، لابن حبان (٤/ ٢٢٨)، وقال الذَّهبي في (سير أعلام النُّبلاء): «الرَّبيعُ بن أنس بن زياد البكريُّ، الخراسانيُّ، المروزيُّ، بصريٌّ، سمع أنس بن مالك رضي الله عنه، وأبا العالية الرِّياحي وأكثر عنه، والحسن البصري. وعنه سليمان التَّيمي، والأعمش، والحسين بن واقد، وأبو جعفر الرَّازي، وعبد العزيز بن مسلم، وابن المبارك وآخرون. وكان عالِمَ (مرو) في زمانه. وقد روى اللَّيث عن عبيد الله بن زحر عنه. ولقيه سفيان الثَّوري. قال أبو حاتم: صدوق، وقال ابن أبي داود: سجن بمرو (ثلاثين) سنة. قلت: سجنه أبو مسلم (تسعة) أعوام، وتحيل ابن المبارك حتَّى دخل إليه فسمع منه. يقال: توفي سنة (تسع وثلاثين ومئة). حديثه في السُّنن الأربعة». سير أعلام النُّبلاء (٦/ ١٧٠)، وانظر: طبقات المفسِّرين، للأدنروي (ص:١٦)، تقريب التَّهذيب (ص:٣١٨)، مشاهير علماء الأمصار (١/ ٢٠٣)، الأنساب، للسَّمعاني (٣/ ٢٣٨).

(٢) أورده أيضا ابنُ أبي حاتم في (تفسيره) (٦/ ١٩٨٠) حيث قال: «حدَّثنا أبو سعد الأشج، حدَّثنا الفضل بن دكين عن أبي جعفر الرَّازي عن الرَّبيع بن أنس عن أبي العالية: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ .قال : دعا موسى وأمَّن هارون. وروى عن أبي صالح مثله. وروي عن عكرمة ومحمَّد بن كعبٍ القرظي والرَّبيع بن أنس نحو ذلك»اهـ. والحاصل أنَّ الحديث أخرجه ابنُ جرير عن محمَّد بن كعبٍ القرظيِّ قال: دعا موسى وأمَّن هارون، وأخرج ابنُ جرير عن أبي صالح وأبي العالية والرَّبيع مثله. انظر: تفسير الطَّبري (١١/ ١٦٠-١٦١)، والدُّر المنثور (٤/ ٣٨٥)، وكذلك سعيد بن منصور. انظر: التَّفسير من سنن سعيد بن منصور (٥/ ٣٣١).

الاثنين، وأنشد في ذلك:

(فَقُلْتُ لِصَاحِبي لا تُعْجَلانَا بِنَزْعِ أُصُولِهِ وَاجْتَزَّ شِيحَا)[١].

وقال القرطبيُّ: «وقال (أهل المعاني): ربَّما خاطبت العربُ الواحدَ بخطاب الاثنين، قال الشَّاعر: فَقُلْتُ لِصَاحِبي لا تُعْجَلانَا....»[٢].

أقول: إنَّ المعنى يستقيم في كلا الحالين المذكورين، لكنَّ الثاني أقرب إلى الصِّحة، حيث إنَّ موسى عليه السلام هو الَّذي باشر الدُّعاء بألفاظه، فهنا ينبغي النَّظر إلى التَّساؤلات التَّالية:

أوَّلاً: من قال: إنَّ الدَّاعي هو موسى عليه السلام -وهو من خطاب

---

(١) بتصرُّف عن (تفسير الطَّبري) (١١/ ١٦٠-١٦١). وهذا البيت من الوافر، وهو من كلمة لمضرس بن ربعي الفقعسيِّ الأسديِّ، وأوَّلها قوله:

(وضيف جاءنا واللَّيلُ داجٍ وريح القر تحفز منه روحا).

وقوله: (واللَّيل داج) معناه: مظلم، و(القر)-بالضَّم-: البرد، و(تحفز): تدفع، وقوله: (فقلت لصاحبي.. إلخ): خاطب الواحد بخطاب الاثنين في قوله: (لا تحبسانا)، ثمَّ عاد إلى الإفراد في قوله: (وَاجْتَزَّ شِيحَا). وليس هذا بأبعد من قول سويد بن كراع العكلي:

(فإنْ تزجُراني يا ابن عَفَّانَ أنْزَجِرْ وإنْ تَدَعاني أحْمِ عِرْضا مُمنَّعا).

ويروى في بيت الشَّاهد: (فقلت لحاطبي لا تحبسني). والكلام على هذه الرِّواية جار على مَهْيَع واحد. والمعنى: (لا تؤخرنا عن شيِّ اللَّحم بتشاغلك بنزع أصول الحطب)، بل اكتف بقطع ما فوق وجه الأرض منه. الصَّاحبي (ص:١٨٦)، ابن يعيش (١٠/ ٤٩)، واللِّسان مادَّة: (جزز)، (٥/ ٣١٩)، الصِّحاح، مادَّة: (جزر) (٤/ ٦)، تاج العروس (١٥/ ٥٩). وانظر: معاني القرآن، للفرَّاء (١/ ٤٧٧-٤٧٨)، (٣/ ٧٨-٧٩).

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ٣٧٦)، وانظر: الكشف والبيان (٥/ ١٤٥)، تفسير ابن عادل (١٨/ ٣٠)، القرطبي (٨/ ٣٧٦)، زاد المسير (٨/ ١٥).

الواحد بلفظ الاثنين- نظر إلى ظاهر قول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨]، ولم ينظر ما قاله السَّلف في بيان المعنى، هذا أوَّلا..

ثانيًا: يُنْظَر هل أمَّن هارون عليه السلام على دعاءِ موسى أم لم يؤمِّن؟

ثالثًا: هل يجوز أنَّ هارون عليه السلام قد دعا بمثل ما دعا به موسى عليه السلام؟

أقول: حقيق أنَّ ما أورده الطَّبريُّ في (تفسيره) من الرِّوايات وكذلك ابنُ كثير[١] يدلُّ على أنَّ هارون عليه السلام قد أمَّن على دعاء موسى عليه السلام.

وكذلك ما أورده سعيد بن منصور في (سننه): «كان موسى عليه السلام يدعو وهارونُ يؤمِّن، والدَّاعي والمؤمن شريكان»[٢].

---

(١) سبق إيجاز ما ذكره الطَّبري من الرِّوايات، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢٢-٥٢٣).

(٢) ونصُّ ما جاء في (سنن سعيد بن منصور): حدَّثنا سعيد، قال: حدثنا أبو معشر عن محمَّد بن كعب، قال: قال موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ قال الله عز وجل: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾، قال كان موسى يدعو، وهارون يؤمِّن، والدَّاعي والمؤمِّن شريكان. التَّفسير من سننِ سعيد بن منصور، رقم [١٠٧٥]، (٥/ ٣٣١)، وانظر: تفسير الطَّبري (١١/ ١٦١)، القرطبي (١/ ١٣٠)، وانظر: فيض القدبر (١/ ٥٥٦)، وتاريخ الطَّبري (١/ ٢٤٥).

أقول: ويدلُّ عليه العطفُ بالفاء، ووحدةُ الخطاب الَّذي جاء بصيغة التَّثنية، والَّذي تضمَّن شيئا آخر بعد الدُّعاء، فلا حاجة لتكلُّفِ تفكيكه، وهو الموافق لظاهر النَّص، ولما ورد من الرِّوايات.

قال الآلوسيُّ: «هو خطابٌ لموسى وهارون -عليهما السَّلام-. وظاهره أنَّ هارون عليه السلام دعا بمثل ما دعا موسى عليه السلام حقيقةً، لكن اكتفى بنقل دعاء موسى عليه السلام؛ لكونه الرَّسول بالاستقلال عن نقل دعائه، وأشرك بالبشارة إظهارًا لشرفه عليه السلام، ويحتمل أنَّه لم يدع حقيقة، لكن أضيفت الدَّعوة إليه أيضًا بناءً على أنَّ دعوة موسى عليه السلام في حكم دعوته لمكان كونه تابعًا ووزيرًا له، والَّذي تضافرت به الآثار أنَّه عليه السلام كان يؤمِّن لدعاء أخيه، والتَّأمين دعاء»[(١)].

وفي (غرائب القرآن): «ويجوز أن يكونا جميعًا يدعوان إلا أنَّه خصَّ موسى عليه السلام بالذِّكر في الآية؛ لأصالته في الرِّسالة، والمعنى أنَّ دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن، ولكن في وقته»[(٢)].

ومما يستفاد من الآية من حيثُ مفهومها الرَّاجح -لما ذُكِر- ما ذكره الحافظُ ابن كثير في (تفسيره) حيث قال: «إنَّ تأمينَ المأموم على قراءة الفاتحة يُنَـزَّلُ منـزلة قراءتها؛ لأنَّ موسى عليه السلام دعا وهارون عليه

(١) روح المعاني (١١/ ١٧٤)، وانظر: تفسير ابن عادل (١٠/ ٤٠١)، البحر المحيط (٥/ ١٨٦)، السِّراج المنير (٢/ ٣٧)، تفسير السَّمعاني (٢/ ٤٠١)، القرطبي (١/ ١٣٠).
(٢) غرائب القرآن (٣/ ٦٠٧)، وانظر: فتح القدير (٢/ ٦٧٩).

السلام أمَّن، وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾»[١]. يعني أنَّ الله ﷻ قد استجاب دعاء الدَّاعي والمؤمِّن.

وقريب من دليل التَّرجيح -الَّذي ذكرتُه- ما ذكره أبو حيَّانَ في (البحر)، حيثُ قال: «كان موسى عليه السلام يدعو وهارون عليه السلام يؤمِّن فنسب الدَّعوة إليهما، ويمكن أن يكونا دعوا. ويبعد قول من قال: كنَّى عن الواحد بلفظ التَّثنية؛ لأنَّ الآية تضمَّنت بعد مخاطبتهما في غير شيء»[٢].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ١٩-٢٢]، وإنَّما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب[٣].

ولا بدَّ هنا من التَّعقيب على ما ذكره غيرُ واحدٍ من المفسِّرين في تفسير هذه الآية، أعني قوله ﷻ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ يراد به البحر الملح خاصَّة دون العذب، وهو غلطٌ كبير، ولا يجوز

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٠).

(٢) البحر المحيط (٥/ ١٨٦).

(٣) انظر: تفسير الطَّبري (٨/ ٣٦)، (١٥/ ٢٧٣)، وتفسير القرطبي (٧/ ٨٦)، (١٦/ ٢٩)، وابن كثير (٤/ ٢٧٣)، وروح المعاني (١/ ٢٧٣)، والبغوي (١/ ٧٨)، (٢/ ١٣٢)، (٣/ ٥٦٨).

القول به؛ لأنَّه مخالفٌ مخالفةً صريحة لكلام الله ﷻ؛ لأنَّ الله ﷻ ذكر البحرين الملح والعذب بقوله ﷻ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]، ثمَّ صرَّح باستخراج اللُّؤلؤ والمرجان منهما جميعا بقوله ﷻ: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ ، والحلية المذكورة هي اللُّؤلؤ والمرجان، فقصره على الملح مناقضٌ للآية.

ولقد تعقَّب الشَّيخ الشِّنقيطي في (أضواء البيان) من ذكر ذلك من المفسِّرين، حيث قال: «اعلم أنَّ جماعة من أهل العلم قالوا: إنَّ المراد بقوله في هذه الآية ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ ، أي: من مجموعهما الصَّادق بالبحر الملح، وأنَّ الآية من إطلاق المجموع وإرادة بعضه، وأنَّ اللُّؤلؤ والمرجان لا يخرجان من البحر الملح وحده دون العذب.

وهذا القول الَّذي قالوه في هذه الآية مع كثرتهم وجلالتهم لا شكَّ في بطلانه؛ لأنَّ الله ﷻ صرَّح بنقيضه في (سورة فاطر). ولا شكَّ أنَّ كلَّ ما ناقض القرآن فهو باطلٌ، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ ، فالتَّنوين في قوله: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ تنوينُ عِوَضٍ، أي: من كلِّ واحدٍ من العذب والملح تأكلون لحمًا طريًّا وتستخرجون حليةً تلبسونها، وهي اللُّؤلؤ والمرجان، وهذا ممَّا لا نزاع فيه. [قال:] وقد أوضحنا هذا في (سورة الأنعام) في الكلام على قوله

وَعَجَلًّ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٠]»[١].

ويترجَّح ما ذكره الشَّيخ الشِّنقيطي على ما ذكره المفسِّرون؛ لأنَّه يتَّفق مع الظَّاهر، وقول غيره مخالفٌ للظَّاهر[٢].

❊ ❊ ❊

(١) أضواء البيان (٧/ ٥٠٠)، وانظر أيضًا: أضواء البيان (١/ ٤٣٩).

(٢) وبيان ذلك: إنَّ قوله عز وجل: ﴿مِّنۡهُمَا﴾ أضاف الخروج إلى البحرين العذب والمالح. وقد قيل: إنَّ اللُّؤلؤ لا يخرج إلا من المالح، ولا يخرج من العذب، والَّذين قالوا بهذا اضَّطربوا في معنى الآية: كيف يقول الله: ﴿مِنۡهُمَا﴾ وهو من أحدهما؟ فأجابوا: بأنَّ هذا من باب التَّغليب، أي: أن يغلَّب أحد الجانبين على الآخر مثلما يقال: (العمران) لـ: أبي بكر وعمر، ويقال: (القمران) للشَّمس والقمر، فهذا من باب التَّغليب، والمراد من واحدٍ منهما. وقال بعضهم: بل هذا على حذف مضاف والتَّقدير (منهما)، أي: من أحدهما. وهناك قولٌ ثالث: أن تبقى الآية على ظاهرها لا تغليب ولا حذف، ويكون: (منهما) أي: منهما جميعًا اللؤلؤ والمرجان.. فبأيِّ هذه الأقوال الثَّلاثة نأخذ؟ لا شكَّ أنَّنا نأخذ بما يوافق ظاهر القرآن، فالله عز وجل يقول: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا﴾ فالله عز وجل خالقهما، وهو يعلم ماذا يخرج منهما، فإذا كانت الآية ظاهرها أنَّ اللُّؤلؤ والمرجان يخرج منهما جميعًا وجب الأخذ بظاهره. والقاعدة أنَّنا نحمل الشَّيء على ظاهره ولا نؤوِّل، اللهمَّ إلا إذا كان هناك ضرورة لا بدَّ أن نسير على ما تقتضيه الضَّرورة، أمَّا بدون ضرورة فيجب أن نحمل القرآن والسُّنة على ظاهرهما. وقد قرأتُ مقالاتٍ متفرِّقة تدلُّ على موافقة ما قاله الشَّيخ فتحًا للواقع، ولكنَّها تحتاج إلى توثيق علمي. ولذلك فإنَّني أكتفي بما ذكرتُ من وجه التَّرجيح؛ ولأنَّ ذلك المحذور الَّذي جعلهم يعدلون عن الظَّاهر لا دليل عليه، فعدم الوجدان منهم لا يستلزم عدم الوجود...

المطلب الرَّابع: خطاب الاثنين بلفظ الواحد

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٣٧]، وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ [طه:١٢٢]:

ولم يقل: (عليهما)؛ اكتفاءً بالخبر عن أحدهما بالدِّلالة عليه[١].

وقيل: اكتفى بذكر آدم عليه السلام؛ لأنَّ حواء كانت تبعًا له في الحكم، ولذلك طوي ذكر النِّساء في أكثر القرآن والسُّنة[٢].

وأصل (التَّوبة) الرُّجوع[٣]. فالتَّوبة من آدم عليه السلام رجوعه عن المعصية، وهي من الله ﷻ رجوعه عليه بالرَّحمة والثَّواب الَّذي كلَّما تكرَّرت توبة العبد تكرَّر قبوله، وإنَّما لم تذكر حواء في التَّوبة؛ لأنَّه لم يجر لها ذكرٌ، لا أنَّ توبتها لم تقبل.

وقال قوم: إذا كان معنى فعل الاثنين واحدٌ جاز أن يذكر أحدهما، ويكون المعنى لهما كقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٤١).

(٢) انظر: الكشاف (١/ ٢٧٤)، روح المعاني (١٦/ ٢٧٥)، تفسير أبي السُّعود (١/ ٩٢)، تفسير البيضاوي (١/ ٣٠٠).

(٣) انظر: زاد المسير (١/ ٧٠)، التِّبيان في تفسير غريب القرآن، للجياني (ص:٧٩)، البحر المحيط (١/ ٣١٢)، ابن عادل (١٠/ ٢٣٤)، الخازن (٣/ ١٦٤).

[التوبة: ٦٢]، وقوله ﷻ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧][(١)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]، فكأنَّهم أجمعوا وسئموا من أكلِ المنِّ والسَّلوى، وإنما قال: ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ وهما اثنان؛ لأنَّ العرب تعبِّر عن الاثنينِ بلفظ الواحد كما تُعبِّر عن الواحدِ بلفظِ الاثنين. وقيل: كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فكانا كطعامٍ واحد. وقال عبدُ الرَّحمن بن زيد بن أسلم[(٢)]: كانوا يعجنون المنَّ بالسَّلوى فيصيران واحدا[(٣)].

وذلك أنَّهم سئموا من أكل المنِّ والسَّلوى، وإنَّما عبَّر عنهما بطعام واحد

---

(١) انظر: زاد المسير (١/ ٧٠)، وانظر: البحر المحيط (١/ ٣١٩). وتوبة الله عز وجل على آدم عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، أي: «بسبب تلك الكلمات كما تدلُّ عليه الفاء. والكلمات المذكورة هي المذكورة في سورة: (الأعراف) في قوله عز وجل: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]، وخير ما يفسَّر به القرآن القرآن». أضواء البيان (٤/ ١١٩).

(٢) هو عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب ﷺ القرشيِّ المدينيِّ، ضعَّفه أحمد وغيره. وعن يحيى: ليس حديثه بشيء. وقال أبو داود: أولاد زيد بن أسلم كلُّهم ضعيف، وأمثلهم عبد الله. وقال النَّسائيُّ: ضعيف. وقال أبو زرعة: ضعيف. وقال أبو حاتم: ليس بقويٍّ في الحديث، وكان في نفسه صالحا، وفي الحديث واهي. وقال ابن عدي: له أحاديث حسان، وهو مَّمن احتمله وصدَّقه بعضهم، وهو ممَّن يُكتب حديثه. مات سنة (ثنتين وثمانين ومائة). روى له التِّرمذيُّ، وابن ماجه، وأبو جعفرٍ الطَّحاويُّ. مات (سنة ثنتين وثمانين). تقريب التَّهذيب (ص: ٥٧٨)، تهذيب الكمال (١٧/ ١١٤-١١٦)، التَّاريخ الكبير (٥/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٣) انظر: تفسير البغوي (١/ ٧٧-٧٨)، تفسير السَّمعاني (١/ ٨٥)، الكشف والبيان (١/ ٢٠٤-٢٠٥)، تفسير القرطبي (١/ ٤٢٢).

لعدم تبدُّلهما كقول العرب: (طعامُ مائدةِ الأميرِ واحدٌ)، يريدون أنَّه لا يتغيَّر ألوانه، أو لأنَّ العرب تعبِّر عن الاثنين بلفظ الواحد[١].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾ [طه: ٤٩]، أي: (ويا هارون)، وهو من خطابِ الاثنين بلفظ الواحد، وفيه وجهان:

أحدُهما: أنَّه أفرده بالنِّداء؛ لإدلاله عليه بالتَّربية. والآخرُ؛ لأنَّه صاحبُ الرِّسالة والآيات، وهارون عليه السلام تبعٌ له.

«فخاطبَ موسى عليه السلام وحده بقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ ، وقد وجَّه الكلام قبل ذلك إلى موسى وأخيه. وإنما فعل ذلك كذلك؛ لأنَّ المجاوبة إنَّما تكون من الواحد وإن كان الخطاب بالجماعة لا من الجميع، وذلك نظير قوله ﷻ: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١]. وكان الَّذي يحمل الحوت واحد، وهو فتى موسى عليه السلام، يدلُّ على ذلك قوله ﷻ: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]»[٢].

وقيل: ذكر فرعون موسى عليه السلام دون هارون عليه السلام لرؤوس الآي[٣].

وقيل: خصَّصه بالذِّكر؛ لأنَّه صاحبُ الرِّسالة والكلام، ولزيمُ

(١) السِّراج المنير (١/ ٧٤)، روح المعاني (١/ ٢٧٣)، البيضاوي (١/ ٣٣١)، البحر المديد (١/ ٩١).
(٢) تفسير الطَّبري (١٦/ ١٧١).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (١١/ ٢٠٤)، الكشف والبيان، للثَّعلبي (٦/ ٢٤٦) .

الآيات[١].

وقيل: «إنَّهما جميعًا بلَّغا الرِّسالة -وإن كان ساكتا-؛ لأنَّه في وقت الكلام إنما يتكلَّم واحدٌ، فإذا انقطع وَازَرَهُ الآخرُ وأيَّدَه فصار لنا في هذا البناء فائدةُ علم أنَّ الاثنين إذا قُلِّدا أمرًا فقام به أحدهما، والآخر شخصه هناك موجود، مستغنىً عنه في وقت دون وقت أنَّهما أدَّيا الأمر الَّذي قلِّدا وقاما به، واستوجبا الثَّواب؛ لأنَّ الله ﷻ قال: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ [طه:٤٣]، وقال: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ [طه:٤٢]، وقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ﴾ [طه:٤٤]، فأمرهما جميعا بالذَّهاب وبالقول، ثمَّ أعلمنا في وقت الخطاب بقوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ أنَّه كان حاضرا مع موسى عليه السلام»[٢] .

وذكر الزَّمخشريُّ في (الكشاف) «أنَّ هارون عليه السلام لما كان أفصح من موسى عليه السلام نكب فرعون عن خطابه حذرًا من لسانه، أو لأنَّ موسى عليه السلام هو الأصل في النُّبوة، وهارون عليه السلام

---

(١) انظر: تفسير ابن عطيَّة (٤/ ٤٦)، تفسير القرطبي (١١/ ٢٠٤)، الإتقان (٢/ ٩٠). ونصُّ عبارة ابن عطيَّة في (المحرَّر الوجيز): «قوله عز وجل: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ بعد جمعه مع هارون في الضَّمير، نداء بمعنى التَّخصيص والتَّوقيف؛ إذ كان صاحب عظم الرِّسالة ولزيم الآيات». المحرَّر الوجيز (٤/ ٤٦). وقد قال البغويُّ: «ولم يقل: (رسولا ربِّ العالمين)؛ لأنَّه أراد (الرِّسالة)، أي: أنا ذو رسالة ربِّ العالمين». تفسير البغوي (٣/ ٣٨٢)، (٣/ ٣٧٩)، (٤/ ٢٢٢)، فتح القدير (٤/ ٩٥)، (٤/ ٩٦)، وزاد المسير (٦/ ١١٨)، تفسير السَّمعاني (٤/ ٤٠).

(٢) تفسير القرطبي (١١/ ٢٠٤).

وزيره وتابعه»[(١)].

وقد أجمل الشَّيخ الشِّنقيطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أقوال المفسِّرين حيث قال: «قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ يقتضي أنَّ المخاطَب اثنان، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ يقتضي أنَّ المخاطَب واحد، والجواب من ثلاثة أوجه:

الأوَّل: أنَّ فرعون أراد خطاب موسى عليه السلام وحده، والمخاطَب إن اشترك معه في الكلام غير مخاطَب غُلِّبَ المخاطَبُ على غيره، كما لو خاطبتَ رجلا اشترك معه آخرُ في شأنٍ، والثَّاني غائبٌ فإنَّك تقول للحاضر منهما: (ما بالكما فعلتما كذا؟) والمخاطَب واحدٌ، وهذا ظاهرٌ.

الوجه الثَّاني: أنَّه خاطبهما معًا، وخصَّ موسى عليه السلام بالنِّداء؛ لكونه الأصلَ في الرِّسالة.

الثَّالث: أنَّه خاطبهما معًا، وخصَّ موسى عليه السلام بالنِّداء؛ لمطابقةِ رؤوسِ الآي مع ظهور المراد. ونظيرُ الآيةِ قولُه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١١٧]، ويجاب عنه بأنَّ المرأةَ تبعٌ لزوجها، وبأنَّ شقاءَ الكَدِّ والعمل يتولَّاه الرِّجال أكثر من النِّساء، وبأنَّ الخطاب لآدم عليه السلام وحده، والمرأةُ ذكرت فيما خوطب به آدم عليه السلام بدليل قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه:١١٧] فهي ذكرت فيما خوطب به آدم عليه السلام، والمخاطب عند الله عَزَّ وَجَلَّ»[(٢)].

---

(١) انظر: الكشاف (٢/ ٥٣١).

(٢) دفعُ إيهام الاضِّطراب عن آيات الكتاب، محمَّد الأمين الشِّنقيطيّ، العددُ الرَّابع، (ص:١٥).

قال ابنُ عطيَّة في قوله ﷻ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ ، «أفرده بالشَّقاء لأنَّه المخاطبُ أَوَّلا[١]، والمقصود في الكلام. وقيل: لأنَّ الله ﷻ جعل الشَّقاء في معيشة الدُّنيا في جانب الرِّجال. وقيل: إغضاء عن ذكر المرأة كما قيل: (من الكَرَم سَتْرُ الْحُرَم)»[٢].

و«قوله ﷻ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ أي: لا يقعُ منكما طاعةٌ له في إغوائه فيكون ذلك سبب خروجكما ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ ، ثمَّ خصص بقوله ﷻ: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ من حيث كان المخاطَب أوَّلا ، والمقصود في الكلام. وقيل: بل ذلك؛ لأنَّ الله ﷻ جعل الشَّقاء في معيشة الدُّنيا في حيز الرِّجال»[٣].

ومنهم -كالزَّركشي في (البرهان)[٤]- من جعل من ذلك قوله ﷻ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦].

وذهب الأخفشُ أيضا إلى أنَّه واحد يدلُّ على اثنين وجمع..

قال: «وهذا يشبه أن يكون مثل: (العَدُوّ)، وتقول: (هما عَدُوٌّ لي)»[٥].

ومما قيل في تفسير قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]،

---

(١) يعني في صدر الآية: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه: ١١٧].

(٢) تفسير ابن عطيَّة (المحرَّر الوجيز) (٤ / ٦٧)، وانظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٤١)، الإتقان (٢/ ٩١).

(٣) تفسير ابن عطيَّة (٤/ ٦٧).

(٤) البرهان (٢/ ٢٤١) .

(٥) انظر: معاني القرآن، للأخفش (ص: ٥٤٧-٥٤٨)، وانظر: معاني القرآن، للنَّحاس (٥/ ٦٨) .

وقوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان:٧٤] ما قاله الفرَّاء، قال: «﴿إِمَامًا﴾ ولم يقل: (أئمَّة) كما قال للاثنين: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني أنَّه من الواحد الَّذي أريد به الجمع»[١].

أمَّا ما يترجَّح عندي أنَّه ﷻ لم يقل: (رسل)؛ لأنَّ (فعولا) و(فعيلا) يستوي فيهما المذكَّر والمؤنث والواحد والجمع مثل: (عدو) و(صديق)[٢].

وفي (أسرار التَّكرار) للكرماني: «قوله ﷻ: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه:٤٧]، وبعده: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ؛ لأنَّ (الرَّسول) مصدر يسمَّى به فحيث وحده حمله على المصدر، وحيث ثني حمل على الاسم. ويجوز أن يقال: حيث وحد حمل على الرِّسالة؛ لأنهما أرسلا لشيءٍ واحد، وحيث ثني حمل على الشَّخصين»[٣].

والحاصل أنَّه لم يثنِّ الرَّسول كما ثنى في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ؛ لأنَّ (الرَّسول) يكون بمعنى (المرسل)، وبمعنى (الرِّسالة)، فجعل ثمة بمعنى (المرسل) فلم يكن بد من تثنيته، وجعل هنا بمعنى

---

(١) معاني القرآن، للفرَّاء (٢/ ٢٧٤، زاد المسير (٦/ ١١١)، فتح القدير (٤/ ٨٩).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (١٩/ ٦٥)، القرطبي (١٧/ ١٠)، وانظر: لسان العرب، مادَّة: (رسل)، (١١/ ٢٨١)، تاج العروس، (٢٩/ ٧٤)، والصِّحاح (٤/ ١٧٠٩)، ومختار الصِّحاح (ص: ٢٦٧).

(٣) أسرار التَّكرار في القرآن الكريم (ص: ١٤٠)، وانظر: الكشاف (٣/ ١٠٧)، وانظر: تفسير النَّسفي (٣/ ٢٦٣)، تفسير البيضاوي (٤/ ٢٣٤)، الخازن (٥/ ١١٥)، السِّراج المنير (٣/ ٤٠) .

(الرِّسالة) فيستوي في الوصف به الواحد والتَّثنية والجمع؛ ولأنَّهما لاتحادهما واتفاقهما على شريعةٍ واحدة كأنَّهما رسولٌ واحد، أو أريد أن كلَّ واحدٍ منَّا أرسل لتضمُّن (الرَّسول) معنى (الإرسال).

ومن المفرد المراد به المثنى ما قيل في قوله ﷻ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ٩-١٠]. فمما قيل: أصله: (قابَيْ قوس) أو (قَابَيْ قوسين)، بتثنية أحد اللفظين المضاف والمضاف إليه، أو كليهما، فوقع إفراد أحد اللفظين أو كليهما تجنبًا لثقل المثنى كما في قوله ﷻ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، أي: قلباكما..[1] .

ومما سبق يتبيَّن أنَّ مثل هذا اللَّون من ألوان الخطاب فيه: الإيجاز والتَّجنُّب لثقل المعنى، وفيه: التَّلوين. ويقال فيه ما قيل في سابقه من حيث التَّنوع..وفيه أيضًا من المعنى ما قد يدلُّ على تميُّز الواحد، حيثُ يشعر اللَّفظ بأنَّ الآخر تبعٌ له..وذلك كلُّه ممَّا يدلُّ على بلاغة ألفاظه.



(١) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٧/ ٩٧)، القرطبي (١٧/ ٩٠)، روح المعاني (٢٧/ ٤٨)، القاسمي (٦/ ٣٦٣)، الكليَّات (ص: ٧٣٨)، مغني اللَّبيب (ص: ٨١٥)، و(٩١٤) .

المطلب الخامس: خطاب الاثنين بلفظ الجمع

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: ١٢٣]: أنَّه خطاب آدم عليه السلام وإبليس، أو لآدم عليه السلام وحواء(١).

قال الزَّمخشريُّ: «﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ [البقرة: ٣٦] خطاب لآدم عليه السلام وحواء وإبليس. وقيل: والحيَّة. والصَّحيحُ أنَّه لآدم عليه السلام وحواء، والمرادُ هما وذرِّيتهما(٢)؛ لأنَّهما لمَّا كانا أصل الإنس ومتشعَّبهم جُعلا كأنَّهما الإنس كلُّهم. والدَّليل عليه قوله ﷻ: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾. ويدلُّ على ذلك قوله ﷻ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]»(٣).

قال الحافظُ ابنُ كثير: «قيل: المراد بالخطاب في ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ [البقرة: ٣٦]: آدم عليه السلام وحواء وإبليس والحيَّة، ومنهم من لم يذكر الحيَّة -والله أعلم-. والعمدة في العداوة آدم وإبليس، ولهذا قال ﷻ: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الآية، وحواءُ تبعٌ لآدم عليه السلام،

---

(١) انظر: تفسير القرطبيِّ (١١/ ٢٥٨)، زاد المسير (١/ ٦٨)، (٥/ ٣٣٠)، روح المعاني (٨/ ١٠٢)، معاني القرآن، للفرَّاء (١/ ٣١).

(٢) وهذا قول الفرَّاء في (معاني القرآن) (١/ ٣١)، وقد رجَّحه الزَّمخشريُّ في (الكشاف) (١/ ٢٧٤). وفيه (خطاب المعدوم)، وسيأتي.

(٣) انظر: الكشاف (١/ ٢٧٤)، وانظر: البحر المحيط (١/ ١٣٦)، ابن عادل (١/ ٥٦٩).

والحيَّة إن كان ذكرها صحيحًا فهي تبعٌ لإبليس. وقد ذكر المفسِّرون الأماكن الَّتي هبط فيها كلٌّ منهم، ويرجعُ حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليَّات -والله أعلم بصحَّتها-، ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود إلى المكلَّفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله ﷻ في كتابه أو رسوله ﷺ»[1].

وأمَّا حمله على أنَّ أقلَّ الجمع اثنين، وأنَّ ضمير الجمع هنا بمعنى ضمير التَّثنية فبعيد؛ لأنَّ كون أقلَّ الجمع اثنين مرجوح. وأمَّا قوله ﷻ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] فإنَّ الأفصح في المتعدِّد إذا أضيف إلى متعدِّد أن يكون بلفظ الجمع، وإن كان المراد به اثنين.

والتحقيق أن التثنية باعتبار آدم وحَوَّاء فقط، والجمع باعتبارهما مع ذريتهما. خلافًا لمن زعم أن التثنية باعتبار آدم وإبليس، والجمع باعتبار معهم ذريتهما معهما، وخلافًا لمن زعم أن الجمع في قوله: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾، مراد به آدم وحواء وإبليس والحَية. والدليل على أن الحية ليست مرادة في ذلك هو أنها لا تدخل في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾؛ لأنها غير مكلفة[2].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٢) أضواء البيان (٤/ ١٢٠).

ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢٢].. فقد قرأَ عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿والله وليهم﴾ فرجع بهما على الجمع، حيث أعاد الضَّمير على المعنى لا على لفظ التَّثنية كقوله عز وجل: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩][1].

وإنما جاز أن يقرأ ذلك كذلك؛ لأنَّ (الطَّائفتين) وإن كانتا في لفظ اثنين، فإنَّهما في معنى جماع، بمنـزلة: (الخصمين) و(الحزبين)[2].

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ [النساء: ١٦]. فقد قرأ عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: (والَّذين يفعلونه منكم)[3]، وهي قراءةٌ مخالفةٌ لسواد مصحف الإمام، ومتدافعةٌ مع ما بعدها؛ إذ هذا جمع، وضمير جمع، وما بعدهما ضمير تثنية، لكنَّه يتكلَّف له تأويل بأنَّ الَّذين جمع تحته صنفا الذُّكور والإناث، فعاد الضَّمير بعده مثنى باعتبار الصَّنفين، كما عاد الضَّمير مجموعا على المثنى باعتبار أنَّ المثنى تحتهما أفراد كثيرة هي في معنى الجمع في قوله عز وجل: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟﴾ [الحج: ١٩]. والأولى

---

(١) انظر: البحر المحيط (٣/ ٥١)، الكشاف (١/ ٤٦١)، معاني القرآن، للفرَّاء (١/ ٢٣٣)، روح المعاني (٤/ ٤٣)، أبو السُّعود (٢/ ٧٩)، المحرَّر الوجيز (١/ ٥٠١)، وانظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر (٨/ ٢٢٥).

(٢) تفسير الطَّبري (٤/ ٧٤).

(٣) انظر: المحرَّر الوجيز (٢/ ٢٢)، البحر المحيط (٣/ ٢٠٧)، ابن عادل (٦/ ٢٤٦)، الدُّر المصون (٢/ ٣٣٢).

اعتقاد قراءة عبد الله أنَّها على جهة التَّفسير، وأنَّ المراد بالتَّثنية العموم في الزُّناة[١].

وفي هذا التَّأويل نظر؛ فإنَّ الفرقَ ثابتٌ؛ لأنَّ (الطائفة) اسمٌ لجماعة، وكذلك (خصم)؛ لأنَّه في الأصل مصدر فأطلق على الجمع. وأصل: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ : (فآذِيُوهما)، فاستثقلت الضَّمة على الياء، فحذفت الياء الَّتي هي لام، وضمَّ ما قبل الواو لتصِحَّ [٢].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]:

فقد جاء في (شرح الكوكب المنير): «روى البيهقِيُّ وابنُ حزم -محتجًّا به- وغيرهما بإسنادٍ جيِّد إلى ابنِ أبي ذئبٍ[٣] عن شعبةَ[٤]

(١) البحر المحيط (٣/ ٢٠٧).

(٢) انظر: الدُّر المصون (٢/ ٣٣٢)، تفسير ابن عادل (٦/ ٢٤٦)، وانظر: المحرَّر الوجيز (٢/ ٢٢).

(٣) هو محمَّد بنُ عبدِ الرَّحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب، أبو الحارث، القرشي العامري المدني، أحد الأئمَّة الأعلام، صاحب الإمام مالك، قال الإمام أحمد عنه: يشبه ابن المسيب، وهو من عبَّاد (المدينة) وقرَّائهم وفقهائهم، توفِّي (بالكوفة) سنة [١٥٩هـ]. انظر ترجمته في (الخلاصة) (٢/ ٤٣١)، مشاهير علماء الأمصار (ص: ١٤٠)، وفيات الأعيان (٣/ ٣٢٣).

(٤) هو شعبةُ بن دينار الهاشميِّ مولى ابن عباس أبو عبدِ الله، ويقال: أبو يحيى المدني. حدَّث عن عبد الله بن عباس. روى عنه محمَّد بن عبد الرَّحمن بن أبي ذئب. وعنه ابن أبي ذئب وصالح بن خوات بن صالح بن خوات، وبكير بن الأشجِّ وداود بن الحصين وغيرهم. قال عبدُ الله بن أحمد عن أبيه: ما أرى به بأسا، واختلف قول ابن معين. وقال الدوريُّ عن ابن معين: ليس به بأس، وقال مالكُ: ليس بثقة. وقال أبو زرعة: ضعيفٌ. وقال النَّسائيُّ: ليس بقويٍّ. انظر: فتح الباب في الكنى والألقاب، للأصفهانيِّ (ص: ٤٦٧)، وانظر: ذكر من اسمه شعبة، للأصفهانيِّ (ص: ٣٣)، المؤتلف والمختلف، للدَّارقطنيِّ (٢/ ٧٨)، تهذيب =

مولى ابن عبَّاس رضي الله عنهما . . .

أنَّه قال لِعثمان رضي الله عنه: إنَّ الأخوين لا يرُدَّان الأمَّ إلى السُّدس. إنَّما قال اللَّه عز وجل: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ ، والأخوانِ في لسان قومك ليسا بإخوة[١]. فقال عثمان رضي الله عنه: «لا أستطيع أن أَنْقُضَ أمرًا كان قبلي، وتوارثَه النَّاس، ومضى في الأمصار»[٢].

ولما حَجَبَ الْقَوْمُ (الأُمَّ) بِالأَخَوَيْنِ دلَّ على أنَّ الآية قصدت الأخوين فما فوق، وهذا دليل صحَّة الإطلاق مجازا. ودليل القائل حقيقة هذه الآية، والأصل الحقيقة[٣].

= التَّهذيب (٤/ ٣٠٣)، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (ص: ١٦٦).

(١) انظر: أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (١/ ٣٤٠)، تفسير الطَّبري (٤/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٢) انظر: السُّنن الكبرى، للبيهقيِّ (٦/ ٢٢٧)، وأخرج أثرَ ابن عباس رضي الله عنهما الحاكمُ في (المستدرك) (٤/ ٣٣٥)، وصحَّحه، ووافقه الذَّهبي، لكن تعقَّبه الحافظ ابن حجر في(التَّلخيص الحبير) (٣/ ٨٥). وانظر: المحلَّى، لابن حزم (٩/ ٢٥٨) .وقال الحافظُ ابنُ كثير: «وفي صحَّة هذا الأثر نظر؛ فإنَّ شعبةَ هذا تكلَّم فيه مالكُ بن أنس، ولو كان هذا صحيحًا عن ابن عباس رضي الله عنهما لذهب إليه أصحابه الأخصاء به، والمنقول عنهم خلافه». تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٠)، وانظر: ميزان الاعتدال (٢/ ٢٧٤)، يحيى ابن معين وكتابه التَّاريخ (٢/ ٢٥٦). وانظر: التَّبصرة (ص: ١٢٨)، اللُّمع (ص: ١٣)، رفعُ الحاجب عن مختصرِ ابن الحاجب (١/ ٩٩)، روضةُ النَّاظر (ص: ٢٣٢)، قواطعُ الأدلَّة (١/ ١٧٢).

(٣) احتجَّ الجمهورُ بقول ابن عباس رضي الله عنهما بأنَّ (أقلَّ الجمع) ثلاثة حقيقة، ولذلك اعترض على عثمان رضي الله عنه، وأقرَّه عثمان رضي الله عنه على ذلك، واستدلُّوا على صحَّة إطلاق الجمع على الاثنين مجازا بالإجماع الَّذي ذكره عثمان رضي الله عنه، وذلك بحملِ اللَّفظ على خلاف الظَّاهر بالإجماع، فدلَّ على صحَّته، وأنَّه ليس حقيقة، وإنما مجاز، وهو ما بيَّنه المصنِّف في (شرحُ الكوكبِ المنير) (٣/ ١٤٨)، وانظر: نزهة الخاطر (٢/ ١٣٩)، مختصر ابن الحاجب والعضد عليه (٢/ ١٠٥)، نهاية السُّول (٢/ ١٠٣)، مناهج العقول (٢/ ٩٩)، تيسير التَّحرير (١/ ٢٠٧).

وعن زيدِ بن ثابت (يسمَّى الأخوان إخوة)[١] رُدَّ بما سبق. وإن صحَّ قول زيد فإنَّ فيه عبدَ الرَّحمن بن أبي الزِّناد[٢] مختلف فيه[٣]، فمراده: مجازًا وفي حَجْبِ الأمِّ[٤].

---

(١) انظر: التَّبصرة (ص:١٢٣)، تيسير التَّحرير (١/ ٢٠٧)، والعدة (٢/ ٦٥٢).

(٢) هو عبدُ الرَّحمن بن أبي الزِّناد عبد الله بن ذكوان، المدنيُّ القرشيُّ مولاهم، أبو محمَّد. قال الذَّهبيُّ: أحدُ العلماء الكبار، وأخير المحدِّثين لهشام بن عروة اهـ. وكان فقيهًا مفتيًا، وكان من الحفَّاظ المكثرين، ولِّي خراج (المدينة)، وقدم (بغداد)، ولقي رجال أبيه، ولم يحدِّث عنهم حتَّى مات أبوه، روى له أصحابُ السُّنن، توفِّي (ببغداد) سنة [١٧٤هـ]. انظر: طبقات الحفَّاظ (ص:١٠٦)، الخلاصة (ص:٢٢٧)، ميزان الاعتدال (٢/ ٥٧٥).

(٣) قال يحيى ابنُ معين: وابن أبي الزِّناد لا يحتجُّ بحديثه. وقال أيضا: ما حدَّث (بالمدينة) فهو صحيح. وقال يعقوبُ بن شيبة عنه: ثقةٌ صدوقٌ فيه ضعف. وقال ابنُ عدي: بعض ما يرويه لا يتابع عليه. وقال أحمدُ: مضَّطرب الحديث، ووثَّقه مالك، وضعَّفه النَّسائيُّ. وقال الذَّهبيُّ: وقد مشَّاهُ جماعة وعدَّلوه، وكان من الحفَّاظ المكثرين. انظر: يحيى ابن معين وكتابه التَّاريخ (٢/ ٣٤٧)، ميزانُ الاعتدال (٢/ ٥٧٦)، الخلاصة (ص:٢٢٧).

(٤) شرح الكوكب المنير (٣/ ١٤٦-١٤٨) وانظر: التَّبصرة (ص:١٢٩)، كشف الأسرار (٢/ ٨٢)، فواتح الرَّحموت (١/ ٢٧٠)، العدَّة (٢/ ٦٥٢). وقال ابنُ العربي في (أحكام القرآن الكريم) في التَّعقيب على قول ابن عباس ﵄: «﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾، والأخوان في لسان قومك ليسا بأخوة؟ فقال عثمان: هل أستطيعُ نقضَ أمر قد كان قبلي وتوارثه النَّاس، ومضى في الأمصار؟! وقول ابن عباس في هذا غير مأخوذ به. وأمَّا الآية فإنَّ العرب توقع اسم الجمع على التَّثنية. وقوله عز وجل: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ [النِّساء:١١]، هذا قول يقتضي بظاهره أنَّه إذا كان له (ثلاثة) إخوة أنهم يحجبونها (حجب نقصان) بلا خلاف، وإن كانا (أخوين) فروي عن ابن عباس أنهما لا يحجبانها، وغرضه ظاهر، فإنَّ الجمع خلاف التَّثنية لفظا وصيغة، وهذه صيغة الجمع فلا مدخل لها في التَّثنية. ومن يعجب فعجبٌ أن يخفى على حبر الأمَّة، وترجمان القرآن، ودليل التَّأويل، عبدَ الله بن عباس مسألتان: إحداهما: هذه المسألة، والأخرى: مسألة العول. وعضد هذا الظَّاهر بأن =

. . . .

= قال: إنَّ الأم أخذت الثُّلث بالنَّص، فكيف يسقط النَّص بمحتمل؟! وهذا المنحى مائل عن سنن الصَّواب. ولعلمائنا في ذلك سبيل مسلوكة نذكرها، ونبيِّن الحقَّ فيها إن شاء الله عز وجل، وذلك من ثلاثة أوجه: الأوَّل: أنَّه ينطلق لفظ (الإخوة) على (الأخوين)، بل قد ينطلق لفظ الجماعة على الواحد، تقول العرب: (نحن فعلنا)، وتريد القائل لنفسه خاصّة. وقد قال عز وجل: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]، وقال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص: ٢١]، ثمَّ قال: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٢]، وقال: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التَّحريم: ٤]، وقال: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، وقال: ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النَّمل: ٣٥]، والرَّسول واحد، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النُّور: ٢٦]، يعني عائشة. وقيل: عائشة وصفوان. وقال: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وكانا اثنين كما نقل في التَّفسير [وقد بيَّنتُ ذلك في موضعه]، وقال: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠]، وهما طرفان. وقال: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشُّعراء: ١٥]، وقال: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السَّجدة: ١٨]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وكان واحدا. وهذا كلّه صحيحٌ في اللُّغة سائغٌ، لكن إذا قام عليه دليل، فأين الدَّليل؟.[وقد بيَّنتُ ذلك كلٌّ في موضعه]. الثَّاني: أنَّ الله عز وجل قال في ميراث الأخوات: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النِّساء: ١٧٦]، فحمل العلماءُ البنتين على الأختين في الاشتراك في الثُّلثين، وحملوا الأخوات على البنات في الاشتراك في الثُّلثين، وكان هذا نظرًا دقيقًا، وأصلا عظيمًا في الاعتبار، وعليه المعول، وأراد الباري عز وجل بذلك أن يُبيِّن لنا دخولَ القياس في الأحكام. الثَّالث: أنَّ الكلام في ذلك لما وقع بين عثمان وابن عباس رضي الله عنهما، قال له عثمان رضي الله عنه: إنَّ قومك حجبوها -يعني بذلك قريشًا-، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، وهم المخاطَبون والقائمون لذلك، والعاملون به، فإذا ثبت هذا فلا يبقى لنظر ابن عباس وجه؛ لأنَّه إن عوَّل على اللُّغة فغيره من نظائره ومن فوقَه من الصَّحابة أعرفُ بها، وإن عوَّل على المعنى فهو لنا؛ لأنَّ الأختين كالبنتين كما بيَّنا، وليس في الحكم بمذهبنا خروجٌ عن ظاهر الكلام؛ لأنَّا بيَّنا أنَّ في اللُّغة وَرَدَ لفظ الاثنينِ على الجميع». أحكام القرآن، لابن العربي (١/ ٣٤٠) .

ومن ذلك ما قيل في تفسير قول الله ﷻ:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨].

قال الزَّمخشريُّ: «ونحوه: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف، وأريد باليدين اليمينان بدليل قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: **(والسَّارقونَ والسَّارقاتُ فاقطعوا أيمانهم)**»[١]. وعقَّب أبو حيَّان في (البحر) على ما ذكره الزَّمخشريُّ حيث قال: «وسوَّى بين ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ و﴿قُلُوبُكُمَا﴾ وليسا بشيئين؛ لأنَّ باب: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ يطَّرد فيه وضع الجمع موضع التَّثنية، وهو ما كان اثنين من شيئين كالقلب والأنف والوجه والظَّهر، وأمَّا إن كان في كلِّ شيء منهما اثنان كاليدين والأذنين والفخذين، فإنَّ وضع الجمع موضع التَّثنية لا يطَّرد، وإنما يحفظ ولا يقاس عليه؛ لأنَّ الذِّهن إنما يتبادر إذا أطلق الجمع لما يدلُّ عليه لفظه، فلو قيل: (قطعت آذان الزَّيدين)، فظاهره قطع أربع آذان، وهو استعمال اللَّفظ في مدلوله»[٢]. وقال ابن عطيَّة: «جمع الأيدي من حيث كان لكلِّ سارق يمين واحدة، وهي المعرَّضة للقطع في السَّرقة، وللسُّراق أيد، وللسَّارقات أيد، كأنَّه قال: (اقطعوا أيمان النَّوعين)، فالتَّثنية للضَّمير إنما هي للنَّوعين»[٣] .وفي

---

(١)الكشاف (١/ ٦١٢)، وانظر: البحر المحيط (٣/ ٤٩٤)، تفسير ابن عادل (٧/ ٣٢٤)، الدُّر المصون (٢/ ٥٢٠).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٤٩٤)، تفسير ابن عادل (٧/ ٣٢٤)، الدُّر المصون (٢/ ٥٢٠).

(٣) المحرَّر الوجيز (٢/ ١٨٩)، وانظر: البحر المحيط (٣/ ٤٩٤)، وقد ذكر الفرَّاء ذلك مفصَّلا في (معاني القرآن الكريم) (١/ ٣٠٦-٣٠٧)، وانظر: زاد المسير (٢/ ٣٤٩).

(التَّحرير والتَّنوير): «وجمع الأيدي باعتبار أفراد نوع السَّارق. وثنيّ الضَّمير باعتبار الصَّنفين الذَّكر والأنثى، فالجمع هنا مراد منه التَّثنية كقوله ﷻ: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ »[١].

الخلاصة:

لقد جاءَ في قواعد اللُّغة أنَّ كلَّ اثنين أضيفا إلى مُتَضَمِّنِهِمَا يجوز فيه ثلاثة أوجه: الجمع على الأصحِّ، نحو: (قطعتُ رؤوسَ الكبشين)[٢]، ثمَّ الإفراد كرأس الكبشين، ثمَّ التَّثنية كرأسي الكبشين. وإنما رُجِّح الجمع استثقالا؛ لتوالي دَالَّيْنِ على شيء واحد، وهو التَّثنية، وتضمُّن الجمع العدد، بخلاف ما لو أفرد[٣]. وسيأتي في الآية التَّالية مزيد بيان وتوضيح.

وقد قيل ذلك في قوله ﷻ:

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقوله ﷻ: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۚ﴾ [طه: ١٢١].

«فإن قيل: لم جمع السَّوءات في قوله ﷻ: ﴿سَوْءَٰتِهِمَا﴾ مع أنهما سوأتان فقط؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٦/ ١٩٠).

(٢) انظر: المزهر (٢/ ١٧٣)، شرح شذور الذَّهب (ص: ٥٥٣)، الكليَّات (ص: ٥١٥)، همع الهوامع (١/ ١٩٤-١٩٦).

(٣) انظر: حاشية الخضريِّ على شرح ابن عقيل (ص: ٢٢٧)، شرح الأشموني ومعه حاشية الصَّبان (٣/ ٧٤)، وانظر: نزهة الخاطر (٢/ ١٣٧)، العدَّة (٢/ ٦٥٤).

الوجه الأوَّل: أنَّ آدم وحواء كلٌّ واحدٍ منهما له سوءتان: (القبل) و(الدُّبر)، فهي أربع، فكلٌّ منهما يرى قُبُل نفسه، وقُبُل الآخر، ودبره. وعلى هذا فلا إشكال في الجمع.

الوجه الثَّاني: أنَّ المثنى إذا أضيف إليه شيئان هما جزءاه جاز في ذلك المضاف الَّذي هو شيئان: الجمع، والتَّثنية، والإفراد، وأفصحها: الجمع [لما سبق في خاتمة الآية السَّابقة]، فالإفراد، فالتَّثنية على الأصحِّ، سواء كانت الإضافة لفظًا أو معنى. ومثال اللَّفظ: (شويتُ رؤوس الكبشين أو رأسهما، أو رأسيهما). ومثال المعنى: (قطعتُ من الكبشين الرّؤوس، أو الرَّأس، أو الرَّأسين). فإن فرق المثنى المضاف إليه فالمختار في المضاف الإفراد، نحو: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:٧٨]. ومثال جمع المثنى المضاف المذكور الَّذي هو الأفصح قوله ﷻ: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ،[كما سبق]، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ ، [كما سيأتي].

الوجه الثَّالث: ما ذهب إليه الإمام مالك بن أنس رحمه الله من أنَّ (أقلَّ الجمع) اثنان[1]. قال في (مراقي السُّعود):

(أقل معنى الجمع في المشتهر الاثنان في رأي الإمام الحميري)[2].

وأمَّا إن كان الاثنان المضافان منفصلين عن المثنى المضاف إليه،

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك، ومن قال به من العلماء، وبيان رأي الجمهور .

(٢) مراقي السعود [٣٨٥]، (ص:٥٢)، ونثر الورود (١/ ٢٧٤). وسيأتي. .

أي: كانا غير جزأيه فالقياس الجمع وفاقًا للفرَّاء[١]، كقولك: «**ما أخرجكما من بيوتكما؟**»[٢]، و(إذا أويتما إلى مضاجعكما)[٣]، و(ضرباه بأسيافهما)[٤]، ونحو ذلك[٥].

ومما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. قال ابن العربي: «وكانا اثنين كما نقل في التَّفسير»[٦].

---

(١) انظر: معاني القرآن للفرَّاء (٢/ ٣٠٦-٣٠٧).

(٢) وهذه العبارة جزء من حديث أخرجه مسلم، ونصُّ الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أول ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة، قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوموا». فقاموا معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً. فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟»، قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء. إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا من هذه وأخذ المدية فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم» أخرجه مسلم [٣٧٩٩] .

(٣) انظر هذا القول في صحيح البخاريِّ، الجزء الخاصُّ بالسِّيرة (٣/ ١٣٥٨)، وذخائرُ العقبى في مناقب ذوي القُربى (١/ ٤٩، ٥١، ١٠٦)، وزاد المعاد (٥/ ١٨٧)، وصفة الصَّفوة (٢/ ١١).

(٤) انظر هذا القول في مسائل الإمام أحمد (١/ ٧٨)، والاكتفاء بما تضمَّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثَّلاثة الخلفاء (٢/ ٢٤)، وذخائرُ العقبى في مناقبِ ذوي القُربى (١/ ١٥٧).

(٥) انظر: دفع إيهام الاضِّطراب، العدد الثَّاني (ص: ١٣-١٤)، أضواء البيان (٤/ ١١٥-١١٦).

(٦) أحكام القرآن، لابن العربي (١/ ٣٤٠). انظر: تفسير الطَّبري (٩/ ٦٧).

ومِمَّا قيل إنَّه من (خطاب الاثنين بلفظ الجمع) قوله ﷻ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧][١].

لكنَّ التَّحقيق أنَّه ثنَّى في الأوَّل، ثمَّ جمع، ثمَّ أفرد؛ لأنَّه خاطب أوَّلا موسى وهارون -عليهما السَّلام-؛ لأنَّهما المتبوعان، ثمَّ سيق الخطابُ عامًّا لهما ولقومهما باتِّخاذ المساجد والصَّلاة فيها؛ لأنَّه واجب عليهم[٢]، ثمَّ خصَّ موسى عليه السلام بالبشارة تعظيمًا لها وللمبشَّر بها[٣].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [هود: ٧٨]:

قيل: أراد بنات صلبه، وهو رواية عن قتادة. وإذ كان المشهور أنَّ لوطًا عليه السلام له ابنتان صار الجمع مستعملا في الاثنين بناءً على أنَّ

---

(١) انظر: الإتقان (٢/ ٩١)، (٢/ ٢٣٣)، الكليَّات (ص: ٦٦١).

(٢) لأنَّ كلَّ واحدٍ مكلَّف بأن يجعل بيته قبلةً.

(٣) انظر: الكشاف (٢/ ٢٤٩)، البرهان (٢/ ٢٤١-٢٤٢)، التَّحرير والتَّنوير (١١/ ٢٦٦). وقريب من ذلك ما ذكره النَّيسابوري في (تفسيره) (٣/ ٦٠٦): وإنما ثنى الخطاب أوَّلا ثمَّ جمع؛ لأنَّ اختيار المكان للعبادة مما يفوض إلى الأنبياء، فخوطب موسى وهارون -عليهما السَّلام- بذلك، ثمَّ جعل الخطاب عامًّا لهما ولقومهما؛ لأنَّ استقبال القبلة وإقامة الصَّلاة واجب على الجمهور، ثمَّ خصَّ موسى عليه السلام بالتَّبشير في قوله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]؛ لأنَّ الغرضَ الأصليَّ من جميع العبادات هو هذه البشارة، فلم تكن لائقةً إلا بحال موسى عليه السلام الَّذي هو الأصل في الرِّسالة، وفيه تعظيم لشأن البشارة والمبشر».

الاثنين تعامل معاملة الجمع في الكلام، وقيل: كان له ثلاث بنات[١].

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف:٨٣]، قيل: أراد به يوسف وأخاه بنيامين[٢]، ولكنَّه ردَّ بأنَّه أراد يوسف وبنيامين وأخيهما الَّذي توقف بمصر، وهو القائل: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]، وهو الصَّحيح[٣].

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝١٣٠﴾ [طه: ١٣٠]، فقوله عز وجل: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾، وذلك صلاة الصُّبح، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، وهي العصر، ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾، وهي ساعات اللَّيل..

وقوله عز وجل: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾، قيل: الصُّبح والمغرب، وقيل: الظُّهر والمغرب[٤]. وقيل: ﴿وَأَطْرَافَ﴾ كما قيل: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾

---

(١) انظر: التَّحرير والتَّنوير (١٢/ ١٢٧)، المحرَّر الوجيز (٣/ ٣٦٩)، ابن عادل (١٠/ ٥٣٣).

(٢) انظر القول مع التَّعقيب عليه في (الإحكام) للآمديِّ (٢/ ٢٤٤)، والإحكام.

(٣) انظر: تفسير الطَّبري (١٣/ ٣٨)، القرطبي (١٣/ ٢٤٧)، روح المعاني (١٣/ ٣٩)، الدُّر المنثور (٤/ ٥٦٦)، تفسير أبي السُّعود (٤/ ٣٠١)، البغوي (٢/ ٤٤٣).

(٤) جاء في (تفسير القرطبيِّ): «قال أكثر المتأوِّلين: هذا إشارة إلى الصَّلوات الخمس، قبل طلوع الشَّمس (صلاة الصُّبح)، وقبل غروبها (صلاة العصر)، ومن آناء اللَّيل (العتمة)، وأطراف النَّهار (المغرب) و(الظُّهر)؛ لأنَّ الظُّهر في آخر طرف النَّهار الأوَّل وأوَّل طرف النَّهار =

[التحريم: ٤]، فجمع، والمراد قلبان[(١)].

«وطرف الشَّيء منتهاه. قيل: المراد أوَّل النَّهار وآخره، وهما وقتا الصُّبح والمغرب، فيكون من عطف البعض على الكلِّ، للاهتمام بالبعض، كقوله ﷻ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقيل: المراد طرف سير الشَّمس في قوس الأفق، وهو بلوغ سيرها وسْط الأفق المعبر عنه بالزَّوال، وهما طرفان: طرفُ النَّهاية، وطرف الزَّوال، وهو انتهاء النِّصف الأوَّل وابتداء النِّصف الثَّاني من القوس، كما قال ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤]. وعلى هذا التَّفسير يتجه أن يكون ذكر الطَّرفين معًا لوقت صلاة واحدة أنَّ وقتها ما بين الخروج من أحد الطَّرفين والدُّخول في الطَّرف الآخر، وتلك حصة دقيقة. وعلى التَّفسيرين فللنَّهار طرفان لا أطراف، كما قال ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾، فالجمع في قوله ﷻ: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ من إطلاق اسم الجمع على المثنى، وهو متَّسع فيه في العربية عند أمن اللَّبس، كقوله ﷻ: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ والَّذي حسَّنه هنا مشاكلة الجمع للجمع في قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾»[(٢)].

الآخر، فهي في طرفين منه، والطَّرف الثَّالث غروب الشَّمس، وهو وقت المغرب. وقيل: النَّهار ينقسم قسمين فصلهما الزَّوال، ولكلٍّ قسم طرفان، فعند الزَّوال طرفان الآخر من القسم الأوَّل، والأوَّل من القسم الآخر، فقال عن الطَّرفين: أطرافًا على نحو: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾. وقيل غير ذلك». تفسير القرطبي (١١/ ٢٦١)، معاني القرآن، للفرَّاء (٢/ ١٩٥).

(١) انظر: تفسير الطَّبري (١٦/ ٢٣٣).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (١٦/ ٣٣٨)، وانظر: أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (١/ ٣٤٠).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۝٧٨﴾ [الأنبياء: ٧٨]، وهما اثنان. ومن العلماء من يرى أنَّ الآية دليل على أنَّ (أقلَّ الجمع اثنان)، وهو مذهب طائفةٍ من العرب[(١)].

وهاك بيان ما قيل في ذلك:

قال الفرَّاء: «جمع اثنين فقال: ﴿لِحُكۡمِهِمۡ﴾، وهو يريد داود وسليمان؛ لأنَّ الاثنين جمع، وهو مثل قوله ﷻ: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ [النساء: ١١]، وهو يريد أخوين»[(٢)].

ولكنَّه ردَّ، بأن المراد من قوله ﷻ: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ﴾، أي: «لحكم داود وسليمان -عليهما السَّلام-، والقوم الَّذين حكما بينهم

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١١/ ٣٠٧)، زاد المسير (٣/ ٢٥٨)، وانظر: أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (١/ ٣٤٠)، وانظر: الخلاف في أقلِّ الجمع في (لباب المحصول)، لابن رشيق (٢/ ٥٧٨-٥٧٩)، المستصفى (١/ ٢٤٣-٢٤٤)، وسيأتي بيان ذلك.

(٢) معاني القرآن الكريم، للفرَّاء (٢/ ٢٠٨)، وانظر أيضًا: معاني القرآن، للفرَّاء (١/ ٢٥٧-٢٥٨)، البغوي (٣/ ٢٥٣)، زاد المسير (٤/ ١٣٧)، (٥/ ٣٧١). وقال الزمخشريُّ: «فإن قلتَ: فكيف صحَّ أن يتناول الإخوة الأخوين. والجمع خلاف التَّثنية؟ قلت: الإخوة تفيد معنى الجمعية المطلقة بغير كميَّة، والتَّثنية كالتَّثليث والتَّربيع في إفادة الكميَّة، وهذا موضع الدِّلالة على الجمع المطلق، فدلَّ بالإخوة عليه». الكشاف (١/ ٥٠٨). وانظر أيضًا: الإحكام، للآمديِّ (٢/ ٢٤٣-٢٤٤)، وانظر هذا الرَّأي والتَّعقيب عليه في (المستصفى) (١/ ٢٤٤)، وقد فصَّل القول في ذلك -أعني التَّعقيب- الرَّازيُّ في (المحصول) (٢/ ٦٠٧)، وأورد التَّعقيب في (٢/ ٦١٠-٦١٣)، وانظر: الإبهاج (٢/ ١٢٤-١٢٧).

فيما أفسدت غنم أهل الغنم»[(١)].

أمَّا ما قيل من أنَّ (**أقلَّ الجمع اثنان**) فقد قال الشِّيرازيُّ في (التَّبصرة): «إنَّ أهل اللُّغة فرَّقوا بين الواحد والاثنين والجمع، فقالوا: رجل ورجلان ورجال، ولو كان الاثنان جمعًا لكان لفظ التَّثنية مساويًا لما زاد عليه كما كان لفظ الثَّلاثة مساويا لما زاد عليه». وأورد على ذلك اعتراضات وأجاب عنها[(٢)].

وفي (المحصول): «كنَّى عن المتحاكمين مضافًا إلى كنايته عن الحاكم عليهما، قد يضاف إلى المفعول، وإذا اعتبرنا المتحاكمين مع الحاكم كانوا ثلاثة»[(٣)].

وفي (شرح الكوكب المنير): «قالوا: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٨] ردَّ الضَّمير للقوم، أو لهم وللحاكم، فيكون الحكم بمعنى الأمر، لأنَّه لا يضاف المصدر إلى الفاعل والمفعول. قالوا: قال ﷺ: «**الاثْنَانِ فَما فَوْقَهمَا جَمَاعَةٌ**» **رُدَّ خبر ضعيف**[(٤)].

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (١٧/ ٥١).

(٢) التَّبصرة (١/ ١٢٩-١٣٠)، وانظر: الإحكام، لابن حزم (٤/ ٤١٥).

(٣) المحصول (٢/ ٦١٠-٣١٣) .

(٤) أخرجه (ابن ماجه، وابن عدي، والبيهقي وضعَّفه عن أبي موسى. والدارقطني عن ابن عمرو. ابن سعد، والبغوي، والباوردي عن الحكم بن عمير الثمالي أحمد، والطبراني فى الكبير والأوسط، وابن عدي عن أبى أمامة). وبيان ذلك: حديث أبي موسى: أخرجه ابن ماجه [٩٧٢]، وفيه الرَّبيع بن بدر وأبوه، وهما ضعيفان. قال ابنُ كثير في (تحفة الطَّالب): «والرَّبيع هذا اتَّفق أئمَّة الجرحِ والتَّعديل على جرحه». تحفة الطَّالب (ص:٢٥٢). وقال الحافظ ابن حجر في (التَّقريب) (١٠/ ٩٤): «بدر بن عمرو مجروح من الثَّالثة». قال =

ثمَّ المراد في الفضيلة، لتعريفه الشَّرع لا اللُّغة(١).

وعلى الأوَّل: قال أصحابنا وأبو المعالي(٢): يصح إطلاق الجمع على الاثنين والواحد مجازًا(٣).

وهو الصَّحيح الَّذي أرجِّحه بعد الاطِّلاع على الأدلَّة..

أمَّا ما قيل من أنَّ (أقلَّ الجمع) اثنان(٤) وكان لا بُدَّ من تحقيق هذه

= البوصيري: (١/ ١١٩): إسناده ضعيف. وجاء في (زوائد ابن ماجه): ربيع وولده ضعيفان، ونقل العجلونيُّ عن صاحب (التَّمييز) قال عنه: ضعيف..ثمَّ قال: ولعلَّه أراد باعتبار ذاته. انظر: كشف الخفاء (١/ ٤٧). والبيهقي [٤٧٨٧]، وقال: هو ضعيف.

(١) وضَّح ذلك الطُّوفي فقال: «والاثنان جماعة في حصول الفضيلة حكمًا لا لفظًا؛ إذ الشَّارع يبيِّن الأحكام لا اللُّغات» مختصر الطُّوفيِّ (ص: ١٠١-١٠٢). وقال العَضدُ بعد بيان ردِّه على دليل المخالفين: «واعلم أنَّ هذا الدَّليل وإن سلِّم فليس في محل النِّزاع، إنما النِّزاع في صيغ الجمع، وضمائره، ولذا قال ابن الحاجب: اعلم أنَّ النِّزاع في نحو: (رجال)، و(مسلمين)، و(ضربوا) لا في لفظ جمع، ولا في نحو: (نحن فعلنا)، ولا في نحو: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فإنَّه وفاق..». العضدُ على ابن الحاجب (٢/ ١٠٦). وانظر: الإحكام، للآمديِّ (٢/ ٢٢٣)، أصول السَّرخسي (١/ ١٥١) وما بعدها، فتح الغفار (١/ ١٠٩).

(٢) هو إمامُ الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمَّد الجوينيِّ، أبو المعالي، ركن الدِّين، الملقَّب بإمام الحرمين، انظر ترجمته في (الأعلام) (٤/ ١٦٠)، سير أعلام النُّبلاء (١٧/ ٦١٧)، طبقات الشَّافعية، لابن قاضي شهبة (١/ ٢٥٥).

(٣) ذكر ابن الحاجب في المسألة أربعة أقوال: الأوَّل: لا يصحُّ. ثانيهما: يصحُّ حقيقةً. ثالثها: يصحُّ مجازا. رابعها: يصحُّ حتَّى على الواحد. ثمَّ بيَّن العضد أدلَّة كلِّ قولٍ. وقال ابنُ السُّبكيِّ: والأصحُّ أنَّه يصدق على الواحد مجازًا. انظر: العضد على ابن الحاجب (٢/ ١٠٥) وما بعدها، جمع الجوامع (١/ ٤٢٠)، نهاية السُّول (٢/ ١٠١).

(٤) وهو ما ذهب إليه مالك بن أنس من أنَّ (أقلَّ الجمع اثنان). قال في (مراقي السُّعود)، رقم [٣٨٥]، (ص: ٥٢): =

المسألة؛ لكثرة ورودها هنا؛ ولبناء كثير من المسائل على ما يتقرَّر من التَّرجيح..

وقد تقرَّر في هذه المسألة أنَّ القول بأنَّ (أقل الجمع اثنان) هو قول الإمام مالك كما سبق.

وهو أيضا قول القاضي أبي بكرٍ الباقلاني..

وأنَّ من قال بذلك إنَّما استدلَّ بالآيات السَّابقة في هذا النَّوع من أنواع الخطاب القرآني، وهي في الحقيقة محتملة، وقد بيَّنتُ ذلك، أعنى: كلَّ ما قد استدلَّ به في موضعه..

وقد أجاب الجمهور أنَّ أقلَّ الجمع وما في معناه ثلاثة، لتفريق العرب بين الجمع والتَّثنية في وضعهما لكلٍّ منهما لفظ يختصُّ به، كما أشار إلى ذلك الشِّيرازيُّ في قوله الآنف الذِّكر. وجعلوا إطلاق الاثنين وإرادة الثَّلاثة من المجاز.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [الحج: ١٩].

فإنَّه ﷻ لم يقل: (اختصما)، والعرب تسمي الاثنين جمعًا[١].

= «(أقل معنى الجمع في المشتهر الاثنان في رأي الإمام الحميري)».

نثر الورود (١/ ٢٧٤). وانظر في تقرير ذلك على سبيل المثال: الطَّبري (٤/ ٢٧٩)، القرطبي (١١/ ٣٠٧)، أضواء البيان (٤/ ١١٦)، وبداية المجتهد (١/ ١٢٨)، ومواهب الجليل لشرح مختصر خليل (٣/ ٤٣٨)، قال الغزاليُّ في (المستصفى) (١/ ٢٤٣): «واختار القاضي [يعني: أبا بكرٍ الباقلاني] أنَّ (أقل الجمع اثنان)».

(١) انظر: البرهان (٢/ ٢٤١)، معاني القرآن، للفرَّاء (٢/ ٢٢٠)، فتح القدير (٣/ ٤٤٤)، زاد =

وقد احتجَّ من قال: (أقلُّ الجمع اثنان) بقوله: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ﴾ ، والجواب: الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق فكأنَّه قيل: (هذان فوجان أو فريقان يختصمان)، فقوله: ﴿هَٰذَانِ﴾ للفظ، و﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾ للمعنى، كقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ﴾ [محمد: ١٦].

وقد ذكروا في تفسير (الخصمين) وجوهًا:

أحدها: المراد طائفة المؤمنين وجماعتهم، وطائفة الكفَّار وجماعتهم، وأنَّ كلَّ الكفَّار يدخلون في ذلك.

وثانيها: روي أنَّ أهل الكتاب قالوا: نحن أحقُّ بالله، وأقدم منكم كتابًا، ونبيُّنا قبل نبيِّكم. وقال المؤمنون: نحن أحقُّ بالله عَزَّ وَجَلَّ آمنَّا بمحمد ﷺ، وآمنَّا بنبيِّكم عليه السلام، وبما أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ من كتاب،

= المسير (٥/ ٤١٧)، وانظر: أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (١/ ٣٤٠). وممَّا يقال في ذلك: إنَّ الخصم تأتي للمفرد والجمع مثل كلمة: (بشر) و(الفلك) و(ضيف) و(طفل)، وربما تأتي للتَّثنية: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ . يقول المفسِّرون: هما فريقان كلُّ فريق له جماعة، فلمَّا جاءا يختصمان جاء من كلِّ فريق شخص واحد يمثِّل الفريق، والمتحدِّثان هما أصحاب المسألة (خصمان). كما في قوله عز وجل: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩]، فكلُّ طائفة لها جماعة عند الصُّلح يأتي من كلِّ طائفة من يفاوض باسمها لكن إذا وقع القتال بينهما يقتتل كلُّ الأفراد، فإذا اختصم الفريقان يقال: (اختصموا)، وإذا اختصم أفراد الفريقين يقال: (اختصموا)..قال الفرَّاء: «ولم يقل: (اختصمَا)؛ لأنهما جَمعان ليسَا برجلين، ولو قيل: (اختصما) كان صَوَابًا. ومثله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ يذهب إلى الجمع. ولو قيل: (اقتتلتا) لجاز، يذهب إلى الطائفتين». معاني القرآن، للفرَّاء (٢/ ٢٢٠).

وأنتم تعرفون كتابنا ونبيِّنا، ثمَّ تركتموه وكفرتم به حسدا، فهذه خصومتهم في ربهم[(١)].

وثالثها: ما روي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنَّه كان يحلف بالله عز وجل أنَّ هذه الآية نزلت في ستَّةِ نفرٍ من قريش تبارزوا (يوم بدر): حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث[(٢)] رضي الله عنهم وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة[(٣)].

(١) انظر: تفسير الطَّبري (١٧/ ١٣٢)، القرطبي (٥/ ٣٩٦، (١٢/ ٢٥)، روح المعاني (١٧/ ١٣٣).

(٢) هو عبيدةُ بن الحارث بن المطَّلب بن عبد مناف، أبو الحارث، من أبطال قريش في الجاهلية والإسلام. ولد (بمكَّة)، وأسلم قبل دخول النَّبي ﷺ (دار الأرقم)، وعقد له النَّبي ﷺ ثاني لواء عقده بعد أن قدم (المدينة)، وبعثه في (ستين) راكبًا من المهاجرين، فالتقى بالمشركين وعليهم أبو سفيان بن حرب، في موضع يقال له: (ثنية المرة)، وكان هذا أوَّل قتال جرى في الإسلام. وهو أحد الثَّلاثة الَّذين بارزوا المشركين (يوم بدر)، وفيهم أنزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ ، استُشهد ببدر، قطعت رجله فمات في منصرفه إلى (المدينة) بالصَّفراء، قتله: شيبة بن ربيعة. وقيل: عتبة بن ربيعة، أمَّه: (سُخَيْلَةُ بِنْتُ خُزَاعِيِّ بْنِ الْحُوَيْرِثِ)، من (ثقِيفٍ) [٢هـ]. الأعلام (٤/ ١٨٩)، معرفة الصَّحابة، لأبي نعيم (٤/ ١٩١٤).

(٣) وهم من زعماء المشركين، قتلوا في المبارزة (يوم بدر). فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش، وكانوا من عائلة واحدة، وهم عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، فلما انفصلوا من الصَّف طلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار: عَوْف ومُعَوِّذ ابنا الحارث -وأمهما عفراء- وعبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. قالوا: أكِفَّاء كرام، ما لنا بكم حاجة، وإنما نريد بني عمنا، ثمَّ نادى مناديهم: يا محمَّد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: قُمْ يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي، فلمَّا قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ فأخبروهم، فقالوا: أنتم أكفاء كرام، فبارز عبيدةُ -وكان أسنَّ القوم- عتبة بن ربيعة، وبارز حمزةُ شيبة، وبارز عليّ الوليد. فأمَّا حمزة وعلي فلم يمهلا قرنيهما أن قتلاهما، وأمَّا عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان، =

وقال علي رضي الله عنه: أنا أوَّل من يجثو للخصومة بين يدي الله عز وجل يوم القيامة(١).

ورابعها: قال عكرمة: هما (الجنَّة والنَّار)، قالت النَّار: خلقني الله عز وجل لعقوبته. وقالت الجنَّة: خلقني الله عز وجل لرحمته، فقصَّ الله عز وجل من خبرهما على محمَّد ﷺ ذلك(٢). والأقرب هو الأوَّل؛ لأنَّ السبب وإن كان خاصًّا فالواجب حمل الكلام على ظاهره قوله عز وجل: ﴿هَٰذَانِ﴾ كالإشارة إلى من تقدَّم ذكره، وهم أهل الأديان السِّتة، وأيضًا ذكر صنفين أهل طاعته وأهل معصيته ممن حقَّ عليه العذاب، فوجب أن يكون رجوع ذلك إليهما، فمن خصَّ به مشركي العرب أو اليهود من حيث قالوا في كتابهم ونبيهم ما حكيناه فقد أخطأ، وهذا هو الذي يدل عليه قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج:١٧]، أراد به الحكم؛ لأنَّ ذكر التَّخاصم يقتضي الواقع بعده يكون حكما فبيَّن الله

= فأثخن كلُّ واحدٍ منهما صاحبه، ثمَّ كَرَّ علي وحمزة على عتبة فقتلاه، واحتملا عبيدة، وقد قطعت رجله، فلم يزل ضَمِنا حتَّى مات بالصفراء، بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر. انظر: الرَّوض الأنف (٣/ ٦٧)، (٣/ ٩٠)، السِّيرة الحلبيَّة (٢/ ٤٠٠-٤٠١).. إلخ.

(١) جاء في (صحيح البخاري) [٣٦٦٩]: «عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّه قال: أنا أوَّل من يجثو بين يدي الرَّحمن للخصومة يوم القيامة. وقال قيس بن عبَّاد: وفيهم أنزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾. قال: هم الَّذين تبارزوا (يوم بدر) حمزة وعلي وعبيدة أو أبو عبيدة بن الحارث وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة».

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (١٧/ ١٣٣)، والقرطبي (١٢/ ٢٥)، وابن كثير (٣/ ٢١٣)، والدُّر المنثور (٦/ ٢٠)، وزاد المسير (٥/ ٤١٧).

ﷻ حكمه في الكفَّار[(١)] .

وفي (التَّحرير والتَّنوير): «إشارة إلى فريقين حاضرين في أذهان المخاطَبين فنُزِّل حضورُ قصتهما العجيبة في الأذهان منزلة المشاهدة حتى أعيد عليها اسم الإشارة الموضوع للمشاهد، وهو استعمال في كلام البُلغاء»[(٢)].

وقد بدأت الآية الكريمة بالإجمال على معنى الجمع، ثمَّ التفصيل الذي بدأ بذكر الَّذين كفروا، وجاءت الأفعال في حقِّهم مبنيَّة للمجهول ﴿قُطِّعَتْ﴾ ، ﴿يُصَبُّ﴾ ، ﴿يُصْهَرُ﴾ ، ﴿أُعِيدُواْ﴾ [(٣)] للدِّلالة على الذَّم والتَّقبيح، وهم في مقام التَّجهيل والإهمال، فينصرف الذِّهن لمتابعة الحدث ومعموله، فيتراءى أمام العين مشهد التَّقطيع بصوته المدوي.

ومن ذلك قوله ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥]. قيل: يحتمل أن يكون الخطاب في قوله ﷻ: ﴿مَعَكُمْ﴾ لموسى وهارون عليهما السَّلام[(٤)]. و[قد] رُدَّ، ومن آمن من قومهما، أو وفرعون أيضًا[(٥)] .

---

(١) بتصرُّف عن (تفسير الرَّازي) (٢٣/ ٢١-٢٢). وكذلك في (تفسير ابن عادل) (١٤/ ٤٨)، وانظر: البرهان (٢/ ٨٦)، ومعاني القرآن، للفرَّاء (٢/ ٢٢٠).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (١٧/ ٢٢٩).

(٣) انظر الآيات من (سورة الحجِّ) من (١٩) إلى (٢٢) .

(٤) انظر: معاني القرآن الكريم، للنَّحاس (٥/ ٦٧)، أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (١/ ٣٤٠)، العضد على ابن الحاجب (٢/ ١٠٥)، المحصول (٢/ ٦١١)، وفواتح الرَّحموت (١/ ٢٧٠)، والعدَّة (٢/ ٦٥٥)، وإرشاد الفحول (ص: ١٢٤).

(٥) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/ ١٤٨). وقال الإمام الغزاليُّ في (المستصفى): «واختير أنَّ =

والحاصل أنَّه ذكر ﴿مَّعَكُمْ﴾ بلفظ الجمع وهما اثنان، أجراهما مجرى الجماعة. وقيل: أراد معكما ومع بني إسرائيل نسمع ما يجيبكم فرعون(١).

وجاء في (شرح الكوكب المنير): «خطاب الاثنين بصيغة الجمع قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ لموسى وهارون -عليهما الصَّلاة

= (أقلَّ الجمع) اثنان. واستدلَّ بإجماع أهل اللُّغة على جواز إطلاق اسم الجمع على اثنين في قولهم: (فعلتم) و(فعلنا) و(تفعلون). وقد ورد به القرآن قال الله عز وجل في قصَّة موسى وهارون -عليهما السَّلام-: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾». المستصفى (١/٢٤٣). أمَّا قوله: (واختير أنَّ (أقل الجمع) اثنان) فهو ما ذهب إليه مالك بن أنس كما سبق. انظر: نثر الورود (١/ ٢٧٤)، تفسير الطَّبري (٤/ ٢٧٩)، القرطبي (١١/ ٣٠٧)، أضواء البيان (٤/ ١١٦)، وبداية المجتهد (١/ ١٢٨)، مواهب الجليل (٣/ ٤٣٨)، وحاشية الشَّرواني (٢/ ٢١٥). وانظر: ما قاله الرَّازي في (المحصول) (٢/ ٦٠٨- ٦١٣) في إيجاز ما قيل في هذا الباب مع التَّعقيب عليه.

(١) انظر: تفسير البغويِّ (٣/ ٣٨٢) .وقد وضَّح الآلوسيُّ ما قيل في ذلك، وأجاب عمَّا اعترض به، حيث قال: «الخطاب لموسى وهارون -عليهما السَّلام - ومن يتبعهما من بني إسرائيل، فيتضمَّن الكلامُ البشارة بالإشارة إلى علوِّ أمرهما، واتِّباع القوم لهما، ومنهم من ذهب إلى أنَّه لهما -عليهما السَّلام-؛ لشرفهما وعظمتهما عند الله عز وجل عوملا في الخطاب معاملة الجمع. واعترض بأنَّه يأباه ما بعده وما قبله من (ضمير التَّثنية). وقيل: هو لهما -عليهما السَّلام- ولفرعون، واعتبر لكون الموعود بمحضر منه، وإن شئت ضم إلى ذلك قوم فرعون أيضا. واعترض بأنَّ المعيَّة العامَّة، أعني: المعيَّة العلمية لا تختصُّ بأحد؛ لقوله عز وجل: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة:٧]، والمعيَّة الخاصَّة، وهي (معيَّة الرَّأفة والنُّصرة) لا تليق بالكافر، ولو بطريق التَّغليب. وأجيب بأنَّ خصوص المعيَّة لا يلزم أن يكون بما ذكر، بل بوجه آخر، وهو تخليص أحد المتخاصمين من الآخر بنصرة المحقِّ، والانتقام من المبطل». (روح المعاني) بقليلٍ من التَّصرف (١٩/ ٦٦) .وانظر أيضا: الفروع (٤/ ٤٦٤)، المغني (٩/ ١٠٦)، البحر الرائق (١/ ١٤)، (٢/ ٣٩٦).

والسَّلام-، ردَّ، ومن آمن من قومهما، أو وفرعون أيضًا[١].

وقال الإمام الغزاليُّ: «واختار القاضي[٢] أنَّ أقلَّ الجمع اثنان. واستدلَّ بإجماع أهل اللُّغة على جواز إطلاق اسم الجمع على اثنين في قولهم: (فعلتم) و(فعلنا) و(تفعلون). وقد ورد به القرآن، قال الله ﷻ في قصَّة موسى وهارون -عليهما السَّلام-: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾»[٣]. واستدلُّوا بقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣].

وذلك ممَّا قيل أيضًا في قوله ﷻ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾ [السجدة:١٨]. فقد ذكر ذلك ابنُ العربيِّ في (أحكام القرآن الكريم)[٤].

وممَّا قيل في قوله ﷻ:

﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝١١٦﴾ [الصافات:١١٦]. أي: ونصرناهما فذكر الاثنين بلفظ الجمع[٥]. الضَّمير لموسى وهارون

---

(١) شرح الكوكب المنير (٣/١٤٨)، وانظر: العضد على ابن الحاجب (٢/ ١٠٥)، المحصول (٢/ ٦١١)، وفواتح الرَّحموت (١/ ٢٧٠)، والعدَّة (٢/ ٦٥٥).

(٢) والقاضي هو أبو بكر الباقلاني، وقد سبق التَّعريف به، وحجَّة هذا القول أنَّك إذا جمعت واحداً إلى واحد فهما جماعة؛ لأنَّ أصل الجمع ضمُّ شيء. وقد سبق تحقيق هذه المسألة وبيان أنه قول الإمام مالك...

(٣) المستصفى (١/٢٤٣) .

(٤) أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (١/ ٣٤٠).

(٥) انظر: تفسير السَّمعاني (٤/ ٤١٠).

وحدهما، وهذا على أنَّ الاثنين جمع. دليله قوله ﷻ: ﴿وَءَاتَيْنَاهُمَا﴾[(١)]، ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا﴾[(٢)].

وقال الطَّبريُّ: «إنما أريد بالهاءِ والميم في قوله ﷻ: ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ موسى وهارون، ولكنَّها أخرجت على مخرج مكنيِّ الجمع[(٣)]؛ لأنَّ العرب تذهب بالرَّئيس كالنَّبي والأمير وشبهه إلى الجمع بجنوده وأتباعه، وإلى التَّوحيد؛ لأنَّه واحد في الأصل. ومثله: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ [يونس:٨٣]. وفي موضع آخر: ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾[(٤)]، وربَّما ذهبت العرب بالاثنين إلى الجمع، كما تذهب بالواحد إلى الجمع، فتخاطبُ الرَّجل فتقول: (ما أحسنتم ولا أجملتم)، وإنَّما تريده بعينه. وهذا القول الَّذي قاله هذا الَّذي حكينا قوله في قوله ﷻ: ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾، وإن كان قولا غير مدفوع، فإنَّه لا حاجة بنا إلى الاحتيال به لقوله ﷻ: ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾؛ لأنَّ الله ﷻ أتبع ذلك قوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ [الصافات:١١٥].. ثمَّ قال: ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ يعني: هما وقومهما؛ لأنَّ فرعون وقومه كانوا

---

(١) يعني قوله عز وجل: ﴿وَءَاتَيْنَاهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ [الصَّافات:١١٧].

(٢) يعني قوله عز وجل: ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ [الصَّافات:١١٨]. انظر: معاني القرآن، للفرَّاء (٢/ ٣٩٠-٣٩١)، وتفسير القرطبيِّ (١٥/ ١١٤)، معاني القرآن، للنَّحاس (٦/ ٥٢)، فتح القدير (٤/ ٤٠٨)، زاد المسير (٧/ ٧٩).

(٣) المكنيُّ: هو الضَّمير، فيما اصطلح عليه النَّحويون؛ لأنه كناية عن الَّذي أخفيت ذكره.

(٤) كما في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف:١٠٣].

أعداء لجميع بني إسرائيل قد استضعفوهم يذبِّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، فنصرهم الله ﷻ عليهم بأن غرَّقهم، ونجَّى الآخرين»[١].

وأيضًا ردَّه القرطبيُّ وغيره حيث قال: «الضَّمير لموسى وهارون وقومهما، وهذا هو الصَّواب؛ لأنَّ قبله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾»[٢].

وممَّا قيل في قوله ﷻ:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ [ص: ٢١-٢٢].

ومن المفسِّرين من بيَّن ذلك بيانًا وافيًا، وأوضح الحكمة منه كالطَّاهر بن عاشور حيث قال: «والخطاب يجوز أن يكون لكلِّ سامع، والوجهان الأولان قائمان. و(النَّبأ): الخبر. والتَّعريف في ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ (للعهد الذِّهني)[٣]، أي: عهد فرد غير معيَّن من جنسه، أي: نبأ خصم معيَّن هذا خبره، وهذا مثل التَّعريف في: (ادخل السُّوق). و(الخصام) و(الاختصام): المجادلة والتَّداعي. و﴿ٱلْخَصْمِ﴾ : اسم يطلق على الواحد وأكثر، وأريد به هنا: (خصمان)؛ لقوله بعده: ﴿خَصْمَانِ﴾ . وتسميتهما بالخصم مجاز بعلاقة الصُّورة، وهي من علاقة المشابهة في

(١) تفسير الطبريِّ (٢٣/ ٩٠) .

(٢) تفسير القرطبيِّ (١٥/ ١١٤)، معاني القرآن، للفرَّاء (٢/ ٣٩٠-٣٩١)، وروح المعاني (٢٣/ ١٣٨)، البغويِّ (٤/ ٣٥)، البيضاوي (٥/ ٢٤)، النَّسفي (٤/ ٤١).

(٣) المحلَّى بلام (العهد الذِّهني) له جهتان: ١- التَّنكير من جهة المعنى. ٢- التَّعريف من جهة اللَّفظ. فتارةً ينظر إلى الجهة الأولى فيصفونه بالنَّكرة، وتارة ينظر إلى الجهة الثَّانية فيصفونه بالمعرفة. =

الذَّات لا في صفة من صفات الذَّات. وعادةُ علماء البيان أن يمثِّلوها بقول القائل: إذَا رأى صورة أسد: (هذا أَسد). وضمير الجمع مراد به المثنى[١]، والمعنى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ ، والعرب يعدلون عن صيغة التَّثنية إلى صيغة الجمع إذا كانت هناك قرينة؛ لأنَّ في صيغة التَّثنية ثقلا لندرة استعمالها، قال ﷻ: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ، أي: قلباكما»[٢].

وممَّا قيل في قوله ﷻ:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤] إنَّ هذه الآية الكريمة تدلُّ بفحوى خطابها أنَّه لم يجعل لامرأةٍ من قلبين في جوفها، وقد جاءت آيةٌ أخرى يوهم ظاهرها خلاف ذلك، وهي قوله ﷻ في حفصة وعائشة ﷺ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الآية، فقد جمع القلوب لهاتين المرأتين.

والجواب عن هذا ما سبق بيانه من أنَّ المثنى إذا أضيف إليه شيئان هما جزآه جاز في ذلك المضاف الجمع والتَّثنية والإفراد، وأفصحها الجمع، فالإفراد، فالتَّثنية على الأصحِّ سواء كانت الإضافة لفظا أو معنى. . . .إلخ[٣].

---

(١) انظر: أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (١/ ٣٤٠) .

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٢٣/ ٢٣١)، وانظر: الكتاب، لسيبويه (٢/ ٤٨).

(٣) سبق بيان ذلك عند تفسير قوله عز وجل: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ﴾ [طه: ١٢١].

ومما قيل في قوله ﷻ:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١].

أخبرَ اللهُ ﷻ عن إجابة السَّموات والأرض إلى أمره ﷻ، فأمَّا قوله ﷻ: ﴿طَآئِعِينَ﴾، ولم يقل: (طائعات)، فقال فيه الفرَّاء معناه: أتينا بمن فينا طائعين[1].

إنما جمعهما جمع السَّلامة ولم يقل: (طائعَتين)، ولا (طائعات)؛ لأنَّه أراد ائتيا بمن فيكم من الخلائق طائعين فخرجت الحال على لفظ الجمع، وغلِّب من يعقل من الذُّكور.

وقال بعض النَّحويين[2]: لما أخبر عنهما أنهما يقولان كما يقول الآدميون أشبهتا الذُّكور من بني آدم عليه السلام، وإنما قال:

---

(١) معاني القرآن، للفرَّاء (٣/ ١٣)، ونصُّ عبارة الفرَّاء: «ولم يقل: طائعتين، ولا طائعات. ذُهب به إلى السَّموات ومن فيهنَّ، وقد يجوز: أن تقولا، وإن كانتا اثنتَين: (أتينا طائعين)، فيكونان كالرِّجال لما تكلَّمتا». معاني القرآن، للفرَّاء (٣/ ١٣)، معاني القرآن، للنَّحاس (٦/ ٢٥٠)، زاد المسير (٧/ ٢٤٥). وانظر: تفسير الطَّبري (١٤/ ٩٩)، معاني القرآن الكريم، للنَّحاس (٦/ ٢٥١)، زاد المسير (٧/ ٢٤٥)، روح المعاني (١/ ٧٨). وقال العلامة محمد الطَّاهر: «قيل: ﴿طَآئِعِينَ﴾ بصيغة الجمع؛ لأنَّ لفظ السَّماء يشتمل على سبع سموات كما قال عز وجل إثر هذا: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] فالامتثالُ صادرٌ عن جَمع. وأمَّا كونه بصيغة جمع المذكر؛ فلأنَّ السَّماء والأرضَ ليس لهما تأنيثٌ حقيقيٌّ. وأمَّا كونه بصيغة جمع العقلاء فذلك ترشيحٌ للمكنيَّة المتقدِّمة مثل قوله عز وجل: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]». التَّحرير والتَّنوير (٢٤/ ٢٤٨)، وانظر: روح المعاني (١٤/ ١٠٣).

(٢) انظر: أسرار العربيَّة، لابن الأنباري (ص: ٧١)، اللُّباب في علل البناء والإعراب، للعكبريِّ (١/ ١١٣)، شرح شذور الذَّهب (ص: ٣٩).

﴿طَآئِعِينَ﴾ ، ولم يقل: (مطيعين)؛ لأنَّه من (طعنا) أي: (أنقدنا)، وليس من (أطعنا) يقال: (طاعت النَّاقة تطوع طوعًا إذا انقادت)[(١)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصلت: ١٣-١٤].

«وضمير: ﴿جَآءَتْهُمُ﴾ عائدٌ إلى عاد وثمود باعتبار عدد كلِّ قبيلة منهما. وجَمْع (الرُّسل) هنا من باب إطلاق صيغة الجمع على الاثنين مثل قوله ﷻ: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، والقرينة واضحة وهو استعمالٌ غير عزيز، وإنما جاءهم رسولان: هود وصالح عليهما السَّلام»[(٢)].

واحتجُّوا أيضًا بقوله ﷻ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩].

قالوا: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ رُدَّ (الطَّائفة): الجماعة لغةً[(٣)].

«وعن ابن عباس: الطَّائفة: الواحد فما فوقه[(٤)]، نحو قوله ﷻ:

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٢٤/ ٢٥٣).

(٣) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/ ١٤٨-١٤٩)، المستصفى (١/ ٢٤٣-٢٤٤).

(٤) هذا الأثرُ رواه الفرَّاء بإسناده، قال: حدَّثنا أبو العباس، قال: حدَّثنا محمَّد، قال: حدَّثنا الفرَّاء، قال: حدَّثني قيس ومندل عن ليث عن مجاهد قال: (الطَّائِفة): الواحد فما فوقه.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، فإن صحَّ فمجاز. ولا يلزم مثله في الجمع؛ ولهذا قال الجوهريُّ[١]: هي (القطعة من الشَّيء)[٢]. وذكر قول ابن عباس رضي الله عنهما هذا، كالخصم للواحد والجمع،

قَالَ الفَرّاء: وكذلك حدَّثني حِبَّان عن الكلبي عن أبي صَالح عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنَّه قال: الطَّائفة الواحدُ فما فوقه. معاني القرآن، للفرَّاء (٢/ ٢٤٥)، انظر: الكشاف (٣/ ٤٨)، البحر المحيط (٦/ ٣٩٥)، ابن عادل (١٠/ ١٤٠)، الرَّازي (١٦/ ٩٧)، القرطبي (١٦/ ٣١٦)، معاني القرآن، للزَّجاج (٤/ ٢٨-٢٩). والكلبي: اسمه: محمد بن السائب. قال الحافظ: متهم بالكذب. وقد قال هو نفسه لسفيان الثوري: ((كل ما حدثتك عن أبي صالح فهو كذب». ميزان الاعتدال (٣/ ٥٥٧). وقال الزَّجاج: أصل (الطَّائفة) في اللُّغة: الجماعة، ويجوز أن يقال للواحدِ طائفة يراد به (نفسٌ طائفة). معاني القرآن، للزَّجاج (٤/ ٢٨، ٢٩)، ولكنَّه قال: وأقلُّ ما يجب في (الطَّائفة) عندي اثنان، والَّذي ينبغي أن يُتَحَرَّى في شهادة عذاب الزَّاني أن يكونوا جماعةً؛ لأنَّ الأغلب على (الطَّائفة) الجماعة. معاني القرآن، للزَّجاج (٤/ ٢٨ -٢٩). ولا يبعد أن تكون (الطَّائفة) إذا أريد بها الواحد يكون أصلها: (طائفا)، على مثال (قائم) و(قاعد)، فتدخل الهاءُ للمبالغة في الوصف كما يقال: رواية علاَّمة نسَّابة. انظر: زاد المسير (٣/ ٤٦٦)، تفسير الرَّازي (١٦/ ٩٧). وانظر: الفروع، لابن مفلح (١٠/ ٣٩). ولكن قد نقل عن ابن عباس أيضًا أنَّ (الطَّائفة) من (أربعة) إلى (أربعين)، وعن مجاهد: (الواحد) فما فوقه. وفضل قول ابن عباس [أي: من (أربعة) إلى (أربعين)]؛ لأنَّ (الأربعة) هي الجماعة الَّتي يثبت بها هذا الحدُّ. والصَّحيح أن هذه الكبيرة من أمَّهات الكبائر. انظر: الكشاف (٣/ ٤٨)، البحر المحيط (٦/ ٣٩٥)، وانظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر (١٣/ ٢٣٤)، تهذيب الأسماء، للإمام النووي (٤/ ١٧٩).

(١) هو إسماعيلُ بن حَمَّادٍ الجوهريُّ، أبو نصر، أوَّل من حاول (الطَّيران)، ومات في سبيله. لغويٌّ، من الأئمَّة. وخطُّه يذكر مع خطِّ ابن مقلة. أشهر كتبه: (الصِّحاح) مجلدان. [٣٩٣هـ]. الأعلام (١/ ٣١٣)، وانظر: البلغةُ في تراجم أئمَّة النَّحو واللُّغة (ص: ١٠).

(٢) الصِّحاح، مادَّة: (طاف) (٤/ ١٣٩٧).

لأنَّه في الأصل مصدر»[(١)].

أقول: وكذلك قال كثيرٌ من المفسِّرين، أعني أنَّ الجمع باعتبار المعنى؛ فإنَّ كلَّ طائفة جمع[(٢)].

وقال القرطبيُّ: «(الطَّائفة) في اللُّغة: الجماعة. وقد تقع على أقل من ذلك حتَّى تبلغ الرَّجلين، وللواحد على معنى: (نفس طائفة)، وكما قال ﷻ: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ [التوبة:٦٦]، فالمراد رجل واحد، ولا شكَّ أنَّ المراد هنا: جماعة لوجهين: أحدهما عقلًا، والآخر لغةً. أمَّا العقل؛ فلأنَّ العلم لا يتحصَّل بواحد في الغالب. وأمَّا اللُّغة فقوله ﷻ: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة:١٢٢]، فجاز بضمير الجماعة»[(٣)].

أقول: ومن العلماء من يرى أنَّ الطائفة ها هنا واحد، ويتعضدون فيه بالدَّليل على وجوب العمل بخبر الواحد[(٤)].

وقد علَّق القرطبيُّ على ذلك بأنَّه «صحيحٌ لا من جهة أنَّ الطَّائفة تطلق على الواحد، ولكن من جهة أنَّ خبر الشَّخص الواحد أو الأشخاص خبر واحد، وأنَّ مقابله وهو التَّواتر لا ينحصر. [قال]: أنصُّ ما يستدلُّ به على أنَّ الواحد يقال له: (طائفة) قوله ﷻ: ﴿وَإِن

---

(١) شرح الكوكب المنير (٣/ ١٤٨-١٤٩)، وانظر: المستصفى (١/ ٢٤٣-٢٤٤).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٦/ ١٤٩)، البيضاوي (٥/ ٢١٥)، تفسير أبي السُّعود (٨/ ١٢٠).

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ٢٩٤).

(٤) انظر: تفسير الطَّبري (١٨/ ٦٩)، الدُّر المنثور (٧/ ٥٦١)، تفسير الصَّنعاني (٣/ ٢٣٠).

طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا﴾ يعني: نفسين. دليله قوله ﷻ: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠]، فجاء بلفظ التَّثنية، والضَّمير في ﴿ٱقْتَتَلُوا﴾ ، وإن كان ضمير جماعة فأقلُّ الجماعة اثنان في أحد القولين للعلماء»[١].

أقول: والرَّاجح أنَّ الطَّائفة لأكثر من واحد؛ لأنَّه إنما يراد به الشُّهرة، وهذا بالجماعة أشبه، ولما ذكره القرطبيُّ في قوله الآنف الذِّكر. وما ذكره ابنُ عباس -إن صحَّ- فمجازٌ على اعتبار الجمع في المعنى. وقد روي عنه خلافه -كما سبق-.

وممَّا قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾ [القمر:٤١].

قيل: هو جمع (نذير) وهو (الرَّسول). وقيل: هو مصدر بمعنى (الإنذار)[٢].

«فعلى أنَّه مصدر فقد بيَّنتْ الآياتُ القرآنيَّة بكثرة أنَّ الَّذي جاءهم بذلك الإنذار هو موسى وهارون -عليهما السَّلام-. وعلى أنَّه جميع (نذير) أي: منذر، فالمراد به موسى وهارون -عليهما السَّلام-. وقد جاء في آياتٍ كثيرة إرسال موسى وهارون لفرعون كقوله ﷻ: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٩٤) .

(٢) انظر: تفسير أبي السُّعود (٤/ ١٧٨)، البحر المديد (٧/ ٢٥١)، التَّحرير والتَّنوير (٢٧/ ١٧٦)، وانظر ذلك مفصَّلا في (تاج العروس)، مادَّة: (نذر) (١٤/ ٢٠٠).

رَّبِّكَ﴾ [طه:٤٧]. ثمَّ بيَّن ﷻ إنذارهما له في قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه:٤٨]، ونحوها من الآيات. وفي هذه الآية سؤال معروف، وهو أنَّ الله ﷻ أرسل لفرعون نبيَّين هما موسى وهارون -عليهما السَّلام-، كما قال ﷻ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء:١٦]، وهنا جمع النُّذر في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾. وللعلماء عن هذا أجوبة:

أحدها: أنَّ (أقل الجمع اثنان) كما هو المقرَّر في أصول مالك بن أنس «رحمه الله»..إلخ[1].

وقد ذكر غير واحد من المفسِّرين أنَّ المراد بالنُّذر موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء؛ لأنَّهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون[2]..

والتَّحقيق في الجواب، أنَّ من كذَّب رسولا واحدًا فقد كذَّب جميع المرسلين، ومن كذَّب نذيرًا واحدًا فقد كذَّب جميع النُّذر؛ لأنَّ أصل دعوة جميع الرُّسل واحدة، وهي مضمون (لا إله إلا الله) كما أوضحه ﷻ بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

(١) أضواء البيان (٧/ ٤٨٣)، وقد سبق بيان ذلك مفصَّلا.

(٢) الكشاف (٤/ ٤١). كذا قال القرطبيُّ: إنَّ المراد موسى وهارون. وقد يطلق لفظ الجمع على الاثنين. تفسير القرطبي (١٧/ ١٥٤)، وانظر: تفسير البغوي (٤/ ٢٦٣)، زاد المسير (٨/ ١٠٠).

وأوضح ﷻ أنَّ من كذَّب بعضهم فقد كذَّب جميعهم في قوله ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠][(١)] .

وممَّا قيل في قوله ﷻ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمن: ٣١].

يأتي في كثير من آيات القرآن الكريم لفظ: (الجنِّ) في مقابلة لفظ: (الإنس)، أو يأتي الخطاب لكلٍّ منهما. يقول الله ﷻ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ فمن هما الثَّقلان إن لم يكونا نوعين مختلفين هما: الإنس والجنُّ؟ ويقول الله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٤-١٥].

فقوله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ ، وقوله ﷻ: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ المراد: الإنس والجنُّ، وهما اثنان .

فقوله ﷻ: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ ؛ لأنَّهما فريقان، وكلُّ فريق جمع. وكذا قوله ﷻ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [الرحمن: ٣٣]. ولم يقل: (إن استطعتما)؛ لأنهما فريقان في حال الجمع، كقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥]، ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]، ولو قال: (سنفرغ لكما)، وقال: (إن استطعتما

---

(١) انظر: الكشاف (٣/ ٥٢٣)، (٤/ ٤١)، البحر المحيط (٨/ ١٨١)، روح المعاني (٢٧/ ٩١).

لجاز)[١]..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷿:

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ كما سبق.

أمَّا ما قاله كثير من المفسِّرين في تفسير الآية الَّتي قد استُدلَّ بها في غير موضع، فقد قالوا: إنَّ قوله ﷿: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: حفصة وعائشة -رضي الله عنهما- حثَّهما على التَّوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبَّة رسول الله ﷺ. وقوله ﷿: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي: زاغت ومالت عن الحقِّ.. ولم يقل: (فقد صغى قلباكما)، ومن شأن العرب إذا ذكروا الشَّيئين من اثنين جمعوهما؛ لأنَّه لا يشكل. وقيل: كلَّما ثبتت الإضافة فيه مع التَّثنية فلفظ الجمع أليق به؛ لأنَّه أمكن وأخفُّ[٢].

وممَّا سبق يتبيَّنُ:

أنَّ (خطاب الاثنين بلفظ الجمع) فيه ما قد يشعر بتميُّز المخاطَبين،

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٧/ ١٦٩)، تفسير ابن عادل (١٨/ ٣٣٠).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ١٧٣-١٧٤)، (١٨/ ١٨٨)، تفسير ابن عادل (١٩/ ١٩٧)، السِّراج المنير (٤/ ٣٥١). وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٨٨-٣٨٩)، وانظر: روح المعاني (٦/ ١٣٣)، (٢٨/ ١٥٢-١٥٥)، تفسير البغوي (١/ ١٧٢)، (١/ ٤٠٢)، (٤/ ٥٣)، وانظر: معاني القرآن، للفرَّاء (٣/ ١٦٦)، وأيضًا ذكر ذلك الشَّيخ محمَّد الأمين في (أضواء البيان): «و﴿قُلُوبُكُمَا﴾ جمع مع أنه لاثنتين هما حفصة وعائشة، فقيل: لأنَّ المعنى معلوم، والجمع أخفُّ من المثنى إذا أضيف. وقيل: هو مما استدلَّ به على أنَّ (أقل الجمع) اثنين». أضواء البيان (٨/ ٢٢٠). وقد بيَّنت ما قيل في أقلِّ الجمع بيانًا وافيًا..

وقد ينظر إلى بعض صيغ الخطاب فيه من اعتبار المثنَّى الَّذي يدلُّ على صنفين أو فريقين يندرج تحتهما أفراد. وفي كلِّ ما ذكر ما يدلُّ على البلاغة والفصاحة، وما هو في سبكه أليق وأمكن وأخفُّ، ويقال في ذلك كلِّه ما قيل في سابقه.

❊ ❊ ❊

المطلب السَّادس: خطاب الجمع بعد الواحد

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾. خطاب له ﷺ، والمراد هو وأمَّته، وقد يخاطب الرَّسول ﷺ، والمراد هو وأتباعه(١).

وفي قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أمران مخصوصان بالرَّسول ﷺ. وأمَّا قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ فهذا خطاب مع النَّبي ومع جميع الأمَّة. والسَّبب في أن خُصَّ الرَّسول بالخطاب أوَّلا، ثمَّ عُمِّم الخطاب مع الكلِّ، هو أنَّ قوله ﷻ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ وإن كان بحسب الظَّاهر خطابًا مختصًّا بالرَّسول ﷺ، إلا أنَّ الأمَّة داخلون فيه، ومرادون منه؛ لأنَّه من المعلوم أنَّه إذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين في ذلك الخطاب. والدَّليل عليه قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، ثمَّ إنَّه ﷻ بعد أن خُصَّ الرَّسول ﷺ بذينك الخطابين عمَّم الكلَّ بالخطاب الثَّالث فقال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ فدلَّ ذلك

(١) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٣٥٦)، وانظر: الكليَّات (ص: ٤٢١)، الإتقان (٢/ ٩١).

على كونهم داخلين في الخطابين الأوَّلين»[(١)].

قال الزَّركشيُّ: «فجمع ثالثها، والخطاب للنَّبيِّ ﷺ. قال ابنُ الأنباريِّ: إنَّما جمع في الفعل الثَّالث ليدلَّ على أنَّ الأمَّة داخلون مع النَّبيِّ ﷺ وحده، وإنَّما جمع تفخيمًا له وتعظيمًا كما في قوله ﷿: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة:٧٥]. وكذلك قوله ﷿: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس:٨٧]. فثني في الأوَّل، ثمَّ جمع، ثمَّ أفرد؛ لأنَّه خوطب أوَّلًا موسى وهارون -عليهما السَّلام-؛ لأنَّهما المتبوعان. ثمَّ سيق الخطابُ عامًّا لهما ولقومهما باتِّخاذ المساجد والصَّلاة فيها؛ لأنَّه واجب عليهم، ثمَّ خُصَّ موسى عليه السلام بالبشارة تعظيمًا له»[(٢)].

وممَّا سبق يُعلم تميُّز المخاطَب أوَّلًا.. ويقال في هذا الخطاب ما قيل في سابقه.

---

(١) تفسير الرَّازي (١٧/ ١٢٢)، تفسير ابن عادل (١٠/ ٣٦٣)، وانظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١٤٨).

(٢) البرهان (٢/ ٢٤١-٢٤٢)، وانظر: الإتقان (٢/ ٩١).

المطلب السَّابع: خطاب الواحد بعد الجمع

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: ٨٧].

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو من أحسن النَّظم وأبدعه، فإنَّه ثنَّى أوَّلا إذ كان موسى وهارون -عليهما السَّلام- هما الرَّسولان المطاعان، ويجب على (بني إسرائيل) طاعة كلِّ واحدٍ منهما سواء، وإذا تبوءا البيوت لقومهما فهم تبع لهما. ثمَّ جمع الضَّمير فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ﴾؛ لأنَّ إقامتها فرض على الجميع. ثمَّ وحده في قوله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ موسى عليه السلام هو الأصل في الرِّسالة، وأخوه ردءًا ووزيرًا، وكما أرسلا برسالة واحدة كانا رسولًا واحدًا، كقوله ﷻ: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]، فهذا الرَّسول هو الذي قيل له: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾»[1].

والحاصلُ أنَّه ثنَّى أوَّلا؛ لأنَّهما المتبوعان، ثمَّ جمع؛ لأنَّ الأمر بإقامة الصَّلاة للجميع، ثمَّ أفرد موسى عليه السلام بالبشارة تعظيمًا له، وهو الشَّاهد هنا؛ إذ جاء الإفراد عقب الجمع. وذلك يدلُّ على تميُّز المخاطَب آخرًا، وأنَّه المتبوع، والجمع قبله تبع له..

---

(١) بدائعُ الفوائد (٤/٨١٦)، وانظر: البرهان (٢/٢٤١-٢٤٢)، (٣/٣٣٥)، الإتقان (٢/٩١)، (٢/٢٣٣).

المطلب الثامن: خطاب الاثنين بعد الواحد

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾ [يونس:٧٨] . المراد بضمير المخاطَبين أعني: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ : موسى وهارون عليهما السَّلام، وإنما لم يفردوا موسى عليه السلام بالخطاب هنا كما أفردوه به فيما تقدَّم؛ لأنَّه المشافه لهم بالتَّوبيخ والإنكار تعظيمًا لأمر ما هو أحد سَبَبَي الإعراض معنى ومبالغة في إغاظة موسى عليه السلام، وإقناطه عن الإيمان بما جاء به[1]. وفي (تفسير أبي السُّعود): «أنَّ تثنية الضَّمير في هذين الموضعين بعد إفراده فيما تقدَّم من المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما -عليهما السَّلام- واستلزام التَّصديق لأحدهما التَّصديق للآخر، وأمَّا اللفت والمجيء له فحيث كانا من خصائص صاحب الشَّريعة أسند إلى موسى عليه السلام خاصّة»[2].

قال الآلوسيُّ تعقيبًا على كلام أبي السُّعود: «فتدبَّر ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ [يونس:٧٩] أسند الفعل إليه وحده؛ لأنَّ الأمر من وظائفه دون الملأ،

---

(١) انظر: تفسير الآلوسي (١١/ ١٦٥-١٦٦)، البرهان (٣/ ٣٣٤)، الإتقان (٢/ ٩١)، (٢/ ٢٣٣).

(٢) تفسير أبي السُّعود (٤/ ١٦٩).

وهذا بخلاف الأفعال السَّابقة من الاستكبار ونحوه، فإنَّها ممَّا تسند إليه وإلى ملئه، لكنَّ الظَّاهر أنَّه غير داخل في القائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ [يونس:٧٨]؛ لأنَّه -عليه اللَّعنة-لم يكن يظهر عبادة أحدٍ كما كان يفعله ملؤه، وسائر قومه، أي: قال لملأه: يأمرهم بترتيب مبادئ الإلزام بالفعل بعد اليأس عن الإلزام بالقول: ﴿ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس:٧٩]»[١].

وفي (التَّحرير والتَّنوير): «ولما كانوا ظنُّوا تطلُّبهما للسِّيادة أتوا في خطاب موسى عليه السلام بضمير المثنَّى المخاطب؛ لأنَّ هارون عليه السلام كان حاضرًا، فالتفتوا عن خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين. وإنَّما شرَّكوا هارون عليه السلام في هذا الظَّنِّ من حيث إنَّه جاء مع موسى عليه السلام، ولم يباشر الدَّعوة فظنُّوا أنَّه جاء معه لينال من سيادة أخيه حظًّا لنفسه»[٢].

أقول: والشَّاهد -بالنِّسبة لمن قال: إنَّه من (خطاب الاثنين بعد الواحد)- أنَّهم أفردوه بالخطاب في صدر الآية، ثمَّ عطف عليه الخطاب المتوجِّه إليهما، وهو من أساليب الالتفات، والغرض منه زيادة التَّيئيس، فإذا كانوا قد أعرضوا عن دعوة موسى عليه السلام لسبب من الأسباب، فإنَّ ذلك الإعراض بعينه متوجِّه لهارون عليه

(١) روح المعاني (١١/ ١٦٥-١٦٦).
(٢) التَّحرير والتَّنوير (١١/ ٢٥٢).

السلام، فسواء أكان من يدعوهما موسى عليه السلام، أم كان هارون عليه السلام، أم كانا معًا فلن يستجيبوا، ولن تكون لهما السِّيادة عليهم -كما يقولون-..

وواضح أنَّ سبب إعراضهم: التَّكبر والاستعلاء، فهذا القول الأوَّل، وقد قيل أيضًا: إنَّ الخطاب متَّجهٌ لهما في صدر الآية وما عطف عليه وفي عجزها، ولكنَّه أفرد أوَّلًا؛ لأنَّ موسى عليه السلام صاحب الرِّسالة...



المطلب التَّاسع: خطاب الواحد بعد الاثنين

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾ [طه: ٤٩].

وقال ابنُ عطيَّة: «وقوله ﷻ: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ بعد جمعه مع هارون في الضَّمير، نداء بمعنى التَّخصيص والتَّوقيف إذ كان صاحب عظم الرِّسالة ولزيم الآيات»(١).

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

وقد سبق بيانه، والتَّعقيب عليه.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾ [الشعراء: ١٦]. وقد سبق بيانه، والتَّعقيب عليه.

❊ ❊ ❊

(١) المحرَّر الوجيز (٤/٤٦)، وانظر: الكليَّات (ص: ٢٤٢)، انظر: المطلب الرَّابع (خطاب الاثنين بلفظ الواحد).

المطلب العاشر: خطاب عين والمراد غيره

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿... أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٦-١٠٧][1].

قال الطَّبري في (تفسيره): «إنَّ قال لنا قائل: أَوَلَم يكن رسول الله ﷺ يعلم أنَّ الله ﷻ على كلِّ شيء قدير، وأنَّه له ملك السَّموات والأرض، حتَّى قيل له ذلك؟! قيل: بلى فقد كان بعضهم يقول: إنَّما ذلك من الله ﷻ خبر عن أنَّ محمَّدًا ﷺ قد علم ذلك، ولكنَّه قد أخرج الكلام مخرج التَّقرير كما تفعل مثله العرب في خطاب بعضها بعضًا، فيقول أحدهم لصاحبه: (ألم أكرمك؟)، (ألم أتفضل عليك؟) بمعنى إخباره أنَّه قد أكرمه وتفضَّل عليه، يريد (أليس قد أكرمتك؟)، (أليس قد تفضَّلت عليك؟) بمعنى: قد علمت ذلك. قال: وهذا لا وجه له عندنا، وذلك أنَّ قوله ﷻ ﴿... أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إنَّما معناه: (أما علمت)، وهو حرف جحد أدخل عليه حرف استفهام، وحروف الاستفهام إنَّما تدخل في الكلام إمَّا بمعنى: (الاستثبات) وإمَّا بمعنى: (النَّفي). فأمَّا

---

(١) ونحوه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٤٠]، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠] .

بمعنى (الإثبات) فذلك غير معروف في كلام العرب، ولاسيَّما إذا دخلت على حروف الجحد، ولكنَّ ذلك عندي وإن كان ظهر ظهور الخطاب للنَّبي ﷺ فإنَّما هو معني به: أصحابه الَّذين قال الله ﷻ: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة:١٠٤]. والَّذي يدلُّ على أنَّ ذلك كذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٠٧]، فعاد بالخطاب في آخر الآية إلى جميعهم، وقد ابتدأ أوَّلها بخطاب النَّبي ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ المراد بذلك الَّذين وصفت أمرهم من أصحابه، وذلك من كلام العرب مستفيض بينهم فصيح أن يخرج المتكلِّم كلامه على وجه الخطاب منه لبعض النَّاس، وهو قاصد به غيره»[(١)].

وقد قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠][(٢)]، الخطاب للنَّبي ﷺ، والمراد الأمَّة[(٣)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧]. وينبغي التَّنبيه على أنَّ

(١) الطبري (١/ ٤٨١-٤٨٢).

(٢) ونحوه: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٤٥]، ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد:٣٧].

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ١٦٢)، تفسير الثَّعالبي (١/ ١٠٣)، (١/ ١١٧)، تفسير السَّمرقندي (١/ ١٥٤).

النَّبي ﷺ معصوم، وأنَّ الخطاب له ﷺ، والمراد غيره ممن يمكن منه الشكُّ[(١)].

ومن الملاحظ بشكل عامٍّ أنَّ قوله ﷻ: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة:١٤٧]. ممَّا قيل فيه: إنَّه من الكلام الَّذي تخرجه العرب مخرج الأمر أو النَّهي للمخاطب به، والمراد به غيره، كما جاء ذلك في آيات أخرى..حيث خرج الكلام مخرج الأمر للنَّبي ﷺ، والنَّهي له ﷺ، والمراد به أصحابه المؤمنون به[(٢)].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٣/ ٣٨٢-٣٨٣)، تفسير الثَّعالبي (١/ ٥٥٤)، الكشف والبيان (٢/ ١٣)، (٣/ ٢٣٦)، (٣/ ٣٧٤)، (٣/ ٣٨٢)، (٥/ ١٤٩)، (٦/ ٩٢)، (٦/ ١٠٠)، (٧/ ٣٣٤-٣٣٥)، (٩/ ٣٤)، تفسير ابن عادل (٧/ ٧)، (٨/ ٢٠٧)، (٩/ ٢٧).

(٢) انظر المصادر السابقة والطَّبري (٢/ ٢٧). قال الإمام الشَّافعيُّ -رحمه الله-: «قال الله عز وجل لنبيِّه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الأحزاب:١-٢]. وقال عز وجل: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام:١٠٦]، وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية:١٨]. فأعلم الله عز وجل رسوله ﷺ مِنَّةً عليه بما سبق في علمه من عصمته إيَّاه من خلقه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة:٦٧]، وشهد له عز وجل باستمساكه بما أمره به، والهدى في نفسه، وهداية من اتَّبعه، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢]، وقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣] فأبان الله عز وجل أن قد فرض على نبيِّه ﷺ اتِّباع أمره، وشهد له بالبلاغ عنه، وشهد به لنفسه، ونحن نشهد له به تقرُّبًا إلى الله عز وجل بالإيمان به..وقال: وفي =

ومن ذلك ما قيل[١] في قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥] على قراءة من قرأ[٢]: ﴿ولَوْ تَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾.

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران: ٦٠][٣].

وهو كقوله عَزَّ وَجَلَّ في (سورة البقرة) الآنف الذِّكر.

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦].

قال قتادة: الخطاب للنَّبي ﷺ، والمراد غيره. وقال غيره: إنما

= شهادته له بأنَّه يهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله عز وجل، والشَّهادة بتأدية رسالته واتِّباع أمره، وفيما وصفت من فرضه طاعته، وتأكيده إيَّاها في الآي [انظر: بيان ذلك فيما سبق من صفات مبلِّغ الخطاب ﷺ] ذكرت ما أقام الله عز وجل به الحجَّة على خلقه بالتَّسليم لحكم رسول الله ﷺ، واتِّباع أمره. وقد سنَّ رسول الله ﷺ مع كتاب الله عز وجل، وسنَّ فيما ليس فيه بعينه نصُّ كتاب، وكلُّ ما سنَّ فقد ألزمنا الله عز وجل اتِّباعه، وجعل في اتِّباعه ﷺ طاعته عز وجل، وفي العنود عن اتِّباعها معصيته الَّتي لم يعذر بها خلقًا..». بتصرُّف عن (الرِّسالة)، للشَّافعي (١/ ٨٥-٩٠).

(١) انظر: القرطبي (٢/ ٢٠٥)، والثَّعالبي (١/ ١٢٧).

(٢) وهي قراءةُ نافع وابن عامر كما في (حجَّة القراءات) (ص: ١١٩)، وانظر: الحجَّة في القراءات السَّبع (ص: ٩١)، وتفسير الطَّبري (٢/ ٦٧-٦٩)، والدُّر المنثور (١/ ٤٠٢).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ١٦٣)، والبغوي (١/ ٣١٠). ونحوه: ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الحجر: ٥٥].

خاطبه تأديبًا وتحذيرًا، وإن كان لا يغتر[١]. والخطاب للنَّبي ﷺ على أنَّ المراد تثبيته على ما هو عليه، كقوله ﷻ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ [القلم: ٨]. أو على أنَّ المراد نهي المؤمنين كما يوجَّه الخطاب إلى مَدارِهِ[٢] القوم ورؤسائِهِم، والمراد: أفناؤهم[٣]، أو لكلِّ أحد ممن يصلح للخطاب من المؤمنين، والنَّهي للمخاطب[٤].

---

(١) انظر: زاد المسير (١/ ٥٣١-٥٣٢)، تفسير البيضاوي (٢/ ١٣٥)، والثَّعالبي (١/ ٣٤٣)، الكشف والبيان (٣/ ٢٣٦)، النَّيسابوي (٢/ ٣٣٤) أخرج الطَّبري بسنده الحسن عن قتادة: واللهِ ما غرُّوا نبيَّ الله قط، حتَّى قبضه اللهُ تَعَالَى. تفسير الطَّبري (٤/ ٢١٧)، الدُّر المنثور (٢/ ٤١٥)، موسوعة الصَّحيح المسبور من التَّفسير بالمأثور (١/ ٤٩٦).

(٢) يقال: (مِدْرَهُ القَوْمِ) أي: زَعِيمُهُم وخَطِيبُهُم والمتكَلِّمُ عنهم والدافِعُ عنهم. انظر: تاج العروس، مادَّة: (دره) (٣٦/ ٣٧٥)، وكذلك في (العين) (٤/ ٢٤)، تهذيب اللُّغة، للأزهريِّ (٦/ ١١٢).

(٣) أي: من جماعتهم وعامَّتهم..، يقال: (رجل من أَفناء النَّاس)، أَي: لم يُعلم ممن هو. وفي (تاج العروس): «الأَفناءُ من النَّاسِ: الأَخْلاطُ، واحِدُها: فِنْوٌ، بالكسْرِ». تاج العروس، مادَّة: (فنو) (٣٩/ ٢٥٨)، وانظر: لسان العرب، مادَّة: (فني) (١٥/ ١٦٤).

(٤) تفسير أبي السُّعود (٢/ ١٣٥)، روح المعاني (٤/ ١٧١). وقد فصَّل القول في ذلك الآلوسيُّ في (تفسيره) حيث قال: «الخطاب للنَّبي ﷺ، والمراد منه أمَّته. وكثيرًا ما يخاطب سيَّد القوم بشيء ويراد أتباعه، فيقوم خطابه مقام خطابهم. ويحتمل أن يكون عامًّا للنَّبيِّ وغيره بطريق التَّغليب تطييبًا لقلوب المخاطَبين. وقيل: إنَّه خطاب له -عليه الصَّلاة والسَّلام- على أنَّ المراد: تثبيته على ما هو عليه، كقوله عز وجل: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ [القلم: ٨]. وضعف بأنَّه -عليه الصَّلاة والسَّلام- لا يكون منه تزلزل حتَّى يؤمر بالثَّبات، وفيه نظر لا يخفى. والنَّهي في المعنى للمخاطَب. أي: لا تغترَّ بما عليه الكفرة من التَّبسط في المكاسب والمتاجر والمزارع، ووفور الحظِّ، وإنَّما جعل النَّهي ظاهرا للتَّقلُّب تنزيلا للسَّبب منزلة المسبَّب؛ فإنَّ تغرير التَّقلُّب للمخاطَب سبب، واغتراره به مسبَّب، فمنع السَّبب بورود =

والخطاب لكلِّ أحد أو للنَّبي ﷺ، والمراد به غيره؛ ولأنَّ مِدْرَهُ القَوْمِ ومقدمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعا، فكأنَّه قيل: (لا يغرنَّكم)؛ ولأنَّ رسول الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان عليه، وثبت على التزامه كقوله ﷻ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. وهذا في النَّهى نظير قوله في الأمر: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦][1].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩]، أي: ما أصابك من من خير ونعمة فمن الله ﷻ، وما أصابك من بليَّة أو أمر تكرهه فمن نفسك، أي: بذنوبك. والخطاب للنَّبي ﷺ، والمراد غيره. نظيره قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠][2].

= النَّهي عليه ليمتنع المسبَّب الَّذي هو اغترار المخاطَب بذلك السَّبب على طريقٍ برهانيٍّ، وهو أبلغ من ورود النَّهي على المسبَّب من أوَّل الأمر. قالوا: وهذا على عكس قول القائل: (لا أرينَّك هنا)، فإنَّ فيه النَّهي عن المسبَّب -وهو الرُّؤية- ليمتنع السَّبب، وهو حضور المخاطَب، وأورد عليه أنَّ الغارية والمغرورية متضايفان. وقد صرَّحوا بأنَّ القطع والانقطاع ونحو ذلك مثلا متضايفان، وحقق أنَّ المتضايفين لا يصحُّ أن يكون أحدهما سببًا للآخر، بل هما معًا في درجة واحدة، فالأولى أن يقال: علَّق النَّهي بكون التَّقلُّب غارًّا ليفيد نهي المخاطَب عن الاغترار؛ لأنَّ نفي أحد المتضايفين يستلزم نفي الآخر، ولا يخفى أنَّ هذا مبنيٌّ على ما لم يقع الإجماع عليه، ولعلَّ النَّظر الصَّائب يقضي بخلافه». روح المعاني (٤/ ١٧١).

(١) انظر: الكشاف (١/ ٤٩٠)، تفسير النَّسفي (١/ ٣٠٠)، ، البحر المحيط (٣/ ١٥٣).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٢٨٥)، تفسير البغوي (١/ ٤٥٤)، تفسير الثَّعالبي (١/ ٣٩٣)، =

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٤٨]، وهذا خطاب للنَّبي ﷺ، بدليل أوَّل الآية: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ . قيل: الخطاب له ﷺ، والمراد غيره[1] .

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٤٩]. قيل: الخطاب له والمراد غيره[2] .

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام:٥٥]. وقد ذكر ذلك المعنى كلٌّ من الزَّجاج في (معاني القرآن)، والقرطبيُّ في (تفسيره).. فحيث إنَّ قراءة التَّاء خطاب للنَّبي ﷺ، أي: (ولتستبينَ يا محمَّدُ سبيلَ المجرمين)، فإنَّه قد يرد على ذلك اعتراض مفاده: فإن قيل: فقد كان النَّبي ﷺ يستبينها؟ فالجواب عند الزَّجاج أنَّ الخطاب للنَّبي ﷺ خطاب لأمَّته، فالمعنى: ولتستبينوا سبيلَ المجرمين[3].

= وفي (معاني القرآن وإعرابه)، للزَّجاج: «هذا خطاب للنَّبي ﷺ مراد به الخلق، ومخاطبة النَّبي قد تكون للنَّاس جميعًا؛ لأنَّه لسانهم..». معاني القرآن الكريم وإعرابه، للزَّجاج (٢/ ٨٧).

(١) انظر: تفسير الرَّازي (١٢/ ١٢).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٢١٣)، وانظر: الكليَّات (ص:٦٦١).

(٣) انظر: معاني القرآن، للزَّجاج (٢/ ٢٥٤-٢٥٥)، تفسير القرطبي (٦/ ٤٣٧).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾ [الأنعام: ٦٨].

ذهب بعض المحقِّقين أنَّ الخطاب هنا وفيما قبل لسيِّد المخاطبين -عليه الصَّلاة والسَّلام- والمراد غيره. وقيل: لغيره ابتداء، أي: إذا رأيت أيُّها السَّامع، وإن أنساك أيُّها السَّامع(١).

والحاصل أنَّه قد قيل: إنَّه خطاب للنَّبي ﷺ والمراد غيره. وقيل: الخطاب لغيره، أي: إذا رأيتَ أيُّها السَّامع الَّذين يخوضونَ في آياتنا(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١٥٠﴾ [الأنعام: ١٥٠] الخطاب له ﷺ والمراد غيره ممن يمكن ذلك منه(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢](٤).

---

(١) انظر: روح المعاني (٧/ ١٨٢)، تفسير القرطبي (٧/ ١٤)، تفسير الرَّازي (١٣/ ٢٣)، تفسير ابن عادل (٨/ ٢٠٧).

(٢) انظر: تفسير الرَّازي (١٣/ ٢٤).

(٣) انظر: روح المعاني (٨/ ٥٣)، وتفسير الثَّعالبي (١/ ٥٦٧).

(٤) انظر: فتح القدير (٢/ ١٨٧).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

ووجَّه كافَ الخطاب في قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أنَّ المعنى: ولو أعجبك أيُّها السَّامع أو أيُّها المخاطَب. وأمَّا أن لا يكون من جملة ما أمر بقوله، ويكون خطابًا للنَّبي ﷺ، فقد ذكر بعضهم أنَّه يحتمل ذلك، والأولى القول الأوَّل، أو يحمل على أنَّه خطاب له في الظَّاهر والمراد غيره[1].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: ٤٣].

قال الزَّركشيُّ: «قوله ﷻ: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ تغليظٌ على المنافقين، وهو في الحقيقة راجعٌ إليهم، وإن كان في الظَّاهر للنَّبي ﷺ»[2].

والقول الَّذي عليه جمهور المفسِّرين أنَّه[3]: عتابٌ من الله تعالى ذكره، عاتب به نبيَّه ﷺ في إذنه لمن أذن له في التَّخلف عنه. . .يقول ما كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التَّخلف عنك، إذ قالوا لك: (لو استطعنا لخرجنا معك) حتَّى تعرف من له العذر منهم في تخلُّفه، ومن

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ٣١)، تفسير القرطبي (٦/ ٣٢٩)، وروح المعاني (٧/ ٣٧)، نظم الدُّرر (٣/ ٣٧١).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٤٣).

(٣) انظر: تفسير الطَّبري (١٠/ ١٤٢)، تفسير الواحدي (١/ ٤٦٥)، القرطبي (٨/ ١٥٤).

لا عذر له منهم، فيكون إذنك لمن أذنت له منهم على علم منك بعذره، وتعلم مَنْ الكاذب منهم من المتخلِّف نفاقًا وشكًّا في دين الله ﷻ[١].

وهنا لطيفة، وهي أنَّ الله ﷻ ومن غاية لطفه بعبده محمَّد ﷺ أن بدأه بالعفو عنه، ورفع محلَّه، فافتتاح الكلام بالدُّعاء له؛ إذ معناه أدام الله ﷻ لك العفو. وأصل العفو: (المحو والتَّرك)[٢].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة: ٨٥].

«ولا شكَّ أن خطابَ الرَّأس بشيءٍ أوقع في قلوب أصحابه؛ فلذلك وقع الخطاب للنَّبي ﷺ، والمراد غيره من أتباعه وجماعته وأشياعه ممَّن قد يجنح إلى الأسباب، ويقف عنده، كما هو طبع النّفوس في تأمُّل ما شهد، ونسيان ما غاب وعهد، تدريبًا لهم على الحبِّ في الله ﷻ، والبغض فيه؛ لأنَّه من أدقِّ أبواب الدِّين فهمًا وأجلِّها قدرًا، وعليه تبتنى غالب أبوابه، ومنه تجتنى أكثر ثمراته وآدابه، وذلك أنَّه ربَّما ظنَّ النَّاظر فيمن بسطت عليه الدُّنيا أنَّه من النَّاجين فيوادَّه لحسن قوله غافلا عن سوء فعله، أو يظنُّ أنَّ أهل الدِّين فقراء إلى مساعدته لهم في جهاد أو غيره بما له وذويه روية فيداريه، فأعلمهم ﷻ أنَّ ما هذا سبيله مقطوع البركة نهيًا عن النَّظر إلى الصُّور، وتنبيهًا على قصر

---

(١) بتصرُّف عن (تفسير الطَّبري) (١٠/ ١٤٢).

(٢) انظر: النَّاسخ والمنسوخ، للكرمي (ص: ١١٩)

الأنظار على المعاني»[١].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: ٩٤]، الخطاب للنَّبي ﷺ، بدليل قوله ﷻ في صدر الآية بعدها: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ [يونس: ١٠٤]، والمراد غيره. أي: لستَ في شكٍّ، ولكنَّ غيرك في شكٍّ [٢].

ثمَّ استأنفَ الكلام فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ ، أي: الشَّاكين المرتابين، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس: ٩٥]، والخطاب في هاتين الآيتين للنَّبي ﷺ، والمراد غيره[٣]. وقال الرَّازيُّ: «إنَّ الخطاب مع النَّبي ﷺ في الظَّاهر، والمراد غيره كقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ﴾ [الأحزاب: ١][٤]، وكقوله ﷻ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥][٥]، وكقوله

---

(١) نظم الدُّرر (٣/ ٣٧١).

(٢) ونحوه قول الله عز وجل: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]. انظر: الإتقان (٢/ ٩١)، انظر: تفسير أبي السُّعود (٤/ ١٧٥)، القرطبيِّ (٨/ ٣٨٢)، (١٦/ ٩٦)، الطَّبري (١١/ ١٦٨-١٦٩).

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ٣٨٣)، النُّكت والعيون (١/ ١٠٥)، (٢/ ١٨٣).. إلخ.

(٤) انظر: تفسير الرَّازي (٧/ ٣٠٢)، السِّراج المنير (٣/ ٢٧٩)، زاد المسير (٦/ ٣٤٧).

(٥) انظر: تفسير القرطبي ١٥ / ٢٧٦.

وَجَلَّ: ﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ومن الأمثلة المشهورة: (إِيَّاكِ أعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَهْ)»[١].

كما بين الرَّازي ذلك بيانًا وافيًا في كلام مطوَّل..[٢].

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يونس: ١٠٥]، فقد قيل: الخطابُ له ﷺ والمراد غيره[٣].

---

(١) تفسير الرَّازي (١٧/ ٣٠٢). جاء في (جمهرة الأمثال): «قولهم: (إيَّاك أعني واسمعي يا جارة)، المثل لسيار بن مالك الفزَّاري، قاله لأخت حارثة بن لأم الطَّائي، وذلك أنَّه نزل بها فنظر إلى بعض محاسنها فهويها، واستحيا أن يخبرها بذلك، فجعل يشبب بامرأة غيرها، فلما طال ذلك وضاق ذرعًا بما يجد، وقف لها فقال:

(كانت لنا من غطفان جاره　　حلالة ظعانة سياره)

(كأنها من هيئة وشاره　　والحلى حلى التبر والحجارة)

(مدفع ميثاء إلى قراره　　إيَّاكِ أعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَهْ)».

جمهرة الأمثال، لأبي هلالٍ العسكريِّ (ص: ٢٩). وانظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عبيد البكري (ص: ٧٦-٧٧).

(٢) انظر: تفسير الرَّازي (١٧/ من١٦٠إلى١٦٣). وفي (أحكام أهل الذِّمة)، لابن القيِّم: وقال كثير من المفسِّرين هذا الخطاب للنَّبي ﷺ والمراد غيره؛ لأنَّ القرآن نزل عليه بلغة العرب، وهم قد يخاطبون الرَّجل بالشيء ويريدون غيره، كما يقول متمثلهم: (إِيَّاكِ أعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَهْ)، وكقوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، والمراد أتباعه بهذا الخطاب. وقيل: إنَّ الله عز وجل يخاطب النَّبي ﷺ والخطاب شامل للخلق، والمعنى: (وإن كنتم في شكٍّ). والدَّليل على ذلك: قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٤]. انظر: أحكام أهل الذِّمة (١/ ١٠٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبيِّ (٨/ ٣٨٧)، تفسير الثَّعالبي (٢/ ١٩٥). =

ومن ذلك ما قيل[(١)] في قوله ﷻ:

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢] بدليل قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من الآية نفسها.

ومن ذلك ما قيل[(٢)] في قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر: ٩٧].

ومن ذلك ما قيل في الآيات التَّالية:

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢].

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦].

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩][(٣)].

فلم يكن النَّبي ﷺ مثلًا ممن يتحسَّر على إنفاق ما حوته يده في سبيل الله ﷻ، فثبت أنَّ المراد غير النَّبي ﷺ، وهو نحو قوله ﷻ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]؛ فإنَّ

(١) انظر: تفسير القرطبي (٩/ ١٠٧).
(٢) انظر: المرجع السابق (٧/ ١٦١).
(٣) انظر: تفسير القرطبيِّ (١٠/ ٢٣٦)، (١٠/ ٢٥٠)، روح المعاني (١٦/ ٧٨). =

الخطابَ للنَّبيِّ ﷺ، والمراد غيره[١]. وقوله ﷻ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٩٤]،لم يرد به النَّبي ﷺ؛ لأنَّه لم يشكَّ قط، فاقتضت هذه الآيات من قوله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] الأمر بتوحيد الله ﷻ، والإحسان إلى الوالدين، والتَّذلل لهما، وطاعتهما، وإعطاء ذي القربى حقَّه، والمساكين وابن السَّبيل حقوقهم، والنَّهي عن تبذير المال وإنفاقه في معصية الله ﷻ، والأمر بالاقتصاد في الإنفاق، والنَّهي عن الإفراط والتَّقصير في الإعطاء والمنع، وتعليم ما يجيب به السَّائل والمسكين عند تعذر ما يعطى[٢].

أقول: السِّياق والسِّباق يفهم منه أنَّ مثل هذا الخطاب القرآني هو خطاب العامِّ من غير قصد شخص معيَّن، ولعلَّ هذا هو الرَّاجح.

ومن ذلك ما قيل[٣] في قوله ﷻ:

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ [الإسراء:٧٥].

---

(١) انظر: تفسير القرطبيِّ (١٥/٢٧٦)، وانظر: أضواء البيان (٢/٣). وبهذا يُعلم أنَّ مِثل قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم:٦٠]، وقوله عز وجل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان:٢٤]، وقوله عز وجل: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء:٢٢] يرادُ به التَّشريع لأُمَّته؛ لأنَّه ﷺ معصومٌ من ذلك الكفر الَّذي نهى عنه. انظر: أضواء البيان (٦/١٧٧-١٧٨)، البحر المحيط (٤/٤٢١)، البحر المديد (٦/٤٢٣)، التَّحرير والتَّنوير (٤/١٧٥)، (١٩/٢٠٠).

(٢) انظر: أحكام القرآن الكريم، للجصَّاص (٥/٢٣)، تفسير الطَّبري (١١/١٦٨)، الدُّر المنثور (٤/٣٨٩)، الكشف والبيان (٥/١٤٩)، ابن عادل (١٠/٤١١).

(٣) انظر: روح المعاني (١٥/٧٨).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١][(١)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وذلك على قراءة: ﴿وَلا تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ -بالتَّاء والجزم- على النَّهي. أي: لا تنسبنَّ أحدًا إلى علم الغيب، فالخطاب لرسول الله ﷺ، والمراد غيره[(٢)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٦].

هو المَنْهيُّ صورةً، والمرادُ غيرُه، فهو من بابِ (لا أُرَيَنَّك هَهنا)[(٣)].

وقيل: «إنَّ صَدَّ الكافر عن التَّصديقِ بها سببٌ للتَّكذيب، فذكر السَّببَ ليدُلَّ على المسبَّب»[(٤)].

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٣/ ١٤٠)، أضواء البيان (٢/ ٣)، (٧/ ١٢)، البحر المديد (٣/ ١٨٥).

(٢) وهي قراءة ابن عامر من السَّبعة. انظر: حجَّة القراءات (١/ ٤١٥)، وانظر: إبراز المعاني (٢/ ٥٦٨)، الأحرف السَّبعة للقرآن، للدَّاني (ص: ٣٨)، معاني القرآن، للنحاس (٤/ ٢٢٩).

(٣) ومن فائدة ذلك أنَّ النَّهي عن اللاَّزم أبلغ في الدِّلالة على النَّهي عن الملزوم من النَّهي عن الملزوم ابتداءً، فإنَّ قولك: (لا أَرَيَنَّكَ ههنا) أبلغُ في الدِّلالة على نهي المخاطَب عن الحضور عندك من أن تقول: (لا تحضر عندي). انظر: الكليَّات (ص: ١٦٣٤)، وانظر: الإنصاف، للبطليوسي (ص: ١١٠).

(٤) انظر: الدُّر المصون (٥/ ١٢)، تفسر ابن عادل (١٣/ ٢٠٥-٢٠٦)، البحر المحيط (٦/ ٢١٩)، تفسير الرَّازي (٢٢/ ٢٤).

ومن ذلك ما قيل[١] في قوله ﷻ:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان: ٥٩].

قال أبو السُّعود في التَّعقيب على ما قيل: «من أنَّ التَّقدير: (إن شككت فيه فاسأل به خبيرًا) على أنَّ الخطاب له ﷺ، والمراد غيره بمعزل من السَّداد». وفي المعنى أقوال كثيرة[٢]. فممَّا قيل: المعنى: فاسأل عنه، قاله الزَّجاج[٣].

وقد حكى هذا جماعةٌ من أهل اللُّغة أنَّ (الباء) تكون بمعنى (عن)[٤] كما قال الله ﷻ: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ [المعارج: ١]. وقال الشَّاعر:

(هَلَّا سَأَلْتِ الخَيْلَ يا ابنَةَ مالِكٍ … إنْ كنتِ جاهِلَةً بما لم تَعْلَمِي)[٥].

---

(١) انظر: روح المعاني (١٦/ ٢٨٣).

(٢) أبو السُّعود (٦/ ٢٢٧)، روح المعاني (١٩/ ٣٩).

(٣) معاني القرآن الكريم وإعرابه، للزَّجاج (٤/ ٧٣)، الدُّر المصون (٥/ ٢٦٠).

(٤) انظر: تفسير القرطبيِّ (١٣/ ٦٣)، (١٨/ ٢٧٩)، البغوي (٢/ ٨٤)، (٣/ ٣٧٤)، وزاد المسير (٣/ ٢)، (٨/ ٣٥٨)، التِّبيان في إعراب القرآن الكريم (١/ ٢٣٤)، (٢/ ١٦٤).

(٥) والقائل هنا هو عنترة بن شدَّادٍ العبسيُّ، من أصحاب (المعلَّقات). وقوله مشهور في معلَّقته، رقم [٣٢]، (ص: ٢٠٢)، وانظر: طبقات فحول الشُّعراء (ص: ١٢٨)، الشِّعر والشُّعراء (١/ ٢٥٠)، الأغاني (٩/ ٢٥٤).

وقال علقمة بن عبدة[(١)]:

(فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ)»[(٢)].

وقيل غير ذلك .

قال القرطبيُّ: «وقول الزَّجاج[(٣)] يخرج على وجه حسن، وهو أن يكون الخبير غير الله عز وجل، أي: (فاسأل عنه خبيرًا)، أي: عالمًا به، أي: بصفاته وأسمائه..»[(٤)].

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]. قيل: الخطاب له ﷺ والمراد غيره[(٥)].

ومن ذلك ما قيل[(٦)] في قوله عز وجل:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٦٠].

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

---

(١) قوله: (وقال علقمة) هو علقمة بن عبدة الفحل التَّيمي، شاعرٌ جاهليٌّ من أصحاب (المعلَّقات). انظر: طبقات فحول الشُّعراء (ص:١٢٨)، والشِّعر والشُّعراء (١/ ٢٥٠).

(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ٦٣-٦٤).

(٣) يعني قوله السَّابق في (معاني القرآن الكريم وإعرابه، للزَّجاج) (٤/ ٧٣).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٣/ ٦٣-٦٤)، الكشف والبيان (٧/ ١٤٣)، (١٠/ ٣٤)، البحر المحيط (٦/ ٤٦٦)، ابن عادل (١٩/ ٣٤٨-٣٥١)، السِّراج المنير (٣/ ٢٨-٢٩) .

(٥) انظر على سبيل المثال: تفسير القرطبيِّ (١٣/ ١٦٣).

(٦) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ٤٩).

﴿٢﴾ [الأحزاب: ١-٢][(١)].

هو من الخاصِّ الَّذي يراد به العامُّ، فالخطاب له ﷺ، والمراد: النَّاسُ جميعًا؛ لأنَّ الخطاب الخاص لفظه بالنَّبي ﷺ يشمل حكمه جميع الأُمَّة[(٢)].

أو يقال: معناه: اثبت على تقوى الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء: ١٣٦][(٣)].

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ [عبس: ١]: ولا بدَّ أوَّلا من التَّعقيبِ على ما ذكره الزَّركشيُّ[(٤)] وغيره[(٥)] ممَّا قيل في قوله عز وجل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ من أنَّه أميَّة بن خلف، قال: وهو الَّذي تولى دون النَّبي ﷺ. ألا ترى

---

(١) ونحوه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝٤٨﴾ [الأحزاب: ٤٨]، ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝١٠٩﴾ [يونس: ١٠٩]، ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ۝٢٨﴾ [الكهف: ٢٨]، ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢]، ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ [القلم: ٨]، ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ [القلم: ١٠]، ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ۝٢٤﴾ [الإنسان: ٢٤]. وانظر: تفسير الطَّبري (١/ ٤٨٢)، (١١/ ١٦٨-١٦٩)، زاد المسير (٤/ ٦٣)، (٦/ ٣٤٨).

(٢) انظر: أضواء البيان (٦/ ١٨٨)، تفسير الطَّبري (١/ ٤٨٢)، (٢/ ٢٧)، السِّراج المنير (٢/ ٣٧).

(٣) انظر: معاني القرآن، للنَّحاس (٥/ ٣١٧)، وزاد المسير (٦/ ٣٤٨).

(٤) البرهان (٢/ ٢٤٣).

(٥) انظر: تفسير الطَّبري (٣٠/ ٥١)، الخازن (٧/ ٢٠٨)، تفسير الماورديِّ (٦/ ٢٠٢)، تفسير مقاتل (٣/ ٤٥١)، تفسير ابن جزي (٤/ ١٧٨).

أنَّه لم يقل: (عبست)!!»[(١)] .

وقد ردَّ هذا القول ابنُ العربيِّ في (أحكام القرآن الكريم) حيث قال: «أمَّا قول المفسِّرين: إنَّه الوليدُ بن المغيرة، أو أميَّة بن خلف والعباس، فهذا كلُّه باطلٌ وجهلٌ؛ لأنَّ أميَّة والوليد كانا بـ: (مكَّة)، وابن أمِّ مكتوم كان بـ (المدينة) ما حضر معهما، ولا حضرا معه، وماتا كافرين، أحدهما: قبل الهجرة، والآخر في (بدر)، ولم يقصد أميَّةُ (المدينة) قطُّ، ولا حضر معه مفردًا، ولا مع أحدٍ، وإنَّما أقبل ابن أمِّ مكتوم رضي الله عنه، والنَّبيُّ ﷺ مشتغل بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الإسلام، وقد طمع في إسلامهم، وكان في إسلامهم إسلام من وراءهم من قومهم، فجاء ابن أمِّ مكتوم رضي الله عنه -وهو أعمى-، فقال: يا رسول الله علِّمني مما علَّمك الله، وجعل يناديه، ويكثر النِّداء، ولا يدري أنَّه مشتغل بغيره، حتَّى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ

(١)انظر: البرهان (٢/ ٢٤٣).
أورد ابن حجر روايات متعدِّدة في بيان المراد به. فقال: «وذكر عبد الرَّزاق عن معمر عن قتادة أنَّ الَّذي كان يكلِّمه أبيُّ بن خلف. ذكره عبد الرَّزاق الصَّنعاني في (تفسيره) (٣/ ٣٤٨)، وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٩٢)، وفي (مسند أبي يعلى) [٣١٢٣]، وروى سعيد بن منصور من طريق أبي مالك أنَّه أميَّة بن خلف. وروى ابن مردويه من حديث عائشة أنَّه كان يخاطب عتبة وشيبة ابني ربيعة. ومن طريق العوفي عن ابن عباس قال: عتبة وأبو جهل وعياش. ومن وجه آخر عن عائشة: كان في مجلس فيه ناس من وجوه المشركين منهم أبو جهل وعتبة. ثمَّ قال - أي: ابن حجر -: فهذا يجمع الأقوال». انظر: فتح الباري (٨/ ٦٩٢). وأخرجه التِّرمذي [٣٣٣١]، والحاكم، [٣٨٩٦].

لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء: إنَّما أتْباعُه العُمْيَان والسَّفلة والعبيد، فعبس وأعرضَ عنه، فنـزلت الآية»[1] .

ويقال ذلك أيضًا في الآيات الَّتي هي من نظائر الآيات السَّابقة، وقد جاء بيان بعضها وأقوال المفسِّرين في ذلك، فيقاس عليها الآيات التَّالية:

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٤]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام:٣٥]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:١١٤]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس:٩٥]، ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يونس:١٠٥]، ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس:١٠٦]، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]، ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء:٣٧]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص:٨٦]، ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص:٨٧-٨٨]، إلى غير ذلك.

ولكنَّ التَّحقيق الَّذي يترجَّح عندي هو ما ذكره الزَّركشيُّ في

(١) أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (٤/ ١٩٠٥-١٩٠٦)، ومن المفسِّرين من نقل أيضًا ما قاله ابنُ العربيِّ في ردِّه كالقرطبيِّ في (تفسيره) (١٩/ ٢١٢)، وابن عادل (١٦/ ٢٢١).

(البرهان)، حيث أورد سؤالًا: «كيف يصحُّ خطابه ﷺ مع ثبوت عصمته عن ذلك كلِّه؟ ويجاب: بأنَّ ذلك على سبيل الفرض، والمحال يصحُّ فرضه لغرض.

والتَّحقيق أنَّ هذا ونحوه من باب خطاب العامِّ من غير قصد شخص معيَّن. والمعنى: اتِّفاق جميع الشَّرائع على ذلك، ويستراحُ حينئذٍ من إيراد هذا السُّؤال من أصله»[١].

---

(١) البرهان (٢/ ٢٤٣-٢٤٤).

المطلب الحادي عشر
خطاب الشَّخص ثمَّ العدول إلى غيره

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ[1] فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤﴾ [هود: ١٤]. قيل: الخطاب للنَّبي ﷺ، ثمَّ قال للكفَّار: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾، بدليل قوله ﷻ: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[2]. أمَّا ما جاء من اختلاف المفسِّرين في تفسير هذه الآية فإنِّي أوجز أهمَّ أقوال المفسِّرين في بيان معنى الآية، فقد قال الفرَّاء في معنى قوله ﷻ: ﴿لَكُمۡ﴾: «أريد بها النَّبي ﷺ. وقوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ ليست للنَّبي ﷺ. إنما هي لكفَّار (مكَّة). ألا ترى أنَّه ﷻ قال: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾»[3].

قال الطَّبريُّ: «وقد قيل: إنَّ قوله ﷻ: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ خطابٌ من الله ﷻ لنبيِّه ﷺ، كأنَّه قال: (فإن لم يستجب لك هؤلاء

---

(١) ولعلَّ مما يدلُّ أنَّ المراد بـ: ﴿لَكُمۡ﴾، النَّبي ﷺ قوله عز وجل في (سورة القصص): ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ [القصص: ٥٠]. وخير ما يفسَّر به القرآن بالقرآن نفسه. وفي (الكشف والبيان): ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ لفظه جمع، والمراد به الرَّسول ﷺ وحده كقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١]. ويعني: الرَّسول. انظر: الكشف والبيان (٥/ ١٥٩). وقد بيَّنت المراد من الآية الأخيرة في موضعها.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٤٥)، الإتقان (٢/ ٩٢).

(٣) انظر معاني القرآن، للفرَّاء (٢/ ٥-٦).

الكفَّار يا محمَّد، فاعلموا أيُّها المشركون أنَّما أنزل بعلم الله ﷻ)، وذلك تأويل بعيد من المفهوم»[١]. وقال القرطبيُّ: «ولم يقل: (لك)، فقيل: هو على تحويل المخاطبة من الإفراد إلى الجمع تعظيمًا وتفخيمًا، وقد يخاطب الرَّئيس بما يخاطب به الجماعة. وقيل: الضَّمير في ﴿لَكُمْ﴾ ، وفي ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ للجميع، أي: فليعلم الجميع أنما أنزل بعلم الله ﷻ، قاله مجاهد[٢]. وقيل: الضَّمير في ﴿لَكُمْ﴾ ، وفي ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ للمشركين، والمعنى: فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة، ولا تهيأت لكم المعارضة ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ . وقيل: الضَّمير في ﴿لَكُمْ﴾ للنَّبي ﷺ وللمؤمنين، وفي ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ للمشركين»[٣].

والحاصل أنَّ قوله ﷻ: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ فيها وجهان:

أحدهما: أن تكون مخاطبة من الله ﷻ للنَّبي ﷺ وللمؤمنين، أي: إن لم يستجب الكفَّار إلى ما دعوتموهم إليه من معارضة القرآن فاعلموا أنَّه من عند الله ﷻ، وهذا على معنى: (دوموا على علمكم بذلك)، أو (زيدوا يقينًا به).

والثَّاني: أن يكون خطابًا من النَّبيِّ ﷺ للكفَّار. أي: إن لم يستجب

---

(١) تفسير الطَّبري (١٢/ ١٠).

(٢) وما ذكره القرطبيُّ عن مجاهد يخالف ما روي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٤﴾ يعني به أصحاب محمَّد ﷺ. انظر: تفسير مجاهد (١/ ٣٠١)، وانظر: تفسير الطبريِّ (١٢/ ١٠) .

(٣) تفسير القرطبي (٩/ ١٣)، وانظر: تفسير ابن جزي (١/ ٤٣٩) .

من تدعونه من دون الله ﷻ إلى شيء من المعارضة، ولا قدر جميعكم عليه فاعلموا أنَّه من عند الله ﷻ، وهذا أقوى من الأوَّل لقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ .

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾[الفتح: ٨-٩]، في قراءة من قرأ: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟﴾ بالفوقيَّة[1]، فالخطاب في قوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ للنَّبي ﷺ وأمَّته[2]، «فالخطاب في ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ للنَّبيِّ، وفي: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟﴾ لأمَّته، فعلى هذا إن كان اللَّام للتعليل يكون المعلل محذوفًا، أي: لتؤمنوا بالله وكيت وكيت فعل ذلك الإرسال، أو للأمر على طريقة: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِك فَلْتَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] -على قراءة التَّاء الفوقانيَّة-[3]. فقيل: هو على معنى: (قل لهم لتؤمنوا..إلخ).

---

(١) «قرأ ابنُ كثير وابن محيصن وأبو عمرو: ﴿ليؤمنوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ويعزروه ويوقروه ويسبحوه﴾ أربعهن بالياء. وروى عبيد عن هارون عن أبى عمرو بالتَّاء أربعهن، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائيُّ بالتَّاء جميعًا». السَّبعة في القراءات (ص: ٦٠٣)، الحجَّة (ص: ٣٢٩)، حجَّة القراءات (ص: ٦٧١)، إتحاف فضلاء البشر (ص: ٧٠٦).

(٢) انظر: تفسير أبي السُّعود (٨/ ١٠٦)، روح المعاني (٢٦/ ٩٥)، النَّسفي (٤/ ٢٣٠).

(٣) انظر: تفسير الطبريِّ (١١/ ١٢٦). انظر تفسير الطبري (١١/ ١٢٦)، روح المعاني (٢٦/ ٩٥)، وانظر: المقتضب، للمبرَّد (٢/ ١٢٩)، الدُّر المنثور (٤/ ٣٦٧). وفي (معاني القرآن، للنَّحاس) (٣/ ٣٠٠)، (الحجَّة في القراءات) (ص: ١٨٢).

وقيل: «هو للأمَّة على أنَّ خطابه ﷺ منـزَّلٌ منـزلة خطابهم، فهو عينه ادعاء، واللَّام متعلِّقة بأرسلنا...»[١].

وفي (فتح القدير): «فعلى القراءة الأولى: الخطاب لرسول الله ﷺ ولأمَّته. وعلى القراءة الثَّانية المراد: المبشِّرين والمنذرين»[٢].

وانظر المزيد من البيان لذلك في (البرهان في علوم القرآن)[٣]

❊ ❊ ❊

---

(١) روح المعاني (٢٦/ ٩٥).

(٢) فتح القدير (٥/ ٤٧)، وانظر: زاد المسير (٣/ ٤٤١).

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٧٤-٣٧٥).

المطلب الثاني عشر
خطاب الكل وإرادة البعض

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [التوبة:٣٨].

وهذا قد يشكل على البعض حيث يدلُّ على أنَّ كلَّ المؤمنين كانوا متثاقلين في ذلك التَّكليف، وذلك التَّثاقل معصية، وهذا يدلُّ على إطباق كلِّ الأمة على المعصية، وذلك يقدح في أنَّ إجماع الأمَّة حجَّة.

والجواب: أنَّ خطاب الكلِّ لإرادة البعض مجازٌ مشهور في القرآن، وفي سائر أنواع الكلام كقوله: (إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَهْ)(١).

---

(١) سبق بيان هذا القول وتخريجه. انظر: تفسير الرَّازي (١٦/٤٨).

المطلب الثَّالث عشر
خطاب الملائكة وإرادة غيرهم

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سبأ: ٤٠].

هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفَّار، وارد على المثل السَّائر: (إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَهْ)..[١].

(١) انظر: الكشاف (٣/ ٢٩٢-٢٩٣)، وانظر: البحر المديد (٦/ ٨٩)، السِّراج المنير (٣/ ٣٧٥)، النَّسفي (٣/ ٤٧٣).

المطلب الرَّابع عشر: الخطاب القرآني العام الذي لم يقصد به مخاطب معيَّن

وهو من الخاطب بصيغة من صيغ الخطاب الخاصِّ، ولا يراد به مخاطب معيَّن كما قال بذلك جمع من المفسِّرين -كما سيأتي بيان ذلك-. وقد ناسب أن تختم به المباحث ذات الصِّلة بالعامِّ والخاصِّ.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وقد أحصيت هذه الصِّيغة هنا، وهي على النَّحو التَّالي:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ [البقرة:٢٤٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ [البقرة:٢٤٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة:٢٥٨]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ﴾ [آل عمران:٢٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ﴾ [النساء:٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ﴾ [النساء:٤٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء:٥٠]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء:٦٠]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء:٧٧]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ [إبراهيم:١٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم:٢٤] ، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾

[إبراهيم: ٢٨]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ١٨]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٤١]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ [النور: ٤٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٥]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [لقمان: ٢٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [لقمان: ٣١]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [فاطر: ٢٧]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ﴾ [الزمر: ٢١]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [غافر: ٦٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المجادلة: ٧]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ [المجادلة: ٨]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [المجادلة: ١٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [الحشر: ١١]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ [الفجر: ٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل: ١].

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ :

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ

رَبِّهِمْۚ﴾ [الأنعام:٣٠]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام:٩٣]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال:٥٠]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة:١٢]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ [سبأ:٣١]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ:٥١].

لم يقصد بذلك خطاب معيَّن، بل كلُّ أحد، وأخرج في صورة الخطاب؛ لقصد العموم، يريد أن حالهم تناهت في الظُّهور، بحيث لا يختصُّ بها راءٍ دون راءٍ، بل كلُّ من أمكن منه الرُّؤية داخل في ذلك الخطاب[1].

وقال الآلوسيُّ في تفسير قول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [لقمان:٢٩]: «قيل: خطاب لسيِّد المخاطَبين ﷺ. وقيل: عامٌّ لكلِّ من يصلح للخطاب، وهو الأوفق لما سبق وما لحق، أي: (ألم تعلم)[2].

وفي (التَّحرير والتَّنوير): «اعلم أنَّ تركيب ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إذا جاء (فعل الرُّؤية) فيه متعدِّيًا إلى ما ليس من شأن السَّامع أن يكون رآه، كان كلامًا مقصودًا منه التَّحريض على علم ما عدِّي إليه (فعل الرُّؤية)، وهذا

(١) البرهان (٢/ ٢١٩)، الإتقان (٢/ ٩٢)، تفسير ابن عادل (١٥/ ٤٦٣-٤٦٤)، الخازن (٧/ ٢٤١)، السِّراج المنير (٣/ ٢٥٤-٢٥٥)، الكليَّات (ص:١٦٦).
(٢) روح المعاني (٢١/ ١٠٢).

ممَّا اتَّفق عليه المفسِّرون؛ ولذلك تكون همزة الاستفهام مستعملة في غير معنى الاستفهام، بل في معنى مجازي أو كنائي من معاني الاستفهام غير الحقيقي، وكان الخطاب به غالبًا موجَّها إلى غير معيَّن، وربَّما كان المخاطَب مفروضًا متخيَّلا..»[١].

وفي موضع آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ «الخطاب لكلِّ من يصلح للخطاب غير معيَّن»[٢].

وفي (البرهان): «وقد يخرج على غير معيَّن؛ ليفيد العموم كقوله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥]. وفائدته الإيذان بأنَّه خليقٌ بأن يؤمر به كلُّ أحدٍ؛ ليحصل مقصوده الجميل، وكقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ:٥١] أخرج في صورة الخطاب لما أريد العموم للقصد إلى تقطيع حالهم، وأنَّها تناهت في الظُّهور حتَّى امتنع خفاؤها، فلا تخص بها رؤية راءٍ، بل كلُّ من يتأتَّى منه الرُّؤية داخل في هذا الخطاب، كقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان:٢٠] لم يُرَدْ به مخاطب معيَّن، بل عبَّر بالخطاب ليحصل لكلِّ واحد فيه مدخل مبالغة فيما قصد الله ﷻ من وصف ما في ذلك المكان من النَّعيم والملك، ولبناء الكلام في الموضعين على العموم لم يجعل لـ (ترى) ولا لـ (رأيت) مفعولا ظاهرا ولا مقدَّرا ليشيع ويعم. وأمَّا قوله ﷻ:

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢/ ٤٧٦).

(٢) المصدر نفسه (١٣/ ٢١٤).

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]، فقيل: إنَّه من هذا الباب، ومنعه قوم. وقيل: الخطاب للنَّبي ﷺ، و(لو) للتَّمني لرسول الله ﷺ كالتَّرجي في ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]؛ لأنَّه تجرَّع من عداوتهم الغصص، فجعله الله ﷻ كأنَّه تمنى أن يراهم على تلك الحالة الفظيعة من نكس الرُّؤوس صمًّا عميًا ليشمت بهم. ويجوز أن تكون (لو) امتناعيّة وجوابها محذوف، أي: لرأيت أسوأ حال يرى»[١].

أمَا نحو قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] فليس من هذا الباب. ولكن يظهر تباين ما بين قوله ﷻ لمحمَّد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ ، وبين قوله ﷻ لنوح عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، وقد تقرَّر أنَّ محمَّدًا ﷺ أفضل الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام-. ومنهم من قال[٢]: المراد بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ للنَّبي ﷺ، والمراد أمَّته. قال ابن عطيَّة: «وهذا ضعيف لا يقتضيه اللَّفظ»[٣].

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢١٩-٢٢٠).

(٢) حكاه ابن عطيَّة عن مكيٍّ والمهدويِّ كما في (المحرَّر الوجيز) (٢/ ٢٨٨)، وكذلك الزَّركشيُّ في (البرهان) (٢/ ٢٤٤)، وفي (البحر المحيط في أصول الفقه) (٢/ ٣٤١)، وكذلك أبو حيَّان في (البحر المحيط)، وأورد التَّضعيف المذكور (٤/ ١٢١-١٢٢).

(٣) أقول: أورد الثَّعالبي في (تفسيره) تعقيبًا على ما ذكره ابن عطيَّه -والَّذي نقله عنه غير واحد- قال: «قلت: وما قاله فيه عندي نظر؛ لأنَّ هذا شأن التَّأويل (إخراج اللَّفظ عن ظاهره لموجب) على أنَّ أبا محمَّد مكيّا رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقل هذا القول عن غيره نقلا، ولفظه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ أي: ممَّن لا يعلم أنَّ الله عز وجل لو شاء لجمع على الهدى جميع خلقه. وقيل: =

وقال قوم: وقّر نوح عليه السلام لسنِّه وشيبه. وقال قوم: جاء الحمل على النَّبي ﷺ، لقربه من الله ﷻ، ومكانته، كما يحمل العاتب على قريبه أكثر من حمله على الأجانب[(١)]. قال[(٢)]: والوجه القويُّ عندي في الآية هو أنَّ ذلك لم يجىء بحسب النَّبيين، وإنَّما جاء بحسب الأمر من الله ﷻ، ووقع النَّبي ﷺ عنهما والعقاب فيهما»[(٣)].

وفي خطابه سبحانه لنبيِّه ﷺ بهذا الخطاب دون خطابه بما خوطِبَ به نوح عليه السلام من قوله ﷻ: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ إشارة إلى مزيد شفقته ﷺ، وحرصه ﷺ على أمَّته[(٤)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾ [الرعد: ٥].

والخطاب هنا يجوز أن يكون موجَّهًا إلى النَّبيِّ ﷺ، وهو المناسب بما وقع بعده من قوله: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي

= معنى الخطاب لأُمَّة النَّبي ﷺ، والمعنى: فلا تكونوا من الجاهلين..ومثله في القرآن كثير». تفسير الثَّعالبي (١/ ٥١٧). أقول: أمَّا قول الثَّعالبي: «ومثله في القرآنِ كثيرٌ»، أي: بأن يكون الخطابُ للنَّبي ﷺ، والمراد أمَّته فلا يسلَّم له هذه الكثرة، بل هذا تأويل بغير موجب، والَّذي يوجد بكثرة هو دخول النَّبي ﷺ وأمَّته في الخطاب، وقد يخاطب الرَّئيس بما يخاطب به الجماعة.

(١) انظر: المحرَّر الوجيز (٢/ ٢٨٨)، (٣/ ١٧٨)، البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٤٤).

(٢) أي: ابن عطيَّة (القاضي أبو محمَّد).

(٣) المحرَّر الوجيز (٢/ ٢٨٨)، وكذلك في (البحر المحيط) (٤/ ١٢١)، البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٤٤).

(٤) انظر: روح المعاني (٧/ ١٣٩) .

خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾ [الرعد:٦]، وما بعده من الخطاب الَّذي لا يصلُحُ لغير النَّبي ﷺ. ويجوز أن يكون الخطاب هنا لغير معيَّن..والفعل الواقع في سياق الشَّرط لا يقصد تعلُّقه بمعمول معيَّن فلا يقدَّر: إن تعجب من قول أو إن تعجب من إنكار، بل ينـزَّل الفعل منـزلة اللَّازم ولا يقدَّر له مفعول، والتَّقدير: إن يكن منك تعجب فاعجب من قولهم..إلخ[١] .

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ١١﴾ [الغاشية:١١].

فقوله ﷻ: ﴿لَا تُسۡمِعُ﴾ ، أي: أنت يا مخاطب، فالخطاب عامٌّ لكلِّ من يصلح له.

أقول: ويتبيَّن ممَّا سبق أنَّ الخطاب القرآني الَّذي لم يقصد به مخاطَبٌ معيَّن يدلُّ على عموم الخطاب، وفيه زيادة الحثِّ والتَّحريض حيث خرجت صورة الخطاب العامِّ وكأنَّها موجَّهة إلى كلِّ فرد من أفراده على حدة، فيكون ذلك أدعى إلى الامتثال.. .

❁ ❁ ❁

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٨٩/١٣) .

المطلب الخامس عشر
أساليب الالتفات في الخطاب القرآني

وحيث إنَّ هذا اللَّون من ألوان الخطاب مبسوطٌ في (كتب البلاغة)[١]، وفي (كتب علوم القرآن) كـ: (البرهان)، للزَّركشيِّ[٢]، و(الإتقان)، للسُّيوطيِّ[٣]، فإنِّي أهتمُّ بالتَّعريف به استكمالًا لجوانب البحث؛ ولأنَّه جدير بأن يفرد بالبحث؛ لتنوُّع الأساليب فيه وكثرتها[٤].

وما أتناوله هنا يتضمَّن:

أ. **تعريف الالتفات:**

(الالتفات) هو التَّعبير عن معنى من المعاني بطريق من الطرق الثَّلاثة: التَّكلم والخطاب والغيبة بعد التَّعبير عنه بطريق آخر منها، وهو من أجلِّ علوم البلاغة[٥].

---

(١) انظر على سبيل المثال: الإيضاح في علوم البلاغة (ص٧٣-٧٤)، مختصر المعاني، للسَّعد (ص: ٧١-٧٢).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ من ص: ٣١٤ إلى٣٣٧).

(٣) انظر: الإتقان (١/ من ص: ٢٢٨ إلى٢٣٤).

(٤) ومن الباحثين من أفرده بالتَّأليف، كالدُّكتور حسن طبل في كتابه: (أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنيَّة)، دار الكتب، (القاهرة)، [١٤١١هـ] .

(٥) انظر ما يدلُّ على اهتمام المفسِّرين ببيان هذا اللَّون من ألوان الخطاب في (التَّحرير والتَّنوير) (١/ ١٠٩)، وانظر (التَّحرير والتَّنوير) أيضا في كلام جدُّ نفيس (١/ ١٧٨)، (٣٠/ ١٣٨)، وكذلك الزَّمخشريُّ في (الكشاف) (١/ ٦٢)، وانظر: تفسير ابن عادل (١/ ١٩٨-١٩٩)، وانظر: التَّعريف في (مختصر المعاني)، للسَّعد (ص: ٧١)، الكليَّات (ص: ٢٤٠)، =

وسمِّي بذلك: لأنَّه مأخوذ من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا، وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النَّوع من الكلام خاصّة؛ لأنَّه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة، من خطاب إلى غيبة، ومن غيبة إلى خطاب، إلى غير ذلك من أنواع الالتفات .

ويسمَّى أيضا: (شجاعة العربيَّة)[(١)]، وإنَّما سمِّي بذلك؛ لأنَّ الشَّجاعة هي الإقدام، وذاك أنَّ الرَّجل الشُّجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورَّده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإنَّ اللُّغة العربيَّة تختصُّ به دون غيرها من اللُّغات[(٢)].

ومنهم من أطلق عليه (خطاب التَّلوين)[(٣)].

= التَّعاريف، للمناويِّ (ص: ٨٧)، التَّعريفات، للجرجانيِّ (ص: ٥١).

(١) وقد أطلق عليه هذا الاسم ابنُ جني في (الخصائص) (٢/ ٣٦٠)، (٢/ ٤٤٧)، وجعله من (شجاعة العربيَّة) الطوفيُّ في (الإكسير). انظر: الإكسير في علم التَّفسير (ص: ١٤٠).

(٢) انظر: الخصائص، لابن جني (٢/ ٣٦٠)، (٢/ ٤٤٧)، المثل السَّائر (٢/ ٣)، شرح شافية ابن الحاجب (٤/ ٢٦٥). وقد ذكر هذا المعنى من المفسِّرين: الطَّاهر بن عاشور في (التَّحرير والتَّنوير) (١/ ١٠٩)، (١/ ١٨٠)، والزَّركشيُّ في (البرهان) (٣/ ١٠٥)، والسُّيوطي في (الإتقان) (٢/ ٥٥) .

(٣) انظر: المدهش، لابن الجوزي (١/ ١٥-١٦)، وانظر: من (كتب التَّفسير): تفسير الماوردي (٣/ ٢١٨)، تفسير القرطبي (١٢/ ٣٢٣)، ومن كتب (علوم القرآن): الإتقان (٢/ ٩٢)، والبرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٤٦)، ومن غيرها: اقتضاء الصِّراط، لابن تيمية (ص: ٢٣).

ب. ومن صور الالتفات:

١- (الالتفاتُ من الغيبة إلى الخطاب) كقوله ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٢-٥]، فحوَّل الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾، وكقوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١-٢٢].

٢- (الالتفاتُ من الخطاب إلى الغيبة): كقوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢].

٣- (الالتفاتُ من الغيبة إلى التَّكلُّم): كقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢]، ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا﴾ [فصلت: ١٢].

٤- (الالتفاتُ من التَّكلُّم إلى الغيبة): كقوله ﷻ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ١-٢].

٥ - (التَّكلُّمُ إلى الخطاب): قوله ﷻ: ﴿... وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧١ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧١-٧٢].

وله صورٌ أخرى مبسوطةٌ في مظانِّها[1].

ومن الالتفات: نقل الكلام من خطاب الواحد إلى الاثنين، وإلى الجمع، ومن الاثنين إلى الواحد، وإلى الجمع، ومن الجمع إلى الواحد، وإلى

(١) تنظر: هذه الأوجه فيما سبقت الإشارة إليه من المراجع، كـ (أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنيَّة)، للدُّكتور حسن طبل.

الاثنين. . . إلخ. وقد كانت العناية ببيان ذلك كلِّه، كلٌّ في موضعه. .

ج. بيانُ ما يستفادُ من الأهداف والمقاصد العامَّة من الالتفات:

إنَّ من فوائد الالتفات: تطريةُ الكلام، والتَّفنن في الأسلوب؛ لأنَّ الكلام إذا نقل من أسلوبٍ إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السَّامع؛ وإيقاظًا للإصغاء إليه؛ واستدرارًا له؛ وتجديدًا لنشاطه؛ وصيانةً لخاطره من الملال والضَّجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه[(١)].

ويمكن إيجاز هذه الفوائد بما يلي:

١- حملُ المخاطَب على الانتباه، لتغير وجه الأسلوب عليه.

٢- حمله على التَّفكير في المعنى؛ لأنَّ تغيير وجه الأسلوب، يؤدِّي إلى التَّفكير في السَّبب.

٣ - التَّعرف على أسلوبٍ بلاغيٍّ من أساليب القرآن. .

٤ - وفي تنوُّع الأساليب: تقريرٌ للحججِ والبراهين، وترسيخٌ للعقيدة والأحكام، وتثبيتٌ للنُّفوس وتسليةٌ لها، وتجديدٌ لنشاطها وإقبالها على كتاب الله ﷻ.

وهذه الفوائد عامَّة للالتفات في جميع صوره. أمَّا الفوائد الخاصَّة فتتعيَّن في كلِّ صورة، حسب ما يقتضيه المقام -كما بين ذلك في ثنايا البحث-.

---

(١) انظر: الكشاف (١/ ٦٤)، روح المعاني (١/ ٨٩)، فتح القدير (١/ ٣٥)، تفسير النَّيسابوري (١/ ٨٥)، البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٤)، الإتقان (٢/ ٢٢٩)، وينظر: المثل السَّائر (٢/ ٣)، ومختصر المعاني (١/ ٧٢).

المبحث الخامس

ما يتعلَّق من الخطاب بحال الإنسان ومشاعره وأحاسيسه

وإذا عرف المخاطَب ما يتعلَّق بتنوُّع الخطاب من الحيثيَّات المذكورة اشتاقت نفسه إلى التَّعرف على ما يتعلَّق منه بحال الإنسان ومشاعره وأحاسيسه، وأنَّ من أوجه التَّنوع ذات الصِّلة بحال الإنسان ومشاعره ما له أثر في قبول الخطاب أو العمل بمقتضاه، كالتَّهييج والإغضاب والتَّشجيع. . .إلخ.

وكذلك (خطاب الاعتبار) وهو ممَّا له تأثير في نفس المخاطَب يجعله أقرب إلى تأمُّل الخطاب، والعمل بمقتضاه..إلخ.

وفي هذا المبحث مطالب، وهي على النَّحو التَّالي:

المطلبُ الأوَّل: خطابُ الكرامة.

المطلبُ الثَّاني: خطابُ الإهانة .

المطلبُ الثَّالث: خطابُ التَّهكم.

المطلبُ الرَّابع: خطابُ الاعتبار والاتِّعاظ.

المطلبُ الخامس: خطابُ التَّهييج.

المطلبُ السَّادس: خطابُ الإغضاب.

المطلبُ السَّابع: خطابُ التَّشجيع والتَّرغيب وخطاب التَّنفير والتَّرهيب.

المطلبُ الثَّامن: خطابُ التَّحنن والاستعطاف والتَّحبب.

المطلبُ التَّاسع: خطابُ التَّحسر والتَّلهف.

وبيانُ ذلك على النَّحو التَّالي:

المطلب الأوَّل: خطاب الكرامة

أقول: ويلاحظ في هذا النّوع من الخطاب القرآني أنَّ التَّمثيل له يختلف بين الباحثين في علوم القرآن، فقد مثَّل الزَّركشيُّ لهذا النُّوع من الخطاب القرآني بما يفهم (ممَّا ولِيَ المنادَى)[١]، وذلك بخلاف ما مثَّل السُّيوطيُّ له مما يفهم من لفظ (المنادَى) نفسه[٢].

فقد مثَّل الزَّركشي بقول الله ﷻ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة:٣٥]، وقوله ﷻ: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجر:٤٦]، بينما مثَّل السُّيوطي بقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة:٤١]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأنفال:٦٤]. ثمَّ قال: ولهذا تجد الخطاب بالنَّبي في محلٍّ لا يليق به الرَّسول، وكذا عكسه، كقوله ﷻ في مقام الأمر بالتَّشريع العامِّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]. وفي مقام الخاصِّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١]. ومثله: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠]..إلى آخر ما ذكره..

ويلاحظ أنَّه نقله عن الزَّركشيِّ[٣]، ولكنَّ الزَّركشي جعله من

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٣١).

(٢) انظر: المصدر السَّابق (٢/ ٨٩).

(٣) انظر: المصدر السَّابق (٢/ ٢٢٨). وسيأتي (خطاب المدح) مستقلاً.

(خطاب المدح)، والسُّيوطي من (خطاب الكرامة).

أقول: ولا بدَّ أوَّلًا من بيان أنَّ ما ذكره السُّيوطيُّ فيه معنى المدح والتَّكريم، ولكنَّ الأولى - إذا أردنا أن نميِّز بينهما- إدراجه تحت (خطاب المدح)، وإلا فما الَّذي يميِّز (خطاب المدح) عن (خطاب الكرامة)؟

إنَّ (خطاب الكرامة) إذا ذكر مستقلًّا فإنَّه يكونُ أكثر تخصيصًا من (خطاب المدح)، ويفهم ذلك من تمثيلِ الزَّركشيِّ، والَّذي لا يُقتصر فيه على (المنادَى) فحسب، وإنَّما يعتبر فيه (ما ولِيَ المنادَى) من المعنى الَّذي يدلُّ على الكرامة، فقوله ﷻ لآدم عليه السلام: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ، فما ولي المنادَى من (فعل الأمر) ﴿ٱسْكُنْ﴾ وما أتى بعده يدلُّ على الكرامة، وإلا فإن اقتصر على قوله: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ﴾ فأينَ المدح؟ وإن نظرنا إلى (ما ولي المنادَى) فإنَّه ممَّا أكرمه الله ﷻ به؛ فإنَّ الجنَّة هي دار الكرامة، ومن يحلُّ فيها فهو مكرَّمٌ، وكذلك قوله ﷻ: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجر: ٤٦]، وقوله ﷻ: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق: ٣٤] حيث يقال فيه ما قيل في سابقه. فالنظر في خطاب الكرامة المستقل المتميز ينظر فيه إلى مآل وعاقبة يكون المكلف فيها مكرَّمًا.

ولم يتنبَّه السُّيوطيُّ إلى هذا المعنى، حيث فرَّق بين الخطابين من حيث العنوان، ولم يفرِّق بينهما من حيثُ التَّمثيل..

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الخطاب بـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ ، أو ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

ٱلنَّبِيُّ﴾ فيه المدح والتَّكريم؛ فإنَّه على سبيل التَّشريف والتَّكرمة والتَّنويه بمحلِّه وفضيلته، ومثل هذا ينظر إليه بالنَّظر إلى (المنادَى). أمَّا (ما ولي المنادَى) فقد يكون أمرًا آخر..كقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ [التحريم:١]. وإنَّ الاهتمام هنا ينصبُّ على (ما ولي المنادَى) حتَّى يتميَّز كلٌّ من الخطابين عن الآخر كما هو صنيعُ الزَّركشيِّ في (البرهان) -كما أسلفت-. وأمَّا الخطاب بنحو: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ فإنَّ معنى الكرامة فيه هو المقصود من الخطاب، بمعنى أنَّه لا يقصد من المنادَى في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾: التَّكريم، وإنَّما (مما ولي المنادَى)، كما أنَّ (ما ولي المنادَى) لا يقصد منه إلا التَّكريم؛ فإنَّ دخول الجنَّة تكريم من الله ﷻ. والتَّكْرِيم والإِكْرَام بمعنى، والاسم منه: الكَرَامة. ويقال: حَمَل إليه الكَرَامةَ، وهو مِثْلُ: النُّزُل[1]. أمَّا قوله ﷻ: ﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ فإنَّه يحتمل أن يكون للسَّكن والأكل، بمعنى: اسكنا حيث شئتما، وكُلا حيث شئتما. وفي هذا تكريم أوسع؛ لأنَّ الله ﷻ جعل لهما مجال اختيار السَّكن والأكل .

ومن عموم الخطاب الَّذي فيه الكرامة والتَّشريف: خطاب الله ﷻ لأهل الجنَّة، حيث يقول الله ﷻ: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ

(١) انظر: مختار الصِّحاح، مادَّة: (كرم) (ص:٥٨٦)، العين، للخليل (٥/٣٦٨).

فِيهَا سَلَٰمٞۚ﴾ [يونس: ١٠][(١)].

فقوله ﷻ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ﴾، أي: ما يحيون به .﴿فِيهَا سَلَٰمٞ﴾، أي: سلامتهم من كلِّ مكروه، وهو خبر ﴿تَحِيَّتُهُمۡ﴾، و﴿فِيهَا﴾ متعلِّق بها، والتَّحية والتَّكرمة بالحال الجليلة، و(أصلها: أحياك الله ﷻ حياة طيِّبة)، وإضافتها هنا إلى المفعول. والفاعل إمَّا الله ﷻ، أي: تحية الله ﷻ إيَّاهم ذلك، ويرشد إليه قوله ﷻ: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨﴾ [يس:٥٨]، أو الملائكة -عليهم السَّلام-، ويرشد إليه قوله ﷻ: ﴿... وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤][(٢)]، وجُوِّز أن تكون الإضافة إلى الفاعل بتقدير مضاف، أي: تحيّة بعضهم بعضًا آخر ذلك[(٣)].

---

(١) قوله عز وجل: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ﴾ ابتداء وخبر، و﴿فِيهَا﴾ من صلة التَّحية. وقيل: هي والمعنى: أنَّ بعضهم يحيي بعضًا بالسَّلام. وقيل: هي تحية الملائكة إيَّاهم من إضافة المصدر إلى المفعول من غير أن يذكر معه الفاعل. وقيل: تحية الله عز وجل إيَّاهم، أي: يحيِّهم الله عز وجل بالسَّلام. انظر: الفريد (٢/ ٥٣٦). أو يقال: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ﴾ مبتدأ و﴿فِيهَا﴾ متعلِّقان بتحيَّتهم أو بمحذوف حال، و﴿سَلَٰمٞۖ﴾ خبر تحيَّتهم، والمصدر -يعني: التَّحية- مضاف لمفعوله، والفاعل مستتر، أي: تحيَّة الله عز وجل لهم أو تحيَّة الملائكة إيَّاهم، أو مضاف لفاعله، أي: ويحيي بعضهم بعضا..

(٢) قوله عز وجل: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ ابتداء وخبر، أي: يقولون: سلام عليكم، وساغ الابتداء لما فيه من معنى الدُّعاء، والجملة مقول قول محذوف في موضع نصب على الحال، أي: قائلين..

(٣) انظر: روح المعاني (١١/ ٧٥-٧٦)، (١١/ ٩٢)، تفسير القرطبي (٨/ ٣١٣)، (١٤/ ١٩٩)، زاد المسير (٤/ ١١)، فتح القدير (٢/ ٤٢٧)، (٤/ ٢٨٧)، (٥/ ١٥٠).

وقد قال الله ﷻ: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم: ٦٢]، ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦].

وممَّا سبقَ يتبيَّنُ أنَّ المخاطَب إذا عَمِل بما يتضمَّنه الخطاب من الأمر والنَّهي والتَّوجيه والإرشاد فإنَّه مكرَّم من المخاطِب ﷻ، الَّذي لا يضيع أجرَ من أَحْسَنَ عَمَلًا. . .كما قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الصافات: ٤٠-٤١]. وقال ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج: ٣٥][1]. والإكرامُ محفِّزٌ على الامتثال والعمل، والعملُ يثمرُ ذلك الجزاء الَّذي فيه الإكرام والتَّشريف.



(١) انظر: الآيات من (٢٣) إلى (٣٥) من المعارج.

المطلب الثَّاني: خطاب الإهانة

ولا بدَّ أوَّلًا من بيان أنَّه حيثُ يذكر التَّشريفُ والإكرام يذكر في مقابله: الذُّل والهوان، كما يذكر التَّرهيب في مقابل: التَّرغيب. وكلُّ ذلك من أساليبِ الدَّعوة، وعواملِ الاستجابة..

ولا بدَّ هنا من إيضاح معنى: (الإهانة)، ولعلَّ أفضل من وضَّح هذا المعنى توضيحًا شافيًا (صاحب الفروق) حيث قال في (الفرق بين الإذلال والإهانة):

«إنَّ إذلال الرَّجل للرَّجل هنا: أن يجعله منقادًا على الكره أو في حكم المنقاد، والإهانة: أن يجعله صغير الأمر لا يبالي به، والشَّاهد قولك: (استهان به)، أي: لم يبال به ولم يلتفت إليه. و(الإذلال) لا يكون إلَّا من الأعلى للأدنى، والاستهانة تكون من النَّظير للنَّظير: ونقيض (الإذلال): الإعزاز، ونقيض (الإهانة): الإكرام، فليس أحدهما من الآخر في شيء، إلا أنَّه لما كان الذُّل يتبع الهوان سمِّي (الهوان): ذلا. و(إذلال أحدنا لغيره) غلبته له على وجه يظهر ويشتهر، ألا ترى أنَّه إذا غلبه في خلوة لم يقل: إنَّه أذلَّه. ويجوز أن يقال: إنَّ (إهانة أحدنا صاحبه) هو تعريف الغير أنَّه غير مستصعب عليه، و(إذلاله): غلبته عليه لا غير. وقال بعضهم: لا يجوز أن يذلَّ الله ﷻ العبد ابتداء؛ لأنَّ ذلك ظلم، ولكن يذِّله عقوبة. ألا ترى أنَّه من قاد

غيره على كره من غير استحقاق فقد ظلمه. ويجوز أن يهينه ابتداء بأن يجعله فقيرًا فلا يلتفت إليه، ولا يبالي به. وعندنا أنَّ نقيض (الإهانة): الإكرام -على ما ذكرنا- فكما لا يكون الإكرام من الله ﷻ إلا ثوابًا فكذلك لا تكون الإهانة إلا عقابًا. و(الهوان): نقيض الكرامة. والإهانة تدلُّ على العداوة، مأخوذ من تهوين القدر، والاستخفاف مأخوذ من خفَّة الوزن، والألم يقع للعقوبة، ويقع للمعاوضة[(١)].

والإهانة لا تقع إلَّا عقوبة.

ويقال: يستدل على نجابة الصَّبي بمحبته الكرامة، وقد قيل: الذلة الضعف عن المقاومة، ونقيضها: العزة، وهي القوة على الغلبة، ومنه: «(الذلول) وهو المقود من غير صعوبة؛ لأنَّه ينقاد انقياد الضعيف عن المقاومة، وأمَّا الذَّليل فإنَّه ينقاد على مشقة»[(٢)].

وبعد هذا التَّوضيح لمعنى الإهانة من صاحب (الفروق) أنتقل إلى سرد الآيات من الخطاب القرآني، والَّتي يستفاد منها ما ذكر من معنى: الإهانة، وهو ما يسمى بـ: (خطاب الإهانة)، مع بيان ما يتعلَّق بهذه الآيات من معنى.

ومن ذلك قوله ﷻ لإبليس:

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣].

---

(١) يقال: أذنب فعاقبته، كما يقال: آلمني فآلمته. وقد قال الله عز وجل: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النِّساء: ١٠٤].

(٢) الفروق اللُّغوية، لأبي هلال العسكري (ص: ٣٢).

أي: من أهل الصَّغار والهوان على الله عَزَّوَجَلَّ وعلى أولياؤه لتكبُّرك، كما تقول للرَّجل:

قم صاغرًا، إذا أهنته. وفي ضدِّه: قم راشدًا. وذلك أنَّه لما أظهر الاستكبار أُلبس الصَّغار[(١)].

والصَّغار: هو الذُّل[(٢)]، أو هو أشدُّ الذُّل والهوان[(٣)].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ لإبليس: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ [الأعراف: ١٨].

و(الذَّأم): أشدُّ الذَّم[(٤)].

«وهذا خبر من الله عَزَّوَجَلَّ ذكره عن إحلاله بالخبيث عدوّ الله ما أحلَّ به من نقمته ولعنته، وطرده إياه عن جنته؛ إذ عصاه وخالف أمره،

---

(١) انظر: الكشاف (٢/ ٦٩)، النَّسفي (٢/ ٦٧)، روح المعاني (٨/ ٩٠)، فتح القدير (٢/ ٢٨٠).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (١/ ٢٠٤)، (٨/ ١٣٢)، القرطبي (٧/ ١٧٣)، (٩/ ١٨٤)، ابن كثير (١/ ٧٧)، (٢/ ٢٠٥)، روح المعاني (٨/ ٩٠)، (٨/ ٩٧)، (١٢/ ٢٣٤)، (٢٣/ ٢٢٨)، وينظر تفسير الرَّازي (٨/ ٣٠٨) في تفسير قول الله عز وجل: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ [البقرة: ١١٢]. ونظم الدُّرر (٢/ ٦٢٣)، تفسير: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام: ٢٧-٣٠]. وينظر: تفسير الماورديّ (٢/ ١٦٤)، تفسير قول الله عز وجل: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وأيضًا ينظر: تفسير الرَّازي (١٦/ ٢٧)، تفسير قول الله عز وجل: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التَّوبة: ٢٩].

(٣) انظر: أضواء البيان (٢/ ١٠).

(٤) انظر: أسرار التَّكرار، للكرماني (١/ ٨٠).

وراجعه من الجواب بما لم يكن له مراجعته به. يقول: قال الله ﷻ له عند ذلك: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾، أي: من الجنَّة .﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ يقول: مَعِيبًا. و(الذأم): العيب. يقال منه: ذأمَه يذأمه ذأمًا فهو مذؤوم، ويتركون الهمز فيقولون: ذِمْته أذيمه ذيمًا وذامًا، و(الذأم) و(الذيم)، أبلغ في العيب من الذمِّ.

وقد أنشد بعضهم هذا البيت:

(صَحِبْتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِي أَذِيمُهَا)[١].

وأكثر الرُّواة على إنشاده (ألومها). وأمَّا (المدحور): فهو المُقْصَى، يقال: (دحره يدحَرُه دَحْرًا ودُحُورًا)، إذا أقصاه وأخرجه»[٢].

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في بيان قوله ﷻ: ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ :

---

(١) صاحبُ هذا البيت هو الحارثُ بن خالدٍ المخزوميُّ، من (الطَّويل)، وروايته هناك: (صحبتك إذ عيني. . .أذيمها)، شاهدًا على (الذَّأم)، وهو أبلغُ في العيب من الذَّم، ثمَّ قال أبو جعفر: «وأكثرُ الرُّواة على إنشاده: (ألومها)». وخبر البيت: أنَّ عبد الملك بن مروان لما ولي الخلافة حجَّ البيت، فلمَّا انصرف رحلَ معه الحارثُ إلى (دمشق)، فظهرت له منه جفوة، وأقام ببابه شهرا لا يصل إليه، فانصرف عنه وقال البيت الشَّاهد، وبعده:

(وما بِيَ إن أقصَيتنِي من ضَرَاعةٍ وَلَا افْتَقَرَتْ نَفْسِي إلى مَنْ يَضِيمُها)

وبلغ عبد الملك شعره، فأرسل إليه من ردَّه إليه. انظر الأغاني (٣/ ٣١٧)، لسان العرب: مادة: (غشا)، (١٥/ ١٢٦)، الكامل في اللُّغة والأدب، للمبرّد (٣/ ١٠٨)، وانظر: تفسير الطَّبري (٨/ ١٣٨)، البحر المحيط (٤/ ٢٦٥)، تفسير القرطبيِّ (١/ ١٩١)، وانظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر (١١/ ٤١٩).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (٨/ ١٣٨).

صغيرًا مقيتًا[١].

وقال السُّدي: مقيتًا مطرودًا[٢].

وقال قتادة: لعينًا مقيتًا[٣].

وقال مجاهد: منفيًا مطرودًا[٤].

وقال الرَّبيع بن أنس: ﴿مَذْءُومًا﴾: منفيًا، و(المدحور): المصغر[٥]، أي: معيبًا.

وقال الكلبي: ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾: مقصيًا من الجنَّة، ومن كلِّ خير[٦].

وكل ذلك من المعاني الَّتي تدلُّ على أشدِّ الذَّم.

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: قال: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾، قال: ملومًا مدحورًا، قال: مقيتًا. تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٤٧)، الدُّر المنثور (٣/ ٤٢٨)، فتح القدير (٢/ ٢٨١)، الطَّبري (٨/ ١٣٨). وأخرج أبو الشَّيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿مَذْءُومًا﴾، قال: مذمومًا مدحورًا، قال: منفيًا. الدُّر المنثور (٣/ ٤٢٨).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٦)، الطَّبري (٨/ ١٣٨)، البحر المحيط (٤/ ٢٧٨).

(٣) أخرج ابنُ المنذر وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿مَذْءُومًا﴾ قال: معيبا مدحورا، قال: منفيا. الدُّر المنثور (٣/ ٤٢٨)، تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٤٧).

(٤) أخرج عبدُ بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشَّيخ عن مجاهد في قوله: ﴿مَذْءُومًا﴾، قال: منفيّا مدحورا، قال: مطرودا. الدُّر المنثور (٣/ ٤٢٨)، تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٤٧)، انظر: تفسير الطَّبري (٨/ ١٣٨)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٦)، البحر المحيط (٤/ ٢٧٨).

(٥) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٣٩)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٦).

(٦) انظر: تفسير البغوي (٢/ ١٥٢)، تفسير مقاتل (١/ ٣٨٥)، وانظر: زاد المسير (٣/ ١٧٨)، الكشاف (٢/ ٧١)، وانظر: لسان العرب، مادَّة: (ذأم) (١٢/ ٢١٩)، وكذلك في (مختار الصِّحاح)، مادَّة: (ذأم) (ص: ٢٢٦)، وكذلك في (مقاييس اللُّغة) (٢/ ٣٦٨).

و(الذَّيم) و(الذَّأم): أشدُّ العيب، يقال: (ذأمه يذأمه ذأمًا) فهو مذءوم، و(ذامه يذيمه ذامًا) فهو مذيم، مثل: سار يسير سيرًا، و(المدحور): المبعد المطرود. يقال: (دحره يدحره دحرًا) إذا أبعده وطرده.

ومن خطاب الإهانة قوله ﷻ لإبليس أيضًا: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر: ٣٤-٣٥]. ومما يدلُّ على كونه من خطاب الإهانة من أقوال المفسِّرين: ما ذكره الطَّبري في تفسيره حيث قال: «(الرَّجيم): المرجوم، صرف من مفعول إلى فعيل، وهو (المشتوم)»[١].

وعن قتادة: الملعون[٢].

وعن ابن جريج قال: ملعون[٣].

والرَّجم في القرآن يأتي بمعنى: الشَّتم..[٤].

وفي (روح المعاني): ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ «مطرود من كلِّ خير وكرامة؛ فإنَّ من يطرد يرجم بالحجارة، فالكلام من باب الكناية. وقيل: أي:

---

(١) تفسير الطَّبري (١٤/ ٣٢).

(٢) أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [الحجر: ١٧]، قال: الرَّجيم الملعون. تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٥٩)، الدُّر المنثور (٥/ ٦٩)، الطَّبري (١٤/ ٣٢)، الماوردي (٣/ ١٥٢).

(٣) الطَّبري (١٤/ ٣٢)، معاني القرآن، للنَّحاس (٤/ ١٦).

(٤) قال الزَّمخشريُّ: قوله عز وجل: «﴿لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]، لأرمينَّك بلساني، يريد الشَّتم والذَّمَّ». الكشاف (٢/ ٥١١)، وانظر: تفسير الطَّبري (١٤/ ٣٢)، المحرَّر الوجيز (٣/ ٣٥٥). وقال الكسائيُّ: «كلُّ رجيم في القرآن فهو بمعنى الشَّتم». تفسير الطَّبري (١٤/ ٣٢)، القرطبي (١٠/ ١٠)، روح المعاني (٢٢/ ٢٢٣)، السَّمرقندي (٢/ ٣٢٥).

شيطان يرجم بالشُّهب، وهو وعيد بالرَّجم بها، وقد تضمَّن هذا الكلام الجواب عن شبهته حيث تضمَّن سوء حاله، فكأنَّه قيل: إنَّ المانع لك عن السُّجود: شقاوتك وسوء خاتمتك، وبعدك عن الخير، لا شرف عنصرك الَّذي تزعمه. وقيل: تضمنه ذلك؛ لأنَّه علم منه أنَّ الشرف بتشريف الله ﷻ وتكريمه، فبطل ما زعمه من رجحانه؛ إذ أبعده الله ﷻ، وأهانه وقرَّب آدم عليه السلام وكرَّمه. وقيل: تضمُّنه للجواب بالسُّكوت كما قيل: (جواب ما لا يرضى السُّكوت). وفي تفسير (الرَّجيم): بالمرجوم بالشُّهب إشارة لطفية إلى أنَّ اللَّعين لما افتخر بالنَّار عذِّب بها في الدُّنيا، فهو كعابد النَّار يهواها وتحرقه..»[1].

وقيل: إنَّه إنما مُنع من الدُّخول على وجه التَّكرمة كما يدخُلها الملائكةُ عليهم السَّلام، ولا يُمنَعْ من الدُّخول للوسوسة ابتلاءً لآدمَ عليه السلام وحواءَ[2].

و(الرَّجيم): المحقَّر، لأنَّ العرب كانوا إذا احتقروا أحدًا حصبوه بالحصباء[3].

أقول: ولا بدَّ هنا من التَّعقيب على ما ذكر، وبيان ما يستفاد:

فإن مما يستفاد أنَّ طاعةَ الله ﷻ توجبُ كلَّ خيرٍ وكرامة، ومعصيته سبحانه توجبُ كلَّ بليةٍ وغرامة. والحاصلُ أنَّ الخروج من الجنَّة هو خروج صَغَارٍ واحتقار، لا خروج إكرام.

---

(١) روح المعاني (١٤/ ٤٧)، (٢٣/ ٢٢٨)، تفسير أبي السُّعود (٥/ ٧٦)، (٧/ ٢٣٧).
(٢) انظر: تفسير أبي السُّعود (١/ ٩١)، الكشاف (١/ ٢٧٤)، البيضاوي (١/ ٢٩٨).
(٣) انظر: التَّحرير والتَّنوير (١٤/ ٣٠) .

أمَّا ما يدلُّ على الإهانة فهو قوله: (من الصَّاغرين، ومذءومًا مدحورًا، ورجيم) فقد كان الخروج على هذه الصِّفة الَّتي تدلُّ على الإهانة -كما سبق-.

وإنَّ الطَّاعة كانت لله ﷻ في السُّجود لآدم عليه السلام، أكرمه الله ﷻ بذلك.

وعن قتادة في قوله ﷻ: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، قال: كانت تحيتهم السُّجود[١].

وليس يمتنع أن يكون ذلك السُّجود عبادة لله ﷻ، وتكرمة وتحيَّة لآدم عليه السلام، وكذلك سجود إخوة يوسف -عليهم السَّلام- وأهله له؛ لأنَّ العبادة لا تجوز لغير الله ﷻ، والتَّحية والتَّكرمة جائزان لمن يستحق ضربًا من التَّعظيم[٢].

ومن خطاب الإهانة قوله ﷻ: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾ [الإسراء: ٦٤].

---

(١) أخرج ابن جرير بسند صحيح عن قتادة في قوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾، قال: «كانت تحيَّة مَن قبلكم، فأعطى الله عز وجل هذه الأمَّة السَّلام، تحيَّة أهل الجنَّة». وفي لفظ: «وكانت تحيَّةُ النَّاس يومئذٍ أن يسجد بعضهم لبعض». تفسير الطَّبري (١٣/ ٦٨). وأخرج ابن جرير قال: حدَّثنا محمَّد بن عبد الأعلى، قال: حدَّثنا محمَّد بن ثور، عن معمر، عن قتادة، به. تفسير الطَّبري (١٣/ ٦٨)، فتح الباري (١٢/ ٣٧٦). أمَّا رواية ابن إسحاق فأخرجها الطَّبري (١٣/ ٦٨) قال: حدَّثنا ابن حميد، قال: حدَّثنا سلمة، عن ابن إسحاق، ولفظه: «وكانت تلك تحيَّة الملوك في ذلك الزَّمان». وفي إسناده ابن حميد شيخ الطَّبري ضعيف.

(٢) انظر: أحكام القرآن الكريم، للجصَّاص (١/ ٣٧).

قالوا: ليس هذا إباحة لإبليس، وإنما معناه أنَّ ما يكون من إبليس لا يضرُّ عباد الله ﷻ المخلصين، وهذا استخفاف بفعله الَّذي لا يكون له أثر في عباد الله ﷻ المخلصين الصَّادقين كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فقوله: ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾، قيل: هو بمعنى: (اسع سعيك) و(ابلغ جهدك). وقيل: ليس للشَّيطان خيل ولا رجل، ولا هو مأمور، إنما هذا زجر واستخفاف به كما تقول لمن تهدِّده: اذهب فاصنع ما شئت واستعن بما شئت[1].

واستفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله هو كلام وارد مورد التَّمثيل، مثِّلت حاله في تسلُّطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوَّت بهم صوتًا يستفزُّهم من أماكنهم، ويقلقهم عن مراكزهم، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتَّى استأصلهم[2]. والمعنى: افعل جميع ما تقدر عليه، ولا تدع شيئًا من قوَّتك، فإنَّك لا تقدر على شيءٍ لم أقدِّره لك.

وقيل: «(الاستفزاز): طلب الفَزِّ، وهو الخفَّة والانزعاج وترك التَّثاقل. و(السِّين والتَّاء) فيه للجَعل النَّاشىء عن شدَّة الطَّلب، والحثُّ الَّذي هو أصل معنى السِّين والتَّاء، أي: استخفهم وأزعجهم.

---

(١) انظر: المحرَّر الوجيز (٣/ ٤٧٠)، البحر المحيط (٦/ ٥٦)، الثَّعالبي (٢/ ٣٥٠).

(٢) انظر: الكشاف (٢/ ٤٥٦)، وانظر: البحر المحيط (٦/ ٥٦) السِّراج المنير (٢/ ٣٥٢)، تفسير أبي السُّعود (٥/ ١٨٤)، روح المعاني (١٥/ ١١٢)، البيضاوي (٣/ ٤٥٦)، نظم الدُّرر (٤/ ٤٠٥)، غرائب القرآن (٤/ ٣٦٦).

والصَّوت: يطلق على الكلام كثيرًا؛ لأنَّ الكلام صوت من الفم. واستعير هنا لإلقاء الوسوسة في نفوس النَّاس. ويجوز أن يكون مستعملا هنا تمثيلا لحالة إبليس بحال قائد الجيش فيكون متَّصلا بقوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ﴾ . [و] (الإجْلاب): جَمْع الجيش وسوقه، مشتَّق من الجَلَبة -بفتحتين- وهي الصِّياح؛ لأنَّ قائد الجيش إذا أراد جمع الجيش نادى فيهم للنَّفير أو للغارة والهجوم. و(الخيل): اسم جمع الفَرس. والمراد به عند ذكر ما يدلُّ على الجيش: الفرسان، وهو تمثيل لحال صرف قوَّته ومقدرته على الإضلال بحال قائد الجيش يجمع فرسانه ورجالته. ولمَّا كان قائد الجيش ينادي في الجيش عند الأمر بالغارة جاز أن يكون قوله ﷻ: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ من جملة هذا التَّمثيل. و(الرَّجْل): اسم جمع الرِّجال كصحب. وقد كانت جيوش العرب مؤلفة من رجالة يقاتلون بالسُّيوف، ومن كتائب فرسان يقاتلون بنضح النِّبال، فإذا التحموا اجتلدوا بالسُّيوف جميعًا. والمعنى: اجْمِع لمن اتبعك من ذرِّية آدم عليه السلام وسائل الفتنة والوسوسة لإضلالهم. فجعلت وسائل الوسوسة بتزيين المفاسد، وتفظيع المصالح كاختلاف أصناف الجيش، فهذا تمثيل حال الشَّيطان وحال متبعيه من ذرِّية آدم عليه السلام بحال من يغزو قومًا بجيش عظيم من فرسان ورجالة»(١).

ومما ينبغي التَّنبه له التَّفريق بين (خطاب الإهانة) و(خطاب التَّهديد)

(١) التَّحرير والتَّنوير (١٥/ ١٥٤).

حيث يشتمل (خطاب الإهانة) على أوصاف تدلُّ على معنى (الإهانة) الآنف البيان والذِّكر، ويتَّضح ذلك من النَّماذج والأمثلة.. -كما سيأتي-.

ومن خطاب الإهانة قوله ﷻ: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾ [المؤمنون:١٠٨]، فقوله ﷻ: ﴿ٱخْسَـُٔواْ﴾ أي: انزجروا وانطردوا عن مخاطبتي ساكتين سكوتَ هوان، و﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: فإنَّكم لستم أهلا لمخاطبتي[1]. و(الخاسئ): الصَّاغر، أو السَّاكت الَّذي لا يتكلَّم سكوت هوان، وفيه بيان مدى حسرة أهل النَّار. وقد قال الله ﷻ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ [المرسلات:٣٥-٣٦]، أي: يوم القيامة ﴿يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ ، أي: بشيء، وذلك من فرط الدَّهشة والحيرة، وهذا نوع من أنواع تخويف الكفَّار، حيث بيَّن أنَّه ليس لهم عذر ولا حجَّة فيما أتوا به من القبائح .

وقيل: فيه إضمار، أي: هذا يوم لا ينطقون فيه بحجَّة نافعة، فجعل نطقهم كلا نطق؛ لأنَّه لا ينفع ولا يسمع، ومن نطق بما لا ينفع فكأنَّه ما نطق، كما يقال لمن تكلَّم بكلام لا يفيد: ما قلت شيئًا. وقيل: إنَّ هذا وقت جوابهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[2]. وقد قال الله ﷻ أيضًا: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ

---

(١) انظر: نظم الدُّرر (٥/ ٢٢٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبيِّ (١٩/ ١٦٦)، روح المعاني (٢٩/ ١٧٧)، الكشاف (٣/ ٤٤)، تفسير أبي السعود (٩/ ٨١)، البيضاوي (٥/ ٤٣٦)، تفسير ابن عادل (٢٠/ ٨٤).

يَمۡكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ويقال في هذا المثال ما قيل في سابقه من التَّنبه للفرق بين (خطاب التَّهديد)، و(خطاب الإهانة) من حيث المعنى والوصف كما يدلُّ مثلا معنى: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾ على الصَّغار والذُّل، وأيضًا ما أعقبه من قوله ﷻ: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ على حالٍ فيها أيضًا الذُّل والصَّغار، فلا يسمح لهم بالكلام إهانةً لهم، أو لا يسمع كلامهم إن تكلموا.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠﴾ [الإسراء: ٥٠]، وقوله ﷻ: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدخان: ٤٩]. والنَّظر إلى ذلك من حيث إظهار ما فيه من تصغير المهان، وقلَّة المبالاة به[١]. ويبقى النَّظر في المثال الأخير هل هو من خطاب الإهانة أو التَّهكم؟ أو منهما معًا..؟ فمن المفسِّرين من ذكر أنَّه من (خطاب التَّهكم)[٢]، ومنهم من ذكر أنَّه من (خطاب الإهانة)[٣]، ومنهم من أشار إلى كلا المعنيين[٤].

---

(١) انظر: شروح تلخيص المفتاح (٢/ ٣١٧).

(٢) انظر على سبيل المثال: تفسير ابن عادل (٥/ ٤٨)، (١٧/ ٣٣٣)، (٢٠/ ٢٢٥)، وانظر: التَّقريب لحدِّ المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العاميَّة والأمثلة الفقهيَّة، لابن حزم (١/ ٤٠).

(٣) ذكر في (النُّكت والعيون) (٥/ ٢٥٨) أنه استهزاء على جهة الإهانة، وأنَّه قول سعيد بن جبير -رحمه الله-.

(٤) انظر: أضواء البيان (٧/ ٥٢٦)، التَّحرير والتَّنوير (٢٥/ ٣١٦).

وقد ذكر في (التَّحبير)[١] أنَّه من (خطاب الإهانة)، ومنهم من يسمِّيه (التَّهكم)، وضابطه: أن يأتي بلفظ ظاهره الخير والكرامة والمراد ضدُّه، ويمثل بقوله ﷻ: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء:٦٤]، والعلاقة أيضا هنا المضادَّة[٢]. وقد وضَّح العلَّامة الطَّاهر بن عاشور العلاقة بقوله: «إنه خبرٌ مستعمل في التَّهكم بعلاقة الضِّديَّة. والمقصود عكس مدلوله، أي: أنت الذَّليل المهان، والتَّأكيد للمعنى التَّهكمي[٣]».

والَّذي أرجحه أنَّه منهما معًا، حيث إنَّ فيه معنى التَّهكم، وفيه معنى الإهانة -وقد بيَّنتُ ذلك في غير موضع-.

وقد ناسب بعد ذكر هذا اللون من ألوان الخطاب -أعني خطاب الإهانة- ذكرُ ما يتعلَّق بخطاب التَّهكم؛ لما بينتُ من احتمال بعض النصوص لهما معًا.

وممَّا سبق يتبيَّن أنَّ المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- إذا لم يعمل

---

(١) صاحب (التَّحرير) هو علاء الدَّين المرداوي، علي بن سليمان بن أحمد المرداوي الدِّمشقي الصَّالحي الحنبلي. حفظ القرآن، وأخذ عن الشِّهاب أحمد المرداوي، وقرأ (المقنع) على أبي الفرج الطَّرابلسي، ولازم ابن قندس حتى انتفع به، وقرأ عليه (المقنع)، و(مختصر الطُّوفي)، و(ألفيَّة ابن مالك)، أخذ عنه بدر الدِّين السَّعدي، وابن عبد الهادي حيث قرأ عليه غالب (المقنع) . . . .إلخ. توفي سنة [٨٨٥هـ]، ذكر ترجمته يوسف بن حسن بن عبد الهادي المبرّد في كتابه: (محض الصَّواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه) (١/ ٤٧)، وانظر: الضَّوء اللاَّمع (٥/ ٢٢٥-٢٢٧)، الأعلام (٥/ ١٠٤).

(٢) التَّحبير (٥/ ٢١٩١).

(٣) التَّحرير والتَّنوير (٢٥/ ٣١٦).

بما يتضمَّنه الخطاب من الأمر والنَّهي والتَّوجيه والإرشاد فإنَّه مهان، وقد حقَّ عليه العذاب من المخاطِب ﷻ -بكسر الطاء المهملة- كما قال الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

ويتبيَّن أن (الإذلال) لا يكون إلا من الأعلى للأدنى، وهو في مقابل (الإكرام)، والله يبتلي العبد بالشَّر والخير، كما قال ﷻ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وكما يكرم الله ﷻ العبد جزاء على ما قدَّم، كذلك فإنَّه يهينه عقابا. وطاعة الله ﷻ فيها الحياة الطَّيبة والجزاء الحسن، كما قال ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، ومعصيته توجب المؤاخذة والعقاب.

* * *

المطلب الثَّالث: خطاب التَّهكم

١ - توطئة:

ولا بدَّ أوَّلا من بيان معنى (التَّهكم) وذلك للتَّفريق بينه وبين غيره من أنواع الخطاب الأخرى كخطاب الإهانة مثلا..

يقول ابن فارس: «(هكم) الهاء والكاف والميم تدلُّ على تقحُّمٍ وتهدُّم. و(هَكَم هَكْمًا): تقَحَّمَ على النَّاس وتعرَّضَهم بشَرّ، و(التهكُّم): التَّهزُّؤ، و(تهكَّمَتِ البِئرُ): تهدَّمت»[١].

و«(التَّهكم): التَّهدم يكون في البئر ونحوها، يقال: (تهكَّمت البئر) إذا تهدَّمت، أي: تهورت. و(التَّهكم): الاستهزاء والاستخفاف. يقال: قاله على سبيل التَّهكم كالأهكومة بالضَّمِّ، و(التَّهكم): الطَّعن المتدارك، وأيضًا: التَّبختر بطرًا، وأيضًا: الغضب الشَّديد، وهو التَّهدم من الغيظ والحمق، وأيضًا: التَّندم على الأمر الفائت وأيضًا: المطر الكثير الَّذي لا يطاق، وكذلك السَّيل، وأيضًا: التَّغني. يقال: هكمته تهكيمًا غنيت له بصوت، و(المستهكم): المتكبر..»[٢].

---

(١) مقاييس اللُّغة، لابن فارس، مادَّة: (هكم) (٥/٥٩)، انظر كذلك: أساس البلاغة (ص:٤٨٦). وقد عرَّفه ابنُ أبي الإصبع بقوله: «التَّهكم في الصِّناعة عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضوع النِّذارة، والوعد في مكان الوعيد تهاونًا من القائل بالمقول به واستهزاء به». بديع القرآن (ص:٢٨٣).

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس، مادَّة: (هكم) (٣٤/ ١١١)، لسان العرب، (١٢/ ٦١٧).

وفي (الكليَّات): التَّهكم «ما كان ظاهره الجِدُّ وباطنه الهزل، والهزل الَّذي يراد به الجدُّ بالعكس، ولا تخلو ألفاظُ التَّهكم من لفظةٍ من اللَّفظ الدَّال على نوع من أنواع الذَّم، أو لفظة من معناها الهجو. وألفاظ الهجاء في معرض المدح لا يقع فيها شيء من ذلك، ولا تزال تدل على ظاهر المدح حتَّى يقترن بها ما يصرفها عنه. والتَّهكم والسُّخرية كلاهما لا يناسب كلام الله ﷻ.

وأمَّا قوله ﷻ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١][(١)] فمن قبيل تنزيل غير المحتمل منزلة المحتمل، وذلك قد يكون في مقام المدح، وقد يكون في مقام الإقناط الكلِّي، وقد يكون في الوعيد..»[(٢)].

أقول: قوله -أعني: صاحب الكلِّيات[(٣)] - (إنَّ ذلك من قبيل تنزيل غير المحتمل)، أي: ما لا يحتمل إلا المدح تنزيله منزلة ما يحتمل

(١) وفي (الفروق): «أمَّا قوله عز وجل: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ و﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل:٥٨]، فهو من باب التَّهكم والاستهزاء. وقيل: اشتقاقه من البشرة، وهو ظاهر الجلد لتأثيره في تغيير بشرة الوجه، فيكون فيما يسرُّ ويغم؛ لأنَّ السُّرور كما يوجب تغيير البشرة، فكذلك الحزن يوجبه. فوجب أن يكون لفظ التَّبشير حقيقة في القسمين، لكنَّه عند الإطلاق يختصُّ في العرف بما يسرُّ، وإن أريد خلافه قيِّد». الفروق (ص:١٠٠-١٠١) .

(٢) الكليَّات (ص:٣٠٣).

(٣) صاحب الكليَّات هو أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريميُّ الكفويُّ، كان من قضاة الحنفيَّة. عاش ووليِّ القضاء في (كفه) بتركيا، و(بالقدس)، و(ببغداد). وعاد إلى (استانبول) فتوفي بها، ودفن في (تربة خالد). انظر: الأعلام (٢/ ٣٨)، وانظر: معجم المؤلِّفين (٣/ ٣١) .

الذَّم، أو ما لا يحتمل إلا الذَّم تنـزيله منـزلة ما يحتمل المدح... وقوله: (وذلك قد يكون في مقام المدح)، أي: ما لا يحتمل إلا الذَّم تنـزيله منـزلة ما يحتمل المدح، وهو عكس الصُّورة الَّتي معنا..

وقوله: (وقد يكون في مقام الإقناط الكلِّي، وقد يكون في الوعيد..)، أي: ما لا يحتمل إلا المدح تنـزيله منـزلة ما يحتمل الذَّم..أقول: ولا بدَّ من قرينة تُعيِّن المراد إذا كان في مقام الذَّم، لكونه عند الإطلاق يختصُّ في العرف بما يسرُّ، وإن أريد خلافه قيِّد..ولا بدَّ من نكتةٍ تدلُّ على أهميَّة وفائدة ذلك الصَّرف عن حقيقة ما وضع له اللَّفظ.

أمَّا القرينة هنا فهي قوله ﷻ: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ..، وأمَّا النُّكتة فهي زيادة التَّحسر..، حيثُ إنَّهم يتحسَّرون لانقطاعهم عن حقيقة البشرى، والَّتي هي في معنى المدح، والَّتي بشَّر الله بها عباده المؤمنون كما قال الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب: ٤٧]، ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٤]، كما أنهم يتحسَّرون على ما ألمَّ بهم وأصابهم من العذاب. .

ويتقرَّر ممَّا سبق: أهمية وضرورة الاحتراز عن المعاني الَّتي لا تناسب

كلام الله ﷻ. وقد قال الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. أمَّا التَّهكم المراد هنا فهو الَّذي يليق بكلام الله ﷻ، وليس كتهكُّم المخلوقين؛ فإنَّ الاختلاف بين تهكُّم الخالق وتهكُّم المخلوقين كالاختلاف بين صفات الخالق وصفات المخلوقين.

والحاصل أنَّ معنى التَّهكم في هذه الآية واضح، فقد جعل العذاب مبشَّرًا به، وقد ذكر ذلك غير واحد من المفسِّرين(١). وذكروا أنَّ حقيقة (التبشير): الإخبار بما يُظهر سرور المخبَر (بفتح الباء)، وهو هنا مستعمل في ضدِّ حقيقته، إذ أريد به الإخبار بحصول العذاب، وهو موجب لحزن المخبَرين، فهذا الاستعمال في الضدِّ معدود عند (علماء البيان) من الاستعارة، ويسمُّونها: تهكُّميَّة؛ لأنَّ تشبيه الضدِّ بضدِّه لا يروج في عقل أحدٍ إلا على معنى التَّهكُّم أو التَّلميح(٢).

---

(١) انظر: الدُّر المصون (١/ ١٢٥)، (٤/ ٤٨٥)، ابن عادل (١/ ٣٦٣)، (٤/ ٤١٤)، (٥/ ٤٨)، (١٠/ ٨٠)، (١٢/ ٥١٧)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٣٨).

(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٣/ ٢٠٧)، وانظر: (١٠/ ١١١). إنَّ من أنواع الاستعارة ما يسمَّى: بالاستعارة العناديَّة التَّهكميَّة والتَّلميحيَّة، وهما ما استعمل في ضدٍّ أو نقيض نحو: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: أنذرهم، فقد استعيرت البشارة، وهي الإخبار بما يسرُّ للإنذار الَّذي هو ضدُّه بإدخاله في جنسها على سبيل التَّهكم والاستهزاء. ونحو ذلك قوله عز وجل -حكاية عن قوم شعيب عليه السلام-: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. فقد عنى: الغوي السَّفيه تهكُّمًا.. انظر: الإتقان (٢/ ١٢٤)، وانظر: مختصر المعاني، للسَّعد (ص: ٢١٥)، ونحوه: قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾ [النحل: ٥٨]. ونحو ذلك (الوعد)، فإنَّه يستعمل في الخير والشَّرِّ. قال عز وجل في الخير: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ [الفتح: ٢٠]. وقال في الشَّرِّ: =

والأمثلة على (خطاب التَّهكم) كثيرة، وسآتي على بيانها هنا مع بيان وجه التَّهكم إلا ما كان ظاهرًا.

أقول: والحاصل أنَّ التَّهكم هو من غايات الخطاب ووظائفه، ومن مقاصده التَّأثير والتَّحذير، وهو فنٌّ من فنون بديع القرآن الكريم.

وممَّا يستفاد منه: اعتبار المخاطَبين بحال من تهُكِّم به، وقد يستفاد منه: تهكُّم المتلقِّي له بالمتهَكَّم به، فيكون التَّهكم قائمًا في نفس المخاطَب كذلك كما في قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الجمعة: ٥].

والموازنة تدلُّ على التَّفاوت بين الحالين، وفي ذلك ما فيه من إبراز نِعَم الله عز وجل على المخاطَب المتلقِّي حيث لم يكن حاله كحال المتهكَّم به، وفيه التَّحذير من مواضع الزَّلل ليكون المتلقِّي على بصيرة.

٢ - الأمثلةُ على التَّهكم من الخطاب القرآني:

فمن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]. فقيل لهم ذلك على سبيل التَّهكم، وكما تهكَّم بلفظ النِّد شنَّع عليهم بأنَّهم جعلوا أندادًا كثيرة لمن

= ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحج: ٧٢]. ويمكن أن يحمل هذا على التَّهكم به كقوله عز وجل: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فإذا لم يذكر الخير والشَّر، قلت في الخير: وعدته، وفي الشِّر أوعدته.. انظر: تفسير ابن عادل (٤/ ٤١٤)، انظر: تفسير الرَّازي (٧/ ٥٥)، تفسير النَّيسابوري (١/ ٤٤-٤٥). ونحو ذلك قوله عز وجل: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤]. انظر: ابن عادل (٥/ ٤٨)، السِّراج المنير (١/ ٢٢٣).

لا يصلح أن يكون له ندٌّ قط[١].

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

فإنَّ الأمر بأن يستعينوا بما لا ينطق في معارضة المعجز غاية التَّهكُّم بهم[٢]. وبيان ذلك أن يقال: «لما بيَّن سبحانه عظيم كفرهم وعنادهم مع وقاحتهم بادِّعاء الإيمان، والاختصاص بالجنان أمر نبيَّه ﷺ أن يقول لهم على وجه التَّهكم بهم مؤكِّدًا لذمِّهم بالتَّعبير بما وضع لمجامع الذَّم، فقال: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]، أي: بئس شيئًا الشَّيء الَّذي ﴿يَأْمُرُكُم بِهِۦ﴾ من الكفر ﴿إِيمَانُكُمْ﴾ هذا الَّذي ادَّعيتموه، وأوضح هذا التَّهكم بقوله على سبيل الفرض والتَّشكيك: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ على ما زعمتم، فحصل من هذا أنَّهم إمَّا كاذبون في دعواهم، وإمَّا أنَّهم أجهل الجهلة حيث عملوا ما لا يجامعه الإيمان وهم لا يعلمون»[٣].

---

(١) انظر: الكشاف (١/ ٢٣٧)، تفسير الرَّازي (٢/ ١١١-١١٢)، تفسير النَّيسابوري (١/ ١٨٩)، تفسير القاسمي (١/ ٢٥٨).

(٢) انظر: الكشاف (١/ ٢٤٥)، البحر المحيط (١/ ٢٤٨)، تفسير الرَّازي (٢/ ١١٩)، غرائب القرآن (١/ ١٩٤)، تفسير ابن عادل (١/ ٤٣٧).

(٣) نظم الدُّرر (١/ ٢٠٠).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في كلٍ من (سورة آل عمران) [٢١]، و(التَّوبة) [٣٤]، و(الانشقاق) [٢٤]. وقد سبق بيان المعنى مفصَّلا.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

فقوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾، «أي: عند المتنازعين، فالضَّمير عائد إلى غير مذكور دلَّ عليه المعنى، والمقصود من هذه الجملة: تحقيق كون الإخبار بما ذكر عن وحي على سبيل التَّهكم بمنكريه، كأنَّه قيل: إنَّ رسولنا ﷺ أخبركم بما لا سبيل إلى معرفته بالعقل مع اعترافكم بأنَّه لم يسمعه ولم يقرأه في كتاب، وتنكرون أنَّه وحي فلم يبق مع هذا ما يحتاج إلى النَّفي سوى المشاهدة الَّتي هي أظهر الأمور انتفاءً لاستحالتها المعلومة عند جميع العقلاء»[١].

---

(١) روح المعاني (٣/ ١٥٨). ونحوه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢]. وقد ذكر معنى التَّهكم فيه غير واحد، فقد قالوا: إنَّ هذا النَّبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي؛ لأنَّك لم تحضر (بني يعقوب) حين أجمعوا أمرهم، وهو إلقاؤهم أخاهم في البئر، كقوله عز وجل: ﴿وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ﴾ [يوسف: ١٥]، وهذا تهكُّم بقريش وبمن كذَّبه؛ لأنَّه لم يخف على أحد من المكذِّبين أنَّه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحدًا ولا سمع منه. ولم يكن من علم قومه. فإذا أخبر به وقصَّ هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته، لم تقع شبهة في أنَّه ليس منه وأنَّه من جهة الوحي، فإذا أنكروه تهكم بهم. انظر: الكشاف (٢/ ٣٤٥-٣٤٦)، وانظر: تفسير أبي السُّعود (٤/ ٣٠٩)، البحر المحيط (٥/ ٣٤٤)، تفسير =

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران: ١٥٣]. فإنَّ التَّعبير بالإثابة من باب التَّهكم[١].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٦]،

= القاسمي (٤/ ٤٠١-٤٠٢). ونحوه قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦] ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨]. والحاصل أنَّ قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ تهكُّمٌ بهم؛ لأنَّه قد علم كلُّ أحدٍ أنَّ محمَّدًا ﷺ ما كان معهم.

(١) انظر: روح المعاني (٤/ ٩٢)، تفسير الرَّازي (٩/ ٣٨٤)، غرائب القرآن (٢/ ٢٨٢). وقد بين الرَّازي -رحمه الله- ذلك مفصَّلا في (تفسيره)، قال: «وبيان ذلك أنَّ لفظ (الثَّواب) لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير، ويجوز أيضًا استعماله في الشَّر؛ لأنَّه مأخوذ من قولهم: (ثاب إليه عقله)، أي: رجع إليه، قال عز وجل: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، والمرأة تسمَّى (ثيِّبًا)؛ لأنَّ الواطئ عائد إليها، وأصل (الثَّواب) كلُّ ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله سواء كان خيرًا أو شرًّا، إلا أنَّه بحسب العرف اختصَّ لفظ: (الثَّواب) بالخير، فان حملنا لفظ: (الثَّواب) ههنا على أصل اللُّغة استقام الكلام، وإن حملناه على مقتضى العُرف كان ذلك واردًا على سبيل التَّهكم، كما يقال: (تحيتك الضَّرب)، و(عتابك السَّيف)، أي: جعل الغمَّ مكان ما يرجون من الثَّواب». تفسير الرَّازي (٩/ ٣٨٤). ونقل قول الرَّازيِّ القاسميُّ في (تفسيره) (٢/ ١٥٥)، وانظر: البحر المحيط (٢/ ٤٣٠-٤٣١).

فقوله: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا﴾ ، أي: لم يفارقونا ﴿مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ «وهذا في غاية التَّهكم بهم؛ لأنَّ إطلاق هذا القول منهم -ولا سيَّما على هذا التَّأكيد- يلزم منه ادِّعاء أنَّه لا يموت أحدٌ في (المدينة)، وهو لا يقوله عاقل»[1].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء:٧٣]. «فقوله ﷻ: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ من كلامه ﷻ اعتراض بين القول ومقوله الَّذي هو: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لئلا يتوهَّم من مطلع كلامه أنَّ تمنيه المعية للنُّصرة والمظاهرة حسبما يقتضيه ما في البين من المودَّة، بل هو للحرص على حطام الدُّنيا كما ينطق به آخره، فإنَّ الفوز العظيم الَّذي عناه هو ذلك، وليس إثبات المودَّة في البين بطريق التَّحقيق، بل بطريق التَّهكم»[2].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء:٨٥]. فممَّا قيل: إنَّ التَّقدير: من يشفع شفاعة سيئة يكن له منها نصيب يعتمد عليه، ويكون له ذخيرة في معاشه

---

(١) نظم الدُّرر (٢/ ١٧١).

(٢) روح المعاني (٥/ ٨٠)، وذكر معنى التَّهكم في هذه الآية أيضًا أبو السُّعود في (تفسيره) (٢/ ٢٠١)، والزَّمخشريُّ في (الكشاف) (١/ ٥٤١-٥٤٢)...إلخ .

ومعاده. والغرض التَّهكم وحصول ضدِّ ذلك(١).

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ [النساء: ١٣٨].

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء: ١٥٧] .قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ، أي: هذا الَّذي يدَّعي لنفسه هذا المنصب قتلناه. وهذا منهم من باب التَّهكُّم والاستهزاء، كقول المشركين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦](٢). ولكن ينبغي التَّمييز بين ما كان تهكُّمًا من المخلوقين، وبين تهكُّم الخالق عز وجل فإنَّ الاختلاف بين تهكُّم الخالق وتهكُّم المخلوقين كالاختلاف بين صفات الخالق وصفات المخلوقين.

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس: ١٨]. فممَّا قيل: إنَّ قوله عز وجل: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾ فقد قيل معناه:

---

(١) انظر: تفسير النَّيسابوري (٢/ ٤٦٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٤-٥٧٥)، تفسير أبي السُّعود (٢/ ٢٥١)، وقولهم: ﴿ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ هو لقب قصدوا منه التهكُّم، فصار لقبًا له بينهم. وقلب الله عز وجل قصدهم تحقيره فجعله تعظيمًا له. التَّحرير والتَّنوير (٦/ ١٩).

التَّقريع والتَّوبيخ والإنكار والتَّهكم بعقولهم وأفكارهم، ونفي أن تكون الأوثان شفعاء عند الله ﷻ(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠] . فإن المثوبة ضدُّ العقوبة. واستعمال أحد الضدِّين مكان الآخر مجاز رخَّصه إرادة التَّهكُّم. حيث إنَّ الأكثر المتعارف استعمال المثوبة في الخير، واستعمالها هنا في الشَّر على طريقة التَّهكُّم..(٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٣٦].

قوله ﷻ: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: بذلك الكفَّار؛ لأنهم موتى القلوب، فشبَّههم الله ﷻ بأموات الأجساد، فقال: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وهذا من باب التَّهكم بهم، والازدراء عليهم(٣).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ

---

(١) انظر: البحر المحيط (٥/ ١٣٨)، فتح القدير (٢/ ٢٦٢) .

(٢) انظر: تفسير النَّيسابوري (٢/ ٦١١)، روح المعاني (٦/ ١٧٥)، وقد سبق بيان قوله عز وجل: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، وسيأتي بيان قوله عز وجل: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٣٦] في موضعه .

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٣١)، وتفسير القاسمي (٣/ ٣٠٥).

بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨١][1]. فقوله ﷻ: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ﴾ أي: حجَّة وبرهانًا على طريق التَّهكم. قيل: مع الإيذان بأنَّ الأمور الدِّينية لا يعول فيها إلا على الحجَّة المنزَّلة من عند الله ﷻ[2]. والآية الكريمة قد اشتملت على التَّهكم بالمشركين وتوبيخهم على كفرهم وإشراكهم.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ٤٤].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف: ٧٠]. فإنَّ معنى المجيء إمَّا مجيئه -عليه السَّلام- من مكان كان يتحنَّثُ فيه كما كان رسول الله ﷺ يفعل بحراء قبل المبعث، أو مجيئه من السَّماء، أي:

---

(١) ونحوه قوله عز وجل: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ﴾ [آل عمران: ١٥١]، ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾﴾ [الحج: ٧١].

(٢) قال الزَّمخشريُّ في (الكشاف) (٢/ ٧٧)، تفسير الآية: [٣٣] من (الأعراف): «فيه تهكم؛ لأنَّه لا يجوز أن ينـزِّل برهانًا بأن يشرك به غيره». وانظر: تفسير أبي السُّعود (٣/ ١٥٥).

أنزلت علينا من السَّماء، ومرادهم: التَّهكم والاستهزاء[(١)].

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال: ١٩]. فقوله عز وجل: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ خطاب للمشركين على سبيل التَّهكم[(٢)].

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس: ٥٣]. «و(الاستنباء) على سبيل التَّهكم والاستهزاء -كما هو المعلوم من حالهم-، فلا يقتضي بقاءه على أصله، وربما يقال: إنَّ (الاستنباء) بمعنى طلب النَّبأ حقيقة لكن لا عن الحَقيَّةِ ومقابلها بالمعنى المتبادر؛ لأنهم جازمون بالثَّاني، بل المراد من ذلك: الجدُّ والهزل كأنهم قالوا: إنا جازمون بأنَّ ما تقوله كذب لكنَّا شاكون في أنَّه جدٌّ منك أم هزل، فأخبرنا عن حقيقة ذلك.

---

(١) انظر: تفسير أبي السُّعود (٣/ ٢٣٩)، روح المعاني (٨/ ١٥٧)، وانظر: البحر المحيط (٥/ ٤٠١).

(٢) انظر: الكشاف (٢/ ١٥٠)، تفسير أبي السُّعود (٤/ ١٤)، روح المعاني (٩/ ١٨٧)، ونحوه قوله عز وجل: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [إبراهيم: ١٥] فاستفتحوا على سبيل التَّهكم والاستهزاء، كقول قوم نوح عليه السلام: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٠]، وقوم شعيب عليه السلام: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الشعراء: ١٨٧]. .إلى غير ذلك. انظر: البحر المحيط (٥/ ٤٠١)، روح المعاني (١٣/ ٢٠١).

ونظير هذا قولهم: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ [سبأ: ٨]»[١].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾ [يونس: ٧١]. فقد قيل: إنَّ الكلام خارج مخرج التَّهكم بناءً على أنَّ المراد بالشُّركاء: الأصنام. وفي (البحر): «وأسند الإجماع إلى الشُّركاء على وجه التَّهكم كقوله ﷻ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥]»[٢]. أو يراد بالشُّركاء: من كان على دينهم وطريقتهم. . .وأمره إيَّاهم بإجماع أمرهم دليل على عدم مبالاته بهم ثقة بما وعده ربّه من كلاءته وعصمته. .

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ [يونس: ٩٢].

«والكلام جار مجرى التَّهكم، فإطلاق (الإنجاء) على إخراجه من (البحر) استعارة تهكُّميَّة. وليس مسوغها التَّهكم المحض كما هو الغالب في نوعها، بل فيها علاقة المشابهة؛ لأنَّ إخراجه إلى البرِّ كاملا بشكَّته[٣] يشبه (الإنجاء)، ولكنَّه ضدَّ (الإنجاء)، فكان بالمشابهة

(١) روح المعاني (١١/ ١٣٥) .

(٢) انظر: البحر المحيط (٥/١٧٨)، وانظر: روح المعاني (١١/١٥٨).

(٣) (الشكة): ما يلبس من السِّلاح. انظر: تاج العروس، مادَّة: (دجج) (٥/٥٤٨)، وكذلك في (لسان العرب) (٢/ ٢٦٣).

استعارة، وبالضِّديَّة تهكُّما..»[١]. قال الرَّازي: «إنَّ هذا وعد له بالنَّجاة على سبيل التَّهكم كأنَّه قيل له: ننجيك لكنَّ هذه النَّجاة إنما تحصل لبدنك لا لروحك، ومثل هذا الكلام قد يذكر على سبيل الاستهزاء كما يقال: (نعتقك، ولكن بعد الموت)، و(نخلِّصك من السِّجن، ولكن بعد أن تموت)»[٢].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧].

قالوا ذلك على سبيل التَّهكم والازدراء [٣].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۢ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١٠-١١]. فقد قيل: هو تهكُّم؛ فإنَّه لا يحفظه من أمر الله ﷻ شيءٌ إذا جاءه، وذلك بالنَّظر إلى تفسير (المعقِّبات) بالحرس حول السُّلطان يحفظونه على زعمه من أمر الله ﷻ[٤].

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (١١/ ٢٧٨).

(٢) تفسير الرَّازي (١٧/ ١٥٦-١٥٧)، وانظر: تفسير الخازن (٣/ ٢٠٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٧)، الكشاف (٢/ ٢٨٦)، تفسير أبي السُّعود (٤/ ٢٣٣).

(٤) قال الزَّمخشريُّ: «أي: يحفظونه في توهمه وتقديره من أمر الله عز وجل. أي: من قضاياه ونوازله، أو على التَّهكم به». الكشاف (٢/ ٣٥٢)، وقد اختاره الرَّازي (١٩/ ٢٠).

ومن ذلك قوله ﷿:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الإسراء:٩-١٠] حيث يقال ذلك في البشرى بالعذاب الأليم للذين لا يؤمنون بالآخرة.

ومن ذلك الآيات التَّالية:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء:٤٨-٥١]. فإن فيها: التَّهكم بهم، والتَّبكيت لهم، والاستخفاف بعقولهم[١].

ومن ذلك قوله ﷿:

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩] فإنه خارج مخرج التَّهكم، ومعنى التَّهكم واضح[٢].

ومن ذلك قوله ﷿:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف:١٠٢]. فإنَّ قوله ﷿:

(١) انظر: نظم الدُّرر (٤/ ٣٩٢).
(٢) انظر: روح المعاني (١٥/ ٢٦٨).

﴿نُزُلًا﴾ ، أي: هي معدَّة لهم كالمنـزل المعدِّ للضَّيف، وهذا على سبيل التَّهكم، فإنَّ العرب ربما استعملت النُّـزول في ضدِّ ذلك على سبيل التَّهكم والاحتقار. وقد قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٥١-٥٦]. فهذا الَّذي ذكر من الزَّقوم والحميم أوَّل ما يلقونه من العذاب ﴿نُزُلُهُمْ﴾ ، أي: كالنُّـزل الَّذي يعد للنَّازل مما حضر مكرمة له. وفيه من التَّهكم ما لا يخفى. .وقال ﷻ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٣][(١)]. وسيأتي بيان ذلك في موضعه.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ١٠١].

أي: بئس الحمل حملهم، أو يقال: أي: قبح ذلك الوزر من جهة كونه حملًا لهم في القيامة، وفيه ما فيه من التَّهكم[(٢)] .وذلك لأنَّ من عادة الإنسان أن يحمل ما ينفعه، وهؤلاء يحملون أوزارهم كما قال الله ﷻ: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

أقول: وهذا يصلح أن يكون من (خطاب الذَّمِّ)، وذلك بالنَّظر إلى

---

(١) انظر: روح المعاني (١٦/ ٤٧)، (٢٣/ ٩٥)، (٢٧/ ١٤٦)، السِّراج المنير (٢/ ٤٤٩)، أضواء البيان (٧/ ٥٢٧)، نظم الدُّرر (٧/ ٤١٥)، ابن عادل (١٢/ ٥٧١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٦)، روح المعاني (١٦/ ٢٦٠) .

﴿سَآءَ﴾ -وسيأتي بيان ذلك في خطاب الذَّم- كما أنَّ فيه معنى التَّهكم والإهانة، وذلك بالنَّظر إلى قوله ﷻ: ﴿حِمۡلࣰا﴾ .

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ١٣﴾ [الأنبياء: ١٢-١٣]. فقوله ﷻ: ﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾ على وجه التَّهكم بهم، وكذلك وقوله ﷻ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾ من جملة التَّهكم[1].

وهذا التَّهكم يحتمل وجوهًا:

الأوَّل: ارجعوا إلى نعمتكم ومساكنكم لعلَّكم تسألون عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السَّائل عن علمٍ ومشاهدة.

الثَّاني: ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم حتَّى تسألكم عبيدكم ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم، ويقولوا لكم: بم تأمرون؟ وماذا ترسمون؟ كعادة المخدومين.

الثَّالث: تسألكم النَّاس ما في أيديكم ويستشيرونكم في المهمَّات[2].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةࣰ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١﴾ [الأنبياء: ٢١]. أي: أهم يحيون الموتى، وينشرونهم من الأرض؟!! أي: لا يقدرون على شيءٍ من

---

(١) انظر: التَّحرير والتَّنوير (١٧/ ٢٧)، فتح القدير (٣/ ٥٧٣)، نظم الدُّرر (٥/ ٧١).

(٢) انظر: الكشاف (٢/ ٥٦٤-٥٦٥)، البحر المحيط (٦/ ٢٧٩)، تفسير الرَّازي (٢٢/ ١٢٤)، تفسير ابن عادل (١٣/ ٤٥٨).

ذلك، فكيف جعلوها لله ﷻ ندًّا وعبدوها معه؟! وفيه ما فيه من التَّهكم[(١)].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنبياء:٣٨-٣٩]، والمعنى واضح.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنبياء:٤٣]، والمعنى واضح.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٦)، وقد ذكر الزَّمخشريُّ في (الكشاف) (٢/ ٥٦٧) من المعنى ما نقله عنه غير واحد من المفسِّرين، قال: «فإن قلت: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم؟ وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدَّعوى، وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم لله عز وجل بأنَّه خالق السَّموات والأرض، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥] وبأنَّه القادر على المقدورات كلِّها وعلى النَّشأة الأولى منكرين البعث. ويقولون: من يحيي العظام وهي رميم؟!! وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر كثاني القديم، فكيف يدَّعونه للجماد الذي لا يوصف بالقدرة رأسًا؟ قلت: الأمر كما ذكرت، ولكنَّهم بادِّعائهم لها الإلهية، يلزمهم أن يدَّعوا لها الإنشار؛ لأنَّه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كلِّ مقدور، و(الإنشار) من جملة المقدورات. وفيه باب من التَّهكم بهم والتَّوبيخ والتَّجهيل، وإشعار بأنَّ ما استبعدوه من الله عز وجل لا يصح استبعاده؛ لأنَّ الإلهية لما صحَّت صحَّ معها الاقتدار على الإبداء والإعادة». الكشاف (٢/ ٥٦٧)، وقد ذكر هذا المعنى أيضًا أبو حيَّان في (البحر) (٦/ ٢٨٢)، وابن عادل في (تفسيره) (١٣/ ٤٦٧)، والرَّازي (٢٢/ ١٣٤)، والنَّيسابوري (٥/ ١٢).

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: ٣-٤]. والشَّاهد قوله ﷻ: ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ حيث عبَّر بلفظ (الهداية) على سبيل التَّهكم[1].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج: ١٥]. قال ابن عباس رضي الله عنهما[2]: من كان يظنُّ أن لن ينصر الله ﷻ محمَّدًا ﷺ في الدُّنيا والآخرة، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾، أي: بحبل، ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: سماء بيته، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾، يقول: ثمَّ ليختنق به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقتادة، وغيرهم. وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: ليتوصل إلى بلوغ السَّماء، فإنَّ النَّصر إنما يأتي محمَّدًا من السَّماء، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذلك عنه، إن قدر على ذلك. قال الحافظُ ابن كثير: «وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التَّهكم؛ فإنَّ المعنى: من ظنَّ أنَّ الله ﷻ ليس بناصر محمدًا ﷺ وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل

---

(١) انظر: المفردات (ص:٥٣٨)، البحر المحيط (٦/ ٣٢٧)، تفسير الرَّازي (٣/ ٣٦٠)، القاسمي (٥/ ١٨٦).

(٢) انظر قول ابن عباس أيضا في (الدُّر المنثور) حيث قال السُّيوطيُّ: «أخرج الفريابيُّ وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصحَّحه وابن مردويه عن ابن عباس -رضي الله عنهما-» .الدُّر المنثور (٦/ ١٥)، وقد وصل عبد بن حميد من طريق أبي إسحاق عن التَّميمي عن ابن عباس. انظر: فتح الباري (٨/ ٤٤١).

نفسه إن كان ذلك غائظه، فإنَّ الله ﷻ ناصره لا محالة، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾ [غافر: ٥١-٥٢]، ولهذا قال: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾»[(١)].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ [الحج: ٧٣]، خارج مخرج التَّهكم أيضًا[(٢)].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧﴾ [الشعراء: ٢٧]. قيل:

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢١١).

(٢) انظر: تفسير القاسميِّ (٥/ ٢٢٠)، والكشاف (٣/ ٢٢). قوله عز وجل: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، أي: هذا الخلق الأذلُّ الضَّعيف، لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه، لم يقدروا: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾، أي: الصَّنم يطلب ما سلب منه: ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾، أي: الذُّباب بما سلب. وهذا كالتَّسوية بينهم وبين الذُّباب في الضَّعف. ولو حققت وجدت الطَّالب أضعف وأضعف؛ فإن الذُّباب حيوان وهو [أي: الأصنام الَّتي يعبدونها] جماد. وهو [أي: الذُّباب] غالب، وذلك [أي: الصَّنم] مغلوب. وجوز أن يراد بالطَّالب عابد الصَّنم، وبالمطلوب معبوده. قيل: وهو أنسب بالسياق؛ لأنَّه لتجهيلهم وتحقير معبوداتهم، فناسب إرادتهم والأصنام من هذا التَّذييل. واختار الوجه الأوَّل الزَّمخشري [الكشاف (٣/ ٢٢)] لما فيه من التَّهكم، بجعل الصَّنم طالبا على الفرض تهكمًا وأنَّه أضعف من الذُّباب؛ لأنَّه [أي: الصَّنم] مسلوب وجماد، وذلك [أي: الذُّباب] حيوان بخلافه.

قال ذلك على طريق التَّهكم، إشارة إلى أنَّ الرَّسول ينبغي أن يكون أعقل النَّاس..»[١]. وقد جاءت الآيات في دحض قوله.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦﴾ [النمل: ٦٦]. فهو على سبيلِ التَّهكمِ الَّذي معناه: المبالغةُ في نَفْي العلمِ. وقد جوِّز أن يكون ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ بمعنى: استحكم وتكامل. ووصفهم باستحاكم علمهم بذلك وتكامله من باب التَّهكم بهم، كما تقول لأجهل النَّاس: (ما أعلمك) على سبيل الهزء، ومآل التَّهكم المذكور: نفي علمهم بذلك كما في الوجه السَّابق، لكن على الوجه الأبلغ، والإضرابان من باب: التَّرقي من الوصف بالفظيع إلى الوصف بالأفظع[٢].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾ [القصص: ٣٨]. وطلبه بناء الصَّرح راجيًا الصُّعود إلى إله موسى أراد به التَّهكم[٣].

---

(١) انظر: نظم الدُّرر (٥/ ٣٥٦)، وانظر: السِّراج المنير (٣/ ٤٦).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٠/ ١٣)، وقد جاء بيان ما في هذه الآية من (التَّهكم) بألفاظٍ متقاربة في كلٍّ من (الكشاف) (٣/ ١٥٧)، وتفسير أبي السُّعود (٦/ ٢٩٧)، والدُّر المصون (٥/ ٣٢٤).

(٣) ولا شكَّ أنَّه قال ذلك على سبيل التَّهكم، ونحوه قوله عز وجل: ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ١٠﴾ [ص: ١٠]، وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]، وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ =

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ﴾ [الأحزاب:١٨].
والله عز وجل يعلم حقيقتهم، ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة:٧٧]، ولا تخفى عليه خافية. والشَّاهد أنَّ قوله عز وجل: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾ فيه دخول (قد) على الفعل المضارع بمعنى: التَّهديد. وقيل: للتَّعليل على وجه التَّهكم[1]. وما قيل آخرًا هو الَّذي يعنينا هنا[2].

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ [سبأ:٤٤]. فيه أيضًا من التَّهكم بهم والتَّجهيل ما لا يخفى[3].

= ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [الطُّور:٣٨]. انظر: الكشاف (٣/ ٣٦١)، تفسير الرَّازي (٢٤/ ٦٠٥-٦٠٦)، التَّحرير والتَّنوير (٢٧/ ٧٢). ومن التَّهكم قول فرعون عندما التفت إلى مَنْ حوله من مَلَئه ورؤساء دولته قائلا لهم -على سبيل التَّهكم والاستهزاء والتَّكذيب لموسى عليه السلام فيما قاله-: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشُّعراء:٢٥]، أي: ألا تعجبون مِمَّا يقول؟.... انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٤). وفي ذلك كلِّه ما فيه مِمَّا أشرت إليه غير مرَّة من الاختلاف بين تهكُّم الخالق وتهكُّم المخلوقين.

(١) انظر: تفسير ابن جزي (٣/ ١٣٥). ونحوه قوله عز وجل: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النُّور:٦٣]. أقول: وهو أقرب إلى معنى التَّهديد، ولذلك لقوله عز وجل -عقب ذلك- ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النُّور:٦٣]. ونحو ذلك أيضا قوله عز وجل: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور:٦٤]. فقد دخلت (قد) للتَّأكيد. وفي الكلام معنى الوعيد والتَّهديد. وقيل: معناها التَّقليل على وجه التَّهكم. والخطاب لجميع الخلق، أو للمنافقين خاصّة. انظر: تفسير ابن جزي (٣/ ٧٣-٧٤).

(٢) وذلك بصرف النَّظر عن كونه راجحًا أو مرجوحًا.

(٣) انظر: روح المعاني (٢٢/ ١٥٣).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢]، ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [سبأ: ٢٧]. ونحوه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [فاطر: ٤٠]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ﴾ [الأحقاف: ٤]، والمعنى واضح(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يس: ٣١]، وقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٥].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ [الصافات: ١١]، وقوله ﷻ: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الصافات: ١٤٩]. والمراد: التَّهكم عليهم بصورة الاستفتاء..، والمعنى واضح(٢).

---

(١) انظر: روح المعاني (٢٢/ ٢٠٤).

(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٣/ ١٨٠)، نظم الدُّرر (٦/ ٢٩٥)، تفسير ابن جزي (٣/ ١٧٦).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]. وارد على الصَّحيح مورد التَّهكم[1]. وكذلك قوله ﷻ: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الصافات: ١٥٠] .

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٦]، ومعنى التَّهكم واضح.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزمر: ٤٩].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر: ٢٠]، وقوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: ٨٣].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥]، ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ

(١) روح المعاني (١/ ٩١)، مفردات غريب القرآن (ص: ٥٣٨).

﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ [فصلت: ٥١].

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٤﴾ [الشورى: ٢٤][1]، وقوله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩﴾ [الزخرف: ١٩]، والمعنى واضح.

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ۝٢٩﴾ [الدخان: ٢٩].

فيه تهكُّم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده، فيقال فيه: (بكت عليه السَّماء والأرض)[2]. وفيه ما يشبه السُّخرية بهم، يعني أنَّهم كانوا يستعظمون أنفسهم، وكانوا يعتقدون في أنفسهم أنهم لو ماتوا لبكت عليهم السَّماء والأرض، فما كانوا في هذا الحدِّ، بل كانوا دون ذلك. وهذا إنما يذكر على سبيل التَّهكم[3].

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدخان: ٤٩]. فهو خبر مستعمل في التَّهكم بعلاقة الضدِّية، والمقصود عكس مدلوله، أي: أنت الذَّليل المهان، والتَّأكيد للمعنى التَّهكمي[4]، وهو أغيظ للمتهكَّم

---

(١) قيل: يجوز أن يكون قوله عز وجل: ﴿فَإِن يَشَإِ﴾ الخ مفرَّعًا على كلامهم خارجًا مخرج التَّهكم بهم. انظر: روح المعاني (٢٥/ ٣٥).

(٢) انظر: الكشاف (٣/ ٥٠٤)، تفسير أبي السُّعود (٨/ ٦٣)، البحر المديد (٧/ ٤٨).

(٣) انظر: تفسير الرَّازي (٢٧/ ٢٤٧)، تفسير ابن عادل (١٧/ ٣٢٤).

(٤) التَّحرير والتَّنوير (٢٥/ ٣١٦). وقد بيَّنتُ ذلك في غير موضع.

أو المستهزأ به .

ومن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: ٢٥]، أي: وإذ تقرأ على هؤلاء المشركين آياتنا المنزَّلة وفيها الحجج والبيِّنات ما كان حجَّتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا. قال الزَّمخشريُّ: «فإن قلت: لم سمِّي قولهم حجَّة وليس بحجَّة؛ قلت: لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجَّته، وساقوه مساقها فسميت حجَّة على سبيل التَّهكم؛ أو لأنَّه في حسبانهم وتقديرهم حجَّة..إلى غير ذلك..»[١].

ومن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأحقاف: ٣٤].

ومن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢]. وهنا كلامٌ مهمٌّ للطَّاهر بين عاشور يبيِّن ما فيه من التَّهكم حيث يقول عن هذه الآية: فيها «مقول قول محذوف دلَّ عليه تعينه من الخطاب، أي: يقال هذا الكلام لكلِّ نفس من نفوس المشركين، فهو خطاب التَّهكم التَّوبيخي للنَّفس الكافرة؛ لأنَّ المؤمن لم يكن في غفلة

---

(١) الكشاف (٣/ ٥١٣)، وأورد ذلك أيضًا القرطبيُّ في (تفسيره) (١٦/ ١٧٣)، البحر المحيط (٨/ ٤٩).

عن الحشر والجزاء. وجملة القول ومقوله في موضع الحال من ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ [ق: ٢١][١]، أو موقع الصِّفة. وعلامات الخطاب في كلمات: ﴿كُنتُ﴾ و﴿عَنكَ﴾ و﴿غِطَآءَكَ﴾ و﴿فَبَصَرُكَ﴾ مفتوحة لتأويل النَّفس بالشَّخص أو بالإنسان، ثمَّ غُلِّب فيه التَّذكير على التَّأنيث. وهذا الكلام صادر من جانب الله ﷻ، وهو شروع في ذكر الحساب. و(الغَفْلَة): الذُّهول عمَّا شأنه أن يُعلم. وأطلقت هنا على الإنكار والجحد على سبيل التَّهكُّم. ورشَّح ذلك قولُه: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ بمعنى: بيَّنا لك الدَّليل بالحسِّ فهو أيضا تهكُّم. وأوثر قوله: ﴿فِى غَفْلَةٍ﴾ على أن يقال غافلا للدِّلالة على تمكن الغفلة منه، ولذلك استتبع تمثيلَها بالغطاء»[٢].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤٣-٤٤] إلى قوله ﷻ: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦]، وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٣]، ونحوه:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ [الصافات: ٦٢].

والتَّهكم في معنى: (الظِّل) ووصفه؛ لأنَّ المعنى أنَّه ليس باردا كسائر الظِّلال، ولا دافعًا أذى الحرِّ لمن يأوي إليه، وهو هنا خبر،

---

(١) وتمام الآية: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.
(٢) التَّحرير والتَّنوير (٢٦/٣٠٩).

وليس إنشاء، وإن كان معنى التَّهكم واضحًا في الخبر؛ لأنَّ الظِّل إنما يستظلُّ به اتِّقاء الحرِّ. وفي (النُّـزل)، فإنَّ (النُّـزل) لغة هو الَّذي يقدِّم للنَّازل تكرمةً له قبل حضور الضِّيافة. و(النَّـزيل): الضَّيف، و(النُّـزل): ما هيئ للضِّيف من الضِّيافة إذا نزل عليه[1]. وقد قال الله ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: ٢٩].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: ١٣]، وقوله ﷻ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد: ١٥].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة: ١٤]، ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾ [المجادلة: ١٦]، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة: ١٨].

ومن ذلك قوله ﷻ عن المنافقين:

---

(١) انظر: مادَّة: (نزل) في (لسان العرب) (١١/ ٦٥٦)، وفي (مختار الصِّحاح) (ص: ٦٨٨)، وكذلك في (أساس البلاغة) (ص: ٤٥٢)... إلخ. وانظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٣٢).

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢﴾ [المنافقون: ٢].

ومن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ۝٢١﴾ [الملك: ٢١]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ۝٢٥﴾ [القلم: ٢٥]. ونحو هذه الآيات الَّتي تدلُّ على معنى: التَّهكم والسُّخرية والازدراء، وبيان ضعف المخاطَب -بفتح الطاء المهملة-.

ومن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ۝١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾ (١) [المدثر: ١١-٢٠]. والإطراء في الإعجاب بتقديره يدلُّ على غاية التَّهكم به(٢).

ومن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ۝٢٥﴾ [القيامة: ٢٥].

الظنُّ ههنا بمعنى اليقين، هكذا قاله المفسِّرون(٣). ولكن قال

---

(١) قال الزَّمخشريُّ: «قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان يلقَّب في قومه بالوحيد، ولعلَّه لُقِّب بذلك بعد نزول الآية، فإن كان ملقَّبا به قبل فهو تهكُّم به وبلقبه». الكشاف (٣/ ١٨٢).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٩/ ١٢٣).

(٣) انظر: تفسير ابن جزي (٤/ ١٦٥)، روح المعاني (٢٩/ ١٤٦).

الرَّازي: «وعندي أنَّ الظن إنما ذكر ههنا على سبيل التَّهكم كأنَّه قيل: إذا شاهدوا تلك الأحوال، حصل فيهم ظنٌّ أنَّ القيامة حقٌّ»[١].

و(الفاقرة): الدَّاهية.

وقيل: شر، وقيل: تستيقن أنها هالكة أو أنها ستدخل النَّار..[٢].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ [القيامة: ٢٨].

قيل: لعلَّه سمَّاه بالظنِّ على سبيل التَّهكم[٣].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٤٠]، وما قبلها من الآيات[٤].

قال الحافظ ابن كثير: «هي على سبيل التَّهكم والتَّهديد كقوله ﷻ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾، وكقوله ﷻ: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [المرسلات: ٤٦]، وكقوله ﷻ: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١٥]، وكقوله ﷻ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].. إلى غير ذلك»[٥] .وما ذكره الحافظ ابن كثير من التَّمثيل يصلح لخطاب التَّهكم

(١) تفسير الرَّازي (٣٠/ ٢٣٠)، ابن عادل (١٩/ ٥٦٨).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (٢٩/ ١٩٤)، ابن كثير (٤/ ٤٥١).

(٣) انظر: تفسير الرَّازي (٣٠/ ٢٣١)، روح المعاني (٢٩/ ١٤٧).

(٤) انظر: الآيات من (٣٦) إلى (٣٩).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ١٤٧)، (٤/ ٤٥٢). وقد ذكر معنى التَّهكم في هذه الآية غير واحد من المفسِّرين. انظر: البحر المحيط (٨/ ٤٠)، السِّراج المنير (١/ ١١)، الدُّر المصون (٦/ ١١٨).

ولخطاب التَّهديد.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١﴾ [المرسلات: ٣٠-٣١].

فهذا تهكُّم بهم وتعريض بأنَّ ظلهم غير ظلِّ المؤمنين، والمعنى أنَّ ذلك الظِّل لا يمنع حرَّ الشَّمس[١].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [المطففين: ٣٦]. ثوّب وأثاب بمعنى، وقد تستعمل الإثابة في الشَّرِّ كالمجازاة. ويجوز أن يراد التَّهكم، وفي هذا القول مزيد غيظ وتوبيخ للكافرين، ونوع سرور وتنفيس للمؤمنين[٢].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ [الغاشية: ٢-٣].

قيل: وصفها بالخشوع من الإشارة إلى التَّهكم، وأنَّها لم تخشعْ في وقتٍ ينفع فيه الخشوع، وكذا حال وصفها بالعمل في قوله ﷻ: ﴿عَامِلَةٌ﴾ ..[٣].

---

(١) انظر: تفسير الرَّازي (٣٠/ ٢٧٥)، وتفسير النَّيسابوري (٤/ ٤٢٨).

(٢) انظر: تفسير الرَّازي (١/ ٩٧)، غرائب القرآن (٦/ ٤٦٧)، روح المعاني (٣٠/ ٧٧).

(٣) انظر: روح المعاني (٣٠/ ١١٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾ [العلق:١٧-١٨]. قيل: سمي ناديًا؛ لأنَّه مجلس النَّدى والجود، ذكر ذلك على سبيل التَّهكم، أي: اجمع أهل الكرم والدِّفاع في زعمك، لينصروك[١].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون:١-٦]. قيل: أتى الجواب على التَّكرير على وفق قولهم، وهو ضرب من التَّهكم، فإنَّ من كرر الكلمة الواحدة لغرض فاسد يجازى بدفع تلك الكلمة على سبيل التكرار؛ استخفافًا به، واستحقارًا لقوله[٢].

---

(١) انظر: تفسير الرَّازي (٣٠/ ٢٥).

(٢) انظر: تفسير الرَّازي (٣٠/ ١٤٦).

فرع في بيان (خذلان المخاطَب)

أقول: وقد يندرج بعض أنواع الخطاب تحت عنوان واحد..وذلك كبعض النَّماذج في كلٍّ من (خطاب التَّهكم) و(خطاب التَّهديد) تحت ما يسمَّى بـ: (خذلانَ المخاطَب)، وهو أمره بعكس المطلوب منه، مع اقترانه بالوعيد الشَّديد[1]، وذلك كقوله ﷻ:

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ [العنكبوت: ٦٦].

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ [الزمر: ٨].

﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].

---

(١) عرَّفه ابن النَّقيب بقوله: «هو الأمر بعكس المراد، وذلك يدلُّ على الاستهانة بالمأمور، وقلَّة المبالاة بأمره». مقدِّمة تفسير ابن النَّقيب (ص: ٤٤٢-٤٤٣)، وانظر: الإكسير في علم التَّفسير، للطُّوفيِّ (ص: ٢٣١). «والواقع أنَّ الخذلان يتعلَّق بغايات الخطاب، ولا يمكن أن يكون مصطلحًا لظاهرةٍ بلاغيَّة أو بديعيَّة؛ لأنَّه لا يتعلَّق بالخطاب في بعده البنائي. إنَّ الخذلان بعد دلالي ونفسي يتحقَّق بوسائل بلاغيَّة كالتَّشبيه والمجاز والكناية، أمَّا أن يعدَّ فنًّا بديعيًّا، فالأمر لا يسلَّم به..». انظر ذلك مفصَّلا في (بديع القرآن، دراسة تاريخيَّة نقديَّة)، د. محمَّد إقبال عروي (ص: ١١٢-١١٣).

المطلب الرَّابع : خطاب الاعتبار والاتِّعاظ

• أ. بيان معنى الاعتبار والاتِّعاظ :

ولا بُدَّ أوَّلا من بيان المعنى اللُّغوي للاعتبار والاتِّعاظ، للتَّأسيس على ذلك.

فإنَّ (العبرة): العجب، و(اعتبر منه): تعجَّب. وفي التَّنـزيل: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَـٰرِ﴾ [الحشر:٢]، أي: تدبَّروا وانظروا فيما نزل بقريظة والنَّضير[١]، فقايسوا فعالهم، واتَّعظوا بالعذاب الَّذي نزل بهم. و(العبر): جمع عبرة، وهي كالموعظة مما يتَّعظ به الإنسان، ويعمل به، ويعتبر، ليستدلَّ به على غيره. و(العبرة): الاعتبار بما مضى. وقيل: (العبرة): الاسم من الاعتبار. والعرب تقول: (اللهمَّ اجْعَلْنا ممَّن يَعبَرُ الدُّنيا ولا يَعْمُرُها)، أي: ممَّن يعتبر بها، ولا يموت سريعًا حتَّى يرضيك بالطَّاعة[٢].

و«(العبرة) بالكسر: الاسم من الاعتبار، وبالفتح: تحلب الدَّمع،

---

(١) كانت في (يثرب) منهم ثلاث قبائل مشهورة: [١-] (بنو قَيْنُقَاع): وكانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم داخل (المدينة). [٢-] (بنو النَّضِير): وكانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم بضواحي (المدينة). [٣-] (بنو قُرَيْظة): وكانوا حلفاء الأوس، وكانت ديارهم بضواحي (المدينة). انظر: سبل الهدى والرَّشاد (٤/٣٢٦)، البداية والنِّهاية (٤/٩٢) .

(٢) انظر: لسان العرب، مادَّة: (عبر) (٤/٥٢٩). تاج العروس (١٢/٥٠٧)، القاموس المحيط (ص:٥٩٩).

وعَبِر الرَّجل والمرأة والعين من باب: (طَرِبَ)، أي: جرى دمعه، والنَّعت في الكلِّ عابر، واستعبرت عينه أيضًا، و(العبران) الباكي..»[١].

أمَّا (الاعتبار) فهو الحالَةُ التي يُتَوصَّلُ بها من معرفَةِ المُشَاهِد إلى ما ليس بمُشَاهَدٍ[٢]. أو هو التَّدبر وقياس ما غاب على ما ظهر. ويكون بمعنى: (الاختبار والامتحان)، [مثل] عَبَرْتُ الدَّراهم واعتبرتها فوجدتها ألفًا. وبمعنى: (الاتعاظ) نحو: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ ، وبمعنى: (الاعتداد بالشَّيء في ترتيب الحكم) نحو قول الفقهاء: (الاعتبار بالعقب)، أي: الاعتداد في التَّقدُّم به[٣]. و(العبرة) و(الاعتبار): الاتِّعاظ، أو الاعْتِبارُ بما مَضَى. وتكون بمعنى: الاعتداد بالشَّيء في ترتيب الحكم، نحو قولهم: (العبرة بالعقب)، أي: الاعتداد في التَّقدم بالعقب كذا في (المصباح)[٤].

وقيل: المجاوزة من عدوة دنيا إلى عدوة قصوى، ومن علم أدنى إلى علم أعلى، ففي لفظها بما ينالون من ورائها مما هو أعظم منها إلى غاية العبرة العظمى[٥].

---

(١) مختار الصِّحاح، مادَّة: (عبر) (ص:٤٦٧)، وانظر: لسان العرب، (٥٢٩/٤).

(٢) وقال المفسِّرون: (الاعتبار) هو النَّظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنَّظر فيها شيء آخر من جنسها. والاعتبار له مفاهيم مختلفة، وتتعدَّد هذه المفاهيم بتعدُّد الفنون..انظر في بيان ذلك: الكلِّيات (ص:١٤٧-١٤٨) .

(٣) انظر: التَّعاريف (ص:٧٣-٧٤)، وتاج العروس، مادَّة: (عبر) (٥١١/١٢) .

(٤) انظر: المصباح المنير، مادَّة: (عبر) (٣٨٩/٢-٣٩٠)، وكذلك التَّعاريف (ص:٥٠١).

(٥) انظر: التَّعاريف (ص:٥٠١)، وانظر: نظم الدُّرر (٣٣/٢).

وفي بيان الآيات التَّالية مزيد من البيان..

يقول الله عز وجل:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣]. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾. (العبرة) هنا: الاتِّعاظ يقال: منه اعتبر، وهو الاستدلال بشيء على شيء يشبهه، واشتقاقها من العبور، وهو مجاوزة الشَّيء إلى الشَّيء، ومنه: عبر النَّهر، وهو شطه، و(المعبر): السَّفينة، و(العبارة) يعبَّر بها إلى المخاطَب بالمعاني، وعَبَرْت الرُّؤيا مخفَّفًا ومثقَّلًا: نقلت ما عندك من علمها إلى الرَّائي أو غيره ممن يجهل: وكان الاعتبار انتقالا عن منزلة الجهل إلى منزلة العلم، ومنه: (العَبرة)، وهي: الدَّمع؛ لأنَّها تجاوز العين[1].

وأيضًا ما كان نحو الآيات التَّالية، والَّتي فيها معنى الاعتبار والاتِّعاظ واضح:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟

---

(١) البحر المحيط (٢/ ٤٠٨)، الكشاف (٢/ ٣٢٣)، وانظر: تفسير أبي السُّعود (٤/ ٢٨١)، وانظر: الاشتقاق، لابن دريد (ص: ٤٩٦)...إلخ

يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة:١٣٤]، و[١٤١]، ففيها ما يشير إلى الاعتبار بأخبارها وقصصها.

ونحو قوله ﷻ:

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر:٤٣]، وقوله ﷻ: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف:٥٦].

وأيضًا ما كان نحو الآيات التَّالية، والَّتي فيها معنى الاعتبار والاتِّعاظ واضح:

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ﴾ [يوسف:١١١]، ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل:٦٦]، ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون:٢١]، ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور:٤٤].

وأيضًا ما كان نحو الآيات التَّالية، والَّتي فيها معنى الاعتبار والاتِّعاظ واضح:

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ

﴿٢٦﴾ [النازعات: ١٥-٢٦]، ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١١]، ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل: ٦٩]، ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢]، ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩]، ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

- **ب. المعنى الإجمالي المستفاد من الآيات السَّابقة**

وفي الآيات السَّابقة ما يبيِّن سنَّةً من سنن الله ﷻ في الطُّغاة والظَّلمة، بأنَّ مصيرهم الهلاك مهما تحصَّنوا، ومهما بلغت قوَّتهم، وتنبيهًا وتحفيزًا على الاتِّعاظ والاعتبار، حيث جاء الخطاب القرآني بنحو كلمة: (فانظر)؛ لتحفِّز المخاطَب على الاتِّعاظ بتأكيدها على عاقبة الظَّالمين، والمجرمين، وهي كلمةٌ عامَّة تشمل كلَّ ظالم من دول وأفراد. ودلَّت كذلك الآيات السَّابقة على أنَّ الجزاء من جنس العمل، ففرعون -مثلًا- كما كان في الدُّنيا إمامًا من أئمَّة الظُّلم والطُّغيان سيكون يوم القيامة هو وجنوده من أئمَّة النَّار. قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١]. وفي الطَّرف المقابل قال عن الرُّسل الَّذين يدعون النَّاس إلى الخير، ويأمرونهم بإقامة الصَّلاة، وأداء ما وجب عليهم من الحقوق لله ﷻ، ومن حقوق العباد: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣]. ودلَّت الآيات على أنَّ التَّاريخ لا يذكر الظَّالمين إلا بسوء. قال ﷻ: ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٤٢]. ودلَّت الآيات كذلك على سنَّة من سنن الله ﷻ في إرسال الرُّسل والأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام-، فكلَّما تنقضي فترة من الزَّمن، ويصبح النَّاس بحاجة إلى هدايةٍ يبعث الله ﷻ رسولا ليعيد النَّاس إلى عبادة الله ﷻ الواحد الأحد.

فانظر إلى عظيم ما يستفاد من خطاب (الاتِّعاظ والاعتبار)، ومدى أهميَّته، وأنَّ ما جاء في كتاب الله ﷻ موعظة يتَّعظ بها العبد.

ويتبيَّن ممَّا سبق من بيان معنى الاتِّعاظ أنَّ الإنسان ينبغي أن يجتنَّب ما فيه المضرَّة إلى ما فيه المنفعة. يقال: (وعظته فاتَّعظ)، أي: انتفع، وترك ما فيه مضرَّته إلى ما فيه مصلحته.

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨].

وتأمَّل في قول كلِّ رسولٍ لقومه: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وكذلك ما كان في معناه، وكم كُرِّر في خطاب الرُّسل؟ فإن دلَّ ذلك فإنما يدلُّ على أهميَّة الموضوع.

ولكن من أعرض فأنى له الذِّكرى؟ يقول الله ﷻ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]، ﴿وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: ٢٣]، أنى يكون له الذِّكرى في هذا اليوم الَّذي رأى فيه ما أُخبر عنه يقينًا؟! وأنى له الاتِّعاظ وقد فات الأوان؟!

قال ﷻ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر: ٥٦-٥٩].

قال ﷻ: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [طه: ٣]، ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقعة: ٧٣]، ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١٢]، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل: ١٩]، ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المدثر: ٥٤]، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإنسان: ٢٩]، ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾ [عبس: ١١]، أي: عظةً للخلق يجبُ الاتِّعاظ بها، والعمل بموجبها.



- **ج. سرد الآيات وبيان وجه الدلالة:**

وبعد بيان كلٍّ من معنى الاعتبار والاتعاظ، وبيان أهميَّة الخطاب القرآني الَّذي يدلُّ على ذلك، واستعراض الآيات الَّتي جاء هذا المعنى فيها واضحًا، فإني أنتقل بعد ذلك إلى تفسير الآيات الَّتي تدلُّ على ذلك، مع بيان أهمِّ أقوال المفسِّرين الَّتي فيها التَّصريح بهذا المعنى.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

ففي (البحر): «في ذلك من الاتِّعاظ والاعتبار ما يوجب مبادرة الازدجار عن مخالفة الملك القهَّار. وانظر إلى لطف الله ﷻ بهذه الملة المحمديَّة؛ إذ جعل توبتها في الإقلاع عن الذَّنب، والنَّدم عليه، والعزم على عدم المعاودة إليه»(١). وفي (التَّحرير والتَّنوير): «غيَّر الأسلوب في هذه الجملة، إذ انتقل من خطاب بني إسرائيل إلى الحديث عنهم بضمير الغيبة؛ لقصد الاتِّعاظ بحالهم، وتعريضًا بأنَّهم متمادون على غيِّهم»(٢).

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: ٦٥](٣). ومعنى الاتِّعاظ والاعتبار في ذلك واضح.

---

(١) البحر المحيط (١/ ٣٦٧).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (١/ ٥١٢).

(٣) ونحوه: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ =

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

قوله ﷻ: ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦]. وزنها: (مفعلة) من الاتِّعاظ والانزجار. و(الوعظ): التَّخويف، و(العظة) الاسم[(١)]. وقال الخليل في (العين): «(الوعظ) التَّذكير بالخير فيما يرقُّ له القلب[(٢)]». واللَّفظ يعمُّ كلَّ متَّق من كلِّ أمَّة[(٣)]. وقيل قوله ﷻ: ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، أي: لأمَّة محمَّد ﷺ أن ينتهكوا من حرم الله ﷻ ما نهاهم عنه، فيصيبهم ما أصاب أصحاب السَّبت إذ انتهكوا حرم الله ﷻ في سبتهم[(٤)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [الطلاق: ٢]. خصَّه بالذِّكر؛ لأنَّه المسارع إلى الامتثال إجلالا لله ﷻ، وخوفًا من عقابه، و﴿ذَٰلِكُمۡ﴾، أي: الاتِّعاظ به، والعمل بمقتضاه ﴿أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾ أي: أعظم بركة ونفعًا، ﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾،

= وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠]، ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٦].

(١) تفسير القرطبي (١/ ٤٤٤)، ابن عادل (٢/ ١٥٢).

(٢) وعبارة الخليل في (العين)، مادَّة: (وعظ) «(العِظَةُ): الموعظة. وَعَظْتُ الرّجلَ أَعِظُهُ عِظَةً وموعظة. و(اتَّعَظَ): تقبَّل العِظَةَ، وهو تذكيرُك إيَّاه الخيرَ ونحوَه ممَّا يرقُّ له قلبُهُ». (٢/ ٢٢٨). وانظر كذلك: لسان العرب (٧/ ٤٦٦)، مختار الصِّحاح (ص: ٧٤٠).

(٣) انظر: المحرَّر الوجيز (١/ ١٦١)، القرطبي (١/ ٤٤٤)، روح المعاني (١/ ٢٨٤).

(٤) انظر: معاني القرآن، للزَّجاج (١/ ١٤٩)، تفسير القرطبيِّ (١/ ٤٤٤).

أي: أكثر تطهيرًا من دنس الآثام[١].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ومعنى الاعتبار والاتِّعاظ واضح.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: المذكور من النَّصر. وقيل: من تلك الرُّؤية، ﴿لَعِبْرَةً﴾، أي: اتِّعاظا ودلالة، وهي (فِعْلَة) من العُبور كالرِّكبة والجِلْسة، وهو: التَّجاوز، ومنه: (عبرت النَّهر)، وسمي (الاتِّعاظ): عبرة؛ لأنَّ المتَّعظ يعبر من الجهل إلى العلم، ومن الهلاك إلى النَّجاة، والتَّنوين للتَّعظيم، أي: عبرة عظيمة كائنة ﴿لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ جمع (بصر) بمعنى: بصيرة مجازًا، أو بمعناه المعروف، أي: لذوي

---

(١) انظر: روح المعاني (٢/ ١٤٥).

العقول والبصائر، أو لمن أبصرهم ورآهم بعيني رأسه[١].

وحيث إنَّ ذلك الأمر محلُّ اعتبار فلذلك أعقبه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ ، وبيَّن أنَّ من ينتفع بها من يتأمَّل وينظر فيعتبر ويتَّعظ، فإنَّ المعتبر المتَّعظ يعبر من الجهل بذلك الأمر إلى العلم به، ومن الهلاك إلى النَّجاة..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

«هذا غرض أُنف بالنِّسبة لما تتابع من أغراض السُّورة، انتُقل به من المقدِّمات والمقصد والمتخلِّلات بالمناسبات إلى غرضٍ جديدٍ هو الاعتبار بخلق العوالم وأعراضها، والتَّنويه بالَّذين يعتبرون بما فيها من آياتٍ. ومِثْل هذا الانتقال يكون إيذانًا بانتهاء الكلام على أغراض السُّورة، على تفنُّنها، فقد كان التنقُّل فيها من الغرض إلى مشاكله، وقد وقع الانتقال الآن إلى غرض عامٍّ، وهو الاعتبار بخلق السَّموات والأرض، وحال المؤمنين في الاتِّعاظ بذلك، وهذا النَّحو في الانتقال يعرض للخطيب ونحوه من أغراضه عقب إيفائها حقَّها إلى غرض آخر، إيذانًا بأنَّه أشرف على الانتهاء. وشأن القرآن أن يختم بالموعظة؛ لأنّها أهمُّ أغراض الرِّسالة، كما وقع في ختام (سورة

(١) انظر: روح المعاني (٣/ ٩٨)، تفسير أبي السُّعود (٢/ ١٤)، ابن عادل (٥/ ٦٩) .

البقرة)»[(١)].

ونحوه قوله ﷻ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، فإنَّ خلق السَّموات والأرض من أكبر مظاهر قدرة الله ﷻ وعلمه، وإتقان صنعه، فالمقصود من هذا الخبر لازمه، وهو الاعتبار بسعة علمه وقدرته. وفي ذلك تنبيه على أنَّ خلق السَّموات والأرض أعظم من خلق النَّاس، ومن كان قادرًا على خلق الأعظم والأكبر كان من باب أولى قادرًا على خلق الأقلِّ والأصغر..كقوله ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر:٥٧]، وقوله ﷻ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧﴾ [النازعات:٢٧]. فكان ذلك دالًّا على توحيد الله ﷻ، وتفرده بالخلق والتَّدبير..

ومن الآيات الَّتي فيها معنى الاعتبار والاتِّعاظ قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٤٣ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾ [الأنعام:٤٢-٤٥]. جاء في تفسير قول الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من البأساء

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٤/ ١٩٦).

والضَّراء، أي: تركوا الاتِّعاظ به ولم يزجرهم استدرجناهم بتيسير مطالبهم الدُّنيويَّة، وعبَّر عن ذلك بقوله ﷻ: ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ من الصِّحة والسَّعة وصنوف النِّعمة .﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ من الخير والنِّعمة ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ آيسون متحسِّرون. وأصله: الإطراق حزنًا لما أصابه، أو ندمًا على ما فاته. معنى هذه الجمل معنى قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٌ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨][(١)]. وقال الله ﷻ أيضًا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف:٩٤-٩٥] .

والحاصل أنهم تركوا الاهتداء بما جاء به الرُّسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام- حتى نسوه أو جعلوه كالمنسي في عدم الاعتبار والاتِّعاظ به؛ لإصرارهم على كفرهم، وجمودهم على تقليد من قبلهم[(٢)].

ومن ذلك ما كان نحو قوله ﷻ:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف:٧٩] .قال الزَّركشيُّ كقوله ﷻ

---

(١) انظر: الكشاف (١٩/٢)، وانظر: البحر المحيط (١٣٤/٤)، تفسير النَّسفي (١٨/٢)، البحر المديد (٢٥٦/٢).

(٢) انظر: المنار (٣٤٦/٧).

حاكيًا عن صالح عليه السلام لما هلك قومه: «﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ خاطبهم بعد هلاكهم إما لأنهم يسمعون ذلك، كما فعل النَّبي ﷺ بأهل بدر، وقال: «**والله ما أنتم بأسمع منهم**»[(١)]. وإما للاعتبار كقوله ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾ [الروم: ٤٢]، وقوله ﷻ: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩]»[(٢)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠١-١٠٢]. وفي ذلك التَّعريضُ بالمعرضين عن الاتِّعاظ بأخبارها[(٣)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦]، أي: تفكُّرا يؤدِّي بهم إلى الاتِّعاظ، وإنَّ الاتِّعاظ

---

(١) روي الحديث بألفاظٍ مختلفة. انظر: صحيح البخاري، [١٢٨١]، [٣٦٧٩]، [٣٧٢٢]، ومسلم، [٥١٢٠]، [٥١٢١].

(٢) البرهان (٢/ ٢٤٥).

(٣) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٣/ ٦٦).

بالموعظة القرآنيَّة يوصل العبد إلى السَّعادة الباقية، ويخلِّصه من الحظوظ النَّفسانيَّة..قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:١١٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩]، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣][(١)] .

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف:٢٠٥].

قال أبو جعفر: ﴿وَٱذْكُر﴾ «أيُّها المستمع المنصت للقرآن، إذا قرئ في صلاة أو خطبة، ﴿رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ ، يقول: اتَّعظ بما في آي القرآن، واعتبر به، وتذكَّر معادك إليه عند سماعكه، ﴿تَضَرُّعًا﴾ ، يقول: افعل ذلك تخشُّعًا لله ﷻ، وتواضعًا له، ﴿وَخِيفَةً﴾ ، وخوفًا من الله ﷻ أن يعاقبك على تقصير يكون منك في الاتِّعاظ به والاعتبار، وغفلة عما بين الله ﷻ فيه من حدوده»[(٢)] .

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال:٥٧]. فقد آل معنى التَّذكُّر إلى لازمه وهو الاتِّعاظ والاعتبار، وقد شاع إطلاق التَّذكُّر وإرادة معناه الكنائي، وغلِّب فيه[(٣)].

---

(١) وقد جاء معنى (الاعتبار والاتِّعاظ) واضحا في كلٍ من (تفسير البيضاوي) لهذه الآية (٣/ ٧٥)، و(البحر المديد) (٢/ ٤١٥) .

(٢) تفسير الطَّبري (٩/ ١٦٦) .

(٣) انظر: التَّحرير والتَّنوير (١٠/ ٥١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣].

ونحوه قوله ﷻ:

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم:١٤]. فقوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الَّذي نسرده عليك من قصص الأمم الدَّارسة، ﴿لَءَايَةً﴾ ، أي: لعبرة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فيعتبر به ويتَّعظ، لعلمه بأنَّ ما حاق بهم أنموذج ممَّا أعدَّ الله ﷻ للمجرمين في الآخرة. وأمَّا من أنكر الآخرة فلا ينفعه هذا الوعظ والتَّذكير لفساد قلبه، وموت روحه[(١)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء:١٧][(٢)]. ومعنى الاتِّعاظ والاعتبار في هذه الآية ونظائرها واضح.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

---

(١) انظر: البحر المديد (٣/ ٢٤١).

(٢) ونحوه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم:٧٤]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم:٩٨]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص:٥٨]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ [ق:٣٦].

[الإسراء: ٤١]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾ [الفرقان: ٥٠]. فقوله: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ قرأ حمزة والكسائيُّ: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [بالتَّخفيف][1] من الذِّكر الَّذي هو بمعنى التَّذكر، ضدُّ النِّسيان والغفلة، والتَّذكر على القراءة الأولى بمعنى: الاتِّعاظ[2]. أي: ليتَّعظوا بالقرآن. ويقال: في القرآن من كلٌّ شيءٍ يحتاج إليه النَّاس. ويقال: بيَّنا في هذا القرآن من كلِّ وعد ووعيد ﴿لِّيَذَّكَّرُواْ﴾، أي: ليتَّعظوا بما في القرآن فينتهوا عن مخالفة أمر الله ﷻ، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: الوعيد في القرآن. ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾، أي: تباعدًا عن الإيمان[3].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف: ٩]. «فيه لفت لعقول السَّائلين عن الاشتغال بعجائب القصص إلى أنَّ الأولى لهم الاتِّعاظ بما فيها من العِبر والأسباب وآثارها. ولذلك ابتدئ ذكر أحوالهم بقوله: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ [الكهف: ١٠]، فأعلم النَّاس بثبات إيمانهم بالله ﷻ، ورجائهم فيه، وبقوله: ﴿إِنَّهُمْ

---

(١) حجَّة القراءات (ص: ٤٠٣-٤٠٤)، السَّبعة في القراءات (ص: ٢٧٣-٣٨٠-٣٨١-٤٦٥-٤٦٦)، والحجَّة في القراءات السَّبع (ص: ٢١٨-٢٦٦).

(٢) انظر: روح المعاني (١٥/ ٨٢)، الكشاف (٢/ ٤٥٠)، تفسير السَّمرقندي (٢/ ٢٦٩)، (٢/ ٤٦٣).

(٣) انظر: تفسير السَّمرقندي (٢/ ٢٦٩)، (٢/ ٤٦٣).

فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]. وتدلُّ الآيات على أنهم أبطلوا الشِّرك، وسفَّهوا أهله، تعريضًا بأنَّ حقَّ السَّامعين أن يقتدوا بهداهم»(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾ [المؤمنون: ٧٥-٧٧]، فقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾، أي: بسابق إصرارهم على الشِّرك، والإعراض عن الالتجاء إلى الله ﷻ، وعدم الاتِّعاظ بأنَّ ما حلَّ بهم من العذاب هو جزاء شركهم(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٤﴾ [النمل: ٤٤]. مكان العبرة منها الاتِّعاظ بحال هذه الملكة؛ إذ لم يصدَّها علوُّ شأنها، وعظمة سلطانها، مع ما أوتيته من سلامة الفطرة، وذكاء العقل عن أن تنظر في دلائل صدق الدَّاعي إلى التَّوحيد، وتوقن بفساد الشِّرك، وتعترف بالوحدانية لله ﷻ، فما يكون إصرار المشركين على شركهم بعد أن جاءهم الهدي الإسلامي إلا

(١) بقليل من التَّصرف عن (التَّحرير والتَّنوير) (١٥/ ٢٥٩).
(٢) انظر: المصدر السابق (١٨/ ١٠٠)

لسخافة أحلامهم، أو لعمايتهم عن الحقِّ، وتمسُّكهم بالباطل، وتصلُّبهم فيه[(١)].

ومن ذلك الآياتُ الَّتي تتحدَّثُ عن قصَّة قارون من قوله ﷻ: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: ٧٦]، إلى قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]. فمن مقاصد هذه الآيات ونظائرها: الاعتبارُ والاتِّعاظ، وذلك واضح.

وممَّا قيل في قول الله ﷻ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٨٠]: «إنَّ لفظ (ويل) يستعمل في التَّعجب المشوب بالزَّجر، فليس ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ داعين بالويل على الَّذين يريدون الحياة الدُّنيا؛ لأنَّ المناسب لمقام الموعظة لين الخطاب ليكون أعون على الاتِّعاظ، ولكنَّهم يتعجَّبون من تعلُّق نفوس أولئك بزينة الحياة الدُّنيا، واغتباطهم بحال قارون، دون اهتمام بثواب الله ﷻ الَّذي يستطيعون تحصيله بالإقبال على العمل بالدِّين والعمل النَّافع، وهم يعلمون أنَّ قارون غير متخلِّق بالفضائل الدِّينيَّة»[(٢)].

(١) انظر: المصدر السابق (١٩/ ٢٧٧).
(٢) المصدر السابق (٢٠/ ١٨٤).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٢]. استئنافٌ مسوقٌ؛ لتشديد التَّوبيخ، وتأكيدِ التَّقريع ببيان أن جناياتهم ليست بنقض العهد فقط، بل به وبعدم الاتِّعاظ بما شاهدوا من العقوبات النَّازلة على الأمم الخالية بسبب طاعتهم للشَّيطان، والخطاب لمتأخريهم الَّذين من جملتهم كفَّار (مكَّة)، خصُّوا بزيادة التَّوبيخ والتَّقريع؛ لتضاعف جناياتهم[(١)].

ومن ذلك ما قيل[(٢)] في قوله ﷻ:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص: ٧١-٧٤]، المقصود من سوق القصَّة هنا: الاتِّعاظ بكبرْ إبليس.. وسوء العاقبة، وقد دلَّ على ذلك قوله ﷻ: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٧٧-٧٨]، وقوله ﷻ: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: ١٠-١١]. استبعد منهم الاتِّعاظ بقوله ﷻ: ﴿أَنَّىٰ

---

(١) انظر: روح المعاني (٢٣/ ٤١)، أبو السُّعود (٧/ ١٧٥).

(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٣/ ٣٠١).

لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾﴾ [الدخان: ١٣] وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل في باب الادِّكار من كشف الدُّخان، وهو القرآن المعجز وغيره، فلم يتذكَّروا!![1]. ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾﴾ يبيِّن لهم الحقَّ، والذِّكرى والذِّكر واحد، قاله البخاريُّ[2]. ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ [الدخان: ١٤]، أي: أعرضوا، فمتى يتَّعظون؟ والله ﷻ أبعدهم من الاتعاظ والتذكر بعد توليهم عن محمَّد ﷺ، وتكذيبهم إيَّاه. وقيل: أي: أنى ينفعهم؟[3]. أي: والحال أنهم شاهدوا من دواعي التَّذكر، وموجبات الاتِّعاظ ما هو أعظم من ذلك في إيجابهما حيث جاءهم رسول عظيم الشَّأن، ظاهر أمر رسالته بالآيات والمعجزات التي تخرُّ لها صمُّ الجبال، أو مظهر لهم مناهج الحقِّ بذلك[4].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾﴾ [الجاثية: ٨][5].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا

(١) انظر: الكشاف (٣/ ٥٠٢)، البحر المحيط (٨/ ٣٥)، تفسير النَّسفي (٤/ ١٨٦)، غرائب القرآن (٦/ ١٠٤).
(٢) صحيح البخاريِّ الجزء الخاص في التَّفسير (٤/ ١٨٢٤).
(٣) انظر تفسير القرطبيِّ (١٦/ ١٣٢).
(٤) انظر: تفسير أبي السُّعود (٨/ ٦٠)، روح المعاني (٢٥/ ١١٩)، تفسير القاسمي (٦/ ٢٠٧).
(٥) انظر: تفسير الماورديِّ (٥/ ٢٦٢)، تفسير العزِّ بن عبد السَّلام (١/ ١٧٥).

يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف:٣٥]. ونظيره قوله عز وجل: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ [إبراهيم:٥٢]، أي: هذا الَّذي وعظتم به فيه كفاية في الموعظة، أو هذا تبليغ من الرُّسل، فهل يهلك إلا الخارجون عن الاتِّعاظ به والعمل بموجبه؟ كذلك قال غير واحد من المفسِّرين(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر:١٥]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر:١٧]، وانظر الآيات من [سورة القمر:٢٢-٣٢-٤٠-٥١]. قال العلامة محمد الطَّاهر بن عاشور: «(الذِّكر): مصدر (ذكر) الَّذي هو التَّذكر العقلي لا اللساني، والَّذي يرادفه (الذُّكر) -بضمِّ الذَّال- اسمًا للمصدر، فالذِّكر هو تذكُّر ما في تذكُّره نفعٌ ودفع ضر، وهو الاتِّعاظ والاعتبار. فصار معنى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أنَّ القرآن سُهِّلت دلالته؛ لأجل انتفاع الذِّكر بذلك التَّيسير، فجعلت سرعة ترتب التَّذكر على سماع القرآن بمنزلة منفعة للذكر؛ لأنَّه يشيع ويروج بها كما ينتفع طالب شيء إذا يُسِّرت له وسائل تحْصيله، وقربت له أباعدها. ففي قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ استعارة مكنية، ولفظ: ﴿يَسَّرْنَا﴾: تخييل. ويؤول المعنى إلى: (يسرنا القرآن للمتذكِّرين). وفرع على هذا المعنى قوله: ﴿فَهَلْ مِن

(١) انظر: الكشاف (٣/ ٥٣٨)، تفسير أبي السُّعود (٨/ ٩٠)، تفسير الرَّازي (٢٨/ ٣٢-٣٦)، تفسير البيضاوي (٥/ ١٨٧)، تفسير النَّسفي (٤/ ٢١٩).

مُّدَّكِرٍ﴾ . والقول فيه كالقول في نظيره المتقدِّم آنفًا[١]، إلا أنَّ بين الادِّكارين فرقًا دقيقًا، فالادِّكار السَّالف: ادّكار اعتبار عن مشاهدة آثار الأمَّة البائدة، والادِّكار المذكور هنا: ادكار عن سماع مواعظ القرآن البالغة، وفهم معانيه، والاهتداء به»[٢].

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ [القمر: ٣٣-٣٥]. «وقد حكي ذلك في (سورة الأعراف)، وفي (سورة هود)، وفي (سورة الحجر)[٣]؛ ولأنَّ (سورة القمر) بنيت على تهديد المشركين عن إعراضهم عن الاتّعاظ بآيات الله عَزَّ وَجَلَّ الَّتي شاهدوها، وآثار آياته على الأمم الماضية الَّتي علموا أخبارها، وشهدوا آثارها، فلم يكن ثمَّة مقتض لتفصيل أقوال تلك الأمم إلا ما كان منها مشابها لأقوال المشركين في تفصيله، ولم تكن أقوال قوم لوط عليه السلام بتلك المثابة، فلذلك اقتصر فيها على حكاية ما هو مشترك بينهم وبين

---

(١) يعني ما ذكره من بيان معنى: ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ وأن أصله: «(مُذتكر) مفتعل من (الذُكر) -بضم الذَّال-، وهو التَّفكر في الدَّليل فقلبت تاء الافتعال دالا لتقارب مخرجيهما، وأدغم الذَّال في الدَّال لذلك». التَّحرير والتَّنوير (٢٧/ ١٨٧)، وانظر: البحر المديد (٧/ ٢٥٤).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٢٧/ ١٩٠).

(٣) انظر: سورة [الأعراف من الآية: (٨٠) إلى (٨٤)]، و[هود من (٧٧) إلى (٨٣)]، و[الحجر من (٥٧) إلى (٧٥)]، وانظر: [الأنبياء: ٧٤]، و[الشعراء: ١٦٠ إلى١٧٤]، و[النمل: ٥٤ إلى ٥٨]، و[العنكبوت: ٢٨ إلى٣٤]، و[ص: ١٣-١٤].

المشركين، وهو تكذيب رسولهم، وإعراضهم عن نذره»[1].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷿:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢]. فقد أمر الله ﷿ بالاعتبار، وهو ردُّ الشَّيء إلى شبيهه -كما سبق-. ومن العلماء[2] من يرى أنَّه عامٌّ يشمل كلَّ شيءٍ فيه ردُّ الشَّيء على المثيل سواء في الاتِّعاظ، أو الحكم الشَّرعي فيدخل في ذلك القياس؛ لأنَّه رد الشَّيء إلى شبيهه، وتعديةٌ من أصلٍ إلى فرع.. حيث يقول العلامة ابنُ عابدين[3] مثلًا: «﴿فَٱعْتَبِرُوا۟﴾، أي: قيسوا، و(العبرة لعموم اللَّفظ لا لخصوص السَّبب)، فاللَّفظ عامٌّ يشمل الاتِّعاظ، وكلَّ ما هو ردُّ الشَّيء إلى نظيره، فيدلُّ على الاتِّعاظ عبارة، وعلى القياس إشارة؛ لأنَّ الاتِّعاظ يكون

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢٧/ ٢٠٤).

(٢) ولستُ هنا بصدد التَّرجيح أو مناقشة الاستدلال بهذه الآية على القياس؛ إذ ذاك أمر مبسوط في كتب الأصول، ولكني أشير إلى ذلك المعنى من حيث ما فهم منه من المشابهة بين معنى الاعتبار ومعنى القياس. وينظر في ذلك: أحكام القرآن، للجصَّاص (٥/ ٣١٧)، وأصول السَّرخسي (٢/ ٩٣) فما بعد، والمحلَّى (٩/ ٣٦٤)، والمستصفى (١/ ٢٩٣) فما بعد.

(٣) هو محمَّد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدِّمشقي، فقيه الدِّيار الشَّامية، وإمام الحنفيَّة في عصره. مولده ووفاته في (دمشق). [١٢٥٢هـ]. انظر: الأعلام (٦/ ٤٢)، وانظر: معجم المؤلِّفين (١١/ ١٩٣).

=

ثابتًا بطريق المنطوق مع أنَّ سياق الكلام له، والقياس بطريق المنطوق من غير أن يكون سياق الكلام له. سلمنا أنَّ الاعتبار هو الاتِّعاظ لكن يثبت القياس دلالة»[(١)]. ويقول ابنُ عابدين أيضًا: «فسِّر الاعتبار بالتَّأمل، وإن كان المراد منه -والله أعلم-: ردَّ أنفسنا إلى أنفسهم في استحقاق العقوبات عند مباشرة تلك الأسباب؛ لأنَّ هذا الرَّد إنما يتحقَّق بالتَّأمل في أحوالهم، ولما كان التَّأمل هو المؤدي إلى هذا الردِّ جعل التَّأمل نفسه إقامة للسَّبب مقام المسبَّب»[(٢)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠]. فقوله ﷻ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾، أي: الملك الَّذي أحاط بكلِّ شيء قدرة وعلمًا، ﴿مَثَلًا﴾ يعلم به من فيه قابلية العلم، ويتَّعظ به من له أهلية الاتِّعاظ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: غطوا الحق على أنفسهم وعلى غيرهم. وقوله ﷻ: ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ عليه السلام الذي أهلك الله ﷻ من كذَّبه بالغرق، ﴿وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ عليه السلام الذي أهلك الله ﷻ من كذبه بالحصب[(٣)]

(١) حاشيةُ نسمات الأسحار على شرح إفاضة الأنوار على متن أصول المنار (ص: ١٤٦-١٤٧).

(٢) المصدر السابق (ص: ١٤٦-١٤٧).

(٣) قال الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [القمر: ٣٤]. و(الحاصب) في هذه الآية قيل: إنها السَّحابة أو الرِّيح، وكلا القولين صحيح؛ لأنَّ كلَّ ريح شديدة ترمي بالحصباء تسمَّى حاصبًا وحصبة. وكلُّ سحابة ترمي بالبرد تسمَّى حاصبًا أيضًا.

والخسف، يجوز أن يكون بدلًا من قوله: ﴿مَثَلًا﴾ على تقدير حذف المضاف، أي: ضرب الله ﷻ مثلًا مثل امرأة نوح وامرأة لوط. ويجوز أن يكونا مفعولين، وضرب الله ﷻ هذا المثل تنبيها على أنَّه لا يغني أحد عن قريب، ولا نسيب في الآخرة إذا فرَّق بينهما الدِّين[1].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٣١]، ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩﴾ [المدثر:٤٩]، أي: عن التَّذكير، وهو العظة، يريد القرآن[2] أو غيره من المواعظ[3]. وقد قيل في إعراضهم عن القرآن: إنَّه الجحود والإنكار. وقيل: ترك العمل بما فيه. و﴿مُعْرِضِينَ﴾ حال من الضَّمير في الجارِّ الواقع خبرًا عن (ما) الاستفهاميَّة، ومثل هذه الحال تسمى حالا لازمة، و﴿عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ﴾ متعلِّق به، أي: أيُّ شيء حصل لهم في إعراضهم عن الاتِّعاظ؟!![4].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾ [المدثر:٥٥]، أي: اتّعظ به.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر:٥٦]، أي: وما يتَّعظون إلَّا

---

(١) انظر: السِّراج المنير (٤/ ٣٦١)، نظم الدُّرر (٨/ ٥٧).

(٢) انظر: الدُّر المنثور (٨/ ٣٣٩)، وانظر: تفسير الطَّبري (٢٩/ ١٦٧).

(٣) انظر: الكشاف (٤/ ١٨٧)، تفسير ابن عادل (١٩/ ٥٣٦)، السِّراج المنير (٤/ ٤٨٨)، السَّمعاني (٦/ ٩٩)، الرَّازي (٣٠/ ٧١٧).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٨٨)، السِّراج المنير (٤/ ٤٨٨)، تفسير مقاتل (٣/ ٤٢٠).

أن يشاء الله ﷻ، أي: ليس يقدرون على الاتِّعاظ والتَّذكُّر إلَّا بمشيئة الله ﷻ ذلك لهم[(١)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ۝٢٩﴾ [الإنسان: ٢٩]، أي: «فمن شاء الاتِّعاظ اتخذ إلى ربه سبيلا، والمراد: من نوى أن يحصل له الاتِّعاظ تقرب إليه ﷻ، لكن ذكر السَّبب وأريد مسببه»[(٢)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾ [عبس: ١١-١٢]. فقوله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١﴾ ، أي: موعظة يجب الاتِّعاظ، والعمل بموجبها، ففي الآية: الحثُّ على الاتِّعاظ[(٣)]. وقوله ﷻ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾ ، أي: فمن شاء أن يذكره ذكره، أو ذكر الضَّمير؛ لأنَّ التَّذكرة في معنى الذِّكر والوعظ، والمعنى: فمن شاء الذِّكر ألهمه الله ﷻ إيَّاه[(٤)].

ومن آيات السُّورة الَّتي فيها الاعتبار والاتِّعاظ قوله ﷻ:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٩٠).

(٢) تفسير الآلوسي (٢٩/ ١١٠).

(٣) الكشاف (٤/ ٢١٨)، تفسير النَّسفي (٤/ ٤٨٦)، البحر المديد (٨/ ٢٣٧)، السراج المنير (٤/ ٥٤٨)، القرطبي (١٩/ ٩٠)، تفسير القاسمي (٧/ ٢٦٠).

(٤) انظر: الكشاف (٤/ ٢١٨)، النَّسفي (٤/ ٤٨٦)، تفسير الثَّعالبي (٤/ ٣٨٧).

مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس٣٣-٤٢].

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ [البروج:١٧-١٨].

قيل: «فيه تعريضٌ للمشركين بأنَّهم قد يحلُّ بهم ما حَلَّ بأولئك: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَى ﴿٥١﴾﴾ [النجم:٥٠-٥١]، إلى قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴿٥٥﴾﴾ [النجم:٥٥]. والخطاب لغير معيَّنٍ ممَّن يراد موعظته من المشركين كناية عن التَّذكير بخبرهم؛ لأنَّ حال المتلبِّسين بمثل صنيعهم -الرَّاكبين رؤوسهم في العناد- كحال من لا يعلم خبرهم، فيُسْأل هل بلغه خبرهم أوْ لا؟ أو خطابًا لغير معيَّن، تعجيبًا من حال المشركين في إعراضهم عن الاتِّعاظ بذلك فيكون الاستفهام مستعملا في التَّعجيب»[(١)].

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر:٢٣]، أي: ومن أين له الاتِّعاظ والتَّوبة وقد فرَّط فيها في الدُّنيا؟!. ويقال: أي: ومن أين له منفعة الذِّكرى؟[(٢)].

* * *

(١) التَّحرير والتَّنوير (٣٠/ ٢٥٠).

(٢) انظر: تفسير القرطبيِّ (٢٠/ ٥٦)، تفسير ابن عادل (٢٠/ ٣٣٢)، تفسير السَّمعاني (٦/ ٢٢٢).

● **د. خاتمة في إجمال النَّتائج:**

يتبيَّن ممَّا سبق أنَّ كلَّ قصَّةٍ ذكرها الله ﷻ في كتابه فيها الموعظةُ والاعتبار...

كما يتبيَّن أنَّ السَّعيد من اعتبر بغيره، والشَّقيُّ من اعتبر به غيره. وفيها وعد الله ﷻ لمن اعتبر بذلك وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد من لم يعتبر، وإنذاره بسوء العقوبة، والوعد يشمل ما للأمَّة وما للأفراد، فيعمُّ نِعَمَ الدُّنيا والآخرة وسعادتهما، والوعيد -كذلك- يشمل نقمهما وشقاءهما..

كما يستفادُ من قصص من وقف عند حدود الله ﷻ، وأخذ بأحكام دينه، ومن أخبار الَّذين تعدَّوا حدوده، ونبذوا أحكام دينه ظهريًّا: الاعتبار بالعاقبة والمآل، فيكون ذلك دافعًا لاختيار طريق المحسنين، ويكون المؤمن على بيِّنة وحذر.

قال أبو جعفر: «وفي حَثِّ الله ﷻ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبيِّنات بقوله ﷻ لنبيِّه ﷺ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر:٢٧-٢٨]، وما أشبه ذلك من آي القرآن، الَّتي أمر الله ﷻ عبادَه، وحثَّهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتِّعاظ بمواعظه ما يدلُّ على أنَّ عليهم معرفةَ تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه؛ لأنَّه محالٌ أن يُقال لمن لا

يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَه: (اعتبرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفةَ من القِيل والبيان والكلام) إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهَه، ثمَّ يتدبَّره ويعتبرَ به. فأمَّا قبلَ ذلك، فمستحيلٌ أمرُه بتدبُّره وهو بمعناه جاهل. كما محالٌ أن يقال لبعض أصناف الأمم الَّذين لا يعقلون كلامَ العرب ولا يفهمونه لو أنشد قصيدة شعرٍ من أشعار بعض العرب ذاتَ أمثالٍ ومواعظ وحِكم: (اعتبر بما فيها من الأمثال، وادَّكر بما فيها من المواعظ) إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلامِ العرب ومعرفتِه، ثمَّ الاعتبار بما نبهها عليه ما فيها من الحِكم. فأمَّا وهي جاهلةٌ بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق فمحالٌ أمرُها بما دلَّت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعِبَر. بل سواء أمرُها بذلك وأمرُ بعض البهائم به إلا بعدَ العلم بمعاني المنطق والبيان الَّذي فيها. فكذلك ما في آي كتاب الله ﷻ من العِبَر والحِكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: (اعتبرْ بها) إلا لمن كان بمعاني بيانه عالمًا، وبكلام العرب عارفًا، وإلا بمعنى الأمر -لمن كان بذلك منهُ جاهلا- أنْ يعلم معاني كلام العرب، ثمَّ يتدبَّره بعدُ، ويتَّعظ بحِكمَه وصُنوف عِبَرِه. فإذْ كان ذلك كذلك -وكان الله ﷻ قد أمر عباده بتدبُّره وحثَّهم على الاعتبار بأمثاله- كان معلومًا أنَّه لم يأمر بذلك من كان بما يدُلُّ عليه آيُه جاهلا. وإذْ لم يجز أن يأمرهمَ بذلك إلا وهُمْ بما يدلهم عليه عالمون، صحَّ أنَّهم - بتأويل ما لم يُحجَبْ عنهم علمه من آيه الَّذي استأثر الله ﷻ بعلمه منه دون خلقه - الَّذي قد قدَّمنا صفتَه آنفًا- عارفون. وإذْ صَحَّ ذلك فسَدَ قول من أنكر

تفسيرَ المفسِّرين -من كتاب الله ﷻ وتنـزيلِه- ما لم يحجب عن خَلقه تأويله»[١].

ونخلصُ إلى أنَّ الاعتبار هو المؤدِّي إلى استخلاص العِبَر والحِكم..، وقد يكون ذلك بمجرد قراءة بعض النُّصوص، وقد يحتاج في نصوصٍ أخرى إلى النَّظر في التَّفسير والاستنباط، وإلى التَّأمُّل والتَّفكر، وإلى استخدام آليات التَّأويل كاللُّغة والعلوم المساعدة الأخرى...فيفهم العامِّي منه المعنى القريب، ويفهم العالم عمق المعنى..

وإنَّ موعظة القرآن نافعةٌ لكلٍّ من تجرَّد عن العناد والمكابرة، فمن لم يتَّعظ بها فلأنَّه لم يشأ أن يتَّعظ.

(١) تفسير الطَّبري (١/ ٣٦-٣٧).

المطلب الخامس: خطاب التَّهييج

● **أ. توطئة في بيان المعنى اللُّغوي لمادة التَّهييج..**

ولا بدَّ في البداية من بيان اللُّغوي لمادَّة (التَّهييج)، ثمَّ بعد ذلك استقصاء أهمِّ ما قاله المفسِّرون والباحثون في علوم القرآن في إبراز هذا اللُّون من ألوان الخطاب القرآني، وما له من الحِكم والمقاصد الَّتي تتعلَّق بغايات الخطاب.

قال الخليل في (العين) في بيان مادَّة: (هيج): «(هاج البَقْلُ): إذا اصفرَّ وطال، فهو هائجٌ، ويُقال: بل (هِيجَ البَقْلُ) و(هاجتِ الأرضُ) فهي هائجةٌ. و(هاج الفَحْلُ هِياجًا). و(اهتاج اهتياجًا) إذا ثار وهَدَرَ[(١)]. و(هاج الدَّمُ)، و(هاج الشَّر بين القَوْم)، وكلُّ شيءٍ يثورُ للمشقَّة والضَّرر. و(الهَيْجاء): الحربُ، تُمَدُّ وتُقْصر. وتقول: (هَيَّجْتُ الشَّرَّ بينهم)، و(هيَّجْتُ النّاقةَ فانبعثَتْ)، و(هِجْتُ فلانا فانبعث وهاج)»[(٢)].

وفي (المغرب): «(هَاجَهُ فَهَاجَ) أَيْ: هَيَّجَهُ وَأَثَارَهُ فَثَارَ، وَبَعَثَهُ فَانْبَعَثَ»[(٣)].

وأمَّا ما جاء دالا بمادَّته على هذا المعنى من الألفاظ القرآنيَّة فقوله

---

(١) وفي (الصِّحاح)، للجوهريِّ: «(هاجَ هائجُهُ)، أي: ثار غضبه. و(هَدَأَ هائِجُهُ) أي: سكنت فَوْرته». الصِّحاح، مادَّة: (هيج) (١/ ٣٥٢).

(٢) العين، مادَّة: (هيج) (٤/ ٦٧)، وانظر: لسان العرب، مادَّة: (هيج) (٢/ ٣٩٤).

(٣) المغرب، مادَّة: (هيج) (٢/ ٣٩٣).

وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣]، فإنَّ (الأز): التَّهييج والإغراء، و(أزه يؤزه أزا): أغراه وهيجه[(١)].

ومن المفسِّرين من ذكر هذا المعنى[(٢)].

وقد ورد هذا اللَّفظُ مرَّة واحدةً في القرآن الكريم.

يقول الزَّمخشريُّ: «(الأزُّ) و(الهزُّ) و(الاستفزاز) أخوات ومعناها: التَّهييجُ وشدَّة الإزعاج، أي: تُغريهم على المعاصي، وتهييجهم لها بالوساوس والتَّسويلات، والمعنى: خلينا بينهم وبينهم، ولم نمنعهم، والمراد: تعجيب الرَّسول ﷺ بعد الآيات الَّتي ذكر فيها العتاة والمردة من الكفَّار وأقاويلهم وملاحتهم، ومعاندتهم للرُّسل، واستهزائهم بالدِّين، من تماديهم في الغيِّ، وإفراطهم في العناد، وتصميمهم على الكفر، واجتماعهم على دفع الحقِّ بعد وضوحه وانتفاء الشَّك عنه»[(٣)].

ويلاحظ هنا أنَّ (الأزَّ) يكتسبُ معنىً زائدًا على إثارةِ الغضبِ، بل هو غضبٌ قويٌّ مستمرٌ لا ينقطع، غضبٌ صار لصاحبه ديدنًا، فكلَّما ورد عليه شيءٌ من الحقِّ اشتعل رأسه وعقله بالوساوس الشَّيطانيَّة،

---

(١) انظر: مختار الصِّحاح، مادَّة: (أزز) (ص: ١٥)، تاج العروس، (١٥/ ١٢-١٣)، لسان العرب (٥/ ٣٠٧)، الصِّحاح، للجوهريِّ (٣/ ٨٦٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١١/ ١٥٠)، وتفسير النَّسفي (٣/ ٤٤) .وفي (البحر): «(الأزُّ) و(الهزُّ) و(الاستفزاز) أخوات، ومعناها: التَّهييج وشدَّة الإزعاج، أي: تهيجهم وتزعجهم إلى الكفر والمعاصي». البحر المحيط (٦/ ١٨٧)، تفسير ابن عادل (١٣/ ١٤٢).

(٣) الكشاف (٢/ ٥٢٤).

والفكر الباطل، فتثور ثائرة العقل عنده، وينطلق لسانه بالفحش والكيد.

ومن أسباب ذلك: العجبُ والزَّهو والمراءُ والمجادلةُ بالباطل؛ لنصرة الرَّأي لا للوصول إلى الحقِّ، كالتَّعصب لفكرةٍ أو مذهبٍ أو رأي دونما دليل بيِّن أو حجَّةٍ واضحة، وفي جميع ذلك تبدو شهوةُ الانتقام، ومن لواحقه: النَّدامةُ، وتوقُّعُ العقابِ عاجلا أو آجلا، وهذا باب واسع الانتشار في عالمنا اليوم، فحقًّا هي شياطينُ تؤزُّ الكافرين أزًّا.

يقول العلامة محمد الطَّاهر: «شبَّه اضِّطرابَ اعتقاداتهم، وتناقض أقوالهم، واختلاق أكاذيبهم بالغليان في صعود وانخفاض، وفرقعة وسكون»[1].

فهذا وصف دقيقٌ لحالهم، ولأجسادهم المضَّطربة، وعقولهم المتأجِّجة، وتخبُّطهم في غيِّهم، وهو - أي: (الأزُّ) - داخل في معنى (النَّـزغ)، بل ويزيد عليه استمراريّةً وعمقًا، وهو داخلٌ في معنى التَّهييج الجسديِّ، فإنَّك ترى الواحد من هؤلاء المعاندين المجادلين من أهل الباطل، وهو يهتزُّ ويضَّطرب في حجاجه ولجاجه، وكأنَّما يحرِّكه شيطانٌ، وهو فعلا يحرِّكه شيطانٌ ذاك الَّذي أخبر عنه ربُّ العزَّة في الآية.

ومن ذلك -أعني ما يدلُّ بمادَّته على التَّهييج والإغراء- ما قاله البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ

(١) التَّحرير والتَّنوير (١٦/ ١٦٥).

﴿يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

قال أبو عبد الله البخاريُّ: «(أغروا بي) يعني: هيِّجوا بي»[١]. والمعنى أنَّ الإغراء هو التَّهييج.

وقال أبو عبيدة[٢] في (المجاز) في قوله عز وجل: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ : «(الإغراء): التَّهييج والإفساد»[٣].

ومن ذلك -أعني ما يدلُّ بمادته على التَّهييج والإغراء- ما قيل في قوله عز وجل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال: ٦٥].

التَّحريض: الحثُّ على الشَّيء. قال الزَّجاجُ: «هو في اللُّغة أن يحثَّ الإنسان على شيء حتَّى يعلم منه أنَّه حارض، أي: مقاربٌ للهلاك، وعلى هذا فهو للمبالغة في الحثِّ»[٤]. وقال الآلوسيُّ: «وزعم في (الدُّر المصون)[٥] أنَّ ذلك مستبعدٌ من الزَّجاج. والحقُّ معه، ويؤيِّده

(١) صحيح البخاريِّ [٢٥٧٣]، وانظر: فتح الباري (٥/ ٤١٤).
(٢) هو أبو عبيدة معمرُ بن المثنَّى التَّيمي البصري اللُّغوي الحافظ، صاحب التَّصانيف. انظر: تذكرة الحفَّاظ، للذَّهبي (١/ ٢٧٢).
(٣) مجاز القرآن (ص: ١٥٢).
(٤) معاني القرآن، للزَّجاج (٢/ ٤٢٣-٤٢٤) .
(٥) الدُّر المصون (٧/ ٤١٨-٤١٩). وصاحب (الدُّر المصون) هو أحمدُ بن يوسف بن عبد الدَّايم الحلبي السَّمين. انظر: طبقات المفسِّرين، للأدنروي (ص: ٢٨٧).

ما قاله الرَّاغب[١] من أنَّ (الحرض) يقال لما أشرف على الهلاك .

و(التَّحريض): الحثُّ على الشَّيء بكثرة التَّزيين، وتسهيل الخطب فيه، كأنَّه في الأصل (إزالة الحرض)، نحو: (قذيته): أزلت عنه القذى. ويقال: أحرضته إذا أفسدته. نحو: (أقذيته) إذا جعلت فيه القذى، فالمعنى هنا: (يا أيُّها النَّبيُّ بالغْ في حثِّ المؤمنينَ على قتالِ الكفَّار).

وجُوِّز أن يكون من تحريض الشَّخص، وهو أن يسمِّيه: (حرضًا)، ويقال له: (ما أراك إلا حرضًا في هذا الأمر)، و(محرضًا فيه). ونحوه: (فسَّقته) أي: سمَّيته فاسقا، فالمعنى: (سمِّهم حرضًا)، وهو من باب التَّهييج والإلهاب، والمعنى الأوَّل هو الظَّاهر»[٢].

● **ب. ما يتبينَّ من المعاني اللُّغوية لهذا اللَّون من ألوان الخطاب. . .**

وبناءً على ما سبق من المعنى اللُّغوي المرتبط بهذا اللُّون من ألوان الخطاب القرآني يتبيَّن أنَّ التَّهييج هو (الانفعالُ بحالةٍ نفسيَّةٍ وجدانَّية تدفعُ الإنسان إلى الإقدام على فعلٍ أو تركه)، وله أثرٌ إيجابي في الحثِّ على الفعل إن كان خيرًا، أو أمرًا لا بدَّ منه لصلاح النَّفس، أو واجبًا قد تغافل عنه المكلَّف، حيث يرفعُ عن المكلَّف غشاوة الغفلة، ويتركَّز عنده الانتباهُ على حسب حِدَّة الانفعال، فإن كان في الخير وضمن ضوابط الشَّرع فإنَّ هذه فائدته.

---

(١) انظر: المفردات، للرَّاغب، مادَّة: (حرض) (ص:١١٣)، تاج العروس (١٨/ ٢٨٤).

(٢) روح المعاني (١٠/ ٣١)، الكشاف (٢/ ١٦٧)، ابن عادل (٩/ ٥٦٣)، الدُّر المصون (٧/ ٤١٨-٤١٩)، البحر المحيط (٤/ ٤٩٢).

و(الإثارة والتَّهييج) من الأساليب التَّربويَّة الَّتي تحمِّس المتلقِّي للتَّفاعل مع المطلوب منه إيجابًا وقبولا وامتناعًا...

وفي مقابل التَّهييج المحمود الَّذي يكونُ من أجلِ إقامة حقوق الله ﷻ وما أوجبه وشرعه، والوفاء بحقوق العباد لا بدَّ من الإشارة إلى التَّهييج بشقِّه القبيح والَّذي فيه إثارةُ الغرائز، وقتلُ الحياء كقيمةٍ من القيم. ومن ذلك: التَّهييجُ الجنسي، وإبرازُ مواطنِ الإثارة الجنسيَّة، وإباحة الملاعبة في الأماكن العامَّة، ووسائلِ النَّقل العامِّ، والحديقة، والمعهد والكليَّة، ونحو ذلك..، وفي ذلك ما فيه من تجريدِ الاتِّصال الجنسيِّ من قداسته الَّتي هي ضمان استمرار الجنسِ البشريِّ، واعتباره رغبةً تُشْبعُ كما يشبع الإنسان نفسه من الطَّعام والشَّراب، وبهذا أصبح الاختلاط الجنسيُّ لا يخضع إلَّا لأمر واحد هو رضا الطَّرفين. فكانت الفوضى الجنسيَّة الَّتي جرَّتْ على البشريَّة الويلات..

وإذا كان بُعْد المسلمين عن دينهم قد أضعف هيبتهم وشوكتهم، فإنَّ الغزو الفكريَّ على هذه الأمَّة زادها بلبلةً وضيعةً وتمزُّقًا؛ لأنَّه هجومٌ يعملُ في دأبٍ وعناءٍ على غَمْرِ الأرجاء بصنوف الفساد، وعلى تخريب العقول بالإعلام المضل، الَّذي يصابح النَّاس ويماسيهم..

أمَّا المتلقُّون والشَّرائح المستهدفة فهم في معظمهم وسوادهم الأعظم عاكفون أمام الشَّاشات، وقد أسلموا قِيَادَ أنفسهم لأكثر القنواتِ إسفافًا، فبحسب أكوام اللُّحومِ وكميَّة ما يعرض منها تتحقَّق الجماهيريَّة حيث وئدتْ الفضيلةُ، وسفك دمُ الحياء، وقد جعلت تلك

القنوات والشَّبكات أنواعًا من الطعم والشباك لاصطياد السذَّج من خلال التَّهييج الجنسي الفاضح.

وينبغي أن يعلم أنَّ معظم ما تعرضه الفضائيَّاتُ المختلطة ضرره ماحقٌ، وخطره كبيرٌ جدًّا في مجالات عدَّة، ومن ذلك أضرار وأخطار في التَّصورات والمفاهيم، وفي الآداب والأخلاق والقيم الإنسانيَّة، هذا فضلًا عن هدم الثَّوابت الإسلاميَّة، وكذلك في الأمن والاستقرار وصحَّة العقول والأبدان..

وهل أنتجت مشاهدُ الإثارة ولقطات التَّهييج وصورُ العريِّ والتفكُّك إلا خرق سياج العفَّة والشَّرف؟ وشيوع الجريمة الأخلاقيّة؟ وفقدان الأمن وانتشار الاعتداءات المروِّعة؟ وهل يحمل الإلحاح الغريزيُّ الجامح، والسُّعَار الجنسيُّ الهائج إلا على السَّفَه والخفَّة وركوب الشرِّ؟ وما عساه يُجنَى من أفلامٍ ومجلاتٍ وقصصٍ ورواياتٍ وأطباقٍ وقنواتٍ جعلت الإثارةَ إحدى ركائزها، وتأجيج الغرائزِ أساس قيامها، ومحاربة العفَّة والطَّهارة من أولويات أهدافها؟!

وإنَّ من أعظم مقاصد هذا الدِّين: إقامةُ مجتمعٍ طاهر، الخُلُقُ سياجُه، والعفَّة طابعه، والحشمةُ شعاره، والوقارُ دثاره. وممَّا ينبغِي التَّفطُّن له الحذَرُ مِن الاغتِرارِ بالحَمَلات الإعلاميّة المغرِضَة، والقنوات الفضائيّة المسِفّة، أو الانسياقِ وراء الطُّعون المجرَّدَة، والتُّهَم الملفَّقَة، أو النَّيل مِن رموز المجتَمَع، وصالحي الأمَّة، والطَّعن في النَّاجِحين، والحط مِن أقدار الطَّامحِين، ومحاولة إسقاطِهم، والخَدش فيهم بغَير

وجهِ حقٍّ، أو التَّحريشِ بين المسلِمين، أو التَّهييج والإثارةِ والتَّشنُّج، وإثارةِ بواعِث الفِتن، وأسبابِ الفرقة..

والحاصل أنَّ ما يعنينا هنا هو التَّهييج بشقِّه المحمود، ونضرب صفحًا عن التَّهييج بشقِّه المذموم بعد الإشارة إليه بالتَّعريف المجمل...وذلك بغرض تحديد المفاهيم، وتمييز بعضها عن البعض الآخر.

- **ج. العرض والتَّحليل لآيات التَّهييج**

أقول: إنَّ النَّماذج هنا تأتي كسابقتها، أعني أنها تأتي مرتَّبة باعتبار التَّرتيب المصحفي لا باعتبار الأظهر في الدِّلالة على المعنى المراد، حيث يمكن القول -مثلًا- بأنَّ نحو قوله ﷻ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة:٢١]. من هذا القبيل؛ حيث إنَّ الإنعام على المكلَّفين من سبل التَّهييج؛ للامتثال، توسُّعًا في هذا اللَّون من ألوان الخطاب القرآني

ومن الآيات ما يدلُّ مفهومها العامُّ على التَّهييج نحو:

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [البقرة:٢٢]. فهذه الآية وما كان نحوها فيها: التَّهييجُ على العبادة ببيان عظمة قدرة الصَّانع. كأنَّه يقول: أيُّها الإنسان: إنَّ الَّذي سخَّرَ لك الأرضَ والسَّماء يستحقُّ أن تعبده..وكذا إيماء إلى فضيلة بني آدم عليه السلام..فكأنَّه يقول: إنَّ الَّذي أكرمكم بأن هيَّأَ لكم الأجرامَ العلويّة والسُّفليّة

بعظمتها، فلابدَّ أن تقبلوا على عبادته وطاعته، فهو الخالق المنعم..

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة:١٧٢][1]، فالكلام في هذه الآية خارج مخرج التَّهييج، وهو واضح.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة:١٤٥]، أي: ولئن فرض وقدِّر أنَّك سايرتهم على أهوائهم، واتَّبعت ما يهوونه ويحبُّونه بعد وضوح البرهان الَّذي جاءك بطريق الوحي ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: تكون ممَّن ارتكب أفحش الظُّلم، والكلام وارد على سبيل الفرض والتَّقدير، وإلا فحاشاه ﷺ من اتِّباع أهواء الكفرة المجرمين، وهو من باب التَّهييج؛ للثَّبات على الحقِّ. فهو خطاب على سبيل التَّهييج والإلهاب.

---

(١) ونحوه: قوله عز وجل: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: ٨٨]، ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأنعام:١١٨]، ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النَّحل: ١١٤].

ونحوه قوله ﷻ:

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧][١]. قيل: «الخطابُ للرَّسولِ ﷺ خطابٌ لأمَّته. وقيل: لكلِّ سامعٍ إذا ظهرت الدِّلالة فلا ينبغي أن يمتري فيه. وقيل: هو من باب التَّهييج والإلهاب»[٢]. وقد بيَّنتُ ما يتعلَّق بمعنى الآية في موضعها، وما يعنينا هنا إشارة من أشار من المفسِّرين إلى أنَّ نحو هذه الآيات فيها: التَّهييج والإلهاب.

ونحوه قوله ﷻ في (سورة آل عمران):

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠] عقب قوله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران:٥٩]، فقد قيل: الخطاب كذلك لكلِّ سامع قصَّة عيسى عليه السلام، والأخبار الواردة من الله ﷻ. وقيل: الخطاب له ﷺ والمراد بها أمَّته. ونهيه عن الامتراء، وجلَّ رسول الله ﷺ أن يكون ممتريًا، من

---

(١) ونحوه: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران:٦٠]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٤]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام:٣٥]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:١١٤]، ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس: ٩٥]، ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يونس: ١٠٥]، ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [هود:١٧]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص:٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:٨٧].

(٢) الكشاف (٢/٢٥٣)، البحر المحيط (٤/٢١٢)، تفسير الرَّازي (٤/١٣١)، تفسير أبي السُّعود (١/١٥٣)، فتح القدير (٢/٢٢٥).

باب التَّهييج؛ لزيادة الثَّبات والطُّمأنينة[(١)].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [البقرة:٢٢٨]، والمعنى واضح .

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة:٢٧٨]. وهذه الآية من باب التَّهييج والإغراء، والحثِّ على الامتثال، يعني: إن كنتم مؤمنين حقًّا فدعوا ما بقي من الرِّبا، وهذه الجملة يقصد بها: الإغراء، وإثارة الهمَّة؛ فإنَّه ﷻ وصفهم بالإيمان عند الخطاب، ثمَّ قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ، فقصد حثَّهم على ترك الرِّبا، وأنَّ المؤمنين حقَّهم أن يفعلوا ذلك.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء: ١٤٤]. فيقول الله ﷻ منكرًا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين: أيبتغون عندهم العزَّة؟ ثمَّ أخبر أنَّ العزَّة كلَّها له وحده لا شريك له، والمقصود: التَّهييج على طلب العزَّة من جانب الله ﷻ، والالتجاء إلى عبوديَّته،

---

(١) انظر: الكشاف (١/ ٤٣٣)، البحر المحيط (٢/ ٥٠٢)، روح المعاني (١١/ ١٩٠)، تفسير أبي السُّعود (٢/ ٤٦)، تفسير النَّسفي (١/ ٢٤٢).

والانتظام في جملة عباده المؤمنين الَّذين لهم النُّصرة في هذه الحياة الدُّنيا، ويوم يقوم الأشهاد. ومن الأدلَّة كذلك قوله ﷻ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣][1].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة: ٥٧][2]. فالمقصود

---

(١) انظر: البرهان (٢/ ٢٤٧)، (٤/ ٢١٩)، والإتقان (٢/ ٩٢)، وكتاب الكليَّات (ص: ٦٦١).
ومن ذلك ما كان يقوله النَّبي ﷺ في الحثِّ على الفعل بطريق التَّهييج، وفيه أيضًا الاستدلال بالآية المذكورة على هذا اللَّون من ألوان الخطاب القرآني: «لا يحلُّ لامرئ يؤمنُ بالله واليوم الآخر» وهو كثير في الحديث. انظر: صحيح البخاريِّ، [١٠١]، قال الإمام ابنُ دقيق العيد: «الَّذي أراه أنَّ هذا الكلام من باب (خطاب التَّهييج)؛ فإنَّ مقتضاه أنَّ استحلال هذا المنهيِّ عنه لا يليق بمن يؤمن بالله عز وجل واليوم الآخر، بل ينافيه، هذا هو المقتضى لذكر هذا الوصف. ولو قيل: لا يحلُّ لأحد مطلقًا لم يحصل به الغرض. و(خطاب التَّهييج) معلوم عند علماء البيان، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (١/ ٣٠٩)، وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٣)، وفيض القدير (٦/ ٢١١)، وشرح سنن أبي داود، لبدر الدِّين العيني (٤/ ١٢٦).

(٢) ونحوه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء: ١٤٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم =

من الآية زيادة التَّهييج للمؤمنين، حتى لا يبقى في قلوبهم شيء من المودَّة نحو الكافرين[(١)].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: ١١٢].

فقوله: ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ «بالياء مسندا إلى الربِّ ﷻ، وبالتَّاء الفوقانية مسندًا إلى عيسى عليه السلام، ونصب الرَّب[(٢)]، ومعناهما واحد يرجع إلى

= مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: ٢٣]، ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل: ٥١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٨).

(٢) اختلفوا في (الياء والتَّاء) من قوله عز وجل: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، فقرأ الكسائيُّ وحده: ﴿هَلْ تَستطيع ربَك﴾ -بالتَّاء ونصب الباء، واللاَّم مدغمة في التَّاء- وقرأ الباقون: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ -بالياء، ورفع الباء. السَّبعة في القراءات (ص: ٢٤٩)، وانظر: الحجَّة في القراءات السَّبع (ص: ١٣٥)، وحجَّة القراءات (ص: ٢٤١)، التَّيسير (ص: ٧٥)، وذُكِر عن عليٍّ وعائشة -رضي الله عنهما- أنَّهما قرآ: ﴿هَلْ تستطيع ربَك﴾ -بالتَّاء-، وذكر عن مُعَاذ رضي الله عنه أنَّه قال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ تَستطيع ربَك﴾ -بالتَّاء-، وهو وجه حسن. أي: هل تقدر على أن تسأل ربك ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؟ وفي (سنن التِّرمذي)، الجزء الخاصُّ في التَّفسير: «عن معاذ بن جبل ﷺ أن النبي ﷺ قرأ: ﴿هَلْ تَستطيع ربَك﴾، قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين، وليس =

التَّهييج والإلهاب بسبب الاجتهاد في الدُّعاء بحيث تحصل الإجابة، وتكون هذه العبارة أيضًا للتَّلطف كما يقول الإنسان لمن يعظمه: (هل تقدر أن تذهب معي إلى كذا؟) وهو يعلم أنَّه قادر، ولكنَّه يكنى بذلك عن أنَّ السَّائل يحب ذلك، ولا يريد المشقة على المسؤول»[(١)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٢-١٣]. قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فجعل إلقاء الرُّعب في قلوبهم والأمر بقتلهم لأجل مشاقَّتهم لله ورسوله، فكلُّ من شاقَّ الله ورسوله يستوجب ذلك، والمؤذي للنَّبي مشاقٌّ لله ﷻ، ورسوله ﷺ فيستحق ذلك»[(٢)]. ففيها: التَّحريض

= إسناده بالقوي، ورشدين بن سعد والإفريقي يضعفان في الحديث». سنن التِّرمذيِّ الجزء الخاص في التَّفسير (١/ ١٨٦). وفي (المستدرك). . . .عن محمَّد بن سعيد عن عبادة بن نسي عن عبد الرَّحمن بن غنم الأشعريِّ قال: ثمَّ سألت معاذ بن جبل رضي الله عنه عن قول الحواريين: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أو ﴿هَلْ تَستطيع ربَك﴾ فقال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ تَستطيع﴾ -بالتَّاء- هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. المستدرك [٢٩٣٥]، ووافقه الذهبي. (٢/ ٢٦٠). وانظر: المعجم الكبير، للطَّبراني [١٢٨]. وفي (الثِّقات) «حسان بن مخارق الشَّيباني، وقد قيل: حسان بن أبي المخارق، كنيته: أبو العوام، يروى عن سعيد بن جبير أنَّه كان يقرأ: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ روى عنه جابر بن يزيد الجعفي. الثِّقات (٦/ ٢٢٣)، [٧٤٥٧].

(١) نظم الدُّرر (٢/ ٥٧٠)، وانظر: تفسير ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ١٩٣-١٩٤)، والمحرَّر الوجيز (١/ ٢٦٠).

(٢) الصَّارم المسلول (٢/ ٦١)، وانظر: (٢/ ٦٢)، (٢/ ٥٤)، (٣/ ٦٣٧)، (٣/ ٧٣٦).

والتَّهييج على قتال من يشاقق الله ﷻ، ورسوله ﷺ. ومثله قوله ﷻ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ٣﴾ [الحشر: ٣]. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فجعل سبب استحقاقهم العذاب في الدُّنيا، ولِعذاب النَّار في الآخرة، هو مشاقَّة الله ﷻ ورسوله ﷺ، والمؤذي لرسول الله ﷺ مُشاقٌّ لله ﷻ، ورسوله ﷺ -كما تقدم-، والعذاب هنا هو الإهلاك بعذابٍ من عنده أو بأيدينا، وإلا فقد أصابهم ما دون ذلك من ذهاب الأموال وفراق الأوطان»[1]. ففيها: التَّحريض والتَّهييج على قتال من يشاقق الله ﷻ، ورسوله ﷺ كسابقتها..

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١][2].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [التوبة: ١٣]. قوله ﷻ: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا﴾ هذه الآية مع ما سبقها من قول الله ﷻ: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾ [التوبة: ١٢] فيها مزيد تهييج للمؤمنين على قتال المشركين. قال

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٦١).

(٢) وقد ذكر معنى التَّهييج في هذه الآية غير واحد. انظر: تفسير الرَّازي (٢٣/ ٣٢٠)، (٢٣/ ٣٤٧)، فتح القدير (٢/ ٤١١)، الكلِّيات (ص: ٤٢١)، نظم الدُّرر (٢/ ٥٧٠).

الحافظ ابن كثير: «هذا أيضًا تهييجٌ وتحضيضٌ وإغراء على قتال المشركين النَّاكثين بأيمانهم الَّذين همُّوا بإخراج الرَّسول ﷺ من (مكَّة) كما قال ﷻ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال ﷻ: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١] الآية. وقال ﷻ: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦] الآية، وقوله ﷻ: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣]»(١). وقال ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فجعل همَّهم بإخراج الرَّسول ﷺ من المحضِّضات على قتالهم، وما ذاك إلا لما فيه من الأذى، وسبّه أغلظ من الهمِّ بإخراجه، بدليل أنَّه ﷺ عفا (عام الفتح) عن الَّذين همُّوا بإخراجه ولم يعفُ عمَّن سبَّه، فالذِّمي إذا أظهر سبَّه فقد نكث عهده، وفعل ما هو أعظم من الهمِّ بإخراج الرَّسول ﷺ، وبدأ بالأذى فيجب قتاله»(٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. قال

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٠).
(٢) الصَّارم المسلول (٢/ ٤٣)، وانظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٤٧).

الحافظُ ابنُ كثير: «وأمَّا قوله ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ فيحتمل أنَّه منقطع عمَّا قبله[1]، وأنَّه حكم مستأنف، ويكون من باب التَّهييج والتَّحضيض. أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم، فاجتمعوا أنتم أيضًا لهم إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون»[2]. وكذلك قال الشَّيخ الشِّنقيطيُّ في (دفع إيهام الاضِّطراب) في قوله ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾: «هو من باب التَّهييج»[3]. ونحوه قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨]، وقوله ﷻ: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١]، ففي هذا التَّهييج الكبير للقتال، وبيان أهميَّته للأمَّة، وبيان أثره عليها قوَّة وضعفًا وعزَّة وانتكاسًا.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ

---

(١) وتمام الآية: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٣٥٦-٣٥٧).

(٣) دفع إيهام الاضِّطراب عن آيات الكتاب، العدد الأوَّل (ص: ١٠).

مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةًۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٠-١٢٢]. ومعنى ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ﴾ ولا أن يرغبوا. يقال: (رغبت بنفسي عن هذا الأمر) أي: أبخل بها عليه ولا أتركها له، والمراد أنَّه لا يصحُّ لهم أن يرغبوا عن صحبة رسول الله ﷺ بسبب صلاح أنفسهم وبقائها، بل عليهم أن يصحبوه على البأساء والضَّراء، ويرضوا لأنفسهم ما يرضاه الرَّسول ﷺ لنفسه؛ لأنَّ نفسه أعزُّ نفس عند الله عز وجل، فإذا تعرَّضت مع كرامتها للخوض في شدَّة وجب على سائر الأنفس أن لا يضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه. وفي هذا النَّهي مع التَّهييج توبيخ عظيم(١).

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤](٢).

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس: ٩٥]. قال الآلوسيُّ: «فائدة النَّهي في الموضعين التَّهييج

---

(١) تفسير النَّيسابوري (٣/ ٥٤٥)، تفسير الرَّازي (١٦/ ١٧٠)، ابن عادل (١٠/ ٢٣٦).

(٢) انظر: البرهان (٢/ ٢٤٧).

والإلهاب نظير ما مرَّ»[١] .ففيه التَّهييج والتَّثبيت وقطع الأطماع. والحاصل أنَّه يحتمل أن يكون الخطاب للنَّبي ﷺ، ويكون من باب التَّهييج لزيادة الثَّبات، أي: فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك؛ لأنَّه ﷺ معصوم من الامتراء[٢]. والتَّحقيق أنَّه من العامِّ الَّذي لا يقصد به مخاطب معيَّن، وعلى ذلك يبقى أيضًا معنى التَّهييج..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۝٣٧﴾ [الرعد: ٣٧]. أي: لا ينصرك ناصر، ولا يقيك منه واق، وهذا من باب التَّهييج والبعث للسَّامعين على الثَّبات في الدِّين[٣].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝٢٢﴾ [الإسراء: ٢٢]. الخطاب للرَّسول ﷺ، والمراد به أمَّته، وهو من باب التَّهييج والإلهاب، أو كل أحد ممَّن يصلح للخطاب[٤].

---

(١) روح المعاني (١١/ ١٩٠)، وانظر: تفسير الرَّازي (١٧/ ١٦٠-١٦١)، (٢٣/ ١٤٨).

(٢) انظر: الكشاف (٢/ ٢٥٣)، تفسير الرَّازي (٤/ ١٣١)، (١٧/ ١٦٠-١٦١).

(٣) الكشاف (٢/ ٣٦٣)، تفسير النَّسفي (٢/ ٣٦٢). ونحوه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]. انظر: تفسير أبي السُّعود (١/ ١٥٣).

(٤) انظر: تفسير أبي السُّعود (٥/ ١٦٥).

=

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝١٠١﴾ [الإسراء: ١٠١]. قيل: هو من باب التَّهييج والإلهاب. وقيل: للدِّلالة على أنَّه أمر محقَّق عندهم ثابت في كتابهم، وليس المقصود حقيقة السُّؤال بل كونهم -أعني المسؤولين- من أهل علمه، ولهذا يؤمر مثلك بسؤالهم. وقيل غير ذلك[1].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾ [طه: ١٦]. «﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ خطاب لموسى ﷺ. وزعم بعضهم أنَّه لنبيِّنا ﷺ لفظًا، ولأمَّته معنى، وهو في غاية البعد[2]. ﴿عَنْهَا﴾، أي: السَّاعة، والمراد عن ذكرها ومراقبتها. وقيل: عن الإيمان بإتيانها. ورُجِّح الأوَّل بأنَّه الأليق بشأن موسى ﷺ، وإن كان النَّهي بطريق التَّهييج والإلهاب[3]. ونحوه قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٦-٨٧][4].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ

---

(١) انظر: روح المعاني (١٤٨/١٥).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢١٩/٦)، روح المعاني (١٤٨/١٥).

(٣) روح المعاني (١٧٣/١٦).

(٤) انظر: الكشاف (٢٥٣/٢)، (٢١/٣)، (١٩٤/٣)، تفسير أبي السُّعود (٩/٦)، النَّسفي (٢٥٢/٢).

ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [النور: ٢]. ومن المعروف أنَّ المخاطَبين بهذا القول الكريم قد كانوا مؤمنين بالله ﷻ، واليوم الآخر بالفعل، ولذا فإنَّه ليس القصد بهذا الشَّرط إلى حقيقة التَّعليق على فعله -حسبما هو مقتضى الشَّرط عادة- ولا شكَّ في وقوع مضمون فعل الشَّرط المعلَّق عليه -أعني كونهم مؤمنين- حسبما هو مقتضى التَّعبير بـ: (إِنْ) الموضوعة للشَّك في وقوع فعل الشَّرط عكس (إذا) الموضوعة للتَّحقق من وقوعه. ليس القصد إلى هذا ولا ذاك حتَّى يؤخذ منه أنَّ إيمانهم عند خطابهم بالآية الكريمة كان محلا للرِّيبة أو بمعزل من التَّحقق[١]. فإنَّ قوله ﷻ: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ من باب (التَّهييج والإلهاب) كما يقال: (إن كنتَ رجلًا فافعل كذا)، ولا شكَّ في رجوليَّته. وكذا المخاطَبون هنا مقطوع بإيمانهم لكن قصد تهييجهم، وتحريك حميَّتهم ليجدُّوا في طاعة الله ﷻ، ويجتهدوا في إجراء أحكامه على وجهها[٢]؛ فإنَّ الإيمان يقتضي الجدَّ في طاعة الله ﷻ، والاجتهاد في إقامة حدوده وأحكامه، وهو من باب التَّهييج[٣]. ومثله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ﴾ [النساء: ٥٩]، فهو من باب التَّهييج كسابقه.

---

(١) انظر: تفسير سورة النُّور، أ.د إبراهيم خليفة (ص: ١٥٣).

(٢) انظر: روح المعاني (١٨/ ٨٣)، تفسير ابن جزي (١/ ١٩٣-١٩٤)، البحر المديد (٣/ ١٨٠).

(٣) الكشاف (٣/ ٤٧)، وكذلك ذكر هذا المعنى البيضاويُّ في (تفسيره) (٤/ ١٧٣)، وأبو السُّعود (٦/ ١٥٦)، البحر المديد (٥/ ٤٨).

ونحوه قوله ﷻ:

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [النور: ١٧].
ففي الآية: التَّهييج في الاتِّعاظ والانزجار(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل: ٢٢]. وفي ضمن هذا: أني أتيتك بأمر قد عرفْتُهُ بحيث أُحطتُ به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، و(النَّبأ) هو الخبر الذي له شأن، والنُّفوس متطلِّعة إلى معرفته، ثمَّ وصفه بأنَّه نبأ يقين لا شكَّ فيه ولا ريب، فهذه مقدِّمة بين يدي إخباره لنبيِّ الله ﷻ بذلك النَّبأ اسْتَفْرَغَتْ قَلْبَ المُخبَر لتلقي الخبر، وأوْجَبَتْ له التَّشوف إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال، وخطاب التَّهييج(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب: ١](٣). وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

---

(١) انظر: تفسير الرَّازي (٢٣/ ١٨١).

(٢) انظر: شفاء العليل، لابن القيِّم (ص: ٧٠-٧١).

(٣) ونحوه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨]، ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [القلم: ١٠]، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

[الأحزاب: ٤٨]. فقد حمل غير واحد النَّهي على التَّهييج والإلهاب من حيث إنَّه ﷺ لم يطعمهم حتَّى ينهى، وجعله بعضهم من باب: (إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَهْ)(١). وقد بيَّنت ذلك مع نسبة المثل في (خطاب عين والمراد غيره). والحاصل أنَّ المراد التَّهييج أو الدَّوام والثَّبات على ما كان عليه(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ [الأحزاب: ٣٢]. فممَّا قيل: المراد به التَّهييج بجعل طلب الدُّنيا، والميل إلى ما تميل إليه النِّساء لبعده من مقامهنَّ بمنزلة الخروج من التَّقوى(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾ [الممتحنة: ١]. قال

---

(١) انظر: الكشاف (٣/ ٢٤٨)، روح المعاني (٢٢/ ٤٦)، وانظر: أضواء البيان (٢/ ٣)، تفسير: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ٢]، (٣/ ٨٣)، (٦/ ٣٤٠)، (٧/ ١٦٦)، تفسير: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢]، وتفسير: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وانظر: تفسير الرَّازي (١٧/ ٣٠٢)، روح المعاني (٢٠/ ١٣٠)، (٢٩/ ١١٧).

(٢) انظر: تفسير النَّسفي (٣/ ٤٤٤)، تفسير أبي السُّعود (٧/ ١٠٨).

(٣) انظر: روح المعاني (٢٢/ ٥).

الحافظُ ابن كثير: «قوله: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ هذا مع ما قبله من التَّهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم؛ لأنَّهم أخرجوا الرَّسول ﷺ وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التَّوحيد وإخلاص العبادة لله ﷻ وحده، ولهذا قال: ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، أي: لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله ﷻ ربِّ العالمين، كقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨]، وكقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله ﷻ: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾، أي: إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقًا(١) عليكم، وسخطًا لدينكم»(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة: ٢]. وكذلك نظائر هذه الآية، فهي أيضًا من (باب التَّهييج)، فمن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]، وقوله ﷻ: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾ [الأنفال: ٥٧]؛ فإنَّ نصوص القرآن تدلُّ على أنَّ (الثقافة) بمعنى: الإدراك، وقوله ﷻ:

---

(١) (الحَنَقُ) الغيظ، والجمع (حِنَاقٌ)، كجبل وجبال، وقد (حَنِقَ)، أي: اغتاظ. مختار الصِّحاح، مادَّة: (حنق) (ص: ١٦٧)، الصِّحاح، للجوهريِّ (٤/ ١٤٦٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٨).

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ ، نصَّ على أنَّ العداوة وبسط اليد واللِّسان بالسُّوء يكون بعد أن يثقفوهم، مع أنَّ العداء سابق بإخراجهم إيَّاهم من ديارهم، فيكون هذا من باب التَّهييج وشدَّة التَّحذير(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. يقول الحافظ ابن كثير: «المقصود من هذا التَّهييج على طلب العِزَّة من جناب الله عَزَّ وَجَلَّ، والالتجاء إلى عبوديَّته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الَّذين لهم النُّصرة في هذه الحياة الدُّنيا، ويوم يقوم الأشهاد»(٢). كما سبق في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء: ١٤٤].

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [القلم: ٢٢]. فقد ذكر الرَّاغب في (المفردات) والفيروزاباديُّ في (البصائر) بيان معنى الحرث، وما يُتصوَّر في معناه حيث قال: (الحرث) هو إِلقاءُ البَذْر في

---

(١) انظر: أضواء البيان (٨/ ٨٣)، وقال الحافظُ ابنُ كثير: «هذا مع ما قبله من التَّهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم». تفسير ابن كثير (٤/ ٣٨٤).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٦٧). وهو كقوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٩]، ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس: ٦٥]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠].

الأَرض وتهيئتها للزَّرع، ويسمى المحروث: حَرْثًا، قال ﷻ: ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾، وتُصُوِّر منه العمارة الَّتي تحصل عنه في قوله ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠] الآية. والدُّنيا مَحْرَث للنَّاس، وهم حُرَّاث فيها. وتُصوِّر من معنى الحرث: معنى التَّهييج، فقيل: حرثت النَّار، ولما تهيج به النَّار محرث، ويقال: احرث القرآن، أي: أكثر تلاوته، و(حرث ناقته) إذا استعملها[1].

● **خاتمة:**

ويتبيَّن ممَّا سبق أنَّ التَّهييج بشقِّه المحمود هو من أساليب التَّربية الَّتي لها صلة بالانفعالات النَّفسيَّة، حيث إنَّ فيها: الحثُّ والحضُّ على الفعل إن كان خيرًا، والتَّنفير والتَّحذير منه إن كان شرًّا، وفي ذلك ما فيه من الخير والمصلحة للمكلَّف.

---

(١) بتصرُّف عن (المفردات)، مادَّة: (حرث) (ص: ١١٢)، وبصائر ذوي التَّمييز، الباب السَّابع، في وجوه الكلمات المفتتحة بحرف الحاء (٢/ ٢٨٢).

المطلب السَّادس: خطاب الإغضاب

• أ. ما دل بمادَّته على الإغضاب...

أمَّا ما يدلُّ بمادَّته على (الإغضاب) فقوله ﷻ:

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥﴾ [الزخرف: ٥٥].

قال الخليلُ في (العين): ﴿ءَاسَفُونَا﴾ «أي: أغضبونا[1]. وقولهم: (آسفني المَلِك)، أي: أحزنني، وأَسِفَ فلان يَأْسَفُ فهو أَسِفٌ متأسِّف. و(الأَسِيفُ): السَّريعُ البكاء والحُزْن، و(الأسيف): العَبْد»[2].

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (١/ ٨١)، (٩/ ٦٤)، (١٦/ ١٩٦)، (٢٥/ ٨٤)، تفسير القرطبي (١٦/ ١٠١)، ابن كثير (٤/ ١٣١)، روح المعاني (١٥/ ٢٠٥)، الدُّر المنثور (٧/ ٣٨٣-٣٨٤).

(٢) العين، مادَّة: (أسف) (٧/ ٣١١)، لسان العرب (٩/ ٥)، وانظر: الكشاف (٣/ ٤٩٣)، تفسير أبي السُّعود (٨/ ٥٠)، البحر المحيط (٨/ ٢٤)، مفردات القرآن (ص: ١٧).

أقول: وقد ورد في الاحتراز عن (الإغضاب) حيث يكون مانعًا من الفهم قول الله عز وجل: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥﴾ [سبأ: ٢٥]. أضاف الإجرام إلى النَّفس، وقال في حقِّهم: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ذكر بلفظ العمل لئلا يحصل الإغضاب المانع من الفهم. وقوله: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾ ، ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ﴾ زيادة حثٍّ على النَّظر؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ إذا كان مؤاخذًا بجرمه، فإذا احترز نجا، ولو كان البريء يؤاخذ بالجرم لما كفى النَّظر. انظر: تفسير الرَّازي (٢٥/ ٢٥٧)، ابن عادل (١٣/ ١٤٩). ومن النَّصائح: (قدِّر في نفسك الصَّبر والحلم، لئلَّا تستفزَّك الإغضاب). التَّحبير شرح التَّحرير (٧/ ٣٧٢١)، شرح الكوكب المنير (٤/ ٣٨٨). وقد قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية -رحمه الله-: «النَّاس ثلاثة أقسام، إمَّا أن يعترف بالحقِّ ويتَّبعه، فهذا صاحب الحكمة، وإمَّا أن يعترف به لكن لا يعمل به، فهذا يوعظ حتَّى يعمل، =

وينبغي التَّنبه إلى أن غضب الله ﷻ ليس كغضب المخلوقين، والفرق بين غضبه ﷻ وغضبهم كالفرق بين صفات الله ﷻ وصفات المخلوقين. وتنظر الآيات الَّتي جاء فيها ذكر الغضب..(البقرة: ٩٠، النِّساء: ٩٣، المائدة: ٦٠، الأعراف: ٧١، الأعراف: ١٥٢، النَّحل: ١٠٦، طه: ٨٦، النُّور: ٩، الشُّورى: ١٦، الفتح: ٦، المجادلة: ١٤، الممتحنة: ١٣). والمعنى في هذه الآيات واضح..

● **ب. ما كان القصدُ منه إغضاب المخاطَب..**

أمَّا (إغضاب المخاطَب) فإنَّه ذكرُ أوصافٍ تقتضي ذلك. وقد ذكر هذا اللَّون من ألوان الخطاب الزَّركشيُّ في (البرهان)(١).

ولم أجده في أقوال المفسِّرين مصرَّحًا به إلا أن يفهم من ثنايا المعاني -سوى ما ذكره البقاعيُّ في (نظم الدُّرر) في تفسير قول الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢﴾ [الصافات:١٥١-١٥٢]، حيث قال: «دلَّ على كذبهم أيضًا بإنكاره

= وإمَّا ألا يعترف به، فهذا يجادل بالَّتي هي أحسن؛ لأنَّ الجدال فيه مظنَّة الإغضاب، فإذا كان بالَّتي هي أحسن حصلت منفعته بغاية الإمكان كدفع الصَّائل». مجموع الفتاوى (٢/ ٤٥)، وانظر: الصَّواعق المرسلة (٤/ ١٢٧٦). وممَّا سبق يتبيَّن أنَّ مفهوم (الإغضاب) هنا إنما هو جعل أحد غضبانًا بالفعل أو القول قصدا، وهو يختلف عمَّا نحن بصدد بيانه، وهو الشقُّ الآخر من (الإغضاب). وقد قال أهل اللُّغة: (الحلم): الأناة والعقل، و(حلم): تأنَّى وسكن عند غضب، أو مكروه، مع قدرة، وقوة. و(الحليم): الَّذي لا تستخفه الأفعال المؤذية، ولا يستفزه (الإغضاب)...

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٤٨).

موبخًا لهم في أسلوب الخطاب زيادة في الإغضاب في قوله: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝﴾ [الصافات: ١٥٣-١٥٤] بهمزة الاستفهام الإنكاريِّ، ومن أسقطها فهي عنده مقدَّرة مرادة[1]، أي: أخبروني هل اختار هذا السيِّد الَّذي أنتم مقرُّون بتمام عمله، وشمول قدرته، وعلو سؤدده ما تسترذلونه؟ ولمَّا كان التَّعبير بالبنت أكره إليهم من التَّعبير بالأنثى، والتَّعبير بالابن أحبَّ إليهم من التَّعبير بالذُّكور. وأنصَّ على المراد؛ لأنَّ الذَّكر مشترك بين معان، قال: البنات اللَّاتي تستنكفون أنتم من لحوقهنَّ بكم، وتستحيون من نسبتهنَّ إليكم، حتى أنَّ بعضكم ليصل في إبعادهن إلى الوأد على البنين، فكان حينئذٍ نظره لنفسه دون نظر أقلِّكم فضلا عن أجلِّكم، ولذلك عظم حسنا، وتناهى بلاغة قوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ ، أي: يا معاشر العرب المدَّعين لصحَّة العقول، وسداد الأنظار والفهوم: أيُّ شيءٍ لكم من الخير في هذا المقال؟ ثمَّ زاد في التَّقريع عليه بقوله معجبًا منهم: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ، أي: في كلٍّ سألناكم عنه بمثل هذه الأحكام الَّتي لا تصدر

---

(١) قال ابنُ خالويه في (السَّبعة في القراءات): «قرأ كلهم: ﴿ٱصْطَفَى﴾ مهموزًا، واختلف عن نافع فروى المسيبي وقالون وأبو بكر بن أبى أويس: ﴿لَكَٰذِبُونَ ۝ ٱصْطَفَى﴾ مهموزا. وروى ابن جماز وإسماعيل عن نافع وأبى جعفر: ﴿لَكَٰذِبُونَ ۝ ٱصْطَفَى﴾ غير مهموز ولا ممدود. ورأيتُ من أصحاب ورش من يرويه: ﴿لَكَاذِبُونَ، اصْطَفَى﴾ غير مهموز ولا ممدود، مثل رواية إسماعيل. أخبرني بذلك محمَّد بن عبد الرَّحيم الأصبهاني عن أصحابه عن ورش. وإذا ابتدأت في قراءة نافع في رواية إسماعيل وابن جماز فبالكسر ﴿ٱصْطَفَى﴾ . وفي الرِّواية الأخرى: ﴿أَصْطَفَى﴾ -بالفتح-». السَّبعة في القراءات (ص: ٥٤٩)، والحجَّة (ص: ٦١٢).

عمَّن له أدنى مسكة من عقله، وعبَّر بالحكم لاشتهاره فيما يبَتُّ فيأبى النَّقص، فكان التَّعبير به أعظم في تقريعهم حيث أطلقوه على ما لا أوهى منه. ولما كان هذا شديد المنافاة للعقول، عظيم البعد عن الطِّباع، حسن جدًّا قوله أيضًا مبكِّتًا: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الصافات: ١٥٥]، أي: فإنَّ الأمر في غاية الظُّهور لما في عقولكم وطباعكم من أنكم لا ترضون لأنفسكم أخسَّ المنازل، فكيف يختاره لنفسه ربُّكم الَّذي بيده كلُّ شيء؟ وإنَّه لا يكون الولد مطلقًا إلا ممن له جنس، فيكون محتاجًا إلى جنسه، والمحتاج لا يكون إلهًا بوجه»(١).

وفي ذلك ما فيه من (الإغضاب) ممَّن شأنه كذلك، والإنكار عليه أيّما إنكار.

وأمَّا ما جاء صريحًا في (الإغضاب)، من حيث التَّصريح بالوصف الَّذي هو سبب الإغضاب ممَّن هذا شأنه...فمن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء: ٨٩].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

---

(١) بتصرُّفٍ عن (نظم الدُّرر) (٦/ ٣٤٨).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾ [الممتحنة: ١]، وقد سبق أنَّ فيه التَّهييج والإلهاب، وكذلك فإنَّ معنى الإغضاب فيه واضح.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢﴾ [الممتحنة: ٢].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩﴾ [الممتحنة: ٩].

● ج. النَّتائج..

ويتبيَّن ممَّا سبق أنَّ الإغضاب يتعلَّق بحال الإنسان ومشاعره، وهو بشقِّه الإيجابي محفِّزٌ للمخاطَب على الفعل أو التَّرك، وأنَّ الخطاب القرآني لا يخاطَب عقل الإنسان فحسب، وإنَّما يخاطب فيه أيضًا العاطفةَ والمشاعر..ويتركُ الإغضابُ من الأثرِ في نفس المخاطَب ما لا يخفى، فلذلك أمر اللهُ ﷻ المسلمَ أن يدعو إلى هذا الدِّين بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالَّتي هي أحسن. حيث قال ﷻ: ﴿ٱدۡعُ

إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وهذا التَّنوع في أساليب الدَّعوة إنما يختلف باختلاف المدعو..وأهل الحكمةِ مثلًا يغلبُ عليهم النَّظر والاستدلال، وأهلُ الموعظة يغلبُ عليهم التَّأثُّرُ العاطفيُّ بالتَّرغيب والتَّرهيب مثلًا...إلخ.

وذلك لا ينال بأحسن من أساليب القرآن وحججه القرآن ومناظراته؛ فإنَّه كفيل بذلك على أتمِّ الوجوه لمن تأمَّله وتدبَّره، ورزقَ فهمًا فيه.

فقد وضع القرآن منهجًا متكاملًا للدَّعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وفصَّله العلماء ببيان ما يشترط في الدَّاعي والمدعو إليه، ومن مراعاة حال المدعو.

❀ ❀ ❀

المطلب السَّابع
خطابُ التَّشجيع والتَّرغيب وخطاب التَّنفير والتَّرهيب

- **توطئة**

إنَّ التَّشجيع والتَّرغيب المراد هنا هو الحثُّ على الاتِّصاف بالأوصاف الجميلة، ويمكن أن يقال: إنَّ ذلك يفهم من ذكر الصِّفاتِ الحسنة، والَّتي ينبغي على المخاطَب أن يتَّصف بها حيث أرشده إلى ذلك النَّص..

وقد جمعت بين هذين الخطابين؛ لأنَّهما صنوان، فالتَّرغيبُ في الصِّفات الحسنة يقتضي التَّنفير من ضدِّها، وكذلك التَّنفير من الصِّفات السَّيئة يقتضي التَّرغيب في ضدِّها.

فالتَّرغيب بالإيمان - مثلًا-؛ لأنَّ الإنسان لا يخلو حالُه إمَّا أن يكون مؤمنًا أو يكون كافرًا، فإذا ترك الكفرَ صار مؤمنًا، وإذا لم يؤمن فهو كافر؛ لأنَّ العقلَ البشري لا يخلو من الشَّيء ونقيضه، فإذا خلا من الإيمان بالله ﷻ، اشتغل بالإيمان بسواه، وإلى هذه الحقيقة أشار النَّص: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣٢]، يعني لا فراغ، ولا يمكن أن يرتفع النَّقيضان، إمَّا إيمان بالله ﷻ، أو إيمان بسواه، ويكفر به. سيؤمن مثلًا بهواه كما قال الله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾

[الجاثية: ٢٣]، ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٥٠]. وأحد الأمرين يرفع صاحبه، والآخر يهوي به -كما قال الله ﷻ:- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

ومن هنا نجد أنَّ الحثَّ على الإيمان عن طريق التَّشجيع، والتَّنفير من الكفر، فمن التَّشجيع قوله ﷻ على سبيل المثال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ٩]، ففي هذه الآيات: الحثُّ على الإيمان، والعمل الصَّالح؛ لأنَّ ذكر الثَّواب يستلزم التَّشجيع والحثَّ والإغراء.

والتَّنفير من الكفر في قوله ﷻ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾ [النساء: ١٣٧]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

أمَّا النَّظرُ في أساليبِ التَّرغيب والتَّرهيب في الخطاب القرآني فلا بدَّ

من بيان المعنى الاصطلاحي الَّذي يدلُّ على هذا المعنى وتوضيح أهميَّته، مع ذكر نماذج من القرآن الكريم.

وبيان ذلك على النَّحو التَّالي:

أوَّلا: بيان معنى هذا الاصطلاح وأهميَّته. . .

إنَّ المقصود بالتَّرغيبِ: كلُّ ما يشوِّقُ المدعوَّ إلى الاستجابة، وقبول الحقِّ، والثَّبات عليه. وإنَّ المقصود بالتَّرهيب كلُّ ما يخيف، ويحذر المدعوَّ من عدم الاستجابة، أو رفض الحقِّ، أو عدم الثَّبات عليه بعد قبوله. والملاحظ أنَّ القرآن الكريم مملوءٌ بما يرغِّب النَّاس في قبول دعوة الإسلام والتَّحذير من رفضها، ممَّا يدلُّ دلالةً قاطعةً على أهميَّة هذا الأسلوب في الدَّعوة إلى الله ﷿، وعدم إهماله من قبل الدَّاعي المسلم.

وكذلك ما يرغِّب بالجنَّةِ والعمل الصَّالح، ويرهِّب من النَّار، ومن مخالفة أمر الله ﷿.

والأصل في التَّرغيب أن يكون في نيلِ رضوان الله ﷿، ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة، وأن يكون التَّرهيب بالتَّخويف من غضب الله ﷿، وعذابه في الآخرة، وهذا هو نهج رسل الله الكرام -عليهم الصَّلاة والسَّلام- كما بيَّنه القرآن الكريم.. وجاءت به السُّنة النَّبويَّة المطهَّرة.

فقد جاء الرُّسل بإفادة العقل ما لا يستقلُّ بمعرفته، بل لا بدَّ له أن يطلبه في وحي الله ﷿، وفي نبأ السَّماء من الغيبيَّات كذات الله ﷿

وصفاته، والسَّمعيَّات كذكر صفة الجنَّة، وصفة النَّار، يرغِّبون بذكر الجنَّة وصفاتها، ويرهِّبون بذكر النَّار وصفاتها..، قال الله ﷻ عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

كما أنَّ التَّرهيب من عاقبة أمر يولد الدَّافعيَّة، لاجتنابه والابتعاد عنه، كما قال الله ﷻ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى: ١٠]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، كما جاء التَّرهيب من الزِّنا عن طريق خوف العاقبة في قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢]، فالتَّرغيب والتَّرهيب هما الجناحان اللَّذان يرتقي بهما الدعاة بالمدعوين إلى سُدَّةِ النجاة، ولا ينفع واحد منهما، وإنما هما صنوان، وبمثابة كفَّتي الميزان. ولكن ينظر في ذلك إلى حال المدعو، فالدعوة كما تكون بالموعظة تكون كذلك بالحكمة وإقامة الحجة والبرهان، والمجادلة بالتي هي أحسن، فالحكيم يعرف كيف يضع بذور دعوته، كما بينت ذلك في غير موضع.

❊ ❊ ❊

ثانيا: نماذج من أساليب التَّرغيب والتَّرهيب في الخطاب القرآني...

- **أ .التَّرغيب بالجنَّة والتَّرهيب من النَّار:**

والآيات في وصف الجنَّة والتَّرغيب بالعمل الَّذي يوصل إليها كثيرة جدًّا، وكذلك الترهيب من النَّار، فمن ذلك على سبيل المثال قوله ﷻ:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم: ٢٣]، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٥].

- **ب .التَّرغيب والتَّرهيب بذكر الجزاء:**

وكما يكون التَّرغيب والتَّرهيب بذكر الجزاء في الآخرة، فإنَّه يجوز أن يكون بما يصيب المدعوين في الدُّنيا من خير في حالة استجابتهم، وما يصيبهم من شرٍّ في حالة رفضهم، ولا ينبغي أن يَغْفَلَ الدَّاعي أبدًا عن التَّرغيب والتَّرهيب بالجزاء والعاقبة.

ومن الأدلَّة على ذلك: قال الله ﷻ حكاية عن قوم هود عليه السلام لقومه:

﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢]، انظر

الآيات من سورة [هود: من (٥٢) إلى (٦٠)].

وقال الله ﷻ:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

وقال ﷻ:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥- ٦].

وقال ﷻ حكاية عن قوم نوح عليه السلام لقومه:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

● ج .التَّرغيب بذكر النِّعم، والتَّرهيب من النِّقم:

ومن أساليب التَّرغيب والتَّرهيب تذكير القوم بما هم عليه من نِعَم، وأنَّ من شأن ذلك أن يدعوهم إلى طاعة الله ﷻ الَّذي أنعم عليهم بهذه النِّعم، والتَّحذير من فقدهم لها إذا امتنعوا من الاستجابة وكفروا بالله ﷻ، ومع زوال النِّعم نزول العذاب. ومن الآيات الكريمة المبيِّنة لهذا النَّوع من أساليب التَّرغيب قوله ﷻ عن هود عليه السلام:

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً

فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وعن صالح عليه السلام:

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال ﷻ عن هود عليه السلام أيضًا:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٥].

وقال ﷻ عن قريش:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ١-٤].

ولمَّا كان الإنسانُ يعيش في الدُّنيا ويشاهدها، ويحسُّ بها، ويتعرَّضُ لإغراءاتها ممَّا قد يجرُّه إلى الرُّكون إليها والتَّعلُّق بها، ونسيان الآخرة، فلا بدَّ إذن من تنفير المدعوين من إيثارها على الآخرة، لا من الفرار منها جملةً واحدة، مع بيان حقيقتها وقيمتها وقدرها بالنِّسبة إلى الآخرة ونعيمها. وقد بيَّن ذلك كلَّه القرآن الكريم خيرَ بيان ممَّا يجعلُ أيَّ مسلم عاقل يؤثرُ الآخرةَ على الدُّنيا، بل ويجعلُ المدعو -غير المسلم- منجذبًا إلى هذه الحقائق في موازنة الدُّنيا مع الآخرة، وقد يجرُّه ذلك إلى الإيمانِ، لما يحسه من صدق هذا البيان والتَّصوير لقيمة الدُّنيا.

يقول ﷻ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤].

ويقول الله ﷻ: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧].

د .سردُ النَّماذج الَّتي تدلُّ على التَّشجيع:

وأستعرضُ هنا أيضًا الآيات الَّتي فيها التَّشجيع والحثُّ من حيث بيان أنَّ الله ﷻ يحبُّ من اتَّصف بالصِّفات المذكورة كما في الآيات التَّالية:

﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦]، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل

عمران: ١٥٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، ﴿وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

ومن ذلك قول نوح عليه السلام لقومه:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف: ٦٣].

ومن ذلك:

﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]، ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤].

❊ ❊ ❊

ثالثا: تفسير الآيات. . . .

وبعد هذا الاستعراض آتي على تفسير الآيات ذاتِ الصِّلة..فمن ذلك قول الله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤][(١)]. قوله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ خطابٌ للمؤمنينَ على وجه التَّشجيع لهم، والأمر بالصَّبر على الشَّدائد. ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾، أي: لا تدخلوا الجنَّة حتَّى يصيبكم مثل ما أصاب من كان قبلكم. ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ﴾، أي: حالهم، وعُبِّر عنه بالمثل؛ لأنَّه في شدَّته يضرب به المثل. وزلزلوا بالتَّخويف والشَّدائد[(٢)]. فحقُّ المؤمنين التَّشجيع والصَّبر تأسِّيًا بمن قبلهم.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ففي الآية: تشجيعُ المؤمنينَ على القتال بإعلامهم بأنَّ الفرار من الموت لا ينجي، فإذا علم الإنسان أنَّ فراره من الموت أو القتل لا ينجيه هانت عليه مبارزة الأقران، والتَّقدم في الميدان. وقد أشار ﷻ أنَّ هذا هو مراده بالآية حيث

---

(١) ومثله قوله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: ١٦].

(٢) انظر: تفسير ابن جزي (١/ ١٤٥)، روح المعاني (٢/ ١٠٣).

أتبعها بقوله عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤٤][1]. وصرَّح بما أشار إليه هنا في قوله عز وجل: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب: ١٦]. فهذه أعظمُ آيةٍ في التَّشجيع على القتال؛ لأنَّها تُبيِّن أنَّ الفرار من القتل لا ينجِّي منه، ولو فرض نجاته منه فهو ميِّت عن قريب[2].

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]. مناسبةُ هذه الآية لما قبلها ظاهرةٌ[3]، وذلك أنَّه لمَّا أَمَرَ المؤمنينَ بالقتال في سبيل الله عز وجل، وكان قد قدَّم قبل ذلك قصَّة الَّذين خرجوا من ديارهم حَذَرَ

---

(١) ونحوه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٥]، ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

(٢) انظر: أضواء البيان (١/ ١٥٣).

(٣) يعني قوله عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠].

الموت، إمَّا بالقتال أو بالطَّاعون، على سبيل التَّشجيع والتَّثبيت للمؤمنين، والإعلام بأنَّه: لا ينجي حذرٌ من قَدَر..[١].

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ﴾ ، أي: على سبيل التَّشجيع لذلك البعض، وهو استئنافٌ بيانيٌّ، ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ ، أي: يتيقَّنون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والرُّجوع إلى ما عنده، وهم الخُلَّص من أولئك، والأعلون إيمانًا، فلا ينافي وصفهم بذلك إيمان الباقين؛ فإنَّ درجات المؤمنين في ذلك متفاوتة. ويحتمل إبقاء الظنِّ على معناه، والمراد: يظنُّون أنَّهم يستشهدون عمَّا قريب، ويلقون الله عَزَّوَجَلَّ. وقيل: الموصول عبارة عن المؤمنين كافَّة[٢]. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ، «أي: بحكمه وتيسيره؛ فإنَّ دورانَ كافَّة الأمور على مشيئته عَزَّوَجَلَّ، فلا يذِلُّ من نصرَه وإن قلَّ عددُه، ولا يعِزُّ مَنْ خَذله وإن كثُرت أسبابُه وعُددُه. وقد روُعيَ في الجواب نُكتةٌ بديعة حيث لم يقُلْ: (أطاقت بفئة كثيرةٍ)..مبالغةً في ردِّ مقالتِهم وتسكينِ قلوبهم..، وإذا حمل التَّنوين في ﴿فِئَةٍ﴾ الأولى للتَّحقير، وفي ﴿فِئَةٌ﴾ الثَّانية للتَّعظيم كان أبلغ في التَّشجيع»[٣] .

---

(١) البحر المحيط (٢/ ٢٦٢)، روح المعاني (٢/ ١٧٥).

(٢) انظر: تفسير أبي السُّعود (١/ ٢٤٣)، روح المعاني (٢/ ١٧١)، وقد ذكر معنى التَّرغيب أيضا الرَّازيُّ في (تفسيره) (٦/ ٥٠٥)، وكذلك النَّيسابوري في (تفسيره) (١/ ٦٧١).

(٣) روح المعاني (٢/ ١٧١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧]. يبلغُ التَّشجيعُ في هذه الآية أنَّ يجعل الله ﷻ قبول توبتهم -متى أخلصوا فيها- حقًّا عليه سبحانه يكتبه على نفسه بقوله الكريم، وليس وراء هذا الفضل زيادة لمستزيد(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠](٢). فهذه الآيةُ خبرٌ يقتضي الحثَّ على فعلِ الخير، فالله ﷻ يخبر أنَّه لا يظلمُ مثقالَ ذرَّة. والمراد من هذا الخبر التَّشجيع على فعل الخير، فإذا كان الله ﷻ لا يظلم مثقال ذرَّة فبادروا بالصَّدقات، وفعل المعروف..﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ [النساء: ٧٧]. قيل: معنى نفي الظُّلم

(١) انظر: الظِّلال (٤/٦٠٣).

(٢) ونحوه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٤﴾ [يونس: ٤٤].

هنا أنّهم لا يظلمونَ بنقصِ ثواب جهادهم، فيكون موقعه موقع التَّشجيع لإزالة الخوف[(١)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥-٩٦]. ففي الآية التَّشجيعُ على الجهاد في سبيل الله ﷻ في وجه الآلام والمتاعب الَّتي تصيب المجاهدين. وذلك في تصوير ناصعٍ لحال المؤمنين المجاهدين، وحال أعدائهم المحاربين..كما قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ١٠٤][(٢)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [الأعراف: ٢]. «من باب التَّشجيع، والإخبار في معنى النَّهي أبلغُ من صريح النَّهي، كقوله ﷻ: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢] لما فيه من إيهام أنَّ المنهي مسارع إلى

(١) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٥/ ١٢٧).

(٢) انظر: الظِّلال (٥/ ٧٣٨-٧٣٩)، وانظر: تفسير الثَّعالبي (٤/ ٤١٠)، المحرَّر الوجيز (٢/ ٩٨)، المنار (١١/ ٢٢٦).

الانتهاء. وكذا الإخبار في معنى الأمر كقولك: (تذهب إلى فلان تقول: كذا وكذا) تريد الأمر. وقولهم: (ناهيك به) من النهي، وهو صيغة مدح مع تأكيد طلب كأنه ينهاك عن طلب دليل سواه، يقال: (زيد ناهيك من رجل)، أي: هو ينهاك بجده وغنائه عن تطلب غيره»[١].

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ٩-١٢]. وفي ذلك التَّشجيع والاطمئنان والصَّبر على اللقاء[٢].

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة: ٥]. فقوله عز وجل: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ أمر بقتال المشركين، فخرج الأمر بذلك بلفظ:

---

(١) الكليَّات (ص: ١٤٦٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٤٦٣).

(اقتلوا) على جهة التَّشجيع، وتقوية النَّفس، وأنَّهم لا منعة عندهم من أن يقتلوا[(١)].

ونحوه قوله ﷻ:

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة:٢٩] كذلك جاء الأمر هنا بالقتال على سبيل التَّشجيع وتقوية النَّفس...ولكنَّ ذلك القتال له شروط وضوابط ليس هنا محلُّ ذكرها..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل:١٢٧]. فقد قيل: كانت الرَّحمة غالبة على النَّبيِّ ﷺ، والشَّفقة على الأمَّة من خلاله، فلمَّا أُنذر المكذِّبون بهذا الوعيد تحرَّكت الشَّفقة في نفس الرَّسول ﷺ، فربط الله ﷻ على قلبه بهذا التَّشجيع أن لا يحزن عليهم إذا أصابهم ما أنذروا به[(٢)]. وكان من رحمته ﷺ حرصه على إقلاعهم عمَّا هم عليه من تكذيبه والمكر به، فألقى الله ﷻ في روعه رباطة جأش بقوله: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾[(٣)].

---

(١) المحرَّر الوجيز (٣/٨)، وانظر: البحر المحيط (٥/١١)، تفسير الرَّازي (١٠/ ١٤٠).

(٢) ونحوه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ٨٨]، ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [النمل: ٧٠].

(٣) التَّحرير والتَّنوير (٢٠/ ٢٦).

● **خطاب التنفير**:

أمَّا (خطاب التَّنفير)، فإني أستعرض أوَّل ما أستعرض ما كان هذا اللَّون من الخطاب القرآني واضحًا فيه التَّنفير..

وقد سبق بيان أنَّ الكثير من الآيات في هذا المطلب فيها المقابلة بين التَّرغيب والتَّرهيب -كما في الآية الآنفة الذِّكر-.

ومن الآيات الَّتي جاء فيها معنى التَّنفير واضحًا..قوله ﷻ:

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣٢]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥]، ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨]، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

[النحل: ٢٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ [الحج: ٣٨]، ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ [القصص: ٧٧]، ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٥﴾ [الروم: ٤٥]، ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾ [لقمان: ١٨]، ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] .

وبعد هذه المقدِّمة والَّتي فيها بيان أنَّ الله ﷻ لا يحبُّ من اتَّصف بالصِّفات المذكورة، فإنِّي أستعرضُ الآيات الَّتي فيها التَّنفير مع بيان وجه الدلالة.

فمن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. تضمَّن هذا الذمُّ التَّنفير عن التَّشبه بمن هو كذلك(١).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٤).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤]. وفي تسميتها بهذا الاسم فائدتان: إحداهما: أنَّه جعل الأعيان الَّتي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتهاة محروصًا على الاستمتاع بها. والثَّانية: أنَّ الشَّهوةَ صفةٌ مسترذلةٌ عند الحكماء مذمومة، من اتَّبعها شاهد على نفسه بالبهيميَّة، فكان المقصود من ذكر هذا اللَّفظ التَّنفير عنها[١].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١]. فيه التَّحذير والتَّنفير من النَّار وما يوقع فيها، ومقابل هذا التَّنفير: التَّرغيب الآتي في قوله ﷻ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣][٢]. وقد أشرت في غير موضع إلى ما بينهما من التَّلازم، وأنَّهما صنوان..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران: ١٤٩]. فإنَّ التَّعبير عنهم

(١) انظر: الكشاف (١/ ٤١٦)، ابن عادل (٥/ ٧٢)، تفسير النَّسفي (١/ ٢٢٣)، تفسير الرَّازي (٧/ ١٩٥)، تفسير النَّيسابوري (٣/ ١٢٢).

(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٤/ ٨٨).

بذلك قصدًا إلى مزيدِ التَّنفير عنهم، والتَّحذير عن طاعتهم[(١)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأعراف: ١١٠]، فقوله ﷻ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾، أي: قسرًا، ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ الَّتي نشأتم فيها وتوطنتموها..وفي هذا غاية التَّنفير عنه ﷻ، وابتغاء الغوائل له؛ إذ من أصعب الأشياء على النُّفوس: مفارقة الوطن، ولاسيما إذا كان ذلك قسرًا، وهو السِّر في نسبة الإخراج والأرض إليهم[(٢)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠]. أمَّا (الحقُّ) -يعني المقصود من قوله ﷻ في هذه الآية: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ - فهو إشارة إلى البراهين الدَّالةِ على التَّوحيد والعدل والنُّبوَّة. وأمَّا (الذِّكرى) فهي إشارة إلى الإرشاد إلى الأعمال الباقية الصَّالحة. وأمَّا (الموعظة) فهي إشارة إلى التَّنفير من الدُّنيا، وتقبيح أحوالها في الدَّار الآخرة، والمذكرة لما هنالك من السَّعادة والشَّقاوة[(٣)].

---

(١) انظر: تفسير أبي السُّعود (٢/ ٩٧)، روح المعاني (٤/ ٨٧).

(٢) انظر: روح المعاني (١٩/ ٧٦)، البحر المحيط (٧/ ١٥)، تفسير الرَّازي (٢٤/ ٥٠٢)، ابن عادل (١٣/ ٣٠٣).

(٣) انظر: تفسير الرَّازي (١٨/ ٨٠)، وانظر: البحر المحيط (٥/ ٢٧٤)، السِّراج المنير (٢/ ٩٦).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾ [النحل: ٥١].

إنَّ الشَّيء إذا كان مستنكرًا مستقبحًا، فمن أراد المبالغة في التَّنفير عنه عبَّر عنه بعبارات كثيرة؛ ليصير توالي تلك العبارات سببًا لوقوف العقل على ما فيه من القبح. وإذا عرف هذا فالقول بوجود الإلهين قولٌ مستقبحٌ في العقول، ولهذا المعنى فإنَّ أحدًا من العقلاء لم يقل بوجود إلهين متساويين في الوجوب والقدم وصفات الكمال. فقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ المقصود من تكريره: تأكيد التَّنفير عنه، وتكميل وقوف العقل على ما فيه من القبح[1].

وقد قيل في تفسير قول الله ﷻ:

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾ [الإسراء: ٣٥]: إنَّه بخلاف التَّطفيف فتعيَّن التَّنفير عنه[2]. وقد قال الله ﷻ أيضًا: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾ [المطففين: ١]، انظر الآيات من (١) إلى (٦).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨﴾ [الإسراء: ٣٨] انظر الآيات من (٢٩) إلى (٣٨)، وانظر (٢٦-٢٧). «فيه إشعار بكون ما

---

(١) انظر: تفسير الرَّازي (٢٠/٤٧-٤٨)، غرائب القرآن (٤/٢٦٨)، فتح القدير (٣/٢٤٠)، السِّراج المنير (٢/٢٦٢).

(٢) روح المعاني (١٥/٢٧).

عداه مرضيًا عنده ﷻ، وإنما لم يصرِّح بذلك إيذانًا بالغني عنه، وقيل: اهتماما بشأن التَّنفير عن النَّواهي لما قالوا من أنَّ (التَّخلية أولى من التَّحلية)، و(درء المفاسد أهم من جلب المصالح)»(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤﴾ [مريم: ٤٤].

إنَّ «إظهار اسم الشَّيطان في مقام الإضمار -حيثُ لم يقل: إنَّه كان للرَّحمن عصيًّا- لإيضاح إسناد الخبر إلى المسند إليه، ولزيادة التَّنفير من الشَّيطان؛ لأنَّ في ذكر صريح اسمه تنبيهًا إلى النَّفرة منه، ولتكون الجملة موعظةً قائمةً بنفسها»(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه:١١٧]. ولا يخفى ما في التَّعبير بزوجك دون حواء من مزيد التَّنفير والتَّحذير منه(٣).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج:٣٠]. إيقاع الاجتناب على الذَّات دون العبادة ما لا يخفى من المبالغة في التَّنفير عن عبادتها(٤). وفيه التَّنفير من شهادة الزُّور..

---

(١) روح المعاني (١٥/ ٧٦).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (١٦/ ١١٧).

(٣) روح المعاني (١٦/ ٢٧٠)، الكشاف (٢/ ٥٥٥-٥٥٦)، تفسير الرَّازي (٢٢/ ١٠٧)، الخازن (٤/ ٢٨٢).

(٤) انظر: روح المعاني (١٧/ ١٤٨).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢]. المراد بالإخبار التَّنفير عما كانوا عليه من الإنكار؛ ليثبت المؤمن ويرتدع الكافر[1].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٩]. المقصود من الجمع المبالغة في التَّنفير؛ فإنَّ الصَّوت إذا توافقت عليه الحمير كان أنكر؛ لأنَّه أقبحها في النَّفس، وأنكرها عند السَّمع، وهو عند العرب مضروب به المثل. وفي تشبيه الرَّافعين أصواتهم بالحمير تنبيه على أنَّ رفع الصَّوت في غاية البشاعة[2].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣][3]. «و(الغَرور) -بفتح الغين- من يكثرُ منه التَّغرير، والمراد به الشَّيطان بوسوسته. وإذا أريد بالغَرور الشَّيطان أو ما يشمله فذلك أشدُّ في التَّحذير لما تقرَّر من عداوة الشَّيطان للإنسان، كما قال ﷻ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ

---

(١) انظر: روح المعاني (٢٠/ ٢٤).

(٢) انظر: روح المعاني (٢١-٩٢)، البحر المديد (٥/ ٣٧١)، النُّكت والعيون (٤/ ٢٤١)، تفسير السَّمرقندي (٣/ ٢٣)، البحر المحيط (٧/ ١٨٤)، تفسير البيضاوي (٤/ ٣٤٩)... إلخ.

(٣) ونحوه قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ [فاطر: ٥].

ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر:٦]، ففي التَّحذير شوب من التَّنفير»[١].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ [الأحزاب:٣٣]. انتصب ﴿تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ على المفعول المطلق، وهو في معنى الوصف الكاشف أريد به التَّنفير من التبرُّج[٢].

ومن أكثر الآيات دلالةً على هذا المعنى قوله ﷻ:

﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتًا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ [الحجرات:١٢]، أي: كما تكرهونَ هذا طبعًا، فاكرهوا ذاك شرعًا؛ فإنَّ عقوبته أشدّ من هذا، وهذا من التَّنفير عنها -أي: الغيبة- والتَّحذير منها[٣]. ففيه إشعار بأنَّه لا أحد يحبُّ ذلك، ومنها: تقييد المكروه بأكل لحم الإنسان، ومنها تقييد الإنسان بالأخ، ومنها: جعل الأخ أو اللَّحم ميتًا ففيه مزيد تنفير للطَّبع. وإنما مثل بالأكل؛ لأنَّ العرب تقول لمن ذكر بالسوء: (إنَّ النَّاس يأكلون فلانًا ويمضغونه)، و(فلانٌ مضغةٌ للماضغ). شبَّهوا إدارة ذكره في الفمِّ بالأكل والميِّت؛ لمزيد التَّنفير -كما قلنا-؛ أو لأنَّ الغائب كالميِّت من حيثُ لا يشعرُ

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢١/ ١٩٥).
(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٢/ ١٢).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٥)، تفسير الطَّبري (٢٦/ ١٣٧)، القرطبي (١٦/ ٣٤٠).

بما يقال فيه[١] .

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧﴾ [التحريم: ٧]. «هو من قول الملائكة الَّذين على النَّار. وذكر هذه المقالة استطرَادٌ يُفيد التَّنفير من جهنَّم بأنَّها دار أهل الكفر كما قال ﷻ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]»[٢].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩][٣] أنَّه تعليل للنَّهي أو للانتهاء، وإنما عبِّر عنها بالطَّاعة للمبالغة في التَّنفير، أي: أحبُّوا لو تلاينهم وتسامحهم في بعض الأمور. وقوله ﷻ: ﴿فَيُدۡهِنُونَ﴾ أي: فهم يدهنونَ حينئذٍ، أو فهم الآن يدهنونَ طمعًا في إدهانك[٤].

● **رابعا: النَّتائج**

الحقيقة أنَّ الآيات في هذا البابِ كثيرةٌ جدًّا، ومن الممكن أن تؤلَّف في ذلك الكتب الَّتي تستقلُّ بهذا المعنى، وقد استعرضتُّ ما جاء من بيانٍ لأكثرِ الآياتِ دلالةً على هذا المعنى من الخطاب القرآني مع

---

(١) انظر: غرائب القرآن الكريم (٦/ ١٦٧).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٢٨/ ٣٦٦).

(٣) وانظر الآيات الَّتي فيها معنى التَّنفير من (٨) إلى (١٥).

(٤) انظر: الكشاف (٤/ ١٤٢)، تفسير أبي السُّعود (٩/ ١٣)، روح المعاني (٢٩/ ٢٦)، . . إلخ .

الإشارة إلى أهمِّ ما جاء في تفسير الآيات ذات الصِّلة.

وقد أشرتُ في غير موضع إلى ما بين التَّرغيب والتَّرهيب من التَّلازم، وأنَّهما صنوان..وحيث إنَّ المنطوق الَّذي يفيد التَّرغيب في أمرٍ فإنَّه يقتضي في مفهومه التَّرهيب والتَّنفير من آخر..والعكسُ صحيح..كذلك قد يأتي المعنى المقابل منطوقًا به في الآية نفسها أو ما يعقبها كما جاء ذلك واضحًا في النَّماذج والأمثلة.

ويقال فيه ما قيل في سابقه من كونه من أساليب التَّربية والدَّعوة الَّتي تحرِّك القلب والعاطفة، وتولِّد الدَّافعية للإقبال على أمرٍ أو اجتنابه..

المطلب الثَّامن
خطاب التَّحنن والاستعطاف والتَّحبب

• أ. ما دلَّ بمادَّته على معنى التَّحنن والاستعطاف:

أمَّا ما دلَّ على معنى التَّحنن بمادَّته وأسلوبه فقوله ﷻ: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم:١٣]، فإنَّ تنوينُه للتَّفخيم، وفيه التَّحنُّنُ والتَّعطُّف..

يقال: حنَّ، أي: ارتاح أو اشتاق. ثمَّ استعمل في العطف والرَّأفة، أي: وآتيناه رحمةً عظيمة وتحنُّنًا عظيمًا واقعًا من جنابنا، أو رحمة في قلبه وشفقة على أبويه وغيرهما[(١)].

قال الخليلُ: «(الحَنانُ): الرَّحمةُ، والفعل: التَحُنُّن. والله ﷻ الحَنَّانُ المنَّان الرَّحيم بعباده. و﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ ، أي: رحمةً من عندنا»[(٢)].

• ب. ومن خطابِ التَّحنن والاستعطاف والتَّحبب الآياتُ التَّالية:

﴿... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ

---

(١) انظر: تفسير أبي السُّعود (٥/ ٢٥٩)، روح المعاني (١٦/ ٧٢)، فتح القدير (٣/ ٤٦٥).

(٢) العين، مادة: (حنَّ) (٣/ ٢٩).

ﱡﭐٱلۡقِيَـٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤ﱠ [آل عمران: ١٩١-١٩٤]. حيث إنَّ تصديرَ الدُّعاء بـ (رَبَّنَا) فيه من الاستعطاف ما لا يخفى؛ ولذا كَثُرَ تصدير الدُّعاء به[(١)]. «وتكرر لفظ (رَبّنَا) خمس مرات، كلُّ ذلك على سبيل الاستعطاف وتطلُّب رحمة الله ﷯ بندائه بهذا الاسم الشَّريف الدالِّ على التَّربية والمُلك والإصلاح. وكذلك تكرر هذا الاسم في قصة آدم عليه السلام، ونوح عليه السلام وغيرهما. وفي تكرار (رَبّنَا) دلالة على جواز الإلحاح في المسألة، واعتماد كثرة الطَّلب من الله ﷯»[(٢)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷯:

ﱡﭐإِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨ﱠ [المائدة: ١١٨]. اختلف في تأويل هذه الآية، فممَّا قيل: قاله على وجه الاستعطاف لهم والرَّأفة بهم، كما يستعطف السيِّد لعبده، ولهذا لم يقل: (فإنَّهم عصوك). وقد ذكر ذلك غير واحد[(٣)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷯:

ﱡﭐقُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ

---

(١) انظر: روح المعاني (٢٤/ ٤٧).

(٢) البحر المحيط (٣/ ١٤٩-١٥٠)، وانظر: روح المعاني (٢٤/ ٤٧). ونحوه قوله عز وجل: ﱡﭐ... رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُﱠ [غافر: ٧-٨]. إلى قوله: ﱡﭐرَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖﱠ [غافر: ١١]. انظر: روح المعاني (٢٤/ ٤٧).

(٣) انظر: تفسير القرطبيِّ (٦/ ٣٧٨)، البحر المحيط (٤/ ٦٦)، تفسير الماورديِّ (٢/ ٨٩).

لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢]. ومعنى الكلام الاستعطاف منه ﷿ للمتولِّين عنه إلى الإقبال إليه، وإخبار منه ﷿ بأنَّه رحيمٌ بعباده لا يعجِّل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتَّوبة[1].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷿:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: ١٤٧][2].

وكذلك النِّداء بنحو قوله ﷿:

﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧]. وأذكر هنا على سبيل المثال ما قاله البقاعيُّ في (نظم الدُّرر): «لمَّا كان المقصودُ من ذكر القَصص -ولاسيَّما قصصُ الأنبياء- الاعتبار بها، فكان بيان ما وقع بين آدم عليه السلام وبين الشَّيطان من شديد العداوة مقتضيًا للتَّحذير من الشَّيطان، وكان المقام خطرًا، والتَّخلص عسرًا، أشار إلى ذلك بالتَّأكيد، وبيان ما سلط الشَّيطان به من المكايد الخفيَّة، والأسباب الدَّقيقة، ليعلم النَّاجي أنَّه إنَّما نجا بمحض التَّوفيق، ومجرَّد

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٣٩٥)، الكشف والبيان (٤/ ١٣٧)، الخازن (٢/ ١٢١)، فتح القدير (٢/ ١٥٠).

(٢) انظر: نظم الدُّرر (٢/ ٧٣٧).

اللُّطف، فيُقبل على الشُّكر متبرِّئًا من الحول والقوَّة، فقال مناديًا لهم بما يُفْهم الاستعطاف والتَّراؤف والتَّحنن والتَّرفق والاستضعاف: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، أي: الَّذي خلقته بيدي وأسكنته جنَّتي..»(١).

ومن ذلك قول موسى عليه السلام كما قال سبحانه:

﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

«ليس المراد منه ابتداء الإيمان في تلك الحالة، بل المراد به إضافة الأوَّليَّة إليه لا إلى الإيمان، ولعلَّ المراد من ذلك الإخبار: الاستعطاف؛ لقبول توبته ﷻ عمَّا هو ذنب عنده، وأراد بالمؤمنين قومه..»(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف:١٥١]. ذكر وصف الأُخوة زيادة في الاستعطاف عسى الله ﷻ أن يُكرم رسوله -عليه الصَّلاة والسَّلام- بالمغفرة لأخيه [هود:٤٥](٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

(١) نظم الدُّرر (٣/ ٢١).
(٢) روح المعاني (٩/ ٥٠).
(٣) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٩/ ١١٨)، المنار (٩/ ١٨٠).

وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦][(١)].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: ٤٢]. ومعلوم أنَّ نداء الوالد ولده من باب التَّحنن والرَّأفة[(٢)]. يقطر منه الاستعطاف[(٣)]، وكذلك نداء إبراهيم عليه السلام لأبيه -كما سيأتي-.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود: ٤٥]. فهذا النِّداء منه عليه السلام يقطر منه الاستعطاف، وجميل التَّوسل إلى من عهده منعمًا مفضلًا في شأنه أوَّلًا وآخرًا، وهو على طريقة دعاء أيوب عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣][(٤)]. وقد سبق أنَّ ذكرَ وصف الأخوَّة هناك فيه زيادة في الاستعطاف عسى الله ﷻ أن يكرم رسوله -عليه الصَّلاة والسَّلام- بالمغفرة، فكذلك ذكر البنوَّة هنا في قول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ .

---

(١) انظر: نظم الدُّرر (٣/ ١٢٠).

(٢) انظر: روح المعاني (١٢/ ٥٩) .

(٣) انظر: المصدر نفسه (١٢/ ٧٠).

(٤) انظر: روح المعاني (١٢/ ٦٨)، وانظر: التَّحرير والتَّنوير (٩/ ١١٨)، المنار (٩/ ١٨٠).
ونحوه قول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٥١].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود: ٩٢-٩٣]. خاطبهم خطاب الاستعطاف والتَّلطف[١].

ومن ذلك نداء إبراهيم عليه السلام لأبيه في قوله ﷻ:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٥][٢].

ومن ذلك تلطُّف صالح عليه السلام بقومه، ورفقه بهم في الخطاب حيث قال مناديًا لهم على جهة التَّحنن عليهم:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل: ٤٦]، أي: بوقوع ما يسوؤكم قبل الحالة الحسنة، وهي رحمة الله ﷻ[٣].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ

---

(١) انظر: البحر المحيط (٥/ ٢٥٦).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٥٠).

(٣) انظر: البحر المحيط (٧/ ٩٧)، السِّراج المنير (٣/ ١٠٩)، نظم الدُّرر (٥/ ٤٣١).

فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٥]. «قيل: فيما سبق إليه اللِّسانُ، إمَّا على سبيل الغلط إن كان سبق ذلك إليهم قبل النَّهي، فجرى ذلك على ألسنتهم غلطًا، أو على سبيل التَّحنن والشفقة، إذ كثيرًا ما يقول الإنسان للصَّغير: (يا بني)، كما يقول للكبير: (يا أبي)، على سبيل التَّوقير والتَّعظيم»[1]. وقد سبق نظير ذلك في ذكر لفظ (الأخوَّة) وكذلك (البنوَّة) الدَّالُّ على الاستعطاف .

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٤٣][2].

وقد يكون الاستعطاف في الأمر والنَّهي كما قوله عز وجل:

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝﴾ [ص: ٢٢]. فإنَّ المقصود من الأمر والنَّهي الاستعطاف، وهو واضح..

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿... رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ﴾ [غافر: ٧-٨]. وقد سبق أنَّ

(١) البحر المحيط (٧/٢٠٨).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٢/٤٣).

تصدير الدُّعاء بـ (ربّنا) فيه من الاستعطاف ما لا يخفى.

وقد يستخدم الاستعطاف كمنهج من مناهج الدَّعوة إلى الله ﷻ، ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ [الصف:٦] .فإن فيه من الاستعطاف ما فيه. قيل: إنَّ الاستعطاف بما ذكر لما فيه من التَّعظيم، وقد كانوا يفتخرونَ بنسبتهم إلى إسرائيل عليه السلام[(١)].

● **ج. ومما يدخل في هذا الباب:**

ودخل في هذا الباب ما قيل في قوله ﷻ:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨﴾ [البقرة:٢٨]. ففيه بيان أنَّ الاستعطاف يكون بتعداد النِّعمِ ودفعِ النِّقَمِ[(٢)].

وقد يكون التَّحبُّب والاستعطاف بذكرِ وصفٍ من الأوصاف الحسنة في الخطاب كما في قوله ﷻ:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف:٤٦]، فقد زاد في التَّحبُّب بقوله: ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ ، أي: البليغ في الصِّدق والتَّصديق[(٣)].

---

(١) انظر: روح المعاني (٢٨/ ٨٥-٨٦).

(٢) انظر: نظم الدُّرر (٣/ ١٠٤).

(٣) انظر: تفسير السِّراج المنير (٢/ ١٢٥)، وانظر: نظم الدُّرر (٤/ ٥١).

وكما في قوله ﷻ:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

ويدخل في هذا الباب المعاني الدَّالة على التَّودد والتَّحبب.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الروم: ٢١] إشارة إلى ما أوقع بينهم من الألفة المذكورة في قوله ﷻ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٣﴾ [الأنفال: ٦٣]. ومن المودَّة الَّتي هي المحبَّة المجرَّدة قوله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

وقال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ [البروج: ١٤]. ومعنى (الودود) يتضمَّن ما دخل في قوله ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. ويصحُّ أن يكون معنى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [مريم: ٩٦] معنى قوله ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ .

و(الودُّ): محبَّة الشَّيء، وتمني كونه، ويستعمل في كلِّ واحدٍ من المعنيين على أنَّ التَّمني يتضمَّن معنى (الود)؛ لأنَّ التَّمني هو تشهِّي حصول ما توده.

ومن المودَّة الَّتي تقتضى معنى التَّمني قوله ﷻ: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ

﴿أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩]، وقوله ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] نهى عن موالاة الكفار ومظاهرتهم كقوله ﷻ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، أي: بأسباب المحبَّة من النَّصيحة ونحوها..[١].

● **خاتمة في إبراز أهم النتائج:**

ويعلم ممَّا سبق أنَّ الخطاب إذا كان من المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- إلى الله ﷻ، أو لرسوله ﷺ، أو للمؤمنين فإنَّه ينبغي أن يكون عن محبَّةٍ لله ﷻ، ولرسوله ﷺ، وللمؤمنين، وأنَّ نقيض ذلك خلاف ما شرعه الله ﷻ وبيَّنه. فذلك هو (خطاب التَّحبب).

وأشير أخيرًا إلى أنَّ التَّحبب هو الباعث الأقوى للاتِّباع، أو يقال: ينبغي أن يكون أساس الاتباع عن محبَّة، كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادَّة (ودد): (ص: ٥١٦-٥١٧)، النِّهاية في غريب الحديث، مادَّة: (منا) (٤/ ٨٠٤)، وكذلك في (تاج العروس) (٣٩/ ٥٦٢)، و(لسان العرب)، مادَّة: (مني) (١٥/ ٢٩٢)، وكذلك في (تاج العروس) (٣٩/ ٥٦٢)، بصائر ذوي التَّمييز، مادَّة: (ودَّ) (٦/ ٢١٠)، وانظر: الخازن (٤/ ٥٥)، المنار (٥/ ٤٩)، وانظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر (١٣/ ٤٠٨).

مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فالآية تدلُّ على أنَّ من كان حُبَّه لغير الله ﷻ كحبِّه لله ﷻ فكأنَّه قد جعل له ندًّا، وإن كان يحبُّ الله ﷻ، ولذلك سيأتي يوم القيامة من يقول: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

ولذلك جعلَ النَّبيُّ ﷺ مقياسَ الإيمان باللهِ ﷻ امتلاءُ القلب بمحبَّته، بحيثُ تغدو محبَّته متغلِّبةً على محبَّة الولد والوالد والنَّاسِ أجمعين..

فقد جاء في الحديثِ عن أبي هريرة ﵁ أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«فَوَ الَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»**(١).

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاريُّ [١٣]، [١٤]، ومسلم [٦٢]، [٦٣].

المطلبُ التَّاسع: خطاب التَّحسر والتَّلهف

- **توطئة**

أقول: لا بدَّ في البداية من بيان لمادَّة: (حسر)، وبيانِ ما دلَّ بمادَّته على التَّحسر، ثمَّ استعراض الآيات وبيان المعنى الدَّال على التَّحسر..

وينبغي الإشارة إلى أنَّني هنا أحيل ما ورد بصيغة النِّداء من (نداء الحسرة) أو ما يدلُّ على التَّحسر إلى مبحث (النِّداء)، إلَّا في ألفاظ قليلة قد استفيد التَّحسر أيضًا (ممَّا ولِيَ المنادَى)، وينبغي الإشارة أيضًا إلى أنَّني أهتمُّ هنا ببيان (الخبر الَّذي يستعمل في إنشاءِ التَّحسر)، وذلك استكمالًا لأطراف البحث، فيما يخدم محوره.

وبيانُ ذلك على النَّحو التَّالي:

- **أ. بيان مادَّة: (حسر)...**

يقال: (حَسَرَ كُمَّه عن ذِراعه): كَشَفَه، وبابه: ضرب، و(الانحسار): الانكشاف، و(حَسَر البعير): أعيا، وحَسَرَه غيرُه، و(اسْتَحْسَرَ) أيضًا: أعيا، ومنه قوله ﷻ: ﴿مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، و(حَسَرَ بصرُه يَحْسِرُ حُسُورًا)، أي: كَلَّ وانْقَطَعَ نَظَرُهُ مِنْ طُول مَدىً، وما أشبه ذلك، فهو (حَسِيرٌ) و(مَحْسُورٌ) أيضًا. وبابه: (جلس). و(الحَسْرَةُ): أشدُّ التلهُّف على الشيء الفائت. تقول منه: (حَسِرَ على

الشيء) بالكسر -من باب طَرِب- يَحْسَرُ حَسَرًا وحَسْرَةً، فهو (حَسِيرٌ). و(حَسَّرْتُ غيري تَحْسِيرًا)، و(التَّحسر) أيضًا: التَّلهف..»[1].

أمَّا ورود مادَّة: (حَسَرَ) في القرآن الكريم فهو على النَّحو التَّالي:

قال الله عز وجل: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

وقد قال الله عز وجل فيمن ينفق أمواله ليصدَّ عن سبيل الله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقال الله عز وجل عن (يوم القيامة) الَّذي يكثرُ فيه التَّحسر:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩]. وأمَّا (يوم الحسرة) فلا شبهة في أنَّه يوم القيامة من حيث يكثر التَّحسر من أهل النَّار.

وقيل: يتحسَّر أيضًا في الجنَّة إذا لم يكن من السَّابقين الواصلين إلى الدَّرجات العالية. والأوَّل هو الصَّحيح؛ لأنَّ الحسرة غمٌّ، وذلك لا

---

(١) انظر: مادَّة: (حسر) في (مختار الصِّحاح)، (ص: ١٦٧)، لسان العرب (٤/ ١٨٧)، العين (٣/ ١٣٣).

يليق بأهل الثَّواب[١].

وقال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وقال الله ﷻ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٤].

ومن الألفاظِ الَّتي تدلُّ على التَّحسر ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٣١].

قيل: النَّدم: التَّحسر[٢]. وقيل: (النَّدم) و(النَّدامة): التَّحسر من تغير رأي في أمر فائت، قال ﷻ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، وقال: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المؤمنون: ٤٠]، وأصله من منادمة الحزن له[٣].

---

(١) انظر: تفسير الرَّازي (٢١/ ٢٢١)، ابن عادل (١٣/ ٧٠)، البحر المديد (٤/ ٢٢١).

(٢) انظر: البحر المحيط (٣/ ٤٧٥)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٨٦)...

(٣) انظر: غريب القرآن الكريم، للأصفهانيِّ (١/ ٤٨٦)، وانظر: روح المعاني (١٥/ ٢٨٣)، التَّعاريف، فصل الدَّال (ص: ٦٩٤)، وتاج العروس، مادَّة: (ندم) (٣٣/ ٤٨٤-٤٨٥).

- **ب. الخطاب الَّذي يدلُّ على تحسيرِ المخاطَب...**

فمن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

- **ج. بيان الخبر الَّذي يراد منه: (إنشاء التَّحسر)....**

من المعلوم أنَّ الشَّأن في المبتدأ والخبر أن يكون المبتدأ معلومًا للمخاطَب، وأن يكون الخبر مجهولًا، فكلُّ خبر إنَّما يقصد منه إمَّا إفادة المخاطَب بحكم يجهله، وهو ما يسمى: (فائدة الخبر)، وإمَّا إفادة المخاطب أنَّ المتكلِّم عالم بالحكم، وهو ما يسمى: (لازم الفائدة)، وقد يخرج على خلاف الأصل؛ لأغراض أخرى[١]، ومنها: (التَّحسُّر) كما في قوله ﷻ:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٦]. فهي لا تريد أن تفيد الله ﷻ أنَّ الَّتي وضعتها أنثى، كما أنَّها لا تريد أن تعلم الله ﷻ أنَّها عالمة بكون الموضوعة أنثى، وهذا أمر بديهيٌّ. وإنَّما غرضها من الخبر إنشاءُ (التَّحسر)، فهي كانت

---

(١) ينظر: روح المعاني (٣/ ١٣٤-١٣٦)، تفسير سورة النُّور، للأستاذ الدُّكتور إبراهيم خليفة (ص: ٢٤-٢٥)، جواهر البلاغة، للهاشميِّ (ص: ٣٩).

تريد المولود ذَكَرًا لكي تهبه (لبيت المقدس)، وقد كانوا لا يحرِّرون (لبيت المقدس) إلا الذُّكور، فخاطبت ربَّها ﷻ على سبيل التَّحسر على ما فاتها من رجائها، وخلاف ما قدَّرت؛ لأنَّها كانت ترجو أن تلد ذَكَرًا يصلح للخدمة[١].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الأعراف: ٥]. وفي الآية بيان أنَّ التَّحسر لم يفدهم شيئًا[٢].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ۝٧٩﴾ [الأعراف: ٧٩]، ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ۝٩٣﴾ [الأعراف: ٩٣]. قيل: خاطبهم به بعد هلاكهم، وذكر ذلك على سبيل التَّحسر عليهم[٣].

ومن ذلك قوله ﷻ حكاية عن إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. فهو أيضًا لإنشاء التَّحسر على ذلك[٤].

---

(١) انظر: روح المعاني (٣/ ١٣٤-١٣٦)، الكشاف (١/ ٤٢٥)، البحر المحيط (٢/ ٤٥٦-٤٥٧)، والتَّحرير والتَّنوير (٣/ ٢٣٣)، (٢٣/ ٢٥٦)، ونظم الدُّرر (٢/ ٧١).

(٢) انظر: نظم الدُّرر (٣/ ٨)، المفردات (ص: ٥٣٥)..

(٣) انظر: البحر المديد (٢/ ٣٦٩)، تفسير البيضاوي (٣/ ٣٧)، التَّحرير والتَّنوير (٨/ ٢٢٨).

(٤) ينظر: التَّحرير والتَّنوير (١٣/ ٢٣٩).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الكهف:٤٢-٤٣]. و(تقليب الكفين): حركة يفعلها المتحسِّر، وذلك أن يقلبهما إلى أعلى، ثمَّ إلى قبالته تحسرا على ما صرفه من المال في إحداث تلك الجنَّة. فهو كناية عن التَّحسر، ومثله قولهم: (قرَع السن من نَدم)[1]. وقوله ﷻ: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران:١١٩]»[2].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء:١٤-١٥]، أي: فما زالوا يقولون ويردِّدون: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، واستمرارها يدلُّ على استمرار التَّحسر والتَّوجع والشُّعور بالهلاك، ولكن ذلك لم يفدهم ذلك شيئًا غير شدَّة التَّحسر؛ لأنَّه ندمٌ لم يقترن بتوبة[3].

---

(١) انظر: البيان والتَّبيين (ص:١٠٩)، ونفح الطِّيب من غصن الأندلس الرَّطيب (٣/ ٣٣٧).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (١٥/ ٣٢٧).

(٣) ونحوه قوله عز وجل: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القلم:٣١]. وينظر في بيان معنى (التَّحسر): روح المعاني (١٧/ ٩٣)، التَّحرير والتَّنوير (٢٩/ ٨٧)، زهرة التَّفاسير (ص:٤٨٣٩). وفي (المفردات): «(ويل) قد يستعمل على في الدِّلالة على (التَّحسر)...ومن قال: (ويل) وادٍ في جهنَّم فإنَّه لم يرد أنَّ (ويلا) في اللُّغة هو موضوع لهذا، وإنما أراد من قال الله عز وجل ذلك فيه فقد استحقَّ مقرًّا من النَّار، وثبت ذلك له: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩]، ﴿وَوَيْلٌ =

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء: ٩٧].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان: ١٣-١٤]، وقوله ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾ [الانشقاق: ١١] هو يأس يقتضي تكرير التَّمني أو التَّحسر(١). نسأل الله ﷻ العافية. «والمراد بالدُّعاء في قوله: ﴿يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾: النِّداء، أي: ينادي الثبور بأن يقول: (يا ثبوري)، أو (يا ثبورًا)، كما يقال: (يا ويلي) و(يا ويلتنا). و(الثبور): الهلاك وسوء الحال، وهي كلمة يقولها من وقع في شقاء وتعس. والنِّداء في مثل هذه الكلمات مستعمل في التَّحسر والتَّوجع»(٢).

= لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [إبراهيم: ٢]، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [الجاثية: ٧]، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [مريم: ٣٧]، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الزخرف: ٦٥]، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ [المطففين: ١]، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾، [الهمزة: ١]، ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا﴾ [يس: ٥٢]، ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٤]، ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القلم: ٣١]». بتصرُّف عن (المفردات في غريب القرآن)، مادَّة: (ويل) (ص: ٥٣٥).

(١) انظر: التَّحرير والتَّنوير (١٨/ ٣٣٤).

(٢) المصدر نفسه (٣٠/ ٢٢٤).

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء: ٩٦-١٠٢]؛ فإنَّ الخطاب في قولهم: ﴿قَالُوا۟﴾ للمبالغة في التَّحسر والنَّدامة، والمعنى: أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بانهماكهم في الضَّلالة متحسِّرون عليها[1].

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ [الشعراء: ١١٧].

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢]. المراد بإخبارها إياهم بذلك التَّحسر على ما فاتهم من الإيقان بما قرب وقوعه، وظهور بطلان ما اعتقدوه فيه، ومؤاخذتهم على التَّكذيب به أشدَّ مؤاخذة..[2].

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠] .فجملة: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ بيان لوجه التحسُّر عليهم[3].

---

(١) انظر: روح المعاني (١٩/ ١٠٤)، تفسير البيضاوي (٤/ ٢٤٥).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٠/ ٢٤).

(٣) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٧/ ١٩٠)، (٨/ ٢٢٨)، ابن عادل (١٦/ ٢٠٢)، ولبيان وجه التَّحسر انظر أيضا: تفسير ابن عادل (١٦/ ٢٠٣)، البحر المحيط (٧/ ٣١٨)، الثَّعالبي (٤/ ٦).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٥٢](١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الصافات: ٣١-٣٢]. «قالوا لما دهمهم من التَّحسر مريدين بالتَّأكيد قطع أطماع الأتباع عما أفهمه كلامهم من أن الرُّؤساء لا يغنون عنهم شيئًا .﴿إِنَّا﴾ ، أي: جميعًا ﴿لَذَآئِقُونَ﴾ ، أي: ما وقع لنا به الوعيد من سوء العذاب. ولما قضوا عُلَالة(٢) التَّحسر والتَّأسف والتَّضجر، رجعوا إلى إتمام ذلك الكلام فقالوا: ﴿فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ﴾ ، أي: أضللناهم وأوقعناكم في الغيِّ بسبب حقوق ذلك القول علينا، ثمَّ عللوا ذلك بقولهم مؤكِّدين أيضًا لردِّ ما ادَّعاه الأتباع من أنَّه ما كان سبب إغوائهم إلا الرُّؤساء ﴿إِنَّا﴾ ، أي: جميعًا ﴿كُنَّا غَـٰوِينَ﴾ ، أي: في طبعنا الغواية، وهي العدول عن الطَّريق المثلى إلى المهالك»(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص: ٣٢-٣٣]. وكلامه هذا خبرٌ

---

(١) ينظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٣/٨).

(٢) عُلَالة كلِّ شيء: بقيَّته. انظر: الكليَّات (ص:٥٩٩)، أساس البلاغة، مادَّة: (علل) (ص:٣١٢)، وكذلك في (لسان العرب) (١١/ ٤٦٧)، وتاج العروس (٣٠/ ٤٥) .

(٣) نظم الدُّرر (٦/ ٣٠٦).

مستعمل في التَّحسر[١].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨]. وهو التَّحسر على التَّفريط في الطَّاعة[٢]. وسيأتي ما يتعلَّق (بنداء الحسرة) في (النِّداء).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الزخرف: ٨٨]. قيل: وهذا من استعمال الخبر في التَّحسر والتَّحزن والتَشَكِّ من عدم إيمان أولئك القوم، وهو خبر بمعنى الإنشاء مثل قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠][٣].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨-٩]، فقولهم: ﴿بَلَىٰ﴾ هو جواب المتحسِّر المتندِّم في وقت لا ينفع التَّأسُّف ولا التَّحسُّر[٤]. نسأل الله ﷻ العافية.

---

(١) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٣/ ٢٥٦).

(٢) انظر: الكشاف (٣/ ٤٠٤-٤٠٥).

(٣) انظر: روح المعاني (٢٥/ ١٠٨)، ونظم الدُّرر (٧/ ٦٠)، التَّحرير والتَّنوير (٢٥/ ٢٧٢).

(٤) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٩/ ٢٦)، البحر المديد (٦/ ٢٧٥).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القلم: ٣٠-٣١].

فقوله ﷻ: ﴿يَتَلَاوَمُونَ﴾، أي: يلوم بعضهم بعضًا بهذا الكلام، فتكون خبرًا مستعملًا في التَّقريع مع التَّحسر والتَّندم بما أفاده ﴿يَـٰوَيْلَنَآ﴾[(١)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح: ٢١]. قيل: تأكيد الخبر بـ (إِنَّ) للاهتمام بما استعمل فيه من التَّحسر والاستنصار[(٢)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٤٣-٤٧]. «وهذا كنايةٌ عن عدم إيمانهم، سلكوا بها طريق الإطناب المناسبَ لمقام التَّحسر والتَّلهف على ما فات، فكأنَّهم قالوا: لأنَّا لم نكن من المؤمنين؛ لأنَّ أهل الإيمان اشتهروا بأنَّهم أهل الصَّلاة، وبأنَّ لهم في أموالهم حقٌّ معلوم للسَّائل والمحروم، وبأنَّهم يؤمنون بالآخرة، وبيوم الدِّين، ويصدِّقون الرُّسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام-»[(٣)].

(١) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٩/ ٨٧).

(٢) انظر: المصدر السابق (٣٠/ ٣٣٩).

(٣) بقليلٍ من التَّصرُّف عن (التَّحرير والتَّنوير) (٤/ ٣٢٧).

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر: ٢٣-٢٤][١].

● **د. الخطاب الدَّال على التَّحسر بصيغة مباشرة. . .**

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]. قيل: يتحسَّر ويندم[٢].

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ [فاطر: ٣٧][٣].

● **هـ. ورود الاستفهام في معنى النَّفي الدَّال على التَّحسر. . .**

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف: ٥٣]. «الاستفهام يجوز أن يكون حقيقيًّا يقوله بعضهم لبعض، لَعلَّ أحدهم يرشدهم إلى مخلص لهم من تلك الورطة، وهذا

---

(١) ينظر: الكشاف (٤/ ٢٥٣).

(٢) انظر: روح المعاني (١٨/ ٦٤)، البحر المحيط (٦/ ٣٨٨).

(٣) انظر: الكشاف (٣/ ٣١٠)، البحر المحيط (٧/ ٣٠١)، تفسير ابن عادل (١٦/ ١٤٧).

القول يقولونه في ابتداء رؤية ما يهدِّدهم قبل أن يوقنوا بانتفاء الشُّفعاء المحكيِّ عنهم في قوله ﷻ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١]. ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملًا في التَّمني، ويجوز أن يكون مستعملًا في النَّفي على معنى التَّحسُّر والتَّندم. و﴿مِن﴾ زائدة للتَّوكيد. وعلى جميع التَّقادير تفيد توكيد العموم في المستفهم عنه؛ ليفيد أنَّهم لا يسألون عمَّن توهموهم شفعاء من أصنامهم؛ إذ قد يئسوا منهم. كما قال ﷻ: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ [الأنعام: ٩٤]، بل هم يتساءلون عن أيِّ شفيع يشفع لهم. ولو يكون الرَّسول ﷺ الَّذي ناصبوه العَداء في الحياة الدُّنيا. ونظيره قوله ﷻ في (سورة المؤمن): ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١]»[1]. والشَّاهد ما قيل في قوله ﷻ -حكاية عنهم-: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾؛ فإنَّه استفهام منهم، ومعناه: التَّمني، وكذلك ما أتى في سياق الكلام من النَّظائر.

ومن ذلك:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥][2].

وسيأتي ما يتعلَّق بالاستفهام مفصَّلًا في (الاستفهام في القرآن الكريم)..

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٨/ ١٥٦)، وانظر: فتح القدير (٢/ ٣٠٦).

(٢) انظر: تفسير ابن جزي (٢/ ١٥٣).

● **و. ورود التَّمني في معنى التَّحسر...**

فمن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص: ٦٤]. قيل: يجوز أن تكون ﴿لَوْ﴾ للتَّمني المستعمل في التَّحسر عليهم[١].

● **ز. بيان مادَّة: (الويل)...**

قال الخليل: «(الوَيلُ): حلول الشّر، و(الويلةُ): الفضيحةُ والبليَّة، وإذا قال: (واويلتاه)، فإنّما معناه: وافضيحتاه. ويُفسَّر عليه هذه الآية: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الكهف: ٤٩]، ويُجْمَع على الوَيْلات»[٢].

وفي (مختار الصِّحاح): «(وَيْلٌ) كلمة مثل: (وَيْحٍ) إلا أنها كلمة عذاب»[٣].

قال ﷻ: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

● **ح. وقد يوضع (الويل) موضع التَّحسر والتَّفجع ...**

﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ ، ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ﴾ [المائدة: ٣١][٤].

---

(١) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٠/ ١٦١).

(٢) العين، مادَّة: (ويل) (٨/ ٣٦٦)، القاموس المحيط، مادَّة: (ويل) (ص: ١٣٨٢)، وكذلك في (لسان العرب) (١١/ ٧٣٧)، وفي المحكم والمحيط الأعظم (١٠/ ٤٦٠)، وانظر: البحر المحيط (١/ ٤٣٧).

(٣) مختار الصِّحاح، مادَّة: (ويل) (ص: ٧٤٠).

(٤) البرهان (٤/ ٤٤٤)، الإتقان (١/ ٥٢٦-٥٢٧)، وانظر: نداء (الويل) في (روح المعاني) (١٧/ ٩٣)، وسيأتي بيان ذلك في (مبحث النِّداء).

وما كان بصيغة النِّداء يأتي بيانه في (النِّداء).

ط. خاتمة في إبراز أهم النَّتائج ...

والحاصل أنني قد أتيتُ في هذا المطلب على ذكر صورٍ كثيرةٍ للتَّحسر؛ لأنَّ في ذكر تحسُّر المتحسِّرين، وسرد قصصهم الدَّالَّةِ على التَّفريط في طاعة الله ﷻ، أو فعل محظور قد نهى الشَّارع عنه كإنفاق المال في معصية، أو قتل النَّفس الَّتي حرَّم الله ﷻ بغير حقٍّ...إلخ. فيه ما فيه من العبرة والعظة لأولي البصائر - ولا سيَّما أنَّ ذلك التَّحسر لم يقترن بتوبة - وكذلك ما جاء في التَّحذير من (يوم الحسرة) محفِّزٌ يحمل المخاطَب على فعل الصَّالحات؛ استعدادًا لذلك اليوم حتَّى لا يكون فيه من المتحسِّرين...

وقد أتيتُ أيضًا على بيان أنَّ التَّحسر يكون في أمور يقدِّرها الإنسان ثمَّ لا تقع على وفق ما قدَّر، وهذه مسألة أخرى..

كما أنَّ التَّحسر قد يكون على الغير بسبب ما حاق به من سوء العاقبة حيث لم ينفعه النُّصح...

المبحث السَّادس

خطاب المدح والذَّم

ويتضمَّن:

المطلب الأول: خطاب المدح.

المطلب الثاني: خطاب الذَّم.

المطلب الأول: خطاب المدح

ويتضمَّن:

أ. توطئة في تحديد المصطلحات.

ب. (نِعْمَ) من الخطاب القرآني بمعناه الأعم.

ج. فاعل (نِعْمَ) المقرون بـ (أل) في الخطاب القرآني.

د. فاعل (نِعْمَ) مضاف إلى ما فيه (أل) في الخطاب القرآني.

هـ. ما جرى مجرى (نِعْمَ).

و. صلة خطاب المدح بموضوع البحث.

وبيان ذلك على النَّحو التَّالي:

- **أ. توطئة في تحديد المصطلحات..**

جاء في (العين): «(المدح): نقيض الهجاء، وهو: حسن الثَّناء، و(المدحة): اسم المديح، وجمعه (مدائح) و(مدح)، يقال: (مدحته) و(امتدحته)»[(١)].

ويقال: مدحته مدحًا من باب (نفع): أثنيت عليه بما فيه من الصِّفات الجميلة خلقيّة كانت أو اختياريّة، ولهذا كان المدح أعمُّ من الحمد. وقيل: (المدح) من قولهم: (انمدحت الأرض) إذا اتسعت، فكأنَّ معنى (مدحته) وسعت شكره..[(٢)].

أمَّا أفعال المدح فهي ما وضع لإنشاء مدح نحو: (نِعْمَ) و(وحَبَّذا)[(٣)]. وما يعنينا هنا ما له ذكر في الخطاب القرآني.

---

(١) العين، مادَّة: (مدح)، (٣/ ١٨٨)، وانظر: لسان العرب، (٢/ ٥٨٩)، المحكم والمحيط الأعظم (٣/ ٢٦٨).

(٢) انظر: المصباح المنير، مادَّة: (مدح)، (٢/ ٥٦٦)، وانظر: تاج العروس (٧/ ١١١).

(٣) انظر: التَّعريفات (التَّعريف بالأفعال) (١/ ٤٩)، وكذلك التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف (التَّعريف بالأفعال) (١/ ٨٠). و(حبَّذا) من المركَّبات المزجيّة، وهي سبائك تولَّدت عن مزج فعل واسم، منه (حبَّذا)، وقد ذكر غير واحد -ومنهم الأزهريُّ- «أنَّه (حبَّ ذا)، فإذا وصلت رفعت به فقلت: حبَّذا زيدٌ». تهذيب اللُّغة، للأزهريِّ، مادّة (حب) (٤/ ٨)، وكذلك في (لسان العرب) (١/ ٢٨٩). وذكر ابن منظور في تأليف هذه الكلمة فقال: «(حبَّذا) كلمتان جعلتا شيئًا واحدًا، ولم تُغَيَّرا في تثنية ولا جمع ولا تأنيث، ورفع بها الاسم. تقول: حبَّذا زيد، وحبَّذا الزَّيدان، وحبَّذا الزَّيدون، وحبَّذا أنت، وأنتما. و(حبذا) يبتدأُ بها؛ لأنَّ (حبَّذا) كلمة مدح يبتدأ بها؛ لأَنها جَوابٌ، وإِنما لم تُثَنَّ ولم تُجمع ولم تُؤَنَّثْ؛ لأَنَّك إِنما أَجْرَيْتَها على ذِكر شيءٍ سَمِعْته فكأَنَّك قلت: (حَبَّذا الذِّكْرُ ذُكْرُ زَيْدٍ)، فصار (زيدٌ) موضعَ ذكره، وصارَ (ذا) مشارا إِلى الذِّكْرِيّةِ والذِّكرُ مُذَكَّرٌ». وإنَّ الغاية من سبك الفعل =

وأفعالُ المدح أو الذَّم جُملها إنشائيةٌ غير طلبيّة[١].

أقول: وممَّا يوضِّح كونها للإنشاء ما أخرجه البخاريُّ عن عبدِ الرَّحمن بن عبد القاري[٢] أنَّه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ﷺ ليلة في

= (حبَّ) مع الاسم (ذا) تكمن في توليد محمول اسمي من صنف المشتقات، يجوز إثباته وصفًا على جهة المدح للموضوع المرفوع بعده، كما في قولنا: حبَّذا الإخلاص. والحاصل: أنَّه يستعمل الفعل (حَبَّ) استعمال (نعم) و(بئس). فإن كان مثبتًا كان لمدح، وإن كان مسبوقًا بحرف النَّفي (لا) كان للذَّم..وله شروط تذكر في مظانِّها من كتب النَّحو.

(١) أمَّا بيان وجه إفادة (نعم) و(بئس) للإنشاء فقد بيَّنَ ذلك رضيُّ الدِّين الأستراباذي في شرحه على (الكافية) حيث قال: «فإنَّك إذا قلت: (نعم الرَّجل زيد)، فإنما تنشئ المدح وتحدثه بهذا اللَّفظ، وليس المدح موجودًا في الخارج في أحد الأزمنة مقصودًا مطابقة هذا الكلام إيَّاه حتى يكون خبرًا، بل تَقْصِدُ بهذا الكلام مدحه على جودته الموجودة خارجًا، ولو كان إخبارًا صرفًا عن جودته خارجًا لدخله التَّصديق والتَّكذيب، فقول الأعرابي لمن بشره بمولودة وقال: (نعم المولودة)، (والله ما هي بنعم الولد)، ليس تكذيبًا له في المدح؛ إذ لا يمكن تكذيبه فيه، بل هو إخبار بأنَّ الجودة الَّتي حكمت بحصولها في الخارج ليست بحاصلة، فهو إنشاء جزؤه الخبر، وكذا (الإنشاء التَّعجبي)، والإنشاء الَّذي في (كم) الخبريّة، وفي (ربَّ)، هذا غاية ما يمكن ذكره في تمشية ما قالوا، من كون هذه الأشياء للإنشاء، ومع هذا كله فلي فيه نظر، إذ يطَّرد ذلك في جميع الأخبار؛ لأنَّك إذا قلت: (زيد أفضل من عمرو)، ولا ريب في كونه خبرًا، لم يمكن أن تكذب في التَّفضيل، ويقال لك: إنك لم تفضل، بل التَّكذيب إنما يتعلَّق بأفضلية زيد، وكذا إذا قلت: (زيد قائم) وهو خبر بلا شكٍّ، لا يدخله التَّصديق والتَّكذيب من حيث الإخبار، إذ لا يقال: إنَّك أخبرت أو لم تخبر، لأنَّك أوجدت بهذا اللفظ: الإخبار، بل يدخلانه من حيث القيام فيقال: إنَّ القيام حاصل أو ليس بحاصل، فكذا قوله: (ليس بنعم المولودة)، بيان أنَّ النعمة، أي: الجودة المحكوم بثبوتها خارجًا، ليست بثابتة، وكذا في التَّعجب، وفي كم، وربَّ» .شرح الرَّضي على كافية ابن الحاجب (٤/٢٣٨)، وانظر: الأساليب الإنشائيّة في النَّحو (ص١٠٠-١٠١).

(٢) هو عبد الرَّحمن بن عبد، القاري، من ولد القارة بن الديش، من جلَّة تابعي أهل (المدينة) =

رمضان إلى المسجد فإذا النَّاس أوزاع[(١)] متفرِّقون يصلي الرَّجل لنفسه، ويصلي الرَّجل فيصلي بصلاته الرَّهط[(٢)]، فقال عمر ﷺ: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، ثمَّ عزم فجمعهم على أبيٍّ بن كعب ﷺ، ثمَّ خرجت معه ليلة أخرى، والنَّاس يصلون بصلاة قارئهم، قال عمر ﷺ: «نعم البدعة هذه والَّتي ينامون عنها أفضل من الَّتي يقومون»، يريد آخر اللَّيل، وكان النَّاس يقومون أوَّله[(٣)]. والشَّاهد قوله: «نعم البدعة هذه» فهو لا يخبرُ عن شيءٍ يفعلونه أو فعلوه، ولكنَّه مدح لحالهم الَّذي هم عليه.

ولا بُدَّ لهذه الأفعال من مخصوصٍ بالمدح أو الذَّم. فإذا قلت: (نعم الرَّجل خالد)، و(بئس الرَّجل زيد). فالمخصوص بالمدح هو (خالد)، والمخصوص بالذَّم هو (زيد). وهي غير محتاجة إلى التَّصرف، للزومها أسلوبًا واحدًا في التَّعبير؛ لأنها لا تدلُّ على الحدث المتطلِّب للزَّمان حتى تحتاج إلى التَّصرف بحسب الأزمنة. فمعنى المدح والذَّم لا يختلف باختلاف الزَّمان.

= وعلمائهم. كان على بيت المال في زمن عمر ﷺ. وتوفي في (المدينة). [٨٨هـ]. انظر: الأعلام (٣/ ٣٠٩)، الإصابة (٥/ ٤٣)، التَّاريخ الكبير (٥/ ٣١٨)، الثِّقات، لابن حِبَّان (٥/ ٧٩)، الثِّقات، للعجلي (٢/ ٨٢)، الطَّبقات الكبرى، لابن سعد (٥/ ٥٧).

(١) (أوزاع)، أي: جماعات متفرِّقة .

(٢) (الرَّهط): الجماعةُ من الرِّجال ما دون العشرة.

(٣) أخرجه البخاريُّ [١٨٧١].

فنِعْمَ منقول من قولك: (نَعِمَ فلان) إذا أَصاب نِعْمَة[١].

و(نِعْمَ) و(بِئْسَ) فعلان ماضيان لا يتصرَّفان؛ لأنَّهما استعملا للحال بمعنى الماضي، فـ(نعم) مدح، و(بئس) ذمٌّ. وفيها لغات، الأصل: (نَعِم) بفتح أوَّله وكسر ثانيه. ثمَّ تقول: (نِعم) فَتُتْبع الكَسرةُ الكسرة. ثمَّ تطرح الكسرة الثَّانية، فتقول: (نِعْمَ) بكسر النُّون. وإن شئت قلت: (نَعْمَ) بفتح النُّون. وتقول: نِعْمَ الرَّجل زيدٌ، ونعم المرأَة هند. وإن شئت قلت: نِعْمَت المرأَةُ هِنْدٌ. فالرَّجل فاعلُ نِعْمَ، وزيد يرتفع من وجهين:

أحدهما: أن يكون مُبتدأ قُدِّم عليه خَبرُه.

والثَّاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره: (هو زيد) جواب لسائل سأل من هو؟ لمَّا قلت: نعم الرَّجل. و(النُّعم) بالضَّم خلاف البُؤس. يقال: (يومٌ نُعْمٌ)، و(يومٌ بُؤْسٌ)، والجمع: (أَنْعُم) و(أَبْؤُس)[٢]. ولا بدَّ لهذه الأفعال من شيئين: فاعل ومخصوصٍ بالمدح أو الذَّم نحو: (نعم الرَّجلُ خالد). فالرَّجلُ هو الفاعلُ، والمخصوصُ بالمدح هو خالد.

---

(١) انظر: لسان العرب، مادَّة: (بأس) (٦/ ٢٠)، تاج العروس (١٥/ ٤٣٣)، وفي (الصِّحاح)، للجوهريِّ، مادَّة: (أوس) (٣/ ٩٠٧)، وفي (مقاييس اللُّغة)، مادَّة: (نعم) (٥/ ٤٤٦).

(٢) مختار الصِّحاح، مادَّة (نعم) (ص: ٦٨٨). وقد يطلق (اليوم) ونحوه على مطلق الزَّمان، وهو كثيرٌ في كلام العرب كقولهم: (الدَّهرُ يومان، يوم نُعُم ويوم بُؤس). انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٧/ ٢٥٥)، زاد المسير (٤/ ٥٠٠)، وكذلك انظر: تاج العروس، مادَّة: (نعم) (٣٣/ ٥٢٣)، لسان العرب (١٢/ ٥٧٩)، (١٢/ ٦٤٩).

• **ب. (نِعْمَ) من الخطاب القرآني بمعناه الأعم ..**

أمَّا (نِعْمَ) فقد جاء في القرآن الكريم على (خمسة) أحرف، وهي على النَّحو التَّالي:

﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ [الأنفال: ٤٠]، ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١]، ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨]، ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠]، ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤][(١)].

أمَّا قوله ﷻ: ﴿وَنِعْمَ﴾ فقد جاء في القرآن على (أربعة) أحرف، وهي على النَّحو التَّالي:

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].

وفي (خاتمة الحجِّ) أيضًا: ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨][(٢)].

أمَّا قوله ﷻ: ﴿فَنِعْمَ﴾ فقد جاء على (خمسةِ) أحرف، وهي على النَّحو التالي:

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

---

(١) وذلك موافقٌ لما ذكره ابنُ الجوزي في (فنون الأفنان في عيون علوم القرآن) (ص: ٤٠٠)، وقد ذكر ابنُ الجوزي في كتابه (عجائب علوم القرآن) أنَّها (ستَّة). انظر: عجائب علوم القرآن (١٨٣-١٨٤)، والصَّواب أنَّها خمسة كما أوردتها، وكما في (فنون الأفنان)..

(٢) وذلك موافقٌ لما ذكره ابنُ الجوزيِّ في (فنون الأفنان في عيون علوم القرآن) (ص: ٤٠٠)، وفي كتابه (عجائب علوم القرآن) (ص: ١٨٤).

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ [الحج: ٧٨].
﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].
﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].
﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٣][١].

وهما -أي: نعم وبئس- فعلان جامدان لا يتصرَّفان، فلا يستعمل منهما غير الماضي، ولا بدَّ لهما من مرفوع، وهو الفاعل، ويستعملان في المدح والذَّم على سبيل المبالغة[٢]. وفاعل (نعم) يكون أحدُ الأشياء التَّالية[٣]:

١ - اسم ظاهر معرَّف (بأل الجنسيَّة) نحو: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ فالعبد فاعل (نِعْمَ)، والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة ما قبله عليه[٤]. يعني أن يكون محلَّى بالألف واللَّام، نحو: (نعم الرَّجل زيد)، ومنه قوله ﷻ: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ . واختلف في هذه

---

(١) وذلك موافقٌ لما ذكره ابنُ الجوزيِّ في (فنون الأفنان في عيون علوم القرآن) (ص: ٤٠١)، وفي كتابه (عجائب علوم القرآن) (ص: ١٨٤).
(٢) انظر: الفريد في إعراب القرآن المجيد (١/ ٣٣٦) .
(٣) سيأتي بيان ما يتعلَّق (بخطاب الذَّم).
(٤) إذا تقدَّم ما يدلُّ على المخصوص بالمدح أو الذَّم أغنى عن ذكره آخرًا كقوله عز وجل في أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ، أي: نعم العبد أيوب عليه السلام، فحذف المخصوص بالمدح وهو أيوب عليه السلام لدلالة ما قبله عليه. شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك (٣/ ١٦٧).

اللَّام، فقال قوم: هي للجنس حقيقة[١]، فمدحت الجنس كلَّه من أجل زيد، ثمَّ خصصت زيدًا بالذِّكر، فتكون قد مدحت زيدًا مرَّتين. وقيل[٢]: هي للجنس مجازًا، وكأنَّك قد جعلت زيدًا الجنس كلَّه مبالغة. وقيل: هي للعهد[٣].

والمخصوصُ بالمدح في الآية محذوف، أي: (نعم المولى الله ﷻ)، و(المولى) هنا: النَّاصر والمعين[٤].

٢ - أن يكون مضافًا إلى ما فيه (أل)، قال الله ﷻ: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

٣ - «أن يكون مضمرًا مفسَّرًا بنكرة منصوبة على التَّمييز، نحو: (نعم قومًا مَعْشَرُهُ) ففي (نعم) ضمير مستتر يفسِّره قومًا و(معشره) مبتدأ. وزعم بعضهم أنَّ (معشره) مرفوع بنعم وهو الفاعل، ولا ضمير فيها. وقال بعض هؤلاء: إنَّ (قومًا) حال. وبعضهم: إنَّه تمييز. ومثل: (نعم قومًا مَعْشَرُهُ) قوله ﷻ: ﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]»[٥]. -وسيأتي في الذَّم-.

---

(١) انظر: شرح ابن عقيل (٣/ ١٦١).

(٢) انظر: المصدر نفسه (٣/ ١٦١).

(٣) انظر: المصدر نفسه (٣/ ١٦١).

(٤) انظر: الفريد: (٢/ ٤٢١). والحاصل أنَّ ﴿نِعْمَ﴾ فعل ماض جامد لإنشاء المدح، و﴿ٱلْمَوْلَىٰ﴾ فاعل، والمخصوص بالمدح محذوف، أي: هو، ومثله: ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ ..

(٥) شرح ابن عقيل (٣/ ١٦٢). فقوله عز وجل: ﴿بَدَلًا﴾ منصوبٌ على التَّفسير، مفسِّره فاعل =

٤ - تقع (ما) بعد (نعم وبئس)، ومنه قوله ﷻ: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا﴾ [البقرة: ٢٧١][(١)]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨][(٢)].

- **ج. فاعل (نِعْمَ) المقرون (بأل) في الخطاب القرآني...**

﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ [الأنفال: ٤٠].

﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].

﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ [الكهف: ٣١].

= (بئس) المضمر، والمقصود بالذَّم محذوف، والتَّقدير: (بئس البدل بدلا من الله عز وجل) هو وذرِّيته لمن استبدله فأطاعه بدل طاعته. وقيل: (بئس البدل بدلا..النَّار من الجنَّة). انظر: الفريد (٣/ ٣٤٧). والحاصل أنَّ ﴿بِئۡسَ﴾ فعل ماض جامد لإنشاء الذَّم، وفاعله مضمر مفسر بنكرة، و﴿بَدَلٗا﴾ تمييز، ويجوز أن يتعلق ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بمحذوف حال، والمخصوص بالذَّم محذوف، تقديره: (بئس البدل إبليس وذرِّيته)..

(١) وقد اختلف في (ما) هذه، فقال قوم: هي نكرة منصوبة على التَّمييز، وفاعل (نعم) مستتر. وقيل: هي الفاعل، وهي اسم معرفة. انظر: شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك (٣/ ١٦٦).

(٢) تقع (ما) بعد (نعم وبئس)، كذلك تقع بعد (ساء) وستأتي.. وللنُّحاة في معنى (ما) هذه أقوال شتَّى، وأقربها وأقلها تكلُّفًا أن تكون (ما) موصولة، والجملة بعدها صلة، وهي مع صلتها فاعل لفعل المدح والذَّم استغني بها وبصلتها عن المخصوص لتمام المعنى به. ويرى صاحب (الأساليب الإنشائيَّة في النَّحو) أنَّ هذا الوجه هو أقوى الوجوه. ويليه في القوَّة أن تكون (ما) معرفة تامّة هي فاعل (نعم وبئس)، والفعل بعدها صفة لمخصوص محذوف، والتَّقدير: نعم الشَّيءُ شيءٌ صنعته. في الثَّاني: بئس الشَّيءُ شيءٌ فعله، وفي الثَّالث: ساء الشَّيءُ شيءٌ كانوا يعملونه. انظر: الأساليب الإنشائيَّة في النَّحو (ص: ١٠٤).

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥].

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

﴿فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣].

- **د. فاعل (نِعْمَ) مضاف إلى ما فيه (أل) في الخطاب القرآني..**

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

- **هـ. ما جرى مجرى (نِعْمَ)....**

يستعمل وزن (فَعُلَ) استعمال (نعم وبئس)، وهو كلُّ فعلٍ ثلاثي صالح للتَّعجب منه، أي: (يستوفي شروطه المذكورة في التَّعجب) يجوز استعماله على (فَعُل) -بضمِّ العين-، إمَّا بالأصالة: كـ: (ظَرُفَ) و(شَرُفَ) أو بالتَّحويل كـ: (فَهُمَ) و(ضَرُبَ) لإفادة المدح أو الذَّم، فيجري حينئذٍ مجرى (نعم وبئس) في حكم الفاعل والمخصوص، تقول في المدح: (فَهُمَ الرَّجل علي)، وفي الذَّم: (خَبُثَ الرَّجل عمرو).

ومن ذلك في الخطاب القرآني (حَسُنَ) قال الله ﷻ: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

- **و. صلة خطاب المدح بموضوع البحث...**

أقول: إنَّ مما يلاحظ أنَّ كلا من الزَّركشيِّ في (البرهان)[١]، والسُّيوطيِّ في (الإتقان)[٢]، ومن تبعهم لم يذكروا ما كان صريحًا من فِعْل المدح (نِعْمَ)، والسَّبب في ذلك أنَّه الخطاب القرآني بمعناه الأعم، يعني أنَّه لا توجد فيه صيغةُ خطاب مباشرة فيها مواجهةٌ بين المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- والمخاطَب -بفتح الطاء المهملة- أو طلب. مع أنَّ منهم من يدرج بعض النَّماذج من الخطاب القرآني بمعناه الأعم ضمن المباحث المتعلِّقة بالخطاب من حيث معناه الأخص، من غير تبيين للمصطلحات كما أدرج الزَّركشيُّ قوله ﷻ: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة:٤٣-٤٤] تحت عنوان (خطاب التَّهكم) -وقد سبق بيان ذلك مفصَّلًا-... فكان يلزمهم ذكر ما هو أظهر في المدح، وإن كان من الأعمِّ الَّذي جرى ذكره في مظلَّة الأخص، فما جوابهم عن ذكرهم الخبر في مظلَّة الأخص في غير موضع -كما نبَّهتُ إلى ذلك مرارًا- فهو جوابنا هنا، وهو (سؤال مشترك الإلزام).

كما يلاحظ أنَّ مثل هذا الخطاب القرآني بمعناه الأعم أعني بـ:

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٢٢٨-٢٣٠).

(٢) انظر: الإتقان (٢/٨٩).

﴿نِعْمَ﴾ المقصود من إنشاء المدح منه الإعلامُ والإخبار من المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- إلى المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- إمَّا لبيان صفة المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- أو المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- ليكون المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- على دارية بتلك الصِّفة؛ ليعرف مكانة المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- فيكون لذلك ما له من الأثر في كيفية التَّعامل مع المخاطِب، والاستجابة للأمر والنَّهي، وإمَّا لبيان وصف من الأوصاف المرغَّب في تحصيلها، وذلك من خلال المنهج والاعتقاد والعمل..، وهي تخلو من صيغ الخطاب المباشرة بين المخاطِب والمخاطَب، والمقصود الأساس منها لا يتعلَّق بمدح المخاطَب فحسب، وإنما بحثِّه على صحة الاعتقاد والعمل لكي يصل إلى النَّعيم الموصوف..، أو بحثِّ غيره على الاقتداء به. وقد جاء ذلك مصرَّحًا به في قوله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام:٩٠]، وذلك عقب الآيات الَّتي قد اشتملت على أوصاف المدح الحقيقيَّة للرُّسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام-[١].

وقد جاء تخصيص مدح الرُّسل بعد عموم مدح المؤمنين الَّذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم..[٢]، ثمَّ قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ ، فكان ذلك هو المقصد الأسمى.

---

(١) انظر: الآيات من (سورة الأنعام) من (٨٣) إلى (٨٩).

(٢) انظر: الآية: (٨٢) من (سورة الأنعام) .

وبعد هذه المقدِّمة أنتقل إلى (خطاب المدح).. والَّذي أُعنى ببيانه هو خطاب المدح من حيثُ معناه الأخص مع عدم إغفال الأعم -كما أسلفت- فقد ذكر الزَّركشيُّ أنَّ نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٠٤]..قد وقع خطابًا لأهل (المدينة) الَّذينَ آمنوا وهاجروا تمييزًا لهم عن أهل (مكَّة)، وقد سبق أنَّ كلَّ آية فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١] لأهل (مكَّة). وحكمة ذلك أنَّه يأتي بعد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الأمرُ بأصل الإيمان، ويأتي بعد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الأمر بتفاصيل الشَّريعة، وإن جاء بعدها الأمر بالإيمان كان من قبيلِ الأمر بالاستصحاب(١).

وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّ رجلًا أتاه، فقال: اعهد إلي. فقال: إذا سمعت الله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سَمْعك؛ فإنَّه خيرٌ يأمر به أو شرٌّ ينهى عنه(٢).

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٢٨-٢٢٩). و(الاستصحابُ) المقصود هنا هو: «عبارةٌ عن إبقاء ما كان على ما كان عليه لانعدام المغير، وهو الحكم الَّذي يثبت في الزَّمان الثَّاني بناء على الزَّمان الأوَّل». التَّعريفات، (الاستصحاب) (١/ ٥٧)، أو يقال: «الاستصحاب التَّمسك بما كان سائدًا إبقاء لما كان على ما كان لفقد المغير، أو مع ظنِّ انتفائه عند بذل المجهود في البحث والطَّلب، وهو أربعة: استصحاب حال الفعل، واستصحاب حال العموم إلى ورود مخصص، واستصحاب حكم الإجماع، واستصحاب أمر دلَّ الشَّرع على ثبوته في دوامه». التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، مادَّة: (الاستصحاب) (١/ ٥٧).

(٢) أخرجه ابنُ أبي حاتم في (تفسيره) عن مسعر قال: حدَّثنا معن وعون، أو أحدهما... (١/ ١٩٦)، (٣/ ٧١٨)، (٣/ ٩٠٢)، (٥/ ١٦٦٩)، والحديث أخرجه أيضًا سعيدُ بن منصور في (سننه) (١/ ٢١١).

وعن خيثمة[١]، قال: ما تقرؤون في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فإنَّه في التَّوراة: (يا أيُّها المساكين)[٢].

وقد خاطَب الله ﷻ المؤمنينَ بقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في (ثمانيةٍ وثمانينَ) موضعًا من القرآن. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان يخاطب في التَّوراة بقوله: (يا أيها المساكين) فكأنَّه ﷻ لما خاطبهم أوَّلا بالمساكين أثبت المسكنة لهم آخرا حيث قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١]، وهذا يدلُّ على أنَّه ﷻ لما خاطَب هذه الأمَّة بالإيمان أوَّلا فإنَّه ﷻ يعطيهم الأمان من العذاب في النِّيران يوم القيامة، وأيضًا فاسم المؤمن أشرف الأسماء والصِّفات، فإذا كان يخاطبنا في الدُّنيا بأشرف الأسماء والصِّفات فنرجو من فضله أن يعاملنا في الآخرة بأحسن المعاملات[٣].

وزاد النَّيسابوريُّ[٤]: «فإنَّه ﷻ يعطيهم الأمان من العذاب آخرًا،

---

(١) هو خيثمةُ بن سليمان بن حيدرة القرشي الطَّرابلسي، أبو الحسن، من حفَّاظ الحديث، رحَّالة، كان محدِّث (الشَّام) في عصره. له كتاب كبيرٌ في (فضائل الصَّحابة) منه الجزء السَّادس في (فضائل الصِّديق) مخطوط، بضع ورقات في المجموع في الظَّاهريَّة (بدمشق)، و(الرَّقائق والحكايات) قطعة منه في (شستربتي) [٣٤٩٥]، وهو من أهل (طرابلس الشَّام) مسكنًا ووفاة. [٣٤٣هـ]. الأعلام (٢/ ٣٢٦)، تذكرة الحفَّاظ (٣/ ٥١).

(٢) أخرجه ابنُ أبي شيبة (٧/ ١٦٧)، وابنُ أبي حاتم (١/ ١٩٦)، (٣/ ٧١٨)، (٣/ ٩٠٢)، (٥/ ١٦٦٩)، وأبو نعيم في (الحلية) (٤/ ١١٦)، وأخرجه عبد الرَّزاق (تفسيره) (٥/ ٣٨٢).

(٣) تفسير الرَّازي (٣/ ٢٢٣)، ابن عادل (٢/ ٣٥٩)، تفسير النَّيسابوري (غرائب القرآن) (١/ ٣٥٣).

(٤) هو الحسنُ بنُ محمَّد بن الحسين القمي النَّيسابوري، نظام الدِّين، ويقال له: الأعرج، مفسِّر، =

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب:٤٧] -ولا سيَّما وأن (المؤمن) اسم من أسمائه العظام، ففيه دليل على أنَّه ﷻ يقرِّبهم منه في (دار السَّلام)-»[(١)] .

ومن هذا النَّوع الخطابُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال:٦٤]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة:٤١]؛ ولهذا تجد الخطاب بالنَّبي في محلٍّ لا يليق به الرَّسول، وكذا عكسه، كقوله ﷻ في مقام الأمر بالتَّشريع العامِّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، وفي مقام الخاصِّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١]، ومثله: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠]. وتأمَّل قوله ﷻ: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١] في مقام الاقتداء بالكتاب والسُّنة، ثمَّ قال ﷻ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات:٢]، فكأنَّه جمع له المقامين معنى النُّبوَّة والرِّسالة تعديدًا للنِّعم في الحالين .

وقريب منه في المضاف إلى الخاصِّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب:٣٢]، ولم يقل: (يا نساء الرَّسول) لما قصد اختصاصهنَّ عن بقيَّة الأمَّة، وقد يعبَّر بالنَّبي في مقام التَّشريع العامِّ لكن

= له اشتغال بالحكمة والرِّياضيَّات. أصله من بلدة (قُمْ)، ومنشأه وسكنه في (نيسابور). له كتب، منها (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) في ثلاثة مجلدات، يعرف بتفسير النَّيسابوري، ألَّفه سنة [٨٢٨هـ] توفي [بعد٨٥٠هـ]. الأعلام (٢/ ٢١٦)، نظمُ العقيان في أعيان الأعيان، للسُّيوطي (ص:١٢٧)، معجم المؤلِّفين (٢/ ٢٨٢).

(١) غرائب القرآن (١/ ٣٥٤).

مع قرينة أرادة التَّعميم، كقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، ولم يقل: (طلَّقتَ)[١].

وهنا قاعدة مهمَّة في (خطاب المدح) ذكرها السُّيوطيُّ رحمه الله في (الإتقان) حيث قال: «القاعدة في المدح تشبيهُ الأدنى بالأعلى، وفي الذَّم تشبيه الأعلى بالأدنى؛ لأنَّ الذَّم مقام الأدنى، والأعلى طارئ عليه، فيقال في المدح: (الحصى كالياقوت)، وفي الذَّم: (ياقوت كالزُّجاج)، وكذا في السَّلب، ومنه: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: في النُّـزول لا في العلو، ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، أي: في سوء الحال: أي: لا نجعلهم كذلك. نعم أورد على ذلك: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ [النور: ٣٥]، فإنَّه شبه في الأعلى بالأدنى لا في مقام السلب. وأجيب بأنَّه للتقريب إلى أذهان المخاطَبين؛ إذ لا أعلى من نوره فيشبه به»[٢].

وفي هذا المقام لا بدَّ من التَّنويه إلى أنَّ مدح الله ﷻ هو المدح على سبيل الحقيقة، وأنَّ ذمَّه هو الذَّم على سبيل الحقيقة، ومثال مدح الله ﷻ نفسه قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فهو إخبار من الخطاب القرآني بمعناه الأعم، ويذكر

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٣٠)، وانظر: الإتقان (٢/ ٣٣)، وانظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١٤٨)، وانظر: أضواء البيان (١/ ١٥١)، أحكام القرآن، للجصَّاص (٤/ ٩٨)، الكليَّات (ص: ٤٢٠).

(٢) الإتقان (٢/ ١١٨).

في هذا المقام قول الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١-٢]، وفيه صيغة من صيغ الخطاب المباشرة، وهي فعل الأمر: (قل) فهو من الخطاب القرآني بمعناه الأخص..ومدح الله ﷻ للنبي ﷺ والمؤمنين في آيات كثيرة، مثل قول الله ﷻ في مدح النَّبي ﷺ: ﴿... إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، وهو من الخطاب القرآني بمعناه الأخص؛ لأنَّه جاء مسبوقًا بقوله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ، وفيه أيضًا (كاف الخطاب) في قوله ﷻ: ﴿أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ .

ومدح النَّبي ﷺ والمؤمنين في قول الله ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله ﷻ: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقد عُلم من أيِّ قسم من أقسام الخطاب القرآني هو...

❊ ❊ ❊

المطلب الثَّاني: خطاب الذَّم

ويتضمَّن:

أ. تعريفُ الذَّم.

ب. أفعالُ الذَّم.

ج. ما يُلْحَقُ بأفعالِ الذَّم.

د. صلةُ خطاب الذَّم بموضوع البحث.

هـ. خطابُ الذَّم من حيث معناه الأخص.

وبيان ذلك على النَّحو التَّالي:

● أ. تعريف الذَّم . . .

جاء في (المغرب) أنَّ «(الذَّم): اللَّوم، وهو خلاف المدح أو الحمد يقال: (ذممته) وهو (ذميم) غير حميد، ومنه (الذَّمة) -بالفتح-: البئرُ القليلة الماء؛ لأنَّها مذمومةٌ بذلك . . .»[١].

والحاصل أنَّه يقال فيه عكس ما قيل في (خطاب المدح) من حيث المعنى.. ويقال فيه ما قيل في (خطاب المدح) من حيث تحديد المصطلحات..

● ب. أفعال الذَّم . . .

أمَّا أفعال الذَّم فإنها ما وضع؛ لإنشاء الذَّم نحو: (بئس)[٢].

وأفعالُ الذمِّ هي: (بئس)، و(ساء) و(لا حبَّذا) والأفعال المحوَّلة إلى (فَعُل) كـ: (خَبُثَ).

وهي أفعالٌ لإنشاءِ الذَّم، فجُملها إنشائيَّةٌ غير طلبيَّة، لا خبريَّة، ولا بُدَّ لها من مخصوصٍ بالذَّم.

فإذا قيل: (بئس الرَّجل زيد) فالمخصوص بالذَّم هو (زيد). وهي غير محتاجة إلى التَّصرف، للزومها أسلوبًا واحدًا في التَّعبير؛ لأنها تدلُّ على الحدث المتطلِّب للزَّمان، حتَّى لا تحتاج إلى التَّصرف بحسب

(١) المغرب، الذَّال مع الميم، مادَّة: (ذمم) (١/ ٣٠٧)، لسان العرب (١٢/ ٢٢٠)، تاج العروس، مادَّة: (ذأم) (٣٢/ ٢٠٥)، تهذيبُ اللُّغة، مادَّة: (ذمَّ) (١٤/ ٢٩٩)، مقاييس اللُّغة (٢/ ٣٤٥).

(٢) انظر: التَّعريفات، التَّعريف بالأفعال (١/ ٤٩)، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، التَّعريف بالأفعال (١/ ٨٠).

الأزمنة. فمعنى المدح والذَّم لا يختلف باختلاف الزَّمان[(١)].

و«(بِئْسَ) كلمةُ ذَمٍّ، وهي ضد (نِعْم)، تقول: (بِئْسَ الرجل زيد)، و(بئست المرأة هند). وهُمَا فعْلان ماضيان لا يَتَصَرّفان؛ لأَنهما أُزِيلا عن موضعهما، (فنِعْمَ) مَنْقُول من قولك: (نَعِمَ فلانٌ) إذا أصاب نِعْمة. و(بِئس) منقول من: (بَئِسَ فلان) إذا أصاب بُؤسًا، فنُقلا إلى المَدْح والذمِّ فَشَابَها الحروف فلم يتَصرَّفا..، وقوله ﷻ: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ [هود:٣٦]، أي: لا تَحْزَنْ ولا تشْتَك، و(المبْتَئِس): الكارِهُ والحَزِين، و(البَأْساء): الشدَّة والبُؤْسَى ضِدّ النُّعمَى»[(٢)].

أمَّا ورود (بِئْسَ) في الخطاب القرآني فهو على النَّحو التَّالي:

قوله ﷻ: ﴿بِئْسَ﴾ جاء على (ثمانية) أحرف:

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة:٩٠].

﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ [البقرة:٩٣].

﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ [الأعراف:١٥٠].

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود:٩٩].

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩].

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠].

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١١].

---

(١) انظر: جامع الدُّروس العربيَّة (١/ من٧٧ إلى٨٥).

(٢) مختار الصِّحاح، مادَّة: (بأس) (ص:٧٣)، وانظر مادَّة: (بأس) في كلٍ من: (الصِّحاح)، للجوهريِّ (٣/ ٩٠٧)، و(لسان العرب) (٦/ ٢٠)، الفريد (١/ ٣٣٦-٣٣٧).

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ [الجمعة: ٥][١].

أمَّا قوله عَجَلَّ: ﴿وَبِئْسَ﴾ ففي (خمسة عشر) موضعًا:

منها (تسعة):

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ، وهي [البقرة: ١٢٦]، [آل عمران: ١٦٢]، [الأنفال: ١٦]، [التَّوبة: ٧٣]، [الحج: ٧٢]، [الحديد: ١٥]، [التَّغابن: ١٠]، [التَّحريم: ٩]، [الملك: ٦].

و(ثلاثة): ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ ، وهي [آل عمران: ١٢]، [آل عمران: ١٩٧]، [الرَّعد: ١٨].

و(موضع): ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

و(موضع): ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

و(موضع): ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٩][٢].

أمَّا قوله عَجَلَّ: (**فَبِئْسَ**) (فسبعة) أحرف:

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [ص: ٥٦]، ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [ص: ٦٠]، ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢]،

---

(١) وذلك موافق لما ذكره ابن الجوزي في (فنون الأفنان) (ص: ٤٠٠-٤٠١)، وفي (عجائب علوم القرآن) (ص: ١٨٤).

(٢) ومما تجدر الإشارة إليه هنا أنَّ ابن الجوزي في كتابه (فنون الأفنان في عيون علوم القرآن) (ص: ٤٠٢-٤٠٣) قد فاته أن يذكر قول الله عز وجل: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١]، ولم يتنبَّه المحقِّق إلى ذلك، كما فات ابن الجوزي أيضًا ذلك في كتابه (عجائب علوم القرآن)، وبذكر قوله عز وجل: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تكون المواضع (خمسة عشر) موضعًا كما ذَكَرَ.

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر:٧٦]، ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨]، ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة:٨](١).

أمَّا قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَبِئْسَ﴾ (فخمسة) أحرف:

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٢]، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:٦٣]، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٩]، ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [المائدة:٨٠]، ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ [الحج:١٣](٢).

أمَّا قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَبِئْسَ﴾ (فأربعة) أحرف:

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة:١٠٢]، ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة:٢٠٦]، ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج:١٣]، ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور:٥٧](٣).

أمَّا قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بِئْسَمَا﴾ (فتسعة) مواضع:

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة:٩٠]، ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ [البقرة:٩٣]، ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧]، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٢]، ﴿لَبِئْسَ مَا

(١) وذلك موافقٌ لما ذكره ابنُ الجوزيِّ في (فنون الأفنان) (ص:٤٠٢)، وفي (عجائب علوم القرآن) (ص:١٨٦-١٨٧).

(٢) وذلك موافقٌ لما ذكره ابنُ الجوزيِّ في (فنون الأفنان) (ص:٤٠٣)، وفي (عجائب علوم القرآن) (ص:١٨٨).

(٣) وذلك موافقٌ لما ذكره ابن الجوزيِّ في (فنون الأفنان) (ص:٤٠٣)، وفي (عجائب علوم القرآن) (ص:١٨٨).

﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢]، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣]، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]، ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [المائدة: ٨٠]، ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ [الأعراف: ١٥٠] .

وقد سبق أنهما -أي: (نعم وبئس)- فعلان جامدان لا يتصرَّفان فلا يستعمل منهما غير الماضي، ولا بدَّ لهما من مرفوع، وهو الفاعل، ويستعملان في المدح على سبيل المبالغة، وفاعله يكون أحد الأشياء التَّالية:

١ - اسم ظاهر معرَّف بأل الجنسية نحو: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٣].

٢ - أن يكون مضافًا إلى ما فيه (أل)، قال الله ﷻ: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

٣ - أن يكون مضمرًا مفسَّرًا بنكرة منصوبة على التَّمييز، نحو: ﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

٤ - تقع (ما) بعد (بئس) -كما سبق -.

● **ج. ما يلحق بأفعال الذَّم...**

١- **ما يلحق ببئس:**

- **(سَاءَ):**

﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١]، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٧]، ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩]، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩]، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٥]، ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢].

- **(وساء):**

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ١٠١].

- **(فساء):**

﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨]، ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣]، ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨]، ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧].

أمَّا **(سَاءَت)** ففي المواضع التَّالية:

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ

وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٦].

- **(وَساءَتْ)**:

﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

- **وأمَّا (سيئت)** ففي قول الله ﷻ:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧].

أمَّا (**سَاء**) فتستعمل استعمال (بئس)، فلا يكون فاعلها إلا ما يكون فاعلًا لبئس، وهو:

أ. المحلَّى بالألف واللام، نحو: (ساء الرَّجلُ زيدٌ).

ب. المضاف إلى ما فيه الألف واللَّام، نحو: (ساء غلام القوم زيد).

ج. المضمر المفسَّر بنكرة بعده، نحو: (ساء رجلًا زيد)، ومنه قوله ﷻ: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، ويذكر بعدها المخصوص بالذَّم كما يذكر بعد (بئس)[1].

ومن حقِّ المخصوص أن يجانس الفاعل، وقوله ﷻ: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ على حذف المضاف، أي: (ساء مثلًا مثل القوم)، ونحوه قوله ﷻ: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾، أي: (مثل

(١) انظر: شرح ابن عقيل (٢/ ١٦٨)، وانظر: المفصَّل في صنعة الإعراب (١/ ٣٦٢)، الجُمَل في النَّحو (١/ ٩٧)، مغني اللَّبيب (ص: ٦٣٥)، اللُّباب في علل الإعراب والبناء (١/ ١٨٦).

الذين كذَّبوا)..[١]..

وفي (الألفيَّة):

(وَاجْعَل كَبِئْسَ سَاء وَاجْعَل فَعُلَا مِنْ ذِي ثَلَاثَةٍ كَنِعْمَ مُسْجَلَا)[٢].

وقد جاء في تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه:١٠١]..

(ساء) في حكم (بئس). والضَّمير الَّذي فيه يجب أن يكون مبهمًا يفسره: ﴿حَمْلًا﴾، والمخصوص بالذَّم محذوف لدلالة الوزر السَّابق عليه، تقديره: (ساء حملًا وزرهم)، كما حذف في قوله ﷻ: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤]، وأيوب عليه السلام هو المخصوص بالمدح.

ومنه قوله ﷻ: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:٩٧]، أي: (وساءت مصيرًا جهنم)[٣].

وفي (التَّحرير والتَّنوير) تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه:١٠١]: «(سَاء) هنا هو أحد أفعال الذَّم مثل: (بئس). وفاعل (ساء) ضمير مستتر مُبهم يفسِّره التَّمييز الَّذي بعده وهو (حِملًا). و(الحِمل): -بكسر الحاء- اسم بمعنى (المحمول)، كالذِّبح بمعنى

---

(١) انظر: المفصَّل في صنعة الإعراب (١/ ٣٦٤).

(٢) ألفيَّة ابن مالك، (نِعْمَ وَبِئْسَ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا) (ص:٣٩).

(٣) انظر: الكشاف (٢ / ٥٥٢)، تفسير أبي السُّعود (٦/ ٤١)، تفسير النَّيسابوري (٤/ ٥٧٠)، تفسير البيضاوي (٤ / ٦٩)، البحر المديد (٤/ ٣٠٤).

المذبوح. والمخصوص بالذَّم محذوف لدلالة لفظ (وِزرًا) عليه. والتَّقدير: (وساء لهم حملًا وِزرهم)، وحذف المخصوص في أفعال المدح والذَّم شائع كقوله ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ [ص:٣٠]، أي: سليمان عليه السلام هو الأوَّاب. واللَّام في قوله ﷻ: ﴿وَسَآءَ لَهُمْ﴾: (لام التَّبيين)، وهي مبيِّنة للمفعول في المعنى؛ لأنَّ أصل الكلام: (ساءهم الحِمل)، فجيء باللَّام لزيادة تبيين تعلق الذَّم بحمله، فاللَّام لبيان الَّذين تعلَّق بهم سوء الحِمل(١).

وقد جاء في تفسير قوله ﷻ: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء:١٧٣]، أي: (بئس مطر من أنذر فلم يؤمن)، ولم يرد بالمنذرين قومًا بأعيانهم، فإنَّ شرط أفعال المدح والذَّم أن يكون فاعلها معرَّفًا بلام الجنس أو يكون مضافًا إلى المعرَّف به أو مضمرًا مميَّزًا بنكرة، والمخصوص بالذَّم محذوف، وهو مطرهم(٢).

وفي تفسير قوله ﷻ: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات:١٧٧]، أي: (فبئس صباح المنذرين صباحهم)، أي: صباح من أنذر بالعذاب وكذَّبه فلم يؤمن. واللَّام للجنس، فإنَّ أفعال المدح والذَّم تقتضى الشُّيوع والإبهام والتَّفصيل، فلا يجوز أن تكون للعهد(٣).

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (١٦/ ٣٠٣)، وانظر: روح المعاني (١٦/ ٢٥٩).
(٢) انظر: الكشاف (٣/ ١٢٦)، وانظر: تفسير أبي السُّعود (٦/ ٢٦١)، روح المعاني (١٩/ ١١٧)، السِّراج المنير (٣/ ٧٠)، النَّسفي (٣/ ١٨٥).
(٣) انظر: تفسير السَّمرقندي (٣/ ١٢٦) .

٢ - ما جرى مجرى (بئس) في الخطاب القرآني -(خَبُثَ) و(كَبُرَ)-:

سبق بيان أنَّ كلَّ فعل ثلاثي يجوز أن يبنى منه فِعْلٌ على (فَعُلَ)؛ لقصد المدح أو الذَّم، ويعامل معاملة (نعم وبئس) في جميع ما تقدم كـ (خَبُثَ) و(كَبُرَ).

أما (خَبُثَ) ففي موضع واحد:

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف:٥٨].

وفي (روح المعاني) «والتَّعبير أوَّلا بالطَّيب، وثانيًا بالذي خَبُثَ دون الخبيث؛ للإيذان بأنَّ أصل الأرض أن تكون طيِّبة منبتة، وخلافه طارئ عارض»[١].

أقول: وهذا من المعاني الدَّقيقة التي تنبَّه إليها الآلوسي -رحمه الله- في تفسيره ونبَّه إليها؛ لأنَّ (خَبُثَ) من الأفعال المحوَّلة إلى (فَعُلَ)..، والتحويل لغة ومعنى.

وأمَّا (كَبُرَ) ففي خمسة مواضع:

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ [الأنعام:٣٥]، ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس:٧١]، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ﴾ [غافر:٣٥]، ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الشورى:١٣]، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف:٣].

---

(١) روح المعاني (٨/ ١٤٧).

أمَّا (كَبُرَت) ففي موضع واحد:

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥].

- **د. صلةُ خطابِ الذَّم بموضوعِ البحث...**

أمَّا صلة (خطاب الذَّم) بموضوع البحث فيقال فيه ما قيل في (خطاب المدح)..

- **هـ. خطابُ الذَّم من حيثُ معناه الأخص...**

وأنتقل بعد ذلك إلى الخطاب القرآني فيما يتعلق بالذَّم بصيغة من صيغ الخطاب المباشر..، أعني: الخطاب من حيث معناه الأخص.. يقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ [التحريم: ٧]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١] -وسيأتي في (النِّداء) بيان المعنى مفصَّلًا، وبيان أنَّه نداء تنبيه وذمٍّ- وما يعنينا هنا أنَّ وجه الذَّم ظاهر من وصفهم بأقبح صفة، وهي صفة الكفر التي فيها معنى الإهانة، والَّتي تدلُّ على الجحود والنُّكران؛ فإنَّ (الكُفْر) ضد الإيمان، وقد كفر بالله ﷻ من باب (نَصَرَ)، وجمعُ (الكافِر): كُفَّار، وكَفَرةٌ، وكِفَار -بالكسر مُخَفَّفًا- كجائع وجِيَاع، ونائِم ونِيام. وجَمْع (الكافِرة): كَوَافِرُ. و(الكُفْر) أيضًا: جُحُود النِّعْمة، وهو ضدّ الشُّكْر. و(رجل كافِر): جاحِدٌ لأنْعُم الله ﷻ[1].

---

(١) انظر: الصِّحاح، للجوهريِّ، مادَّة: (كفر) (٢/ ٨٠٧)، مختار الصِّحاح (ص: ٥٨٦)، القرطبي (١/ ١٨٣).

«ولتضمُّنه الإهانة لم يقع في القرآن في غير هذين الموضعين، وكثر الخطاب بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [البقرة: ١٠٤] على المواجهة، وفي جانب الكفَّار على الغيبة إعراضًا عنهم كقوله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال: ٣٨]. ثم قال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩]، فواجه بالخطاب المؤمنين، وأعرض بالخطاب عن الكافرين؛ ولهذا كان ﷺ إذا عتب على قوم قال: «**ما بالُ رجالٍ يفعلونَ كذا**»(١)، فكنَّى عنه تكرمًا، وعبَّر عنهم بلفظ الغيبة»(٢). وقد كان خلق النَّبي ﷺ القرآن(٣).

- **و. خاتمة في إبراز النَّتائج...**

ويتبيَّن ممَّا سبق..

أنَّ مدح المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- والمعني هنا الله ﷻ سواء كان من المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- نفسه أم كان من المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- فإنَّه يدلُّ على مكانة المخاطِب-بكسر الطاء المهملة- وصفاته الدَّالَّة على عظمته..وتقع من المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- بقصد الثَّناء ووصف المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- بما هو أهله بقصد التَّقرب إليه بعباداتٍ مشروعة: هي ذكره بهذه

(١) انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري [٤٣٦].

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٣٠)، وانظر: الإتقان (٢/ ٨٩) .

(٣) أخرجه مسلم [١٢٣٣].

الصِّفات الَّتي تدلُّ على الكمال، وتنـزِّهه عن النَّقائص..

ويقع المدح على المكانة أو العاقبة كقوله ﷻ: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ [الكهف:٣١]، وهو في الحقيقة مدحٌ للفعلِ الموصل إلى ذلك الثَّواب.

أمَّا من المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- للإنسان فهو المدح على الحقيقة الَّذي يدلُّ على حسن العاقبة، والأمان من العذاب..

وقد يكون للدِّلالة على التَّميُّزِ واختصاص الممدوح بصفاتٍ تؤهِّله؛ ليكون قدوةً وأسوةً لغيره كمدح رسول من الرُّسل-عليهم الصَّلاة والسَّلام-، أو كمدح نساء النَّبي ﷺ، رضي الله عنهنَّ.

أمَّا مدح الفعل فهو من أساليب التَّرغيب والتَّحفيز للاستقامة والتَّمسك بما كان سببًا لذلك المدح، وأن لا يكون كالَّتي نقضت غزلها من بعد قوَّة...أو محفِّزًا لغيره حتَّى يسيرَ على النَّهج نفسه، فيستحق ذلك المدح..

وفي مقابل ذلك كلِّه الذَّم حيث يقالُ فيه عكس ما قيل في خطاب المدح...وفيه الموعظة والاعتبار لأولي الألباب...

❊ ❊ ❊

المبحث السَّابع

ما يتعلَّق ببيان عجز المخاطَب عن الإتيان بمثل ما خوطب به، ودحض تكذيبه

وفيه مطلبان:

الأوَّل: خطابُ التَّحدي والتَّعجيز:

ويتضمَّن:

أ. التَّعريف بالتَّعجيز والتَّحدي.

ب. بيان ما يتحقَّق به الإعجاز.

ج. الآيات الَّتي تدلُّ على التَّعجيز.

د. التَّحضيض الذي يكون بمعنى التَّعجيز.

هـ. التَّعجيز في بعض ما يخاطب به المرسلون من أقوامهم.

و. ما يدلُّ بمادَّته على التَّعجيز.

ز. النَّتائج..

المطلبُ الثَّاني: خطاب التَّكذيب:

ويتضمَّن:

أ. بيان مادَّة: (كذب).

ب. ثانيا: خطاب من كذَّب.

ج. ما كان من الخطاب القرآني وصفًا لحال المكذِّبين، وبيانًا لعاقبتهم.

د. ما كان من خطاب المكذِّبين أنفسهم.

وبيان ذلك على النَّحو التَّالي:

المطلب الأوَّل: خطابُ التَّحدي والتَّعجيز

ويتضمَّن:

- **أ. التَّعريف بالتَّعجيز والتَّحدي**

ولا بدَّ في بداية البحث أن أرجع إلى أصل كلمة (التَّعجيز)، وذلك ليعلم القصد من هذا اللَّون من ألوان الخطاب، وهل ثمَّة فرق بين أن تطلق على هذا اللَّون: (خطاب التَّعجيز)، وبين أن تطلق عليه: (خطاب التَّحدي)؟ يتبيَّن ذلك بالرُّجوع إلى أصل كلمة (التَّعجيز)، وإلى أقوال المفسِّرين، والباحثين في علوم القرآن.

فإنَّ (الإعجاز) في اللُّغة العربيَّة هو: نسبة العجز إلى الغير[1]، قال ﷻ: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٣١]. وتسمَّى المعجزة بهذا الاسم؛ لأنَّ البشر يعجزون عن الإتيانِ بمثلها؛ لأنَّها أمرٌ خارقٌ للعادة، خارجٌ عن حدود الأسباب المعروفة، وإعجاز القرآن معناه: إثبات عجز البشر متفرِّقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله، وليس المقصود من (إعجاز القرآن): تعجيز البشر لذات التَّعجيز، أي: تعريفهم بعجزهم عن الإتيان بمثل

---

(١) انظر: لسان العرب، مادَّة: (عجز) (٥/ ٣٦٩)، وكذلك في (الصِّحاح)، للجوهريِّ (٣/ ٨٨٣).

القرآن؛ فإنَّ ذلك معلومٌ لدى كلِّ عاقل، وإنَّما الغرض: إظهار أنَّ هذا الكتاب حقٌّ، وأنَّ الرَّسول الَّذي جاء به رسول صادق، وإثبات أنَّ ما جاء به الرُّسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام- إنما هو بوحي من الله ﷻ، فالمعجزات براهين من الله ﷻ إلى عباده بصدق رسله وأنبيائه -عليهم الصَّلاة والسَّلام-[(١)].

يقال: (أعجزه الشَّيء): عجز عنه. وقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥١﴾ [الحج: ٥١]، معناه: ظانِّين أنَّهم يعجزوننا؛ لأنَّهم ظنُّوا أنَّهم لا يبعثون، ولا جنَّة ولا نار. وقيل في التَّفسير: معاجزين: معاندين. وفي التَّنزيل: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [العنكبوت: ٢٢] وانظر: [الشورى: ٣١]. قيل معناه: ما أنتم بمعجزين في الأرض، ولا أهل السَّماء بمعجزين. وقيل: معناه: وما أنتم بمُعجزين في الأرض، ولا لو كنتم في السَّماء، وليس يُعْجِز الله ﷻ خلق في السَّماء ولا في الأرض، ولا ملجأ منه إلا إليه[(٢)].[(٣)].

---

(١) انظر: التِّبيان في علوم القرآن، للشَّيخ الصَّابوني (ص: ٩٣)، وانظر: إجابة السَّائل شرح بغية الآمل (١/ ٦٣)، و(البحر المحيط في أصول الفقه) في كلام مطوَّل (١/ ٣٥٧).

(٢) لسان العرب، مادَّة: (عجز) (٥/ ٣٦٩). وينظر: معاني القرآن، للفرَّاء (٢/ ٣١٥)، معاني القرآن، للأخفش (ص: ٥٥٦)، معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٤/ ١٦٥).

(٣) ونحو ما سبق قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ۝٥٩﴾ [الأنفال: ٥٩]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [هود: ٢٠]، ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٥٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ۝٥﴾ [سبأ: ٥]، ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ =

قال الطَّبريُّ في تفسير قول الله ﷿: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢]: «وذلك أنَّ من عجز عن آيات الله ﷿، فقد عاجز الله ﷿، ومن معاجزة الله ﷿: التَّعجيز عن آيات الله ﷿، والعمل بمعاصيه وخلاف أمره، وكان من صفة القوم الَّذين أنزل الله هذه الآيات فيهم أنهم كانوا يبطِّئون النَّاس عن الإيمان بالله ﷿، واتِّباع رسوله ﷺ، ويغالبون رسول الله ﷺ، يحسبون أنَّهم يعجزونه ويغلبونه، وقد ضمن الله ﷿ له نصره عليهم، فكان ذلك معاجزتهم الله ﷿. وأمَّا (المعاجزة) فإنها المفاعلة من العجز، ومعناه: مغالبة اثنين، أحدهما صاحبه أيهما يعجزه فيغلبه الآخر ويقهره. وأمَّا (التعجيز): فإنَّه التَّضعيف، وهو التَّفعيل من العجز»اهـ[1].

والحاصلُ أنَّ معنى (إعجاز القرآن): عجز الإنس والجنِّ عن الإتيان بمثله، فكلمة (إعجاز) مصدر، وإضافتها إلى القرآن من إضافة المصدر إلى فاعله، فكأنَّ التَّقدير: أعجزَ القرآنُ النَّاس عن الإتيان بمثله. والتَّعجيز مشتقٌّ من مادَّة: (عجز)، وهو من النِّسْبَة إلى العَجْزِ. يقال: عَجَّزَ فلانٌ رأْيَ فلان، إذا نسبَه إلى العَجْز. فهو التَّفعيل من العجز. ومُعجِزَة القرآن ما أَعْجَزَ به الخصمَ عند التَّحدِّي. ولكن يبقى النَّظر هل

= ﴿٣٨﴾ [سبأ: ٣٨]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال: ٥٩]. أما قوله عز وجل: ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ انظر: [الأنعام: ١٣٤]، [يونس: ٥٣]، [هود: ٣٣]، [النحل: ٤٦]، [العنكبوت: ٢٢]، [الزمر: ٥١]، [الشورى: ٣١].

(١) تفسير الطَّبري (١٧/ ١٨٦)، وانظر: تفسير القاسمي (٥/ ٢٠٣).

التَّعجيز مقصود لذاته، أم أنَّه لبيان أنَّ القرآن حقٌ، وأنَّ ما جاء به الرَّسول صدقٌ؟ والجواب: لا شكَّ أنَّ التَّعجيز المذكور ليس مقصودًا لذاته، بل المقصود لازمه، وهو إظهار أنَّ هذا الكتاب حقٌّ، وأنَّ ما جاء به الرَّسول صدقٌ..

- **ب. ما يتحقَّق به الإعجاز**

ويتحقَّق الإعجاز إذا تحققت أمور ثلاثة:

«١ - التَّحدي، أي: (طلب المباراة والمعارضة)[١].

٢ - أن يكونَ الدَّافعُ إلى ردِّ التَّحدي قائمًا.

٣ - أن يكونَ المانعُ منتفيًا. وتوضيح ذلك أنَّ هذا القرآن هو المعجزة الكبرى الَّتي تحدَّى الله ﷻ بها النَّاس أجمعين، يأتي به نبيٌّ أميٌّ لا يعرف القراءة والكتابة..، ولم يتَّصل بأحد من علماء أهل الكتاب حتَّى يطلع على أنباء الأمم وأخبار السَّابقين، متحِّديًا أئمّة الفصاحة، وفرسان البلاغة، وطلب منهم معارضة القرآن الكريم بعباراتٍ قويّة، ولهجاتٍ واخزة تستفزُّ العزيمة، وتدفع إلى المباراة. «وأمَّا أسلوب القرآن الكريم في التَّحدي فقد تنـزَّل معهم من التَّحدي بجميع القرآن إلى التَّحدي بعشر سور مثله، ثمَّ إلى التَّحدي بسورة

---

(١) انظر: مقاييس اللُّغة، لابن فارس، مادَّة: (حدا) (٢/ ٣٥)، والعين، مادَّة: (حدو) (٣/ ٢٧٩)، وينظر (خطاب التَّحدي) في (تمهيد الأوائل في تلخيص الدَّلائل)، للباقلانِّي (ص: ١٧١-١٧٢)، وتنظر المعارضة والإعجاز من المصدر نفسه (ص: ١٧٢) فما بعد.

واحدة من مثله، وهم واجمون[١] لا ينبسون ببنت شفة، وهم رغم هذا التَّحدي ينتقلون من عجز إلى عجز..»[٢].

أقول: ومن الملاحظ أنَّ من العلماء من فرَّق من حيثُ التَّمثيل بين (خطاب التَّحدي) و(خطاب التَّعجيز)، ومنهم من لم يفرِّق -كما سيأتي في استعراض أقوال المفسِّرين-. ولعلَّ الفرق بينهما أنَّ (خطاب التَّحدي) في الخطاب القرآني إنَّما يكون في الأمر الَّذي يظنُّ المخاطَب أنَّه ممكن، وذلك إذا كان المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- هو الله ﷻ، فإنَّ المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- قد يظنُّ لأوَّل وهلة أنَّه ممكن؛ لغفلته وذهوله عن الحقائق، والحقيقةُ عكس ما يظنُّ، فيتيقَّن بعد ذلك أنَّه لا يدخل في حيِّز الإمكان، فآل الأمر في ذلك إلى

---

(١) (وَجَمَ) من الأمر (يَجِمُ) (وُجُومًا) أمسك عنه و هو كارهُ. انظر: المصباح المنير، مادَّة: (وَجَمَ) (٢/ ٦٤٩).

(٢) بتصرُّفٍ عن (التِّبيان في علوم القرآن) (ص:٩٣-٩٤). أمَّا آيات التَّحدي فهي على النَّحو التَّالي: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨]، ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور:٣٤]، ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص:٤٩]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود:١٣]، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة:٢٣]. وينظر في ذلك ما كتبه الشَّيخ الصَّابوني في (التِّبيان) من (ص:٨٩) فما بعد. والحاصل أنَّ قوله عز وجل: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ ونحوه أمر معناه التَّعجيز؛ لأنَّه عز وجل علم عجزهم عنه. انظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٣٢).

التَّعجيز؛ فإنَّ التَّعجيز يكون في غير الممكن. ومن العلماء من يطلق أحد الأمرين على الآخر -كما سيأتي- وهو إطلاق صحيح في الخطاب القرآني إذا كان المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- الله ﷻ، فهو عالم أنَّ المتَّحدَّى به أعظم من أن يعارضه المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- أو المتحَدَّى.

ولم أجدْ من الباحثينَ من فرَّق مثل هذا التَّفريق إلا من حيثُ التَّمثيل..مع أنَّ ذلك له من الأهميَّة ما لا يخفى..وبذلك أكون قد أجبت عن سؤال مهمٍّ، وله من الصِّلة القويَّة بما نحن بصدد بيانه، وهو: لماذا هذا التَّفريق في التَّمثيل من البعض بين (خطاب التَّحدي) و(خطاب التَّعجيز)، بينما لا نجدُ تعليل ذلك واضحًا في كلام المفسِّرين والباحثين؟؟؟

وقد مثَّلوا للام التحدِّي بقوله ﷻ: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور:٣٤]، وللام التَّعجيز بقوله ﷻ: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ [ص:١٠][(١)].

وقد يطلق أحدهما على الآخر كما في نحو قوله ﷻ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣]. والنَّظر إلى ذلك من حيث ما فيه التَّعجيز، بأنَّه ليس المراد طلب إتيانهم بسورة مثله، لكونه محالًا، وإنما المراد: إظهار عجزهم..[(٢)].

---

(١) انظر: بصائر ذوي التَّمييز في لطائف الكتاب العزيز (٦/٣). ينظر (تفسير الرَّازي) في التَّعجيز في قوله عز وجل: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (٢٨/٢٥٧-٢٥٨).

(٢) ينظر: شروح تلخيص المفتاح (٢/٣١٤-٣١٥).

• ج. الآيات الَّتي تدلُّ على التَّعجيز

وأنتقل هنا على بيان الآيات التي تدلُّ على التَّعجيز. فمن ذلك ما قيل في حروف التَّهجِّي المقطَّعة في القرآن الكريم.

وذلك كقوله ﷻ:

﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: ١] .قال في (التَّحرير والتَّنوير) في تفسيره لأوَّل آية من (سورة العنكبوت): «واعلم أنَّ التَّهجي المقصود به التَّعجيز يأتي في كثيرٍ من سور القرآن، وليس يلزم أن يقع ذكرُ القرآن أو الكتاب بعد تلك الحروف، وإن كان ذلك هو الغالب في سور القرآن ما عدا ثلاثَ سور، وهي فاتحة (سورة مريم)، وفاتحة هذه السُّورة، وفاتحة (سورة الرُّوم). على أنَّ هذه السُّورة لم تخْلُ من إشارة إلى التَّحدِّي بإعجاز القرآن لقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]»[(١)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٣١]. فإنَّ الأمر في قوله ﷻ: ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ «أمر تعجيز بقرينة كون المأمور يعلم أنَّ الآمر عالم بذلك، فليس هذا من التَّكليف بالمحال كما ظنَّه بعض المفسِّرين[(٢)]. واستعمال

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢/ ٢٠٢).

(٢) «خطاب التَّعجيز جائز، وهو الأمرُ بإتيان الشَّيء ولم يكن إتيانه مرادًا، ليظهر عجز المخاطب، وإن كان ذلك محالاً كالأمر بإحياء الصُّورة الَّتي يفعلها المصوِّرون يوم القيامة؛ ليظهر عجزهم، ويحصل لهم النَّدم ولا ينفعهم النَّدم». روح البيان (١/ ٩٢)

صيغة الأمر في التَّعجيز مجاز، ثمَّ إنَّ ذلك المعنى المجازي يستلزم علم الآمر بعجز المأمور، وذلك يستلزم علم الآمر بالمأمور به»[1].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة: ٩٤]، ونحوه قوله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [الجمعة: ٦]، فقوله ﷻ: ﴿فَتَمَنَّوُا۟﴾ مستعمل في التَّعجيز كناية عن التَّكذيب مثل قوله ﷻ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣][2].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [البقرة: ١٣٧]. من باب التَّعجيز والتَّبكيت، كقوله ﷻ: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]؛ إذ لا مثل لما آمن به المسلمون، ولا دين كدين الإسلام[3]. وقد علم أنَّه لا حيلة لهم في رفع البلاء عن أنفسهم يومئذٍ كما كانوا يحتالون في الدُّنيا يؤذون بذلك أنبياء الله ﷻ وأولياءه، وهذا التَّعجيز والتَّخجيل من جنس العذاب[4].

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (١/ ٤١٢)، وينظر: تفسير ابن جزي (١/ ٤٤).

(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٨/ ٢١٦)، المحرَّر الوجيز (٥/ ٣٠٨)، تفسير الثَّعالبي (٤/ ٢٩٩).

(٣) انظر: تفسير البيضاوي (١/ ٤١١)، روح المعاني (١/ ٣٩٦).

(٤) انظر: غرائب القرآن (١/ ٤)، تفسير أبي السُّعود (١/ ٦٤)، (١/ ١٦٧)، السِّراج المنير (١/ ١٠٩)، تفسير القرطبي (١/ ٢٣٢)، فتح القدير (١/ ٨٣)، التَّحرير التَّنوير (١/ ٢٠٣)، (١/ ٣٣٨)، (٢٧/ ٧٣).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨][١].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، أي: أحضروا شهداءكم وقرِّبوهم، وإضافة الشُّهداء إليهم تدلُّ على أنهم غيرهم، وهذا أمر على سبيل التَّعجيز، أي: لا يوجد من يشهد بذلك شهادة حقٍّ؛ لأنها دعوى كاذبة[٢].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف: ١٩٤] هي أيضًا هنا (لام التَّعجيز)، أي: فاختبروهم بدعائكم هل يقع منهم إجابة أو لا يقع؟ والأمر بالاستجابة هو على سبيل التَّعجيز، أي: لا يمكن أن يجيبوا[٣].

---

(١) انظر: تفسير السرَّاج المنير (٤/ ١١١)، تفسير الرَّازي (٢٨/ ١٩٨)، تفسير ابن عادل (١٤/ ٤٢٧)، التَّحرير والتَّنوير (٢٧/ ٦٧).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٤٩)، وانظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٥١)، المنار (٨/ ١٦٠).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ٤٤١)، تفسير الرَّازي (١٥/ ٩٢) التَّحرير والتَّنوير (٩/ ٢٢١)، تفسير ابن عادل (٩/ ٤٢٧)، وانظر: زهرة التَّفاسير (ص: ١٣٠٣٥).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف: ١٩٥]. «تأكيد لما تضمَّنته الجملة قبلها من أمر التَّعجيز وثبوت العجز؛ لأنَّه إذا انتفت عن الأصنام أسباب الاستجابة تحقَّق عجزها عن الإجابة، وتأكد معنى أمر التَّعجيز المكنى به عن عجز الأصنام، وعجز عبدتها»(١).

ومن ذلك ما كان نحو قوله ﷻ:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١](٢).

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٩/ ٢٢٢)، وانظر: تفسير الرَّازي (١٥/ ٩٢-٩٣)، تفسير ابن جزي (٢/ ٥٨).

(٢) وأمَّا النَّظائر في ذلك فهي على النَّحو التَّالي: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١]، ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ٣٥]، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١]، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا =

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]. فقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ، أي: لا تُؤَخِّرون، وهذا على طريق التَّعجيز، أخبر الله ﷻ عن نوح عليه السلام أنَّه كان واثقًا بنصر الله ﷻ غير خائف من كيد قومه، علمًا منه بأنهم وآلهتهم ليس إليهم نفع ولا ضر إلَّا أن يشاء الله ﷻ(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ [هود: ٥٥-٥٦]. فإن الأمر بـ ﴿فَكِيدُونِي﴾ مستعملٌ في الإباحة كناية عن التَّعجيز بالنِّسبة للأصنام وبالنِّسبة لقومه، كقوله ﷻ: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ۝٣٩﴾ [المرسلات: ٣٩]، و﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتبيّ، تحدَّاهم بأن يكيدوه، ثمَّ ارتقى في رتبة التَّعجيز والاحتقار، فنهاهم عن التَّأخير بكيدهم إيَّاه،

= بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٣﴾ [النمل: ٦٣]، ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٦٤﴾ [النمل: ٦٤]، ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ۝٢٠ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ۝٢١ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٢٢﴾ [الملك: ٢٠-٢٢]. وينظر من أقوال المفسِّرين في ذلك. وينظر في ذلك: (التَّحرير والتَّنوير) (٢٠ /١٨)، (٢٢/١٩٦)، (٢٩/ ٤١)، (٢٩/ ٤٤)، أضواء البيان (٣/ ٤١٩)، (٧/ ٢١٣)..

(١) انظر: تفسير البغوي (٢/ ٣٦٢)، تفسير الخازن (٣/ ٢٠١)، تفسير السَّمعاني (٢/ ٣٩٦).

وذلك نهاية الاستخفاف بأصنامهم وبهم، وكناية عن كونهم لا يصلون إلى ذلك. وجملة: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ﴾ تعليل لمضمون ﴿فَكِيدُونِي﴾ ، وهو التَّعجيز والاحتقار. يعني أنَّه واثق بعجزهم عن كيده؛ لأنَّه متوكِّلٌ على الله عز وجل، فهذا معنى ديني قديم[1].

وممَّا قيل في قوله عز وجل:

﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ [الإسراء: ٥٠-٥١]، أي: قل لهم يا محمَّد: كونوا على جهة التَّعجيز حجارةً أو حديدًا في الشِّدة والقوَّة[2]، أي: إن عجبتم من إنشاء الله عز وجل لكم عظامًا ولحمًا فكونوا أنتم حجارةً أو حديدًا إن قدرتم[3].

وقد ردَّ ابنُ عطيَّة بأنَّ التَّعجيز يكون حيث يقتضي بالأمر فعل ما لا يقدر عليه المخاطَب، وإنما معنى الآية: كونوا بالتَّوهم والتَّقدير[4].

---

(١) بقليل من التَّصرف عن (التَّحرير والتَّنوير) (١٢/ ١٠٠)، وانظر: تفسير ابن جزي (٢/ ١٠٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٠/ ٢٧٤)، وانظر أيضًا: تفسير القرطبي (١/ ٤٢٩)، روح المعاني (٢٠/ ٩٠).

(٣) تفسير الطَّبري (١٥/ ٩٨)، النُّكت والعيون (٣/ ٢٤٧)، القرطبي (١٠/ ٢٧٤)، فتح القدير (٣/ ٣٣٦).

(٤) المحرَّر الوجيز (٣/ ٤٦٢). وانظر: البرهان في أصول الفقه (٢/ ٢٥١)، البحر المحيط في أصول الفقه (٢/ ٩٥). ويكون المعنى -كما سيأتي- قدِّروا أو هبوا أو استشعروا أنفسكم حجارة أو حديدًا أو ما شئتم، فإنَّ الَّذي فطركم كذلك قادر على أن يعيدكم، بل هو أسهل =

وفي (البحر) «هو الَّذي يسمِّيه المتكلِّمون التَّعجيز من أنواع (أفعل)، وبهذه الآية مثَّلَ بعضهم. وفي هذا عندي نظر؛ وإنما التَّعجيز حيث يقتضي بالأمر فعل ما لا يقدر عليه المخاطَب كقوله ﷻ: ﴿فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [آل عمران:١٦٨] ونحوه. وأمَّا هذه الآية فمعناها: كونوا بالتَّوهم والتَّقدير كذا وكذا. [فإنَّ] ﴿ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ﴾ [الإسراء:٥١] كذلك هو يعيدكم»[(١)]. وقال مجاهد: المعنى: ﴿كُونُواْ﴾ ما شئتم فستعادون[(٢)]. وقال النَّحاس: هذا قول حسن؛ لأنَّهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة، وإنَّما المعنى أنَّهم قد أقرُّوا بخالقهم، وأنكروا البعث فقيل لهم: استشعروا أن تكونوا ما شئتم، فلو كنتم حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا لبعثتم كما خلقتم أوَّل مرَّة[(٣)]. وقد بيَّن ذلك ابنُ جزي في (تفسيره) المعنى بيانًا واضحًا حيث قال: قوله ﷻ: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠﴾. «المعنى: لو كنتم حجارة أو حديدًا لقدرنا على بعثكم وإحيائكم، مع أنَّ الحجارة والحديد أصلبُ الأشياء وأبعدها عن الرُّطوبة الَّتي في الحياة، فأولى وأحرى أن يبعث أجسادكم ويحيي

= عليه في مقاييسكم البشريَّة..نظرًا إلى أنَّ الإعادة أسهل من البداية. ولكن الأمور كلها متساوية عند الله عز وجل؛ فإنَّ كلَّ شيءٍ على الله عز وجل يسير، وقد قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم:٢٧]، وقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٥﴾ [ق:١٥]. في كلام ابن جزي -الَّذي سيأتي- بيان وتوضيح أيَّما توضيح.

(١) البحر المحيط (٦/ ٤٤).

(٢) انظر: تفسير مجاهد (١/ ٣٦٣)، القرطبي (١٠/ ٢٧٤)، البحر المحيط (٦/ ٣١)، (٦/ ٤٤).

(٣) معاني القرآن، للنَّحاس (٤/ ١٦٣).

عظامكم البالية، فذكر الحجارة والحديد، تنبيهًا بهما على ما هو أسهل في الحياة منهما، ومعنى قوله: ﴿كُونُواْ﴾ ، أي: كونوا في الوهم والتَّقدير، وليس المراد به التَّعجيز كما قال بعضهم في ذلك .﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء:٥١]. قيل: يعني السَّموات والأرض والجبال، وقيل: بل أحال على فكرتهم عمومًا في كلِّ ما هو كبير عندهم، أي: لو كنتم حجارة أو حديدًا أو شيئًا أكبر عندكم من ذلك وأبعد عن الحياة لقدرنا على بعثكم ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ ، أي: يحرِّكونها تحريك المستبعد للشَّيء والمستهزئ، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ ، أي: متى يكون البعث؟»[١].

ومن ذلك ما قيل[٢] في قوله ﷻ:

﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥]، وانظر: [الأعراف:١٦٦]، ولكن قيل: إنَّ الأولى أن يراد بها: التَّسخير والتَّكوين كما ذكر ذلك غير واحد[٣]. وحاصلُ ما قيل في (**الفرق بين التَّعجيز والتَّسخير**): أنَّ

(١) تفسير ابن جزي (٢/ ١٧٣).

(٢) انظر: البرهان في أصول الفقه، للزَّركشيِّ (١/ ١٧٥)، (١/ ٢١٧).

(٣) انظر: المختصر (ص:٩٨)، المدخل (ص:٢٢٤)، قواطعُ الأدلَّة (١/ ٤٩)، الإبهاج (٢/ ١٥)، (٢/ ١٩)، التَّبصرة، للشِّيرازي (ص:٢٠)، المحصول (٢/ ٥٩). والمراد بالتَّسخير هنا: «جعل الشَّيء مسخَّرًا منقادًا لما أمر الله عز وجل به، يعني أنَّ صيغة الأمر تستعمل للتَّسخير، وذلك في مقام يكون المأمور به منقادًا للأمر، والعلاقة بين الطَّلب وبينه السَّببية؛ لأنَّه إيجاب شيء لا قدرة للمخاطَب عليه بحيث يحصل بسرعة من غير توقف يتسبب عنه تسخيره لذلك، أي: جعله مسخَّرًا منقادًا لما أمر به..والفرق بينه وبين التَّكوين أنَّ التَّسخير تبديل من حالة إلى حالة أخرى أخس من الأولى، والتَّكوين الإنشاء من العدم =

التَّسخير نوع من (التَّكوين) فمعنى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾: انقلبوا إليها. وأمَّا التَّعجيز: فإلزامهم أن ينقلبوا، وهم لا يقدرون أن ينقلبوا. وقد قال ابن عطيَّة في (تفسيره): في التَّمسك بهذا نظر. وإنما التَّعجيز حيث يقتضي الأمر فعل ما لا يقدر عليه المخاطَب نحو قوله ﷻ: ﴿فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [آل عمران:١٦٨][١]. ويتبيَّن ممَّا سبق أنَّ البعض قد قال: إنَّ الآية الَّتي نحن بصدد بيانها فيها ما يدلُّ على التَّعجيز، ثمَّ عرضت قول المخالفين، ورأيتُ ترجيح قول ابن عطيَّة -رحمه الله- ومن لفَّ لفَّه؛ لوضوح ما استدلُّوا به.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨]. والجنُّ تفعل أفعالا مستغربةً كما حكى الله ﷻ عنهم في قصَّة سليمان عليه السلام، وقد أُدرجوا مع الإنس في التَّعجيز ليكون ذلك أبلغ في العجز[٢].

= إلى الوجود، ويوجد استعمال الأمر فيه، كقوله عز وجل: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧]، والتَّعبير عن الإيجاد (بكن) إيماء إلى أنَّه يكون في أسرع لحظة، وأنَّه طائع لما يراد، فكأنَّه إذا أمر ائتمر، ويحتمل بأن يكون التَّكوين أعم بأن يراد به مطلق التَّبديل من حالة لم تكن، ويراد بالتَّسخير ما تقدم». بتصرُّف عن (شروح تلخيص المفتاح) (٢/ ٣١٧).

(١) المحرَّر الوجيز (٣/ ٤٦٢)، وانظر: البحر المحيط (٦/ ٤٤)، شرح الكوكب المنير (٣/ ٢٦)، التَّحبير (٥/ ٢١٩١). وسيأتي التَّفريق بين التَّسخير والتَّكوين.

(٢) انظر: البحر المحيط (٦/ ٧٥)، وينظر: تفسير النَّيسابوري (١/ ٤)، والتَّحرير والتَّنوير (١/ ٣٣٨)، والبرهان في علوم القرآن (٢/ ١١٠).

ومن أظهر الآيات كذلك قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣][(١)].

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤][(٢)]. وإذ قد كانوا منكرين للبعث ذُيِّلت الآية بأمر التَّعجيز بالإتيان ببرهان على عدم البعث[(٣)].

ومن ذلك ما قيل في قوله عز وجل:

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص: ٤٩][(٤)]. فالأمرُ في قوله عز وجل: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟﴾ خرجَ عن حقيقته إلى معنى التَّعجيز، وهذا من أساليب القرآن الكريم البليغة أن يأمر الله عز وجل بشيءٍ وهو يعلم أنَّهم لا يستطيعون ذلك، أي: إن تأتوا به أتَّبعه، وهو مبالغةٌ في التَّعجيز[(٥)].

---

(١) ينظر في ذلك: البحر المحيط (٦/ ٣٦٠)، وينظر: التَّحرير والتَّنوير (١٧/ ٣٤١).

(٢) ونحوه: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس: ٣٤].

(٣) التَّحرير والتَّنوير (٢٠/ ١٨).

(٤) ونحوه قوله عز وجل: ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤].

(٥) ينظر روح المعاني: (٢٠/ ٩٠)، وينظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٧/ ٦٧)، (٢٨/ ٢١٦)، تفسير =

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٤-٧٥][١]. الأمرُ مستعملٌ في التَّعجيز، فهو يقتضي أنَّهم على الباطلِ فيما زعموه من الشُّركاء، ولما علموا عجزهم من إظهارِ برهانٍ لهم في جعل الشُّركاء لله ﷻ.. أيقنوا أنَّ الحقَّ مستحقٌّ لله ﷻ[٢].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ١١]. «فقوله ﷻ: ﴿فَأَرُونِى﴾ تهكُّمًا؛ لأنَّهم لا يمكن لهم أن يكافحوا الله ﷻ زيادة على كون الأمر مستعملًا في التَّعجيز، لكن التَّهكم أسبقُ للقطع بأنَّهم لا يتمكَّنون من مكافحة الله ﷻ قبل أن يقطعوا بعجزهم عن تعيين مخلوق خلقه من دون الله ﷻ قطعا نظريًا. وصوغُ أمر التَّعجيز من مادَّة الرُّؤية البصريَّة أشدُّ في التَّعجيز؛ لاقتضائها

= النَّيسابوري (١/ ٤)، البحر المحيط (٥/ ٢٠٨)، البرهان في علوم القرآن (٢/ ١١٠)، (٢/ ٢٥١).

(١) ونحوه: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢٤]، ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤].

(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٠/ ١٧٣)، أضواء البيان (٧/ ٤٠٦).

الاقتناع منهم بأن يحضروا شيئًا يدَّعون أن آلهتهم خلقته»[١]. ويتبيَّنُ أنَّ هذه الآية فيها ما يدلُّ على التَّهكمِ والتَّعجيز.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [سبأ: ٢٧][٢].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يس: ٦٦]. وهذا على سبيل التَّعجيز؛ إذ لا يمكنهم الاستباق مع طمس الأعين[٣].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات: ٢٥-٢٦]. مستعمل في التَّعجيز مع التَّنبيه على الخطأ الَّذي كانوا فيه في الحياة الدُّنيا[٤].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الصافات: ١٥٦-١٥٧][٥].

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢١/ ١٤٧)، وينظر: فتح القدير (٤/ ٣٣٥)، أضواء البيان (٧/ ٢١٣).

(٢) انظر: أضواء البيان (٣/ ٢١٦)، (٧/ ٢١٣)، التَّحرير والتَّنوير (٢٢/ ١٩٦)، (٢٦/ ٩)، تفسير ابن جزي (٣/ ١٥٠).

(٣) انظر: البحر المحيط (٧/ ٣٢٩)، روح المعاني (٢٣/ ٤٥).

(٤) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٣/ ١٠٣).

(٥) انظر: السِّراج المنير (١/ ١٠٩)، التَّحرير والتَّنوير (٢٣/ ١٨٤).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ [ص: ١٠]، «الاستفهام المقدَّر بعد ﴿أَمْ﴾ المنقطعة تهكُّميٌّ، وليس إنكاريًا؛ لأنَّ تفريع أمر التَّعجيز عليه يُعيِّن أنَّه تهكُّميٌّ. فالمعنى: إن كان لهم مُلك السَّموات والأرض وما بينهما فكان لهم شيء من ذلك فليصعدوا إن استطاعوا في أسباب السَّموات؛ ليَخبُروا حقائق الأشياء، فيتكلَّموا عن علمٍ في كُنْه الإله وصفاته، وفي إمكان البعث وعدمه، وفي صدق الرَّسول ﷺ أو ضدِّه، وليفتحوا خزائن الرَّحمة فيفيضوا منها على من يعجبهم، ويحرموا من لا يرْمقونه بعين استحسان»[1]. ويتبيَّن أنَّ هذه الآية فيها ما يدلُّ على التَّهكم والتَّعجيز.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص: ٣٣]. والكلام تمثيل لحالة غروب الشَّمس بتواري المرأة وراء الحجاب، أي: هل تستطيعون أن تردُّوا الشَّمس بعد غروبها؟[2].

ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤][3].

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢٣ / ٢١٧)، وينظر: أضواء البيان (٢ / ٢٥٨).

(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٣/٢٥٦).

(٣) وينظر في ذلك: أضواء البيان (٣/٢١٦)، (٧/٢١٣)، تفسير ابن جزي (٤/٤١)، التَّحرير والتَّنوير (٢٦/٩) .

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣-٣٤][١].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الطور: ٣٨][٢].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: ٣٣][٣].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ [الملك: ١٦]، إلى قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [الملك: ٢١]. فإنَّ الاستفهام مستعمل في التَّعجيز[٤].

ويقال ذلك في قوله ﷻ:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [القلم: ٤١]، أي: فليأتوا بشركائهم إن أمكنهم، فهو أمرٌ معناه التَّعجيز[٥].

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٢٨٤)، تفسير ابن عادل (١٨/ ١٣٨)، البحر المحيط (٥/ ٢٠٨).

(٢) وينظر في ذلك: أضواء البيان (٢/ ٢٥٨)، التَّحرير والتَّنوير (٢٧/ ٧٣)، نظم الدُّرر (٧/ ٣٠٤).

(٣) وينظر في ذلك: المحرَّر الوجيز (٥/ ٢٣٠)، تفسير الثَّعالبي (٤/ ٢٤٥).

(٤) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٩/ ٤١).

(٥) وينظر في ذلك: تفسير ابن عادل (١٨/ ١٣٨)، البحر المحيط (٥/ ٢٠٨).

من ذلك قوله ﷻ:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾ [المزمِّل: ١٧](١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦﴾ [التَّكوير: ٢٦]. «يجوز أن يكونَ الاستفهامُ مستعملًا في التَّعجيز عن طلب طريق يسلكونه إلى مقصدهم من الطَّعن في القرآن، والمعنى: أنَّه قد سُدَّت عليكم طرق بهتانكم؛ إذ اتَّضح بالحجَّة الدَّامغة بطلان ادِّعائكم أنَّ القرآن كلام مجنون أو كلام كاهن، فماذا تدعون بعد ذلك؟»(٢).

● د. التَّحضيض الَّذي يكون بمعنى التَّعجيز

فمن ذلك ما قيل في بيان قوله ﷻ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١١٨]. فإنَّ «﴿لَوْلا﴾ هنا: حرفُ تحضيضٍ قُصِدَ منه التَّعجيز والاعتذار عن عدم الإصغاء للرَّسول ﷺ استكبارًا بأن عدُّوا أنفسهم أحرياء بالرِّسالة، وسماع كلام الله ﷻ، وهذا مبالغة في الجهالة»(٣). ولكن ينبغي التَّنبه إلى أنَّ من قال بالتَّحضيض في نحو هذه الآية فإنَّ التَّحضيض فيها مستعملٌ في التَّعجيز على حسب اعتقادهم، وقصورِ فهمهم، وليس في

(١) وينظر في ذلك: التَّحرير والتَّنوير (٢٩/ ٢٧٤) .

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٣٠/ ١٦٤).

(٣) المصدر السابق (١/ ٦٨٩).

حقيقته بتعجيز..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنعام:٨][(١)]. ﴿لَوْلَا﴾ للتَّحضيض بمعنى: (هلَّا). ويقال في هذه الآية ما قيل في الآية السَّابقة من كون التَّحضيض مستعملٌ في التَّعجيز على حسب اعتقادهم[(٢)]، وليس في حقيقته بتعجيز..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ

(١) ويقال ذلك أيضًا في النَّظائر، وهي على النَّحو التَّالي: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام:٣٧]، ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ﴾ [يونس:٢٠]، ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ﴾ [هود:١٢]، ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ﴾ [الرعد:٧]، ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ﴾ [الرعد:٢٧]، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ﴾ [الكهف:١٥]، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ [طه:١٣٣]، ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان:٧]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ﴾ [الفرقان:٢١]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ﴾ [الفرقان:٣٢]، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ﴾ [القصص:٤٨]، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ﴾ [العنكبوت:٥٠]، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ﴾ [فصلت:٤٤]، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف:٣١]. وسيأتي استعراض تفسير الآيات الَّتي تدلُّ على هذا اللَّون من ألوانِ الخطاب القرآني.

(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير (١٣/ ٣٢٧)، (١٩/ ٥)، (٢٥/ ٢٣٢).

بَيِّنٍۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: ١٥]، فقوله عَجَّلَ: ﴿لَوۡلَا﴾ ، أي: هلَّا. ﴿يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾ ، أي: بحجَّة على عبادتهم الصَّنم. قيل: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ راجع إلى الآلهة، أي: هلا أقاموا بيِّنةً على الأصنام في كونها آلهة. فقولهم: ﴿لَوۡلَا﴾ تحضيضٌ بمعنى التَّعجيز، وإذا لم يمكنهم ذلك فإنَّه لا يلتفت إلى دعواهم(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله عَجَّلَ:

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان: ٧]، فقوله: ﴿لَوۡلَآ﴾ حرفُ تحضيضٍ مستعملٌ في التَّعجيز أيضًا، أي: لو أنزل إليه ملك لاتَّبعناه(٢). وهو من التَّحضيضِ المستعمل في التَّعجيز على حسب اعتقادهم، وليس في حقيقته بتعجيز..

ومن ذلك ما قيل في قوله عَجَّلَ:

﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٦-٨٧]. «﴿لَوۡلَا﴾ حرف تحْضيض مستعمل هنا في التَّعجيز؛ لأنَّ المحضوض إذا لم يفعل ما حُضَّ على فعله فقد أظهر عجزه،

---

(١) انظر: المحرَّر الوجيز (٣/ ٥٠١)، تفسير القرطبي (١٠/ ٣٦٦)، وانظر: تفسير ابن جزي (٢/ ١٨٣).

(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٧/ ١٤٣)، (٧/ ١٤٦-١٤٧)، (١٨/ ٣٢٧)، (١٩/ ٥)، المحرَّر الوجيز (٤/ ٣٢٢)، روح المعاني (١٢/ ١٩). ونحو ذلك قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله عز وجل: ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف: ٥٣].

والفعل المحضوض عليه هو ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾ ، أي: تحاولون رجوعها»[(١)].

وسيأتي بيان التحضيض مفصلًا في موضعه.

- **هـ. ما يخاطَب به المرسلونَ من أقوامهم ليس في حقيقته بتعجيز**

سبق بيان بعض النَّماذج في (التَّحضيض الَّذي يكون بمعنى التَّعجيز)، وأن منه ما لا يكون في حقيقته تعجيزًا، فمن ذلك ما يخاطَب -بفتح الطاء المهملة- به المرسلونَ من أقوامهم.

نحو قوله ﷻ:

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ [الأنعام:٨]. وتفيد الآية أنهم ما أرادوا بكلامهم إلا التَّعجيز والاستهزاء؛ ولذلك أعقبه بقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [الأنعام: ١٠] الآية[(٢)]. وقد سبق بيان كون التَّحضيض مستعمل هنا في التَّعجيز على حسب اعتقادهم، وليس في حقيقته بتعجيز..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧﴾ [الأعراف:٧٧]. قالوا مخاطِبين له ﷻ بطريق التَّعجيز والإفحام على زعمهم الفاسد: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب، وأطلق للعلم به.﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ فإنَّ كونك منهم

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢٧/ ٣٤٣).

(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٧/ ١٤٣)، (٧/ ١٤٦)، (٧/ ١٤٧)، وانظر: البحر المحيط (٧/ ١٥٢)، روح المعاني (١٢/ ١٩).

يقتضي صدق ما تقول من الوعد والوعيد[١]. والتَّعجيز هنا على حسب اعتقادهم وزعمهم، وليس في حقيقته بتعجيز..

ونحو ذلك قول فرعون لموسى عليه السلام:

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأعراف:١٠٦]. يحتمل أن يكون على سبيل التعجيز لما تقرر في ذهن فرعون أن موسى -عليه السلام- لا يقدر على الإتيان ببينة. والمعنى: إن كنت جئت بآية من ربك فاحضرها عندي، لتصح دعواك، ويثبت صدقك[٢]. ويقال فيه ما قيل في سابقه..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢] فهو استعجال على جهة التَّعجيز والتَّكذيب والاستهزاء بالعذاب الذي كان يتوعدهم به الرَّسول ﷺ[٣].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود:١٢]، أي: مال كثير. وعبروا بالإنزال دون الإعطاء؛ لأنَّ

---

(١) انظر: روح المعاني (٨/ ١٦٥)، المحرَّر الوجيز (٤/ ٣٢٣)، تفسير أبي السُّعود (٣/ ٢٤٣).
(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٣٥٧)، وانظر: الكشاف (٢/ ١٠١)، ابن عادل (٩/ ٢٤٩).
(٣) انظر: البحر المحيط (٧/ ١٥٢).

مرادهم التَّعجيز بكون ذلك على خلاف العادة؛ لأنَّ الكنوز إنما تكون في الأرض ولا تنزل من السَّماء...[١]. وقولهم: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ ، أي: يصدقه لنصدقه؛ لأنَّ مرادهم التَّعجيز، وأنَّهم التمسوا أن ينزل عليه من السَّماء كنز على خلاف العادة، فإنَّ الكنوز إنما تكون في الأرض. وطلبهم آية تضطر إلى الإيمان، والله ﷻ لم يبعث الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- بآيات اضطرار، إنما بعثهم بآيات النَّظر والاستدلال، ولم يجعل آية الاضطرار إلا للأمَّة التي أراد تعذيبها لكفرها بعد آية الاستدلال، كالنَّاقة لثمود[٢]. ويقال في هذه الآية ما قيل في الآية السَّابقة من كون التَّعجيز هنا على حسب اعتقادهم وزعمهم، وليس في حقيقته بتعجيز..

وكما في قولهم للرُّسل:

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠].

فقيل: إنَّهم استعبدوا إرسال البشر فأرادوا حجَّة عليه، وقيل: بل إنَّهم اعتقدوا محاليته، وذهبوا مذهب البراهمة[٣]، وطلبوا الحجَّة على جهة التَّعجيز، أي: بعثكم محال، وإلا فأتوا بسلطان مبين، أي: إنَّكم

---

(١) انظر: روح المعاني (١٢/ ١٩).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٠٨)، روح المعاني (١٢/ ١٩).

(٣) البراهمة: هم المنتسبون إلى رجل مهم يقال له: (براهم)، أو (برهام) من ملوك (الفرس)، يقرُّون بالله عز وجل، ويجحدون الرُّسل..وهم فرق مختلفة. انظر: الملل والنِّحل، للشهرستاني (٢/ ٥٧)، (٢/ ٢٤٩)، وانظر: التَّبصير في الدِّين، للإسفراييني (ص: ٧٢).

لا تفعلون ذلك أبدًا. وهو خلاف الظَّاهر، وهذا الطَّلب كان بعد إتيانه ﷻ لهم من الآيات الظَّاهرة والبيِّنات الباهرة ما تخرُّ له الجبال الصمُّ، أَقْدَمهم عليه العناد والمكابرة(١).

ومن ذلك الآيات من (سورة الإسراء) من قوله ﷻ:

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾ [الإسراء: ٩٠]، إلى قوله ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤﴾ [الإسراء: ٩٤]. ويقال في هذه الآيات ما قيل في الآيات السَّابقة.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾ [الأنبياء: ٥]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء: ٧](٢). «جواب لما زعموه من أنَّ الرَّسول لا يكون إلا ملكًا المشار إليه بقولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ﴾ [الأنبياء: ٣] الَّذي بنوا عليه ما بنوا، فهو متعلِّق بذلك، وقدم عليه جواب قولهم: ﴿شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا﴾ ؛ لأنهم قالوا ذلك بطريق التَّعجيز»(٣).

---

(١) المحرَّر الوجيز (٣/٣٢٨)، وروح المعاني (١٣/١٩٨)، أضواء البيان (٢/٢٥٨).

(٢) ونحوه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النَّحل: ٤٣] .

(٣) روح المعاني (١٧/١٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾ [الفرقان: ٧-٨][(١)]. ويقال في هاتين الآيتين ما قيل في الآيات السَّابقة.

- **و. ما يدلُّ بمادَّته على التَّعجيز**

وممَّا يدلُّ بمادَّته على التَّعجيز قوله ﷻ:

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١﴾ [الحج: ٥١][(٢)]. فقوله ﷻ: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ حال معناه: سعوا فيها وهم يريدون التَّعجيز، وبالسَّعي في التَّقرير والتَّبليغ لا يكون السَّاعي معاجزًا؛ لأنَّ القرآن وآيات الله ﷻ معجزة في نفسها لا حاجة لها إلى أحد، وأمَّا المكذِّب فهو آت بإخفاء آيات بيِّنات، فيحتاج إلى السَّعي العظيم، والجدِّ البليغ ليروج كذبه لعلَّه يعجز المتمسك به. وقيل: بأنَّ المراد من قوله ﷻ: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾، أي: ظانِّين أنهم يفوتون الله ﷻ، وعلى هذا يكون كون السَّاعي ساعيًا بالباطل في غاية الظُّهور[(٣)].

---

(١) وينظر في ذلك: التَّحرير والتَّنوير (٧/ ١٤٣)، (٧/ ١٤٦)، (٧/ ١٤٧).

(٢) ونحوه قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾ [سبأ: ٥]، ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝٣٨﴾ [سبأ: ٣٨].

(٣) انظر: تفسير الرَّازي (٢٣/ ٤٧)، تفسير السَّمعاني (٣/ ٤٤٦)، الهداية إلى بلوغ النِّهاية (٩/ ٥٩٣٢).

وقد يقصد من التَّعجيز تضعيف الرَّأي، فممَّا يدلُّ على ذلك بمادَّته قوله عز وجل:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف: ٩٤] وهو راجع إلى التَّعجيز وتضعيف الرَّأي، يقال: (فنَّده تفنيدًا) إذا أعجزه[١].

● **ز. خاتمة في إبراز أهم النَّتائج**

يتبيَّن ممَّا سبق أنَّ أسلوب التَّعجيز: في حقيقته يدلُّ على صدق مبلِّغ الخطاب، وإثبات أنَّ ما جاء به الرُّسل حقٌّ وصدقٌ ووحيٌ من عند الله عز وجل. ففي التَّعجيز ما يدلُّ على إحكام آياتِ القرآن الكريم حيثُ أَعجَزَ الإنسَ والجنَّ عن الإتيانِ بمثله..وتحدَّاهم مع قيام الدَّافع، وانتفاء المانع..

ويتبيَّن من تحديد المصطلحات حقيقة التَّعجيز، حيث ميَّزت الآيات القرآنيَّة بين هذه الحقيقة وبين من لم يفهم حقيقة (خطاب التَّعجيز).. فإنَّ بعض ما خوطب به المرسلون -عليهم الصَّلاة والسَّلام- فيه الخروج عن هذه الحقيقة مكابرةً وعنادًا، أو بسبب الاعتقاد الفاسد..

* * *

(١) انظر التَّفصيل في (تفسير القرطبي) (٩/ ٢٦٠)، معاني القرآن للنَّحاس (٣/ ٤٥٧)، فتح القدير (٣/ ٥٣).

المطلب الثَّاني: خطاب التَّكذيب

وهو المطلبُ الَّذي يعزِّز ثقة المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- بالخطاب كالمطلب الَّذي يتعلَّق بتعجيز المخاطَب -بفتح الطاء المهملة-، وقد سبق بيان ذلك، إلا أنَّ النَّظرَ هنا ينصبُّ على دحضِ تكذيب المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- للخطاب، وإقامةِ الحجَّة عليه.

- **أ. بيان مادَّة: (كذب)**

قال ابن فارس: «(كذب) الكاف والذَّال والباء أصلٌ صحيح يدلُّ على خلاف الصِّدق. وتلخيصه أنَّه لا يبلُغ نهايةَ الكلامِ في الصِّدق. من ذلك (الكَذِب) خِلاف الصِّدق. كَذَب كَذِبًا. و(كذَّبت فلانًا): نسبته إلى الكذب، و(أكذبتُه): وجدتُه كاذبًا. و(رجل كَذّابٌ وكُذَبَةٌ). ثم يقال: (حَمَلَ فلانٌ ثم كَذَبَ وكذّب)، أي: لم يصدُق في الحَمْلة»[1]. وقال الخليل: «مستعمل فقط (كذب الكِذابُ) لغة في الكَذِب. ويقرأ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ۝٣٥﴾ [النبأ: ٣٥] بالتَّخفيف[2]، و(الكِذّابُ)، بالتَّشديد لغة. تقول: (كَذِبَك كَذِبًا)، أي: لم يصدقك، فهو كاذب، وكذوب، أي: كثير الكَذِب. و(كذَّبته): جعلته كاذبًا. و(الكَذّابةُ):

(١) مقاييسُ اللُّغة، باب الكاف والذَّال وما يثلثهما، مادَّة: (كذب) (٥/ ١٦٧).

(٢) قرأ الكسائيُّ بفتح الذَّال خفيفة، وقرأ الباقون ﴿كِذَّابًا﴾ مشدَّدة. انظر: السَّبعة في القراءات (ص: ٦٦٩)، وانظر: الحجَّة (ص: ٣٦١)، إبراز المعاني (٢/ ٧١٨).

وجدته كاذبًا. وقوله ﷻ: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾﴾، أي: تكذيبًا..»[1].

وحقيقة (خطاب التَّكذيب) أنَّه لإقامة الحجَّة على الخصم، حيث يكون المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- هو الله ﷻ، أو أحد الرُّسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام- أو من سار على دربهم، واقتدى بهم، واقتفى أثرهم في الدَّعوة إلى الله ﷻ. ولا بدَّ من بيان أنَّ تكذيب ما جاء به الرُّسل ـعليهم الصَّلاة والسَّلامـ لا يقوم على حجَّة، وإنما لاعتبارات كثيرة منها: العناد والتَّكبر والاستعلاء أو الخوف على فقد الزَّعامة والجاه ونحو ذلك...إلخ.

- **ب. خطاب من كذّب**

وهو أقسام، فمن ذلك:

١ - ما يكون الغرض منه تكذيب المخاطَب -بفتح الطاء المهملة-:

فمن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وقوله ﷻ:

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ

---

(١) العين، مادَّة: (كذب) (٥/ ٣٤٧).

﴿ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣].

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص: ٤٩].

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

٢ - ما يفهمُ من دلالة الكلام:

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وإنما قدَّم وصف النَّذير على وصف البشير هنا؛ لأنَّ المقام خطاب المكذبين المشركين، فالنَّذارة أعلق بهم من البشارة[١].

٣ - ما يدلُّ بصريح مادَّته:

فمن ذلك قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٥].

وقوله عز وجل: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان: ٧٧]. وفي (البحر): «خطاب لكفَّار قريش القائلين نسجد لما تأمرنا، أي: لا يحفل بكم ربي لولا تضرُّعكم إليه واستغاثتكم إيَّاه في الشَّدائد. ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بما جاء به الرَّسول ﷺ فتستحقُّون العقاب»[٢].

(١) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٩/ ٢٠٩).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٤٧٤).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت: ١٨].

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سبأ: ٤٢].

﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس: ١٥].

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الصافات: ٢١].

﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطور: ١٤].

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [النجم: ٥٥]. أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّك تَشُكُّ، والمخاطَبةُ للإنسان المكذِّب، و(الآلاء): النِّعم(١).

ونحو ذلك من الآيات، وهي واضحة الدِّلالة على المراد.

و(**مادَّة (كذب) في القرآن الكريم**) على النحو التالي:

﴿يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]، ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧]، ﴿فَكَذَبَتْ﴾ [يوسف: ٢٧]، ﴿كَذَّبُوا۟﴾ [آل عمران: ١١]، ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، ﴿كُذِّبَ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، ﴿كَذَّبُوكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، ﴿كَذَّبَ﴾ [الأنعام: ٢١]، ﴿كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١]، ﴿نُكَذِّبَ﴾ [الأنعام: ٢٧]،

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٧/ ١٢١)، النُّكت والعيون (٥/ ٤٠٦)، تفسير ابن جزي (٤/ ٧٩)، ابن عادل (١٨/ ٢٢٢).

﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، ﴿كُذِّبَتْ﴾ [الأنعام: ٣٤]، ﴿كُذِّبُوا۟﴾ [الأنعام: ٣٤]، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ [الأعراف: ٦٤]، ﴿كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، ﴿مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، ﴿كَٰذِبٌ﴾ [هود: ٩٣]، ﴿كُذِّبُوا۟﴾ [يوسف: ١١٠]، ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ [الحج: ٤٢]، ﴿كَذَّبَتْ﴾ [الحج: ٤٢]، ﴿كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦]، ﴿كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ [المؤمنون: ٤٨]، ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، ﴿كَذَّبُوكُم﴾ [الفرقان: ١٩]، ﴿كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣]، ﴿يُكَذِّبُ﴾ [النمل: ٨٣]، ﴿تُكَذِّبُوا۟﴾ [العنكبوت: ١٨]، ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، ﴿كَذَّبَ﴾ [الزمر: ٣٢]، ﴿فَكَذَّبْتَ﴾ [الزمر: ٥٩]، ﴿كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٢٨]، ﴿كَذِبُهُۥ﴾ [غافر: ٢٨]، ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]، ﴿كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٢]، ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٥١]، ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٩]، ﴿كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٢٨]، ﴿تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: ١٩]، ﴿يُكَذِّبُكَ﴾ [التين: ٧].

٤ - ما كان من الخطاب القرآني وصفًا لحال المكذِّبين، وبيانًا لعاقبتهم:

فمن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ

عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١].

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧].

ومن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ٤-١١]. فقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ مردود على كلام محذوف، كأنَّه قيل: إن كانوا معرضين عن الآيات. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ بما هو أعظم آية وأكبرها، وهو الحقُّ لما جاءهم، يعني: القرآن الَّذي تحدُّوا به على تبالغهم في الفصاحة فعجزوا عنه[1].

ومن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ

(١) انظر: الكشاف (٢/ ٥)، البحر المحيط (٤/ ٧٩)، ابن عادل (٨/ ٢٧)، النَّسفي (٢/ ٥).

وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: ٣٤-٣٥].

ومن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [الأنعام: ٣٩].

ومن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنعام: ٦٦].

ومن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس: ٣٩].

ومن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

ومن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء: ٤٩-٥١]. فقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ

رُءُوسَهُمْ﴾، يعني: يحرِّكونها على سبيل التَّكذيب والاستبعاد[1].

﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحج: ٤٤].

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان: ١١].

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان: ١٩].

﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾[السجدة: ٢٠].

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ [سبأ: ٤٥].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزمر: ٣٢].

ومن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: ٢٥].

ومن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٧-٥٩]. أي: مراء..قال

(١) انظر: تفسير الرَّازي (٢٠/ ٢٢٦)، البحر المحيط (٦/ ٤٥)، تفسير ابن جزي (٢/ ١٧٣)، زاد المسير (٥/ ٤٥)، الوجيز، للواحدي (ص: ٦٣٧).

الحافظ ابن كثير: «ثمَّ هي خطاب لقريش، وهم إنَّما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح عليه السلام حتَّى يوردوه، فتعيَّن أنَّ مقالتهم إنما كانت جدلًا منهم، ليسوا يعتقدون صحَّتها»(١).

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [ق: ٥].

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٤].

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الانشقاق: ٢٠-٢٤].

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٩-١٠].

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٤﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العلق: ١٣-١٨].

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾﴾ [الماعون: ١].

وما كان بصيغة: ﴿كَذَّبُوا﴾ ينظر فيه الآيات التَّالية: [آل عمران: ١١]، [المائدة: ٧٠]، [الأنعام: ٥-٢٤-٣١-٣٤-٣٩-٥٠]، [الأعـراف: ٤٠-٦٤-٧٢-٩٢-٩٦-١٠١-١٣٦-١٤٦-١٤٧-١٧٦-١٧٧-١٨٢]، [الأنفال: ٥٤]، [التَّوبة: ٩٠]، [يونس: ٣٩-٤٥-٧٣-

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٣٣).

٧٤-٩٥]، [هود:٨١]، [الأنبياء:٧٧]، [الفرقان:١١-٣٦-٣٧]، [الشُّعراء:٦]، [الرُّوم:١٠]، [الزُّمر:٦٠]، [غافر:٧٠]، [ق:٥]، [القمر:٤٢]، [الجمعة:٥].

٥ - ما كان من خطاب المكذبين أنفسهم:

وهو كثيرٌ جدًّا، وأكتفي بالإحالة إلى الأمثلة السَّابقة الَّتي تدلُّ على ذلك في (خطاب التَّكذيب) وفي (خطاب التَّعجيز).

• ج. خاتمة في إبراز أهم النَّتائج

يقال فيه ما قيل في (خطاب التَّعجيز) من الدِّلالة على صدق مبلِّغ الخطاب، وإثبات أنَّ ما جاء به الرُّسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام- حقٌّ وصدقٌ ووحيٌ من عند الله ﷻ. والدِّلالة على إحكام آيات القرآن الكريم. كما أنَّه يُعَزِّزُ ثقةَ المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- بالخطاب من خلال إقامةِ الحُجَّة، ودحضِ شُبَهِ المكذِّبين، مع بيان أنَّ تكذيب ما جاء به الرُّسلُ لا يقومُ على حُجَّةٍ، وإنَّما له اعتباراتٌ أخرى. . .وأن الباحث عن الحقيقة بموضوعية وتحرر لا بد أن يبصر الحق.

❊ ❊ ❊

المبحث الثَّامن

خطاب التَّكليف

● **أ .مكانة العقل في الخطاب...**

وقد جعلتُ هذا المبحث متأخِّرًا عن سابقه؛ لأنَّ فيه من المقاصد والنَّتائج والأثر ما يجعله حَرِيًّا بأن يكون متأخِّرًا؛ ولأنَّ التَّكليفَ فرعُ الاعتقاد..

ولا بدَّ أوَّلًا من الإشارة إلى أنَّه لا يكاد يخلو كتابٌ من كُتبِ الأصول من بيان ما يتعلَّق بخطاب التَّكليف؛ ولذلك فإنِّي هنا لا أعرض ما نقله الأصوليُّون في كتبهم بالتَّفصيل المذكور في كتبهم، ولكنِّي أهتمُّ بإيجاز بعض المسائل المهمَّة في هذا الباب من حيثُ صلتُها بموضوع البحث؛ لأنَّ الخطاب موجَّه إلى المخاطَبين المكلَّفين الَّذين يعقلونه.

وقد سبق تعريف المخاطَب المكلَّف في (التَّمهيد)، كما سبق بيانُ معنى: تعلُّق الخطاب بفعل المكلَّف.

ولقد جعلَ الإسلامُ العقلَ مناطَ التَّكليف، وجعل المنـزَّل من الخطاب لقوم يعقلونه، فقد قال الحقُّ عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ

وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٢]، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، و[النحل: ١٢]، و[الروم: ٢٤]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٥]، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨] إلى غير ذلك من الآيات.

ولقد جاءَ الخطابُ القرآنيُّ موجَّهًا إلى العقل، ونَهَجَ في ذلك منهجًا أساسه وقوامه النَّظرُ العقليُّ والتَّفكير، وذلك أنَّ طبيعةَ الإسلام كانت أوَّل العواملِ الدَّاعية إلى إعمال العقل؛ فهو عامٌّ وشاملٌ لكلِّ زمانٍ ومكان، وقد خَتَمَ الرِّسالاتِ السَّماويَّة، ونَسَخَ الشَّرائعَ السَّابقة، ولا يخفى على متأمِّلٍ في نصوصِ الخطاب القرآنيِّ أنَّ هذه النُّصوص يتنوَّعُ أسلوب عرضها؛ ليتلاءمَ مع العقولِ البشريَّة المتفاوتة.

وقد كانتْ الشَّرائعُ السَّماويَّة قبل الإسلام محليّةً ومرحليّةً، فعندما يتطوَّرُ الواقعُ فَتُنْسَخُ شريعةٌ يأتي رسولٌ جديدٌ بشريعةٍ جديدة، لكن أَمَا

وقَدْ بَلَغَتْ الإنسانيَّةُ سنَّ الرُّشد، وشاء اللهُ ﷻ خَتْمَ رسالاتِ السَّماء جاءت الشَّريعةُ المحمديَّة لتقفَ عند الثَّوابتِ والأُطُر، وتترك التَّجديد ومواكبةَ العصور:

١- للفقه الإسلاميِّ الَّذي هو (علم الفروع)، فلذلك جاءت النصوص مَرِنةً بما يتلاءم مع المستَجدِّ من الوقائع والأحداث.

٢- وللإعجازِ بألوانه وجوانبه المتعدِّدة والمتجدِّدة.

- **ب. نصيب الفرد من الخطاب التَّكليفي**

يتحدَّدُ نصيب الفرد من الخطاب التَّكليفي على ضوء إمكانياته ووسعه، ولا يؤاخذ إلا إذا اقترف الإثم مختارًا مكلَّفًا..

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦]، ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥]، ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٨]، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ [التغابن: ١٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ

نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

قال في (المراقي):

(ولا يكلِّف بغير الفعلِ باعثُ الانْبِيَا وربُّ الفَضْلِ)(١).

والمعنى أنَّ الله ﷻ لا يكَلِّفُ أحدًا إلا بالفعل الَّذي يطيقه بناءً على امتناع التَّكليف بالمحال؛ ولأنَّ غير الفعلِ غيرُ مقدورٍ للمكلَّف -وقد سبقَ بيان الآيات الَّتي تدلُّ على ذلك-.

«وأمَّا التَّكليف بإذعان النَّفس وانقيادها وتصديقها بالعقائد والتَّكليف بالنَّدم على الذَّنب فهو في الحقيقة تكليف بالأسباب المؤديَّة إلى ذلك، لا بمجرَّد الانفعال من إذعان في الأوَّل، وندمٍ في الثَّاني.

والفعل يشمل أربعة أشياء: الفعل، والقول، والعزم المصمّم؛ لأنَّه فعلُ القلب، والتَّرك.

أمَّا الفعل الظَّاهر كالسَّرقة والزِّنا فلا إشكال في تسميته فعلًا، وأمَّا القصد المصمم فالدَّليل فعلًا قوله ﷻ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وقوله ﷺ: «**إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ. قِيلَ: فَهَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قال: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا**(٢) **عَلَى قَتْلِ**

---

(١) مراقي السُّعود، رقم [١٠٦]، (ص:١٩)، نثر الورود (١/ ٧٧)، نشر البنود (١/ ٦٨).

(٢) قوله ﷺ: «إنَّه كان حريصًا» أي: عازما على قتل صاحبه، وهذا يدلُّ على أنَّ العزم يؤاخذ به، وهو لا ينافي قوله ﷺ فيما رواه أبو هريرة ﷺ: «وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ». أخرجه مسلم [١٨٦]؛ لأنَّ الهمَّ دون العزم، ويدلُّ على ذلك العزم حمله لآلة القتل لا لشيء إلا لقتل صاحبه.

صَاحِبِهِ»(١).

وأمَّا التَّرك فالدَّليل على أنَّه فعلٌ قوله ﷻ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝٦٣﴾ [المائدة: ٦٣]، فسمَّى تركهم للأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر: صنعًا.

ويدلُّ على أنَّ الكفَّ فِعْلٌ، وعلى أنَّ التَّرك عملٌ قولُ الرَّاجز:

(لئن قَعَدْنا والنَّبيُّ يَعْمَلُ ... لَذاك منَّا العملُ المضلَّلُ)(٢).

إلى غير ذلك من الأمثلة(٣).

أمَّا التَّكليف بالمحال -ومنهم من يعبِّر عنه بالتَّكليف بما ليس بمقدور، ومنهم من يعبِّر بالتَّكليف بما لا يطاق- فإنَّ محلَّ النِّزاع فيه إنَّما يرجع إلى الجواز العقلي، بمعنى هل يجيز العقل ذلك أو لا يجيزه؟ أمَّا وقوعه بالفعل فإنَّهم مجمعون على عدمه(٤).

---

(١) الحديث أخرجه البخاريُّ عن أبي بكرة رضي الله عنه، [٣٠]، ومسلم عن أبي بكرة رضي الله عنه أيضًا، [٥١٣٩].

(٢) ينسبُ ذلك إلى قائلٍ من المسلمين أثناءَ بناء مسجد (المدينة) حيثُ عَمِلَ فيه رسول الله ﷺ؛ ليرغِّبَ المسلمين في العمل فيه، فعمل فيه المهاجرونَ والأنصار ودأبوا فيه فقال قائل من المسلمين:

(لئن قعدنا والنَّبيُّ يعمل ... لذاك منَّا العمل المضلل).

انظر: الاكتفاءُ بما تضمَّنه من مغازي رسول الله والثَّلاثة الخلفاء (١/ ٢٧٣)، الرَّوض الأنف (٢/ ٣٣٦)، السِّيرة الحلبيَّة (٢/ ٢٦١)، السِّيرة النَّبويّة، لابن كثير (٢/ ٣٠٦).

(٣) انظر: نثر الورود (١/ ٧٧-٧٩)، نشر البنود (١/ ٦٨-٦٩).

(٤) وقد بسط العلماء ذلك في كتبهم. انظر: على سبيل المثال: أضواء البيان (٥/ ٥٢٢-٥٢٥)، التَّحرير والتَّنوير (١/ ٢٥٢)، (١/ ٥٦٧)، (٣/ ١٣٥). وانظر من كتب الأصول على سبيل المثال: التَّحبير شرح التَّحرير (٣/ ١١٣١)، التَّقرير والتَّحرير (٢/ ١١١-١١٢)، (٢/ ١٨٦)، التَّمهيد في تخريج الفروع على الأصول، للإسنويِّ (ص: ١١٢، ١١٨)، شرح التَّلويح على التَّوضيح (١/ ٣٦٧) =

• ج. خطاب التَّكليف وخطاب الوضع

ينقسمُ خطابُ الشَّرع إلى قسمين: (خطاب التَّكليف)، و(خطاب الوضع)[1].

فـ(**خطاب التَّكليف**) هو: الَّذي فيه الأمر والنَّهي بالتَّشريع أو التَّحريم.

و(**خطاب الوضع**) هو: العلامة أو الشَّرط أو المانع المتعلِّق بهذا العمل الَّذي كُلِّف به المسلم.

فقوله ﷻ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣]، فهذا خطاب تكليف، كلِّف فيه المسلم أن يقيم الصَّلاة، وأن يؤتي الزَّكاة، وقوله ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٣] خطاب تكليف، كلِّف فيه المسلم بالصَّوم.

ولكن تحديد متى نصوم؟ ومتى نصلي؟ يجيء بيانه بخطاب الوضع، فقال ﷻ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]، فعين لنا زمن الصَّوم الَّذي فرض علينا، وكذلك قال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء:٧٨]، فهذا خطاب وضع من جهة بيان وقت الصَّلاة، فنصلي لدلوك الشَّمس، وهو

---

(١) انظر على سبيل المثال: البحر المحيط في أصول الفقه (١/ ١٠٠)، وانظر: تعريف (خطاب التَّكليف) في (البحر المحيط في أصول الفقه) (١/ ١٣٩)، و(خطاب الوضع) (١/ ٢٤٥)، وانظر: (خطاب الوضع) (٣/ ١٠٤٧)، وانظر: الفرق بينهما (٣/ ١٠٤٩)، وانظر: التَّقرير والتَّحرير في علم الأصول (٢/ ٢١٤)، وانظر: القواعد والفوائد الأصوليَّة، للبعلِّي (ص: ١٥).

تحرُّكها بعد الاستواء عن كبد السَّماء إلى جهة الغرب، ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ ، أي: ظلمة اللَّيل. فدلوك الشَّمس شمل الوقت المشترك لصلاتي: الظُّهر والعصر، وغسق الليل شمل الصَّلاتين المشتركتين في ذلك الوقت وهما: (المغرب والعشاء)، ثمَّ قال: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ ، وهو: مشتمل على صلاة الصُّبح، فهذا الخطاب الَّذي بين أوقات الصَّلوات يسمَّى: (خطاب وضع). والخطاب الَّذي جاء بتكليف المكلَّف بالواجب عليه في العبادات هو (خطاب تكليف)(١).

كذلك الحجُّ، قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ [آل عمران:٩٧]، فهذا خطاب تكليف، فعلى كلِّ مستطيع أن يحج، ولكن متى نحج؟ جاء (خطاب الوضع) في قوله: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ [البقرة:١٩٧]، فبيَّن لنا وقت الحجِّ، والسُّنَّة بيَّنت أنَّه من أوَّل شوال، فيجوز الإحرام في شوال، وذي القعدة، وجزء من ذي الحجَّة، وهذا ببيان النَّبي ﷺ(٢).

---

(١) انظر ذلك مفصلا في (التَّحبير) (٣/ ١٠٥٠).

(٢) جاء في (صحيح البخاري)، باب قول الله عز وجل: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة:١٩٧]، وقوله عز وجل: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة:١٨٩]، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: أشهر الحج شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجَّة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما من السُّنة أن لا يحرم بالحجِّ إلا في أشهر الحج. وكره عثمان رضي الله عنه أن يحرم من (خراسان) أو (كرمان). صحيح البخاري بتحقيق: د. البغا (٢/ ٥٦٤).

- **د. النَّتائج**

ويتبيَّن ممَّا سبق:

أ. مكانةُ العقلِ في الخطاب المنـزَّل..

ب. نصيبُ الفردِ من الخطاب. .

ج. التَّعرف على (خطاب الوضع) و(خطاب التَّكليف). ولم أُغفل بيان موقع ذلك من البحث.

❊ ❊ ❊

المبحث التَّاسع

خطاب المعدوم ومن ليس منتظمًا في سلك التَّكليف وقت الوحي والإناث والعبيد والأمم الماضية، وبيان المقصود من الخطاب الشِّفاهي

إذا كانت المباحثُ السَّابقة ينظر إليها من حيث كون الخطاب فيها موجَّهًا لغير المعدوم، فما شأن (خطاب المعدوم)؟ وما المقصود من (المعدوم) هنا؟

هذا ما أتصدَّى لبيانه في هذا المبحث.

أمَّا (خطابُ المعدوم) فيصحُّ ذلك تبعًا لموجود، كقوله ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف:٢٦]، فإنَّه خطاب لأهل ذلك الزَّمان، ولكلٍّ من بعدهم، وهو على نحو ما يجري من الوصايا في خطاب الإنسان لولده وولد ولده ما تناسلوا، بتقوى الله ﷻ، وإتيان طاعته[١].

فمن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٥١-٢٥٢)، الإتقان (٢/ ٩٣). وقد فصَّل الأصوليُّون الخلاف فيما يتعلَّق (بخطاب المعدوم)، وأحيل هنا على كلٍّ من (البحر المحيط في أصول الفقه) (١/ ٣٠٥) فما بعد، والتَّحبير شرح التَّحرير (٦/ ٢٨٢٨).

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٧].

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٤]. اختار الفرَّاء أنَّ المخاطب: هما وذرِّيتهما، وفيه (خطاب المعدوم)(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]. قيل: هذا بناء على (خطاب المعدوم)، وهل يصح أم لا؟(٢). قال ابنُ عرفة(٣): «وهنا إضمارٌ، أي: ....

(١) انظر: معاني القرآن، للفرَّاء (١/ ٣١)، وروح المعاني (١/ ٢٣٦)، (٨/ ١٠٢)، وينظر: البحر المحيط (١/ ٣٠٧).

(٢) ينظر ما قيل في ذلك في (روح المعاني) (١٤/ ١٤٣)، تفسير أبي السُّعود (٥/ ١١٥).

(٣) هو محمَّد بن محمَّد بن عرفة الورغمي التُّونسي المالكي أبو عبد الله. قال أبو حامد بن ظهيرة في (معجمه)، إمامٌ علاَّمةٌ، ولد (بتونس) سنة (ست عشرة وسبعمائة)، وقرأ بالرِّوايات على أبي عبد الله محمَّد بن حسن بن سلمة وغيره، وبرع في الأصول، والفروع، والعربيَّة، والمعاني، والبيان، والقراءات، والفرائض، والحساب. وسمع من ابن عبد السَّلام الهواري (الموطّأ)، وأخذ عنه الفقه والأصول، ومن (الوادي آشي) الصَّحيحين، وكان رأسًا في العبادة والزُّهد والورع، ملازمًا للشُّغل بالعلم. رحل إليه النَّاس وانتفعوا به، ولم يكن بالغرب من يجري مجراه في التَّحقيق، ولا من اجتمع له من العلوم ما اجتمع له. وكانت الفتوى تأتي إليه من مسافة شهر، وله مؤلَّفات مفيدة. [٨٠٣هـ]. بغيةُ الوعاة (١/ ٢٢٩)، لحظُ الألحاظ (ص: ١٢٧)، معجم المؤلِّفين (١١/ ٢٨٥).

فماتوا ثمَّ أحياهم»[١]. وقيل: عبَّر ﷻ عن المراد قبل وقوعه باسم الشَّيء؛ لأنَّ تحقق وقوعه كالوقوع بالفعل، فلا تنافي. وإطلاق الشَّيء على خصوص الموجود دون المعدوم؛ لأنَّه لما سبق في علم الله ﷻ أنَّه يوجد ذلك الشَّيء، وأنَّه يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ كان تحقُّق وقوعه بمنـزلة وقوعه؛ أو لأنَّه أطلق عليه اسم الشَّيء باعتبار وجوده المتوقَّع، كتسمية العصير: خمرًا في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف:٣٦] نظرًا إلى ما يؤول إليه في ثاني حال[٢].

وفي (التَّحرير والتَّنوير): «وشبَّه الشيء الممكن حصوله بشخص مأمور، وشبَّه انفعال الممكن لأمْرِ التَّكوين بامتثال المأمور لأمر الآمر. وكلُّ ذلك تقريب للنَّاس بما يعقلون، وليس هو خطابًا للمعدوم، ولا أنَّ للمعدوم سمعًا يعقل به الكلام فيمتثل للآمر»[٣].

وقد اتَّفقَ العلماءُ على دخول المنتظمينَ في سلك التَّكليف وقت الوحي بالخطاب الشِّفاهي، نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة:٢١] في جميع موارده على سبيل الحقيقة.

وقد اختلفوا فيمن لم يكن منتظمًا في سلك التَّكليف وقت الوحي بأن كان قاصرًا عن درجة التَّكليف؛ لصغره مثلًا، أو لم يكن موجودًا بالمرَّة بأن ولد بعد الوحي. كما اختلفوا في الإناث والعبيد والأمم

(١) تفسير ابن عرفة (٢/ ٦٩٣).

(٢) انظر: أضواء البيان (٢/ ٣٧٧)، (٣/ ٣٧٠)، (٦/ ٣٠٠)، وانظر: التَّحرير والتَّنوير (١٤/ ١٥٦).

(٣) التَّحرير والتَّنوير (١٤/ ١٥٦)، وينظر: تفسير ابن عادل (١٢/ ٥٨)، البحر المحيط (١/ ٥٣٦).

الماضية قبل رسالة الإسلام[١].

وقد بدأ الآلوسيُّ في (تفسيره)[٢] بتحقيق هذه المسالة حيث بدأ يؤسِّسُ لعموم لفظ (النَّاس)، فلا بدَّ من إثبات أنَّه في أصله عامٌّ، ولكن عند الخطاب هل يبقى على عمومه أو يخرج عن هذا العموم؟

يقول الآلوسيُّ: «والنَّاس اسم جمع على ما حقَّقه جمع[٣]، والجموع وأسماؤها المحلَّاةُ -بأل- للعموم حيث لا عهد خارجي[٤]، كما يدلُّ عليه وقوع الاستثناء[٥]، . . . .

---

(١) وقد نظرتُ في بيان ذلك أقوال المفسِّرين من المتقدِّمين والمتأخِّرين، فقد ذكر ذلك أبو السُّعود في (تفسيره) (٢/ ١٣٧)، وقد حقَّق ذلك واستوفاه في كلام مطوَّل كلٌّ من الآلوسي في (تفسيره) (١/ ١٨٣) فما بعد، والأستاذ الدُّكتور العلامة إبراهيم عبد الرَّحمن خليفة في (تفسير سورة النِّساء) من ص(١١٧) إلى (١٣٠). وقد أوجزت الأقوال في ذلك هنا...مع البيان والتَّخريج والتَّحقيق، كما أضفت فوائد استفدتها وسمعتها من العلامة أ.د إبراهيم خليفة أستاذ ورئيس قسم التفسير في جامعة الأزهر في القاهرة.

(٢) روح المعاني (١/ ١٨٣).

(٣) انظر: القواعد والفوائد الأصوليَّة، للبعليِّ (١/ ١٩٤)، التَّحبير شرح التَّحرير (٥/ ٢٣٦٢).

(٤) ينظر: البحر المحيط في أصول الفقه (٢/ ٢٥٢).

(٥) وممَّا استدلَّ به الآلوسيُّ أيضا صحَّة الاستثناء، والأصل فيه الاتِّصال، فعندما أقول مثلاً: (الطُّلاب أو الطَّلبة إلا فلانًا، أو إلا كليَّة كذا مثلاً يأتونني)...، فلولا أنَّ كلمة: (الطُّلاب) تفيد العموم ما صحَّ الاستثناء، أو يقال: لولا أنَّها شملت الطَّلبة المستَثنين ما صحَّ الاستثناء، فلو كانت الطُّلاب موضوعة للخصوص لكان ذكر (طلبة كذا) عبثًا..؛ ولذلك اشتهر بين العلماء أنَّ (الاستثناء معيار العموم)، فكلُّ ما جاز الاستثناء منه كان عامًّا، وما لا يجوز الاستثناء منه فليس بعامٍّ، ومثال ذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٢-٣]، فإنَّ الاستثناء في الآية دلَّ على أنَّ كلمة (الإنسان) عامّة، ولفظ: (الإنسان) اسم جنس محلًّى =

والأصل فيه الاتِّصال [(١)]، وهو يقتضي الدُّخول يقينًا، ولا يتصوَّر إلا بالعموم، ونحو: (ضربتُ زيدًا إلا رأسه)، و(صمتُ رمضانَ إلَّا عشره الأخير) عامٌّ تأويلًا[(٢)]، وكذا التَّأكيد بما يفيد العموم؛ إذ لو لم يكن هناك عموم كان التَّأكيد تأسيسًا[(٣)]، والاتفاق على خلافه، وشيوع

= بالألف واللَّام فيفيد العموم، ولولا الاستثناء لكان كلُّ إنسان في خسرٍ سواء كان مؤمنًا أو كافرًا..فمن قال: إن المفرد المعرف (بأل) لا يعم. يرد عليه بقوله عز وجل: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ ؛ إذ لو لم يعم كل إنسان لما استثنى منه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية.

(١) قوله: (الأصلُ في الاستثناء الاتِّصال)، فإنَّ (المتَّصل) ما كان من جنس المستثنى منه، و(المنقطع) خارج عن جنس المستثنى منه. مثال ذلك: (جاء الطُّلاب إلا المقاول فلان، أو إلا العمال..)، فهذا استثناء منقطع، فالأصل في الاستثناء الاتِّصال بحيثُ لا يُصَار إلى الانقطاع إلا إذا قامت قرينة بيِّنة تدلُّ على أننا نتحدَّث عن غير هذا الجنس، وأننا ذكرناه لفائدة معينة، كما يقال: (جاءَ القومُ إلا حمارا) وكأنِّي أقول: (حمارًا) ليس من جنس القوم، وأنا أذكره الآن لفائدة أخرى، كأنَّني أقول: لا يصح أن يغيب عن المخاطَب أن حديثي قاصر على هذا الجنس، فلا تحاول أن تلحق بهذا الجنس آخر.

(٢) أورد الآلوسيُّ اعتراضًا، وهو: كيف يقال: الاستثناء يفيد العموم؟ فكأنَّه يقول: سآتي لكم بخاصٍّ وقع فيه الاستثناء، كما يقال: (ضربت زيدا إلا رأسه)، و(صمتُ رمضان إلا يومًا). فـ (زيد) خاصٌّ، وصحَّ منه الاستثناء، و(رمضان) شهرٌ مخصوص، وقد وقع الاستثناء منه. والجوابُ أنَّه عامٌّ تأويلاً، فهو خاصٌّ من ناحية عدم شموله لغيره، لكنَّه عامٌّ باعتباره كلًّا له أجزاء، فالكلُّ أعمُّ من جزئه.

(٣) استدلَّ الآلوسيُّ أيضًا بالتَّأكيد بما يفيد العموم، كالتَّأكيد بـ:(كلّ) و(جميع)، وهما من ألفاظ العموم، فعندما يقول الله عز وجل: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ [الحجر:٣٠]، فلو لم يكن لفظُ: (الملائكة) شاملاً لكافةِ أفراد الملائكة، بل كان مخصوصًا بالبعض دون البعض، لكانت هذه الألفاظ تأسيسًا لا تأكيدًا، والاتِّفاق على خلاف ذلك، حيث إنَّ هذه الألفاظ عند العرب هي للتَّأكيد، بمعنى أنَّها تؤكِّد ما عُلم سابقًا مع رفع احتمال التَّخصيص، فعندما أقول: (جاء الطُّلابُ) يحتمل في عقل البعض أنَّ (محمَّدًا) لم يأت، =

استدلال الصَّحابة ﭫ بالعموم كما في حديث السَّقيفة[١]، وهم أئمَّة الهدى.

ثمَّ هذا الخطاب في نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يسمَّى بـ: (الخطاب الشِّفاهي) عند الأصوليين. قالوا: وليس عامًّا لمن بعد الموجودين في زمن الوحي، أو لمن بعد الحاضرين مهابط الوحي. والأوَّل هو الوجه، وإنما يثبت حكمه لهم بدليل آخر من نصٍّ أو قياس أو إجماع، وأمَّا بمجرَّد الصِّيغة فلا. وقالت الحنابلة: بل هو عامٌّ لمن بعدهم إلى يوم

= فعندما أقول: (كلُّهم) أو (أجمعون) أكون قد رفعت احتمالَ التَّخصيص. وعندما أقول: (جاءَ محمَّد نفسه) أكون قد رفعت احتمال المجاز؛ لأنَّه يحتمل في عقل البعض أنَّ الَّذي أتى رسولُهُ مثلاً. . .فلو كان لفظ: (النَّاس) خاصًّا لكانت هذه الألفاظ تأسيسًا، مع أنَّها تأكيد باتفاق. وتنظر ألفاظ العموم على سبيل المثال. .إرشاد الفحول (ص:٢١٣)، البحر المحيط في أصول الفقه (٢/ ٢٨٨-٢٩٦)، التَّلخيص، للجويني (٢/ ١٤) فما بعد.

(١) وذلك عندما احتجَّ المهاجرون به على الأنصار يوم (ثقيفة بني ساعدة) من أنَّ الإمامة في قريش، فعندما انتقل الرَّسول ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى ذهب الأنصارُ قبل المهاجرين إلى (ثقيفة بني ساعدة) ثمَّ تبعهم المهاجرون، ثمَّ اختلفوا من الإمام بعد النَّبيِّ ﷺ؟ فالأنصار يقولون: نحن أولى، والهاجرون يقولون: نحن أولى، فجاء أبو بكر الصِّديق ﭬ فذكر قولَ النَّبي ﷺ: «الأئمَّة من قريش»، و(الأئمَّة) جمع (إمام)، وقد دخلت عليها الألف واللَّام، فلو كانت (أل) إذا دخلت على الجمع لا تفيد العموم لكانت كلمة أبي بكر ﭬ غير مفيدة، وقد سمع ذلك جمع من أصحاب النَّبي ﷺ، ولم تكن القضية لتنتهي لولا دخول (أل) الَّتي تفيد العموم. وقوله ﷺ: «الأئمَّة من قريش». انظر: مسند الإمام أحمد في باقي مسند المكثرين، مسند أنس بن مالك ﭬ، رقم [١١٨٥٩]، [١٢٤٣٣]، وفي أوَّل مسند البصريين. وهو عند الحاكم بلفظ: «الأمراء من قريش» قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٤/ ٥٤٦)، وانظر: البدر المنير (٨/ ٥٣٠).

القيامة[١].

واستدلَّ الأوَّلون بأنَّا نعلم أنَّه لا يقال للمعدومين نحو: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

قال العضد[٢]: وإنكاره مكابرة، وبأنَّه امتنع خطاب الصَّبيِّ والمجنون بنحوه، وإذا لم نوجِّهه نحوهم مع وجودهم لقصورهم عن الخطاب، فالمعدوم أجدر أن يمنع؛ لأنَّ تناوله أبعد[٣]. واستدلَّ الآخرون بأنَّه لو لم يكن الرَّسول ﷺ مخاطبًا به لمن بعدهم لم يكن مرسلا إليهم، واللَّازم منتف، وبأنَّه لم يزل العلماء يحتجُّون على أهل الأعصار ممن بعد الصَّحابة بمثل ذلك، وهو إجماع على العموم لهم.

وأجيب...

أمَّا عن الأوَّل: فبأن الرِّسالة إنَّما تستدعي التَّبليغ في الجملة، وهو لا يتوقَّفُ على المشافهة، بل يكفي فيه حصوله للبعض شفاهًا، وللبعض بنصب الدَّلائل والأمارات على أنَّ حكمهم حكم الَّذين شافههم.

---

(١) انظر: التَّقرير والتَّحبير (١/ ٢٨٩)، التَّحبير شرح التَّحرير (٥/ ٢٤٩٥)، توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار (٢/ ٣٢٢).

(٢) هو (عضد الدِّين الإيجي) عبد الرَّحمن بن أحمد بن عبد الغفار، أبو الفضل، عضد الدِّين الإيجي، عالم بالأصول والمعاني والعربيَّة. من أهل (إيج) بفارس، ولِّي القضاء، وأنجب تلاميذ عظامًا. وجرت له محنة مع صاحب (كرمان)، فحبسه بالقلعة، فمات مسجونًا [٧٥٦هـ]. الأعلام (٣/ ٢٥٩)، بغية الوعاة (٢/ ٧٥).

(٣) انظر: حاشية العلامة سعد الدِّين التَّفتازاني، وحاشية السَّيد الشريف الجرجاني على شرح القاضي عضد الملة والدِّين لمختصر المنتهى للإمام ابن الحاجب المالكي مع حاشية المحقق الشَّيخ حسن الهروي على حاشية السَّيد الجرجاني (٢/ ١٥-١٦).

وأمَّا عن الثَّاني: فبأنَّه لا يتعيَّن أن يكون ذلك لتناوله لهم، بل قد يكون؛ لأنَّهم علموا أنَّ حكمه ثابت عليهم بدليل آخر قاله غير واحد.

وفي شرح العلَّامة الثَّاني للشرح العضدي[1] أنَّ القول بعموم الشِّفاهي وإنْ نسب إلى الحنابلة ليس ببعيد. وقال بعض أَجِلَّة المحققين: إنَّه المشهور حتَّى قالوا: إنَّ الحقَّ أنَّ العمومَ معلومٌ بالضَّرورة من الدِّين المحمَّدي، وهو الأقرب، وقول العضد: إنَّ إنكاره مكابرة حقٌّ لو كان الخطاب للمعدومين خاصّةً، أمَّا إذا كان للموجودين والمعدومين على طريق التَّغليب فلا، ومثله فصيحٌ شائعٌ، وكلُّ ما استدلَّ به على خلافه ضعيف. انتهى.

وإلى العمومِ ذَهَبَ كثيرٌ من الشَّافعية[2] على أنَّه عندهم عامٌّ بحقِّ لفظه ومنطوقه من غير احتياجٍ إلى دليل آخر. وقد قيل: إنَّه من قبيل الخطاب العامِّ الَّذي أجرى على غير ظاهره كما في قوله:

---

(١) يعني: سعدَ الدِّين التَّفتازاني، ويعني من (الشَّرح العضديِّ) شرحَ العلَّامة عضد الدِّين الإيجي على مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، وكلُّها مطبوعةٌ في كتاب واحد (٢/ ١٥-١٦).
والسَّعد التَّفتازاني هو مسعود بن عمر بن عبد الله التَّفتازانى، سعد الدِّين، من أئمَّة العربيّة والبيان والمنطق. فهو عالمٌ بالنَّحو والتَّصريف والمعاني والبيان والأصلين والمنطق وغيرها. شافعيٌّ، وأخذ عن القطب والعضد، وتقدَّم في الفنون، واشتهر ذكرُه، وطار صيته، وانتفع النَّاس بتصانيفه. ولد (بتفتازان) -من بلاد (خراسان)- وأقام (بسرخس)، وأبعده (تيمورلنك) إلى (سمرقند)، فتوفي فيها، ودفن في (سرخس). كانت في لسانه لكنة. [٧٩٣هـ]. الأعلام (٧/ ٢١٩)، وانظر: الشَّقائق النعمانية في علماء الدَّولة العثمانيَّة، لطاش كبرى زادة (ص: ٣٧)، بغية الوعاة (٢/ ٢٨٥).

(٢) انظر: الشَّذا الفيَّاح من علوم ابن الصَّلاح (٢/ ٤٧٦)، التَّقرير والتَّحبير (١/ ٢٨٩).

(إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكته وإن أنتَ أكرمتَ اللَّئيمَ تمرَّدا)[١].

وقد حقَّق الأستاذُ الدُّكتور إبراهيم خليفة القولَ في ذلك مبيِّنًا أنَّ قول الجمهور هو الصَّواب والمتعيِّن من كون الخطابات الشِّفاهية تشملهم حقيقةً، ولا تشملُ غيرهم إلَّا على سبيل المجاز..، وسآتي على بيان أهمِّ ما ذكره الدُّكتور إبراهيم خليفة من التَّعقيب على كلام الآلوسيِّ في كلامه الآنف الذِّكر..بإيجاز؛ وذلك لأهميَّته، وحيث لم أجد نظيرًا لما ذكره، مع الإحالة إلى (تفسير سورة النِّساء)..[٢].

يقول أستاذنا العلامة إبراهيم خليفة: «أمَّا حديث التَّغليب فإنَّه جارٍ على وفقِ دعوى الجمهور، فمن المتقرِّر لدى علماء البيان أنَّ (دلالة التَّغليب) مجاز لا حقيقة؛ فإنَّه ليس إلا (التَّجريد البياني)، وهو إمَّا راجع لعلاقة التَّقييد حسبما هو الصَّحيح المتَّجه[٣]، كما يقال: (قمران) عن الشَّمس والقمر[٤]، فنكون قد جرَّدنا القمر عن قيوده المشخِّصة له، والمميِّزة له عن كوكب الشَّمس فإطلاقه على مطلق

---

(١) روح المعاني (١/ ١٨٣-١٨٤) .ينظر: الكليَّات (ص: ٦٦١-٦٦٢) .والبيت للمتنبي. انظر: خزانة الأدب (١/ ٢٠٠)، قرى الضَّيف (١/ ٢٥١)، المستطرف (٢/ ١٧١)، تهذيب الرِّياسة (ص: ١٢٤).

(٢) تفسير سورة النِّساء، من ص(١١٧) إلى (١٣٠).

(٣) أي: بالنَّظر إلى المعنى المنتقل عنه.

(٤) انظر: شروح تلخيص المفتاح (٤/ ٣٤٨-٣٤٩)، جواهر البلاغة (ص: ٢٢٧)، ومغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب (١/ ٩٠٠)، وانظر: صبح الأعشى (٤٠٦/١٤)، مفردات غريب القرآن الكريم، للأصفهانيِّ، مادَّة: (بحر) (١/ ٧٠)، ولسان العرب، مادَّة: (بحر)، بصائر ذوي التَّمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢/ ١٣٠).

(الكوكب المنير) الشَّامل لليلي والنَّهاري، وتثنيته بهذا المعنى حتى جاز أن يشمل الشَّمس.

وإمَّا أن يكون (التَّجريد البياني) علاقة مستقلَّة من علاقات المجاز المرسل؛ فإنَّ الأمر مجاز لا حقيقة. وكذلك فيما حكاه الآلوسيُّ في قوله: إنَّه من قبيل العامِّ الَّذي أجري على غير ظاهره..إلخ؛ فإنَّ الخروج عن الظَّاهر هو الآخر من قبيل دلالة المجاز سواء أكان من باب التَّغليب كما في البيت المذكور، بأن يغلب المشافه على غيره من مطلق من تحقق فيه الأهليَّة للخطاب، أم كان من غير هذا الباب»[1] ثمَّ قال الآلوسيُّ: «وفي تناول نحو هذه الصِّيغة للعبيد شرعًا حتَّى يعمَّهم الحكم خلافٌ، فذهب الأكثرون إلى التَّناول؛ لأنَّ العبد من النَّاس مثلا فيدخل في الخطاب العامِّ له قطعًا، وكونه عبدًا لا يصلح مانعًا لذلك. وذهب البعض إلى عدم التَّناول. قالوا: لأنَّه قد ثبت بالإجماع صرفُ منافع العبد إلى سيِّده، فلو كلِّف بالخطاب لكان صرفًا لمنافعه إلى غير سيِّده، وذلك تناقض، فيتبع الإجماع، ويترك الظَّاهر. وأيضًا خرج العبد عن الخطاب بالجهاد والجمعة والعمرة والحجِّ..والتَّبرعات والأقارير ونحوها، ولو كان الخطاب متناولا له للعموم لزم التَّخصيص، والأصل عدمه.

والجواب عن الأوَّل: أنَّا لا نُسلِّم صرف منافعه إلى سيِّده عمومًا، بل قد يستثنى من ذلك وقت تضايق العبادات حتَّى لو أمره السيِّد في

(١) بتصرُّف عن (تفسير سورة النِّساء) (ص:١٢٣-١٢٤).

آخر وقت الظُّهر، ولو أطاعه لفاتته الصَّلاة، وجبت عليه الصَّلاة، وعدم صرف منفعته في ذلك الوقت إلى السيِّد. وإذا ثبت هذا فالتَّعبد بالعبادة ليس مناقضا لقولهم: بصرف المنافع للسيِّد.

وعن الثَّاني: بأنَّ خروجه بدليل اقتضى خروجه، وذلك كخروج المريض والمسافر والحائض عن العمومات الدَّالة على وجوب الصَّوم والصَّلاة والجهاد، وذلك لا يدلُّ على عدم تناولها اتفاقًا. غايته أنَّه خلافُ الأصل ارتكب لدليل وهو جائز. ثمَّ الصَّحيح أنَّ الأمم الدَّارجة قبل نزول هذا الخطاب لا حَظَّ لها فيه؛ لاختصاص الأوامر والنَّواهي بمن يتصوَّر منه الامتثال، وأنَّى لهم به؟ وهم تحت أطباق الثَّرى لا يقومون حتَّى ينفخ في الصُّور.

وجوَّز بعضُهم كون الخطاب عامًّا بحيث يندرجون فيه. ثمَّ قال: ولا يبعد أن يكون الأمر الآتي عامًّا لهم أيضا بالنِّسبة إلى الكلام القديم القائم بذاته ﷻ، وإن كان كونه عربيًّا عارضًا بالنِّسبة إلى هذه الأمّة، وفيه نظر؛ لأنَّ المنظور إليه إنَّما هو أحكام القرآن بعد النُّـزول، وإلا لكان النِّداء وجميع ما فيه من خطاب المشافهة مجازات، ولا قائل به، فتأمَّل. وعلى العلات لفظ: (النَّاس) يشمل الذُّكور والإناث بلا نزاع. وفي شمول نحو قوله ﷻ: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١] خلاف. والأكثرون على أنَّ الإناث لا يدخلنَ في مثل هذه الصِّيغة ظاهرًا خلافًا للحنابلة(١).

(١) انظر: المسودة في أصول الفقه (ص:٤١)، روضة النَّاظر (ص:٢٣٦)، وينظر: التَّقرير والتَّحبير (١/ ٢٧١)، المحصول، لابن العربي (ص:٧٨)، قواطع الأدلَّة (١/ ١١٥).

استدلَّ الأولون بأنَّه قد روى عن أم سلمة رضي الله عنها أنَّها قالت: يا رسول الله: إنَّ النِّساء قُلنَ: ما نرى الله عز وجل ذكر إلا الرِّجال فأنزل ذكرهنَّ[(١)]، فنفت ذكرهنَّ مطلقًا، ولو كنَّ داخلات لما صدق نفيهنَّ، ولم يجز تقريره -عليه الصَّلاة والسَّلام- للنَّفي، وبأنَّه قد أجمع أرباب العربيَّة على أنَّ نحو هذه الصِّيغة جمع مذكَّر، وأنَّه لتضعيف المفرد، والمفرد مذكَّر، وبأنَّ نظير هذه الصِّيغة: (المسلمون)، ولو كان مدلول (المسلمات) داخلا فيه لما حسن العطف في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] إلا باعتبار التَّأكيد، والتَّأسيس خير من التَّأكيد..

وقال الآخرون: المعروف من أهل اللِّسان تغليبهم المذكَّر على المؤنث عند اجتماعهما باتِّفاق، وأيضًا لو لم تدخل الإناث في ذلك لما شاركن في الأحكام لثبوت أكثرها بمثل هذه الصِّيغة، واللَّازم منتف بالاتفاق، كما في أحكام الصَّلاة والصِّيام والزَّكاة. وأيضًا لو أوصى لرجال ونساء بمائة درهم، ثمَّ قال: (أوصيت لهم بكذا) دخلت النِّساء بغير قرينة، وهو معنى الحقيقة، فيكون حقيقة في الرِّجال والنِّساء، ظاهرًا فيهما، وهو المطلوب. وأجيب: أمَّا عن الأوَّل فبأنَّه إنما يدلُّ

---

(١) أخرجه الإمامُ أحمد عن أم سلمة رضي الله عنها بلفظ: ....قالت: قلتُ: يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرِّجال؟...إلخ. أخرجه أحمد [٢٥٣٦٣]، [٢٥٣٨٩]، وأخرجه التِّرمذيُّ وحسَّنه عن أمِّ عمارة الأنصاريَّة أنَّها أتت النَّبي صلى الله عليه وسلم فقالت: ما أرى كلَّ شيءٍ إلا للرِّجال وما أرى النِّساء يذكرنَ بشيء؟ فنـزلت....التِّرمذي [٣١٣٥].

على أنَّ الإطلاق صحيحٌ إذا قصد الجميع، والجمهور يقولون به، لكنَّه يكون مجازًا، ولا يلزم أن يكون ظاهرًا، وفيه النِّـزاع. وأمَّا عن الثَّاني فبمنع الملازمة. نعم يلزم أن لا يشاركهن في الأحكام بمثل هذه الصِّيغة، وما المانع أن يشاركنَ بدليلٍ خارج؟ والأمر كذلك؛ ولذلك لم يدخلنَ في الجهاد والجمعة مثلا، لعدم الدَّليل الخارجي هناك. وأمَّا عن الثَّالث فبمنع المبادرة ثمة بلا قرينة، فإنَّ الوصيَّة المتقدِّمة قرينة دالَّة على الإرادة، فالحقُّ عدم دخول الإناث ظاهرًا. نعم الأولى هنا القول بدخولهن باعتبار التَّغليب، وزعم بعضهم أن لا تغليب، بل الأمر للرِّجال فقط كما يقتضيه ظاهر الصِّيغة، ودخول الإناث في الأمر بالتَّقوى للدَّليل الخارجي، ولا يخفى أنَّ هذا يستدعي تخصيص لفظ: (النَّاس) ببعض أفراده؛ لأنَّ إبقاؤه حينئذ على عمومه مما يأباه الذَّوق السَّليم»[1].

والحاصل أنَّ الخطابات الشَّرعية سواء في ذلك خطابات الكتاب والسُّنة تسمَّى في عرف الأصوليين (الخطابات الشِّفاهية) يقصدون الخطابات الَّتي شافه بها الله ﷻ، أو النَّبي ﷺ المكلَّفين.

أمَّا بالنِّسبة للمنتظمين في سلك التَّكليف وقت هذه الخطابات من الذُّكور الأحرار فإنَّ الخطاب يشمله قطعًا على سبيل الحقيقة..

---

(١) روح المعاني (٤/ ١٧٩-١٨٠). ينظر ما أورده الأستاذ الدُّكتور إبراهيم خليفة في (تفسير سورة النِّساء) من (ص: ١٢٨)، إلى (١٣٠)، وتفسير أبي السُّعود (١/ ٥٨)، وينظر: تفسير أبي السُّعود أيضًا (٢/ ١٣٨).

أمَّا غير المكلفين يومئذٍ كالصِّغار فضلًا عن الَّذين لم يوجدوا بعد، فهل هذه الخطابات تشملهم أو لا تشملهم؟

فأوَّل ما يتقرَّر في ذلك أنَّ خلاف المختلفين ليس في المطالبة بمضمون هذه الخطابات، وإنَّما الخلاف في الدِّلالة على الحكم، فمثلا قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فمن يقول: الخطابات تشمل المكلَّفين ومن سيكلف، أي: من سينتظم في سلك التَّكليف على سبيل الحقيقة، سيقولون: الخطاب للكلِّ..، وهؤلاء هم الحنابلة -كما سبق- حيث يقولون: (الخطابات الشِّفاهيَّة) تشمل من هو مكلَّف ومن ليس مكلَّفًا إلى يوم القيامة.

والجمهور قالوا: لا تشمل من لم يكن يومئذٍ مكلَّفًا على سبيل الحقيقة؛ وذلك لأنَّ معظم غير المكلَّفين يومئذٍ كانوا معدومين..فهل يصلح (خطاب المعدوم)؟

ولتوضيح ذلك يقال: لنتصوَّر أنَّ إنسانًا لم يتزوج مثلًا، فيقول -وهو يتصوَّر أنَّه سينجبُ ولدًا، ويسمِّيه محمَّدًا، ويدخله المدرسة- فوقف وقال: (يا محمَّد أقم الصَّلاة)، فلا شكَّ أنَّ ذلك عبث. فإذا تزوج فعلا وأنجب طفلا، ولا زال مثلا في الأيام الأولى من ولادته، فقال له: (أقم الصَّلاة)، أو قال له: (يا محمَّد اذهب إلى فلان وقل له كذا وكذا)، طبعًا هذا عبث أيضًا.

فإذا كان خطاب الموجودين القاصرين عن أهليَّة التَّخاطب عبثًا، فما بالكم بالمعدوم؟ ولا ينكر ذلك إلا مكابر كما ذكر العضد..

ولكن الحنابلة يقولون: هل النَّبي ﷺ مرسلٌ إلى طائفةٍ مخصوصةٍ، أم إلى جميع النَّاس إلى يوم القيامة؟ أليس النَّبي ﷺ قد أرسل للعالمين، والقرآن أنزل للنَّاس كافّةً؟

وقد ردَّ الجمهور على ذلك بأنَّا مسلِّمونَ بأنَّ النَّبي ﷺ مرسلٌ للجميع، ولكن لا نُسلِّم أنَّ الإرسال متوقِّف على (الخطابات الشِّفاهيَّة)، فإذا خَاطَبَ النَّبي ﷺ المكلَّفين، يأتي بعد ذلك المخاطَبون فيقولون لمن بعدهم: النَّبي ﷺ مرسل إلى الجميع، وقد لزمنا الخطاب لكوننا مكلَّفين، فإذا صرتم مكلَّفين، أو تحقَّقتْ فيكم شروطُ التَّكليف لزمكم الحكمُ كما لزمنا بالقياس، ويذكر في ذلك النُّصوص الدَّالة على عموم الرِّسالة.

ثمَّ اعترض الحنابلة بعد ذلك بأنَّه قد شاع الاستدلال بالعمومات(١)، فيقولون: عندما يأتي ابن عباس -رضي الله عنهما- فيقول: السَّارق تقطع يده(٢)، فيقال له: ما الدَّليل؟ فيقول: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، فلولا شمول الآية لما صحَّ الاستدلال بها.

---

(١) انظر: إرشاد الفحول (ص:٢٣٧).

(٢) أخرج ابنُ جرير وابن أبي حاتم عن نجدة الحنفيِّ قال سألتُ ابن عباس -رضي الله عنهما- عن قوله عز وجل: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ [المائدة:٣٨]، أخاصٌّ أم عامٌّ؟ فقال: بل عامٌّ. تفسير الطَّبري (٦/ ٢٢٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٦)، والدُّر المنثور (٣/ ٧٣)، تفسير القاسمي (٣/ ١١٧).

وأجيب بأنَّهم ذكروا ذلك، ولكن من أين لكم أنَّهم ذكروها على سبيل الاستدلال لا على سبيل بيان الحكم الَّذي تتضمَّنه؟ فالَّذي ألجأنا إلى ذلك الضَّرورة الَّتي لا دافع لها..

❊ ❊ ❊

المبحث العاشر

خطاب الجمادات

الإشارة هنا إلى موضعه، فحيث لم يأتِ خطاب الجمادات إلا بصيغة النِّداء، فإني أحيل إلى (الفصل الثَّالث)، حيث يأتي بيانه في (النِّداء)..

❁ ❁ ❁

